
المعارك البرية الكبرى
في التاريخ

طبعة ١٩٨٨

روبير شوسوا

المعارك البحرية الكبرى
في التاريخ

ترجمة الدكتور
عبد الرحمن حميده

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

العرب والبحر

ليس هناك من زعم أكثر مجافاة للصواب وبعدا عن المنطق من الرأي القائل بأن العرب في جاهليتهم وصدر اسلامهم كانوا يحجمون عن ركوب متن البحر، والحقيقة أن للعرب حضارة وتقاليد بحرية موروثة راقية، اكتسبها، خلال مئات السنين الخالية، عرب اليمن من حمير وسبأ وسواهم، شهدتها سواحل البحر الاحمر والبحر العربي المطل على المحيط الهندي، منذ أيام التبابعة، كما اشتهر عرب الخليج، ولا سيما سكان البحرين في الملاحة، شأن ساحل الاحساء، ولا سيما في مينائهم الشهير «الجرعاء» الذي لعب دوراً كبيراً في الألف الأول قبل الميلاد، ويؤيد ذلك قول الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم:

ملأنا البر حتى ضاق ذرعا   وظهر البحر نملؤه سفينا

ولقد تأكد بشكل جازم أن العرب المعينيين، في اليمن، كانوا يتمتعون بمكانة تجارية مرموقة في المحيط الهندي، منذ القرن العاشر قبل الميلاد وأن نفوذهم في البحار المواجهة لليمن،

كسواحل القرن الافريقي، لم يكن بأقل من نفوذ وشأن العرب الكنعانيين «الفينيقيين» في البحر الأبيض المتوسط. ويصف سترابون في كتابه «جغرافيا» بإسهاب وإعجاب مدى ما كان للعرب من سلطان في البحر العربي والمحيط الهندي وسواحل افريقية الشرقية والحبشة، حتى أن مدينة «الشحر»، على الساحل الجنوبي من جزيرة العرب، كانت ملتقى سفن الهند ومصر وفارس. ويذكر بلين، المؤرخ الروماني في القرن الأول الميلادي: «ان التبابعة، ملوك اليمن، كانوا يتصلون بشواطىء افريقية الشرقية بحراً ويبسطون أيديهم على تجارتها».

إذن فالقول بخشية العرب من ركوب البحار قبل الاسلام لا يصح الا على فئة من عرب قلب الجزيرة من الذين كان جل نشاطهم الاقتصادي منحصراً بالرعي أو بتجارة القوافل، حتى أن عرب الحجاز الذين اتخذوا البر طريقاً لتجارتهم ما كانوا يجهلون البحر.

ويؤيد ذلك ان المسلمين الأوائل قد هاجروا بإذن من الرسول العربي الكريم إلى الحبشة فراراً بدينهم واتقاء تعسف وظلم مشركي قريش، وكانت هجرتهم على دفعات متوالية في سفن تقصد الحبشة، ولولا أن أهل مكة كانوا يترددون على سواحل الحبشة في العصر الجاهلي لما فكروا بالهجرة إليها لاجئين الى النجاشي من مظالم اخوانهم في الدم.

وقد تعرضت جزيرة قبرص أكثر من مرة لغارات الأسطول الاسلامي الناشىء في عهد الخليفة الأول أبي بكر، وكانت أهمها ذلك الهجوم على ميناء كيتيون (لارنكا الحالية) في عام ٦٤٢ م وكان القصد منه الدفاع الوقائي عن الثغور الاسلامية وصد العدوان المتكرر من جانب الروم الحانقين بعد بتر شطر من أمبراطوريتهم على أيدي العرب الفاتحين.

وقد حاول معاوية بن أبي سفيان والي الشام في عهد الخلفاء الراشدين غزو جزيرة قبرص وفتحها، لأنها كانت تؤلف قاعدة بيزنطية وشوكة في خاصرة دار الخلافة، ونقطة لانطلاق اسطولهم الذي ما فتىء يداهم سواحل بلاد الشام بين الفينة والأخرى، ولهذا استأذن الخليفة أبا بكر في غزو الروم بحراً من الشام فلم يأذن له، وكرر محاولته في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فكان الجواب: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً». وبذلك لم يأذن لأحد من أمراء المسلمين بركوب البحر غازياً، حتى أنه كتب الى الوالي عمرو بن العاص: «لا تجعل بيني وبينك ماء، وانزلوا موضعاً متى أردت أن أركب راحلتي وأصير إليكم فعلت».

ولكن العلاء الحضرمي، والي عمر بن الخطاب على البحرين، أحب أن يفعل بالعجم ما فعله سعد ابن أبي وقاص في القادسية، فندب عرب الخليج الى حرب الفرس بحراً، فلبوا

النداء، وتسرعوا الى ذلك، ففرقهم أجناداً، ثم حملهم في البحر، دون اذن من عمر بن الخطاب ولا موافقته، فعبروا الخليج ونزلوا إلى البر الفارسي، وأوغلوا فيه حتى وصلوا الى اصطخر، وكانت قصبة الملك في تلك البلاد حينا من الدهر، وقاتلوا الفرس قتال المستميت، فظفروا بهم.

وكان من أهم ما حدا بالعرب الى الاهتمام بركوب متن البحر الأبيض المتوسط هو الدفاع عن بلادهم في وجه الأطماع البيزنطية والأوروبية التي لا تحد، وهذا، بالذات، ما جعل الخليفة الثالث عثمان بن عفان يسمح ببناء اسطول عربي بعد أن تعرضت مصر، بعد فتحها، لغارة بيزنطية عن طريق البحر، فاحتلوا الاسكندرية، ولم يتمكن العرب من استردادها الا بعد الكثير من الجهود والتضحيات في الأرواح.

ولما كانت الدولة البيزنطية دولة بحرية تملك أقوى اسطول في البحر الأبيض المتوسط الشرقي اقتضت الضرورة الحربية أن يكون للدولة العربية الاسلامية قوة تقف منها موقف الند للند. واستطاع أخيراً والي الشام معاوية بن أبي سفيان أن يقنع الخليفة عثمان،بعد محاولته الأولى مع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وللمرة الثانية، في أوائل عهد الخليفة عثمان بن عفان، بالفائدة التي تعود على دولته من انشاء بحرية اسلامية، فأجابه

الى طلبه، وبذلك استحالت الممانعة في ركوب البحر، في أيام عمر، الى ترحيب في أواخر أيام عثمان، وبذلك أصبح لدى الدولة العربية اسطول تتألف طواقمه من ملاحين يمنيين ومن أهل سواحل بر الشام ومصر ممن ثقفوا فن التوغل في البحر ولهم تقاليدهم في بناء السفن المختلفة الأنواع والمقاييس.

وكان معاوية أول من وضع للدولة العربية سياسة خارجية واضحة المعالم تتبناها ازاء الدولة البيزنطية، وكان مما دفعه إلى توجيه نشاطه الى هذه الدولة رغبته في دفع خطر الروم عن الدولة العربية، هذا إلى جانب تطلعاته الى بلوغ ذروة المجد عن طريق فتح القسطنطينية بعد أن فاتته فرصة إظهار شخصيته في الفتوح العربية الكبرى.

ومن ثم بدأ في غزو جزر البحر الأبيض المتوسط الخاضعة لنفوذ الروم بعد أن أصبح للدولة الاسلامية الناشئة أسطول يساند قواتها البرية فغزا جزيرة قبرص سنة ٢٨ للهجرة أو ٦٤٩ م بعد أن عهدت اليه الخلافة بمهمة فتحها، ولكن دون أن يترك حامية أو جالية عربية مستوطنة فيها لأن المعركة الحاسمة مع الأسطول البيزنطي لم يحن أوانها بعد، وأخيراً خضعت قبرص بعد حملات متواليات وفرض عليها معاهدة عام ٦٨٨ م التي قضت بأن تدفع جزية سنوية إلى الخلافة فضلا عن جزيتها التي ظلت تدفعها إلى بيزنطة.

معركة ذات السواري

لقد وقعت أول معركة بحرية هامة بتاريخ ٢٩ آب ٦٥٤ أو ٣٤هـ. في خلافة عثمان بن عفان، وهو يوم «البحرية العربية» التقليدي تخليداً لذكرى انتصارهم المظفر، بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفيها تم القضاء على أسطورة الأسطول الرومي، وقد سبق لهذا القائد القرشي فتح افريقية الشمالية الوسطى أو «ليبيا» الحالية، بعد أن سيطر على ما بين برقة وطرابلس، وقد بلغ اسطول هذا القائد في مصر مبلغا من القوة والكثرة جعله يسيطر على طرق الملاحة في البحر الأبيض المتوسط ويوقع الرهبة في نفوس الروم.

وكان أسطوله يتألف من مائتي سفينة تصدى لأسطول بيزنطي أكثر منه عدداً، بالقرب من ثغر الاسكندرية وأوقع بأسطولهم الذي كان يقوده الامبراطور قسطنطين الذي خلف هرقل. وعمد العرب إلى ربط كل سفينة عربية، بعد الالتحام، بواسطة خطاف معدني بسفينة رومية، فحولوا بذلك المعركة البحرية الى اقتحام وقتال بالسلاح الأبيض، فأبادوا الأسطول الرومي عن بكرة أبيه، كما سبق لهم أن فعلوا في معركة اليرموك البرية التي كان يقود جيوش الروم فيها ماهان الأرمني، ويذكر الطبري أن مياه البحر أصبحت مشبعة بالدماء.

واندفع بعد ذلك لمهاجمة القسطنطينية سنة ٦٧٤ م

ولكن الأسطول العربي انسحب على أثر استعمال البيزنطيين النار اليونانية ، فعقد صلح بين الفريقين . وهاجم مسلمة بن عبد الملك القسطنطينية برا ، بينما كان الأسطول العربي يغلق مدخل البوسفور وذلك في شهر ايلول ٧١٧ م، ولكن مسلمة انسحب إثر وفاة أخيه الخليفة سليمان سنة ٩٩ هـ/ ٧١٨ م.

وظلت الأساطيل العربية تتراوح بين القوة والضعف حسب قوة الدول التي نشأت بعد انفراط عقد الخلافة ، وراحت كل دويلة عربية تحارب لحسابها على انفراد . فنشأ اسطول عربي قوي أيام المماليك استطاع أن يحتل جزيرة قبرص ، لوقت ما ، وأن يرد غارات البرتغاليين عن الموانىء العربية في البحر الأحمر . هذا كما بلغ اسطول خير الدين بربروس الجزائري مبلغا من القوة جعله سيد البحر الأبيض المتوسط الغربي الى أن تم القضاء عليه في معركة ليبانت بعد أن جاء لنجدة الأسطول العثماني الذي خاض معركة ضارية ضد الأساطيل الأوروبية المتحالفة ، وقد استطاع اسطول طرابلس الغرب أن يفرض الجزية على السفن الأوروبية ، وحتى الامريكية ، التي كانت تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، مثلما فني الأسطول المصري المتحالف مع العثمانيين في معركة نافارين في أيام محمد علي باشا .

وأخيراً تم القضاء على الأسطول المغربي، الذي ظل

صامداً خلال عدة قرون في وجه البرتغاليين والأسبان، اذ لجأت فرنسا إلى بيع قطعة بالمزاد العلني، بعد أن فرضت حمايتها على المغرب الأقصى، الذي لم يعرف في تاريخه ان ذاق مرارة الحكم الاجنبي.

ولنا وطيد الأمل والرجاء أن يستعيد العرب مكانتهم البحرية وان تخفق راياتهم فوق المحيطات والبحار بفضل أساطيلهم الحربية والتجارية الناشئة كي يستردوا عزتهم التي كانت لهم، والتي لا حياة كريمة من دونها.

دمشق في ٢٥ رجب ١٤٠٤ هـ الموافق ٢٥ أيار ١٩٨٤ م

المعرب: عبد الرحمن حميدة
دكتوراه الدولة بالآداب من السوربون

تمهيد

من الطبيعي أن يبذل بنو الانسان جهوداً أكبر لضمان السيطرة على البحار من تلك التي يضطرون للقيام بها للاستيلاء على أجزاء من القارات.. ولكن ما بالك بالمحيطات؟

فالبحار تقدم طريقا رحبا خاليا من العوائق الهامة، طريقا يسمح بالتغلب على كل المصاعب، وبنقل منتجات الأرض، مهما كانت، نحو أكثر بقاع الأرض بعداً، ولكن على أن يتوفر شرط بدهي، هو أن لا تكون هناك منافسة. وعندما كانت تظهر هذه المنافسة، في الماضي، كان من الضروري القضاء عليها دونما تأخير، ولهذا كانت هناك ضرورة اقتناء اسطول حربي قدير، رغم ارتفاع كلفة ذلك، ولكن ليس هذا عبثا، وذلك لكي يقوم هذا الأسطول بحراسة الأساطيل التجارية، ولتأمين حرية التجارة. فالحربان العالميتان، بعد الاستعانة بقطع اسطول السطح،

وبالغواصات ، وبالطيران المحمول ، برهنتا ، الى أقصى حد ، على ضرورة أخرى من أجل الهيمنة على البحار لضمان الانتصار على البر : وهي ضرورة الاحتفاظ بطرق المواصلات. فلو خسر الأميرال جلليكو في عام ١٩١٦ معركة جوتلند البحرية تجاه الساحل الدانمركي ، لما أمكن تحقيق الانتصار على الجبهة الغربية ، ابتداء من دنكرك الى جبال الفوج. ولو لم يكن بالامكان ابادة اسطول الغواصات الالمانية الهائل في عام ١٩٤٣ ، لاضطر التحالف الانكليزي الامريكي للجلوس على مائدة المفاوضات مع الفوهرر .

وكانت أوائل المعارك البحرية تنشب بين أساطيل صغيرة مدفوعة بالمجداف ، وبعدئذ بواسطة الشراع. ولم يكن المدفع معروفاً بعد ، وكانت المشكلة تحسم باقتحام السفن المعادية ، وإلى احراق هياكل السفن الخشبية. وبعدئذ ظهرت على سائر المحيطات سفن عالية الجوانب كانت خواصرها مجهزة بمدافع بحرية ، والتي كانت تؤلف القوة الضاربة في ذلك العصر وتتمتع بحماية سفن أخرى أقل تسليحاً ، مثل الفرقاطات والحراقات. وكانت هذه السفن الصغيرة تستخدم في عملية الاستكشاف وكان أمراء البحر يقيمون استراتيجيتهم البحرية على أساس من المعلومات التي يجمعونها .

وكثيراً ما كانت هذه المعلومات هزيلة، متناقضة، مما يقودهم لتجشم عناء أسفار متباعدة عبر الفيافي البحرية المقفرة في أغلب الأحيان، والمؤلفة من تلك السهول السائلة وحيث تتلاعب العواصف بهذه الزوارق النحيلة. فقد ظل نلسون خلال شهور كاملة يبحث عن الأسطول الفرنسي، بقيادة فيللينوف، الى أن حصره في الطرف الأغر على الساحل الاسباني وكسب لمصلحة انكلترا تلك الحرب التي كان نابوليون يشنها، دون أمل، من أسبانيا حتى موسكو، لأنه كان يفتقر إلى القوة البحرية.

ومع تطور المدفعية، وتزايد مدى قذائفها، أصبحت السفينة الحربية بعد قليل بحاجة إلى درع. وبعد ان كان هذا التصفيح رقيقاً جداً، أصبحت الحاجة ماسة لتقويته، مما أدى إلى تخفيف سرعة السفن الحربية، بيد أن الأجهزة المحركة تحسنت أيضاً بدورها، ولم تعد الملاحة تعتمد على الشراع بل على قوة البخار، وذلك على مسافات هائلة، وبسرعة تراءت مذهلة في مطلع هذا القرن.

ذاك هو عصر الدارعات، وبعد قليل جاء دور سفن الدريدنوت وهي سفينة حربية من طراز جديد، ظهرت لأول مرة

عام ١٩٠٦ مجهزة بصواري ثلاثية القوائم وذات مدفعية كبيرة المقياس يديرها ضابط مدفعي ويوجهها اوتوماتيكيا. وسرعان ما أصبحت سفن الدريدنوت بعبع البحار، في حين كانت الطرادات الخفيفة، التي كانت تفوقها سرعة تشن حرب القرصنة وتهاجم السفن التجارية الى أن تم القضاء عليها بواسطة سفن أكثر منها قوة.

وقد حققت الملاحة التحتمائية، بدورها، خطوات جبارة بعد ظهور غواصات اوبوت الألمانية التي زرعت الذعر على الطرق البحرية.

ولقد اقتضى القضاء عليها، في الوقت الذي كانت فيه وسائل التحري عن الغواصات بدائية، اللجوء الى استخدام السفن ــ الأفخاخ. وأثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ــ ١٩١٨ دارت معركة كبيرة هي معركة جوتلند، التي أعطت الدليل القاطع على سمو التفوق البحري لدى انكلترا، والتي قررت مصير ألمانيا خلال بضع ساعات. وبعد قليل ظهرت، أوائل طائرات الاستكشاف.

ولقد كان الرادار وحاملة الطائرات، والقذيفة التحتمائية،

أهم الاكتشافات الكبرى التي كونت وسائل الحرب الجديدة فوق البحر خلال الحرب العالمية الثانية في فترة ١٩٣٩ــ ١٩٤٥. وراحت أساطيل ضخمة تمخر عباب البحار. وأصبحت البوارج الكبرى المدرعة والتي قامت بدورها الأخير، عبارة عن سفن عملاقة ترسل لمسافة ٣٠ كيلومتراً أو أكثر قذائف تزن ٩٠٠ كيلوغرام، مثلما راحت تتمتع بحماية «مظلة جوية» تتألف من الطائرات المحمولة. ولم يكن لدى ألمانيا حاملات طائرات، لهذا لم تتمكن، رغم تميز سفنها السطحية، وأهمية عدد غواصاتها، أن ترقى لمستوى الأساطيل البريطانية. أما في المحيط الباسفيكي فقد نشبت حرب حياة أو موت بين البحارة اليابانيين وبين رجال البحر الامريكان.

وعندما أخذت الصناعة الثقيلة الأمريكية تعمل بكل طاقتها تفوقت بدرجة لا تقبل الموازنة، على الصناعة اليابانية الفقيرة. وراحت الولايات المتحدة تضاعف من عدد حاملات طائراتها، وأخذت المعارك البحرية تنشب «فيما وراء الأفق» بضربات الطائرات القاذفة، وبقوة الطرابيد، التي أصبحت أكثر دقة واحكاما يوماً بعد يوم.

بدأت أجهزة الرادار تنبىء بصورة لا تقبل الشك عن اقتراب أية قوة بحرية، كما أخذت السفن المختصة تطارد الغواصات في الأعماق البحرية التي كانت تحاول أن تجد ملجأ لها في عبابها. وفي أيامنا هذه وأن كنا لا نزال في عصر حاملات الطائرات، فإن البواخر المدرعة اختفت كي تترك مكانها لسفن صغيرة سريعة قاذفة الصواريخ التي تؤمن سلامة البحار لأواخر أساطيل السطح، والمؤلفة من الطرادات النووية.

أما الغواصات فقد أصبحت هي أيضاً نووية وتسلحت بصواريخ قوية تسمح لها بإصابة أي هدف كان في أي بقعة من سطح كرتنا الأرضية بثقة تامة. وهناك العديد من الغواصات التي تستطيع أن تظل غاطسة مدة أسابيع كاملة وحتى لمدة شهور برمتها، كي تقوم بدور الديدبان في قاع المحيطات، تترصد ساهرة تنتظر فريستها، سواء من هذا الجانب أو من الجانب الآخر من الكتل المتصارعة على سيادة العالم. غير أن هناك سفن تجسس تحاول كشف سر المنشآت المعادية. وتظل الولايات المتحدة حتى هذه الساعة سيدة البحار، وقد اكتشف الاتحاد السوفييتي بعد لأي بأنه أهمل بناء حاملات الطائرات بأعداد كافية.

يسرد لنا الكاتب المتخصص بالشؤون البحرية، روبير شوسوا، باسلوبه الشيق المعهود، تفاصيل المعارك التي دارت على البحار منذ أقدم العصور حتى أواخر الحرب العالمية الثانية. ففي الطرف الأغر، وفي خلال يوم واحد بلغ عدد قتلى الأسطول الحليف الفرنسي الاسباني الألفين. وفي شهر أيار ١٩٤١ وفي خلال بضع ثوان انفجرت البارجة البريطانية هود بعد أن أصابتها مدافع البارجة الألمانية بسمارك، واختفت وجرّت معها نحو الأغوار البحرية كل طاقمها باستثناء ناج واحد.. وفي بضع دقائق وتجاه السواحل الماليزية غرقت بارجتان من أفضل قطع الأسطول البريطاني وهي «البرنس اوف ويلز» و«ريفنج» نتيجة اصابتهما بوابل من قذائف الطائرات اليابانية، وشيئاً فشيئاً ومنذ معركة ميداوي، راحت حاملات الطائرات اليابانية الضخمة تذهب في اتجاه الأعماق، وكذلك البوارج من حمولة ٦٠٠٠٠ طن، والتي كانت تخرج سراً من الترسانات اليابانية، والتي تعرضت بدورها للدمار قبل أن تتمكن من القيام بأي دور يذكر.

وسنبدأ بمعركة سالامين.

لويس غارو



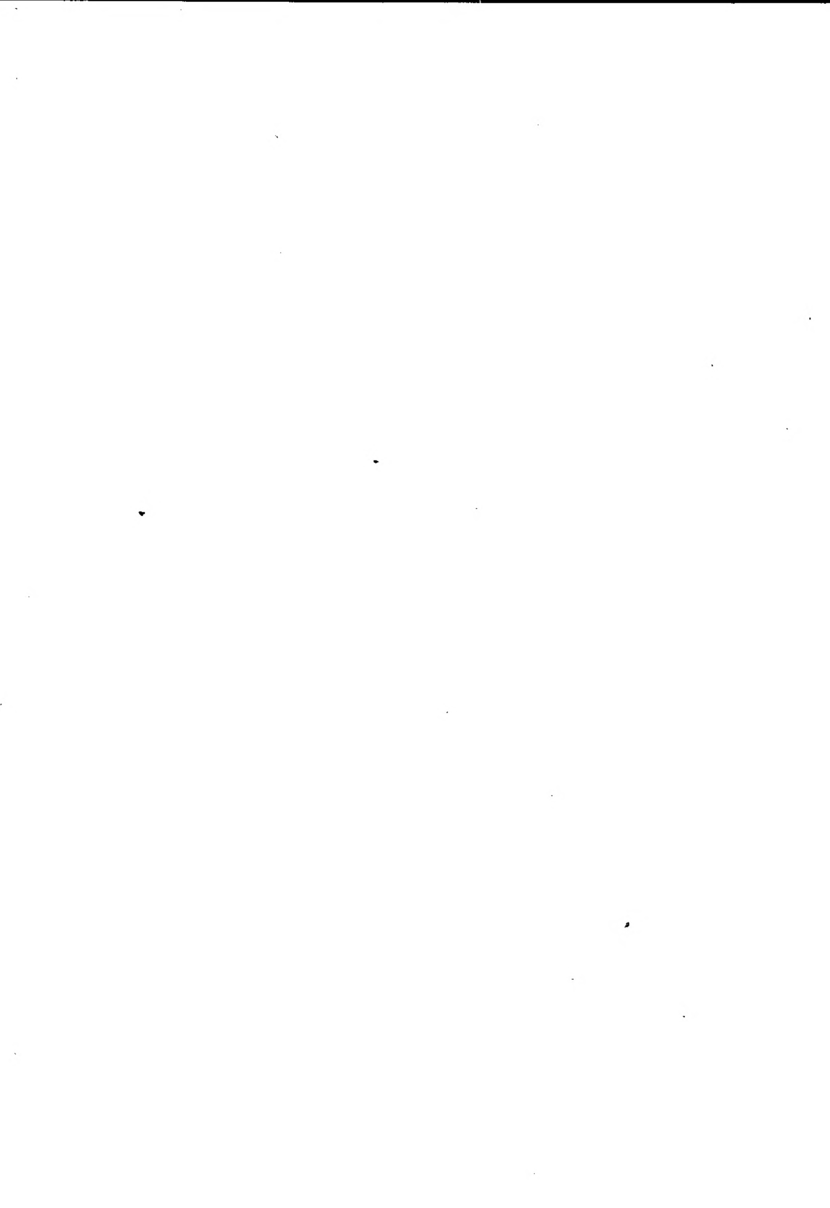
سالامين

٤٨٠ قبل الميلاد

ثيميستوقل، قائد الأسطول الاغريقي يسجل انتصاراً باهراً على اسطول كيخسرو[١]، في أول معركة بحرية كبرى في التاريخ.

---

(١) كيخسرو الأول، أو خشايرشه بالفارسية، هو ملك بلاد فارس بين عامي ٤٨٥ و٤٦٥ ق. م، وهو ابن داريوس الأول. وكان محدود الذكاء، متكبراً وضعيفاً، وبعد أن أخضع مصر المتمردة استأنف مشاريع والده في بلاد اليونان فاجتاح آتيكا ودمر أثينا، غير أنه انكسر في موقعة سالامين واضطر الى العودة الى البر الآسيوي هاربا، في حين انكسر جيشه في بلاتيه، وقد اغتيل في مدينة سوز أو الأهواز الحالية، على يد الخصي اسباميثريس، وقائد الحرس أرطبان.



لقد دفع اكتشاف عرق صخري غني بخامات الفضة، حوالي العام ٤٨٣ ق. م في اقليم لوريوم في جنوب شرق أثينا، دفع بثيميستوقل، زعيم الحزب الديموقراطي في أثينا، إلى أن يشعر أن ساعة تحقيق طموح ظل يخفيه منذ أمد طويل قد أزفت. ترى هل سينصح باقتسام هذه الموارد غير المنتظرة بين أفراد الشعب الأثيني بسخاء لتحقيق رفاه الجميع؟ لا معنى لذلك. فالمصادر المالية كانت على درجة من الوفرة لا بأس بها، وهناك عمل أكثر نفعاً من القيام بعمل انساني سرعان ما يتلاشى مفعوله. وهكذا ارتأى رجل الدولة هذا، والذي كانت أنظاره مشدودة باستمرار نحو البحر، أن الوقت قد حان لكي يجعل من بلده دولة بحرية كبرى، فقد حاول جاهداً اقناع الأثينيين بجدوى بناء أسطول بحري يستحق هذه التسمية. ولم تكن حججه تفتقر إلى الوزن، لأن انشاء هذه القوة البحرية، بادىء ذي بدء، لن يلحق الافلاس بأي مواطن اذ سيكون الانفاق على هذا المشروع من

موارد اضافية، وسيساعد هذا الأسطول، ثانياً، على ردع الإيجنتيين، وهم سكان جزيرة تقع في عرض البحر، تجاه أثينا، أو سيعمل على تحييدهم على الأقل، وهم الذين كان تطلعهم الى القرصنة مصدر قلق على المدى الطويل، وأخيراً، وعلى الخصوص، كان هناك خطر الفرس، فوجود اسطول قوي الشكيمة، يقطع الامدادات عن الجيوش المعادية في حالة اجتياح بلاد الاغريق، يعرض هؤلاء الغزاة للمجاعة وبالتالي إلى البحث عن سلامتهم في انسحاب سريع.

والواقع لقد كان الفرس مصدر قلق الاثينيين ومخاوفهم. ففي عام ٤٩٢ ق. م، بعث داريوس الأول[1] بأسطول قوي لاخضاع الاغريق

---

(١) داريوس الأول بن هيستاسب، ملك بلاد فارس بين ٢٥١ الى ٤٨٦ ق. م. ونشر الأمن في امبراطوريته ونظمها وقسمها إلى عشرين مقاطعة. وقد فتح الهند بين ٥١٤ و٥١٢ ق. م. وقمع ثورة اليونان في آسيا الصغرى. ولقد شهد دمار أسطوله أمام جبل اتوس بسبب عاصفة هوجاء عام ٤٩٢ ق. م، ثم انكسر أمام اليونانيين في موقعة ماراثون في عام ٤٩٠ ق. م. ثم انهزم جيشه في موقعة بلاتيه بقيادة مردونيوس سنة ٤٧٩ ق. م وفكر في القيام بحملة ثانية ضد اليونانيين وانصرف لتهدئة الأحوال في مصر بعد ثورتها الى أن مات. وهو الذي شيد قصراً في سوز وفي برسيبوليس التي احتفل فيها شاه ايران السابق في عام ١٩٧٢ بمناسبة مرور ٢٥٠٠ عام على نشوء امبراطورية فارس ودعا العديد من ملوك العالم ورؤساء جمهورياته.

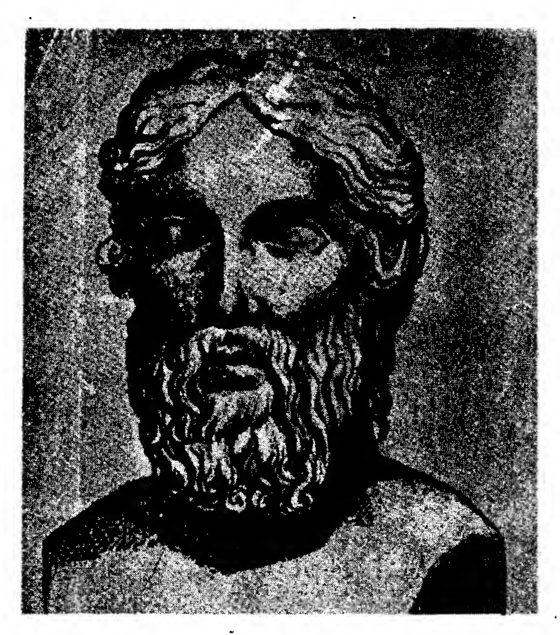


ثيميستوقل بطل معركة سالامين

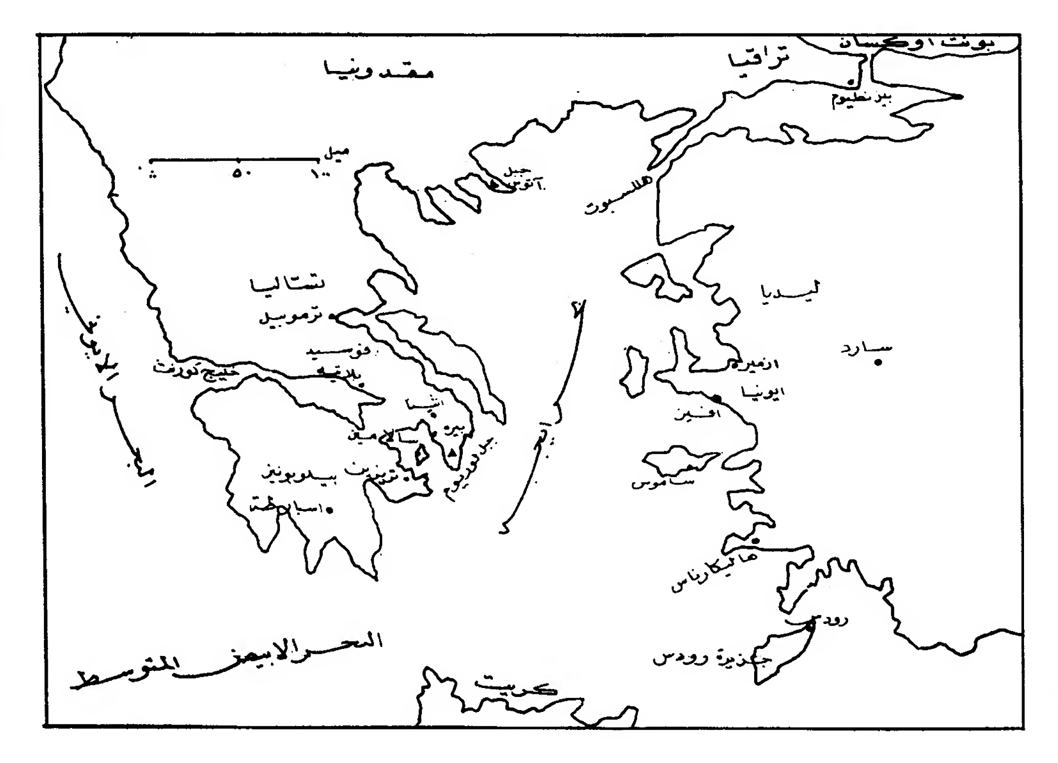
ولكن عاصفة هوجاء شتت شمله قبل أن يبلغ الهدف ، اذ تحطمت ٣٠٠ بارجة وهلك ٢٠٠٠٠ من رجاله . ولما أصبح جيشه البري دون أقوات وامدادات لا يمكن نقلها الا بطريق البحر انكفأ أفراده عائدين سيراً على الأقدام بمحاذاة ساحل مقدونيا وعجزوا عن تحقيق مقاصد

قادتهم ، ووجدوا أن من الأحرى بهم أن يعودوا أدراجهم ، وهذا ما حصل بالفعل.

وفي عام ٤٩٠ ق . م جهز كيخسرو ، ابن داريوس الأول ، حملة ثانية أصابها الفشل بفضل مهارة قائد يوناني هو ميلتياد ، الذي كسب معركة ماراتون الشهيرة ، والتي ظل اسمه عالقاً بها ، دون أن ننسى اسم



ميتياد قاهر الفرس في ماراثون

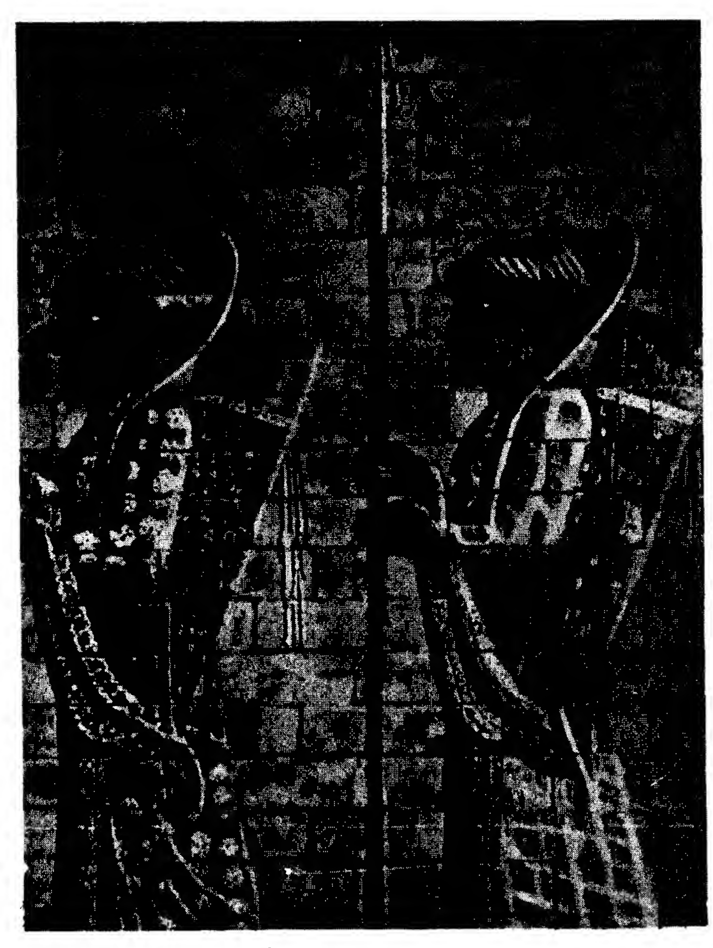

مقدونيا
تراقيا
بيزنطيوم
ميل
١٠٠ ٥٠ ٠
جبل آتوس
هللسبونت
تساليا
ترموبيل
فوسيد
بلاتيه
خليج كورنث
اثينا
بيرة
سالاميس
جبل لوريوم
تريزين
بيلوبونيز
اسبارطة
بحر ايجه
ليديا
سارد
ازميرة
ايونيا
افيز
ساموس
هاليكارناس
رودس
جزيرة رودس
كريت
البحر الابيض المتوسط

الساعي فيدييد الذي قطع مسافة ٢٤٠ كيلومتر في أقل من يومين لينذر أسبارطة بوصول الفرس. ولقد اقتنع ثيميستوقل بأن الفرس يستعدون لهجوم ثالث، وأفلح في نقل مخاوفه الى مواطنيه. غير أن زعيم الحزب الأريستوقراطي، آريستيد، أعلن عن معارضته لفكرة ثيميستوقل التي وجدها عبارة عن مغامرة، فاختار المنفى، اذن لم يبق أمام ثيميستوقل من يضع العصي في العجلات.

اسطول لا مثيل له

ما أن حصل ثيميستوقل على التفويض المطلوب حتى أصدر أوامره في الحال لبناء مائة قادس وهي سفينة حربية شراعية ذات ثلاثة صفوف متنضدة من المجذفين. ولم يكن المجذاف يستعمل الا في حالة المناورة عند المعركة، لأن الشراع كان العنصر الدافع عند الابحار هذا اذا هبت ريح طيبة تنفخ الأشرعة. ولم يكن الاغريق في حاجة لأن يتلقوا درساً من أحد في بناء هذا الأسطول، لأننا اذا استثنينا الفينيقيين، وجدناهم أقدم بحارة عرفهم التاريخ. ولقد برهنت مراكبهم الحربية عن مقدرتها في معركة طروادة في عام ١٣٧٠ ق. م.

ومما يثير الاستغراب أن الاغريق، وهم خبراء في فن البحرية، قد أهملوا أسطولهم الحربي. وعندما قرر ثيميستوقل تجديده لم يكن يضم



رماة جيش داريوس الملكي

حينئذ أكثر من خمسين قادساً . وقد كان تشغيل الترسانات سريعاً . ولكي لا يشعر كيخسرو بخطورة ذلك ويرى فيه استفزازاً وتحدياً ، سرت شائعة على نطاق واسع بأن الاستعدادات تجري على قدم وساق للقيام بحملة تأديبية ضد القراصنة الايجنتيين . واعتماداً على أرباح مناجم الفضة التي اكتشفت حديثاً بالاضافة الى فوائد مناجم مارونيه التي كان استغلالها أقدم عهداً ، أمكن بناء مائتي قادس خلال ثلاثة أعوام لا غير . وهذا ما يستحق تسمية حرق المراحل .

وقد كانت هذه المراكب ممتازة سواء من وجهة النظر إلى صلابتها أو من حيث سرعتها ، أو من وجهة النظر إلى سهولة المناورة عليها . ومع أن طولها كان يقارب الأربعين متراً فقد كانت تغير اتجاهها محلياً وترجع للخلف في سرعة تعادل تماماً حركتها للأمام . وكانت القيادة فيها تقوم على عاتق خمسة ضباط كان رئيسهم يدعى قائد القادس (trième) ومع أنه يعتبر القائد الأعلى فلم يكن من الضروري أن يكون بحاراً ، اذ يكفي أن يكون عسكرياً فقط . ويعمل تحت إمرته قبطان يدعى كوبرنتس وهو عادة بحار قديم على اطلاع بكل أسرار البحرية . ويستخدم كل حذقه في قيادة الحركة . وكان القادس مجهزاً بثلاثة صفوف من المجاذيف ، القصيرة في الأسفل ، والوسطى في الوسط ، والطويلة في الأعلى . وكان يعمل في التجذيف ١٧٤ رجلاً في كل مركب . وكان يشرف على حركتهم الايقاعية ريس يدعى كيلوست أو ما

يقابل رئيس غرفة المكائن على السفن الحالية وكان يستعين بنافخ مزمار . وكان هؤلاء المجذفون رجالاً أحراراً يعتبرون العمل على المراكب الحربية شرفاً لهم. أما البحارة فلم يكونوا كثراً ، لأن عملهم هو توجيه الشراع الذي كان لا يزال غاية في البساطة . وكان يكتمل عدد رجال المركب بعشرين محارباً منهم بضعة رماة والباقي من الجنود المدججين بالسلاح والمدرعين حتى أسنانهم ، وهكذا كانت البحرية الاثينية مجهزة بعدد من الطراز الأول، وبتنظيم فريد من نوعه، وبتجهيزات لا نظير لها. وبعبارة أخرى كانت تتمتع بأفضل مؤهلات الفوز في المعركة .

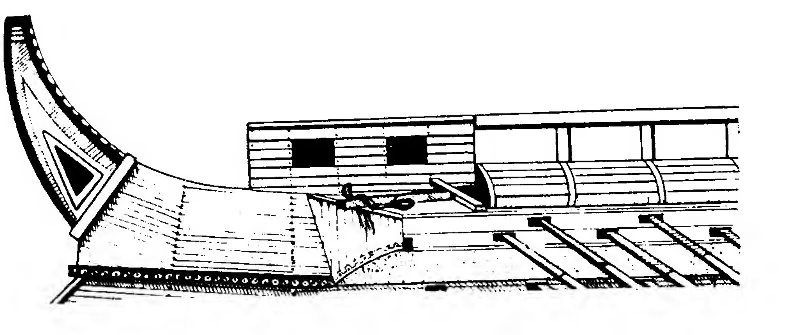
مليون رجل على درب الحرب

ترى هل كان لدى كيخسرو حدس بوجود تهديد؟ اذا كان الجواب بالايجاب ، فقد كان يفكر ، بلا ريب ، بأن أفضل استعراض من حيث النتائج هو البدء بالهجوم الذي كان يستعد له منذ أربعة أعوام. ولما كان أقل خبرة من والده فقد أعرض عن سماع نصائح عمه أرطبان الذي كان قد حنكته الأيام والذي كان لا يكف عن تحذيره .

ـــ احذر ، أيها الأمير ، من أن يقطع عليك الاغريق طريق العودة . ان التفكير الطويل في قضية ما يجنب الانسان اللوم مهما كانت النتيجة .

ـــ وكان جواب كيخسرو : لقد عاد جيشي منتصراً من مصر انه جيش لا يقهر.

ـــ لا يبهرنك بريق مجدك ، فأكثر الأشجار ارتفاعا هي الأكثر تعرضا للصاعقة.



اعادة تمثيل القادس الاغريقي ويظهر في المقدمة المهماز النحاسي

ـــ ان صفاقة كهذه تستحق عقابها ، يا عم. ستبقى هنا خلف النسوة اللواتي لا تقل عنهن جبنا. وسيكون هذا جزاؤك.

وفي ربيع عام ٤٨٠ ق. م جمع كيخسرو في آسيا الصغرى جيشاً لا يقل تعداده عن مليوني محارب ، مؤلفا من فرس وميديين

وعرب وليديين وساسيين[٣]، وآشور، وهيركانـيين[٤]، وهنـود ... الخ واذا اضفنا إلى ذلك النساء والخدم والعمال والرقيق فإن الركب المتحرك كان يتجاوز الخمسة ملايين نسمة، حسب أقوال هيرودوت.

وكان كيخسرو يقود بجبروته هذا الجيش الخليط المزيج، والذي كان يضم أشتاتا من كل أقوام آسيا. ولما عرض بيثياس، أمير ليديا أو منطقة أزمير الحالية، على كيخسرو كل ثروته مقابل الاحتفاظ بولده المجند في الجيش الذاهب للحرب، أمر كيخسرو باعدام هذا الشاب تحت ناظري والده. ثم شطر جثته إلى قسمين ووضع قسما من جسمه على اليمين والنصف الآخر على اليسار، ومر جيشه بين الشطرين. ويا له من مزاج غريب ...

وقد استطاع هذا الجيش اللجب أن يعبر مضيق هيللسبونت، وهو الدردنيل حالياً والبالغ عرضه ١٣٠٠ متر، بالاستعانة بجسر من سفن مترابطة بواسطة حبال من كتان ومن لحاء شجر البيبلوس والتي

---

(٣) نسبة الى بلاد الساس، أي تركستان الحالية بين سيرداريا وأموداريا، وربما هي بلاد الشاش أيام العباسيين.

(٤) نسبة إلى هيركانيا وهي البلاد الواقعة على سواحل بحر الخزر الجنوبية.

قدمها المصريون . وأقيمت فوق صف مؤلف من ٣٦٠ بارجة ، راسية ، ذات أرضية من ألواح خشب مغطاة بالتراب أقيم على كل طرف من جانبيها درابزين كيلا تجفل الخيول من رؤية الأمواج . ولكن هاج البحر وحطمت أمواجه الجسر وهنا استسلم كيخسرو لاحدى نزوات غضبه المعتادة . وبلغ الهياج به حداً جعله يأمر بقطع رؤوس العمال الذين نصبوا الجسر المذكور . وأمر «بجلد» البحر عقابا على سفاهته فضربت ضفتاه بالسياط . وهكذا ضاع الكثير من الضربات بالماء .

وانهمرت الأرتال العسكرية من تراقيا في اتجاه مقدونيا سالكة طريق الغزو المعهود بمحاذاة ساحل البحر وكان الغزاة يسيرون بخطا متسارعة لا سيما وأن عتادهم كان مشحوناً فوق سفن الاسطول ، ذي المظهر الرهيب ، والذي كان يتألف من ٣٠٠٠ بارجة شحن ومن ١٢٠٧ قادس حربي على متنها ٢٠٠٠٠٠ محارب كانت أكثريتهم من المجندين . وعمد كيخسرو الذي لم ينس عاصفة عام ٤٩٢ ق . م اللعينة الى اختصار الطريق وذلك بقطع شبه جزيرة آتوس بقناة طولها ٢٤٠٠ م والتي اجتازتها كل سفن اسطوله ، حتى أكبرها حجما .

ميزة اختيار ساحة المعركة

ما أن بلغت مسامع ثيميستوقل أنباء اقتراب أسطول الغزو هذا ، والمدعوم بحملة عسكرية رهيبة ، حتى أخذ أهبته لخوض المعركة .

ولما كان واثقاً من نجاعة اسطوله، فقد حاول دون تأخير أن يتقدم إلى أبعد مسافة ممكنة لمجابهة أسطول كيخسرو، وليعرقل تقدم القوات المعادية البرية. وكانت كل تصرفاته اعتماداً على الذات دون الاهتمام بالحكومات الاغريقية الصغيرة، التي تؤلف قسماً من الحلف الذي كانت أثينا وأسبارطة تتزعمانه ولولا ذلك لضاع الكثير من الوقت في مماحكات مع حكام هذه الدويلات لان لكل واحدة منها كلمتها، هذا في الوقت الذي يقترب فيه كيخسرو. وجرت أول معركة بحرية قرب مضيق آرتيميزيون الى الشمال من أثينا ولكنها لم تكن حاسمة. أما على البر فقد ضحى الملك ليونيداس، الذي كان على رأس ٣٠٠ اسبارطي، بنفسه عند ممر ثرموبيل الضيق، بين فوسيد وتساليا، في محاولة وقف هذه المدحلة البشرية الضاغطة بيد أنه لم يفلح في أكثر من تأخير مسيرتها. وكسب بذلك مجداً لا يمحى ذكره على مر العصور والدهور.

ولما أخطره كيخسرو بأن يرمي سلاحه، أجاب المندوبين الفرس باقتضاب فيه كل معاني الازدراء: «ليأت ملككم ليتسلمه».

ــ فقال أحدهم: ان جيش الفرس كبير العدد حتى أن السهام التي يرميها جنوده تحجب الشمس.

ــ عندها أجابه الاسبارطي ديونوسيس: هذا أفضل لأننا سنحارب في الظل.

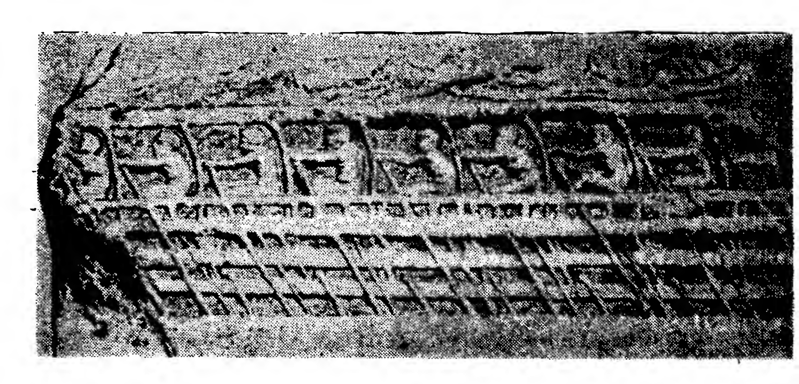
وبعد أن عرقل ليونيداس زحف الجيش المعادي مدة ثلاثة أو أربعة أيام راح ضحية خائن دل الفرس على وسيلة لتحاشي الممر فداهمه هؤلاء من كل جانب . غير أن ليونيداس عمد بعد ليلة واحدة إلى رمي نفسه مع رجاله الأسبارطيين في وسط معسكر كيخسرو حيث أنجزوا أكبر قدر ممكن من أعمال الفتك الذريع وسط معمعة سادها جو من الفوضى الرهيبة . وعند الفجر أجهز الفرس على بقية هذه الحفنة من المسعورين الذين قضوا نحبهم جميعاً . وقد كان ليونيداس في مقدمتهم اذ عثر على جثته تحت كومة من جثث رجاله فعمد الفرس الى تثبيتها فوق صليب .

ولما حصل ثيميستوقل ، أخيراً على الترخيص باللجوء الى التعبئة العامة لمجابهة الغازي كان الوقت متأخراً جداً ، فقد أصبح الفرس على مرأى من أثينا بعد أن نهبوا وخربوا وأحرقوا كل شيء في طريقهم . ولم يبق سوى سبيل واحد وهو الاسراع باتجاه السفن والتوغل في البحر . وهذا ما حدث فعلاً في الوقت الذي كان فيه السكان يلجؤون إلى تريزين وأيجين وسالامين .

وأقلع الأسطول ، ولكن بسبب قضية تتعلق بأحقية الزعامة، فقد سلمت أمور القيادة إلى أوريبياد . وهو جنرال أسبارطي ، أكبر سناً من ثيميستوقل ، ولكنه أقل منه خبرة بشؤون علم البحر . وبينما كان

ثيميستوقل يرجح الدفاع عن خليج أثينا كان الأسبارطي يرغب في الانكفاء نحو خليج كورنث. ولما احتدم النقاش اغتاظ أوريبياد حتى أنه هدد باستعمال عصاه. عندها قال ثيميستوقل كلمته الشهيرة: «اضرب ولكن انصت». وأخيراً وبعد الاقتناع فازت وجهة نظر ثيميستوقل القائلة بأن يتمركز الاسطول عند مدخل الخليج الذي يفصل جزيرة سالامين عن البر، قرب مدينة بيريه.

ترى ماذا يستطيع أن يأمل ثيميستوقل وهو على رأس ٣٨٠ سفينة تجاه أسطول كيخسرو العظيم الرابض في خليج فالير؟ وتراءت له احتمالات النصر هزيلة. بيد أن الفرس لم يكن لديهم أكثر من ١٢٠٠ قادس مسلح لأجل تلك الحملة. فقد قضت العواصف على حوالي



نقوش نافرة في اكروبول اثينا يظهر فيها القسم الأوسط من مركب ثلاثي المجاذيف (قادس)

ثلث المراكب نتيجة غرق أو جنوح على الساحل أو ضحية حوادث يستحيل تلافيها. أما الثمانمائة أو التسعمائة قادس الباقية فقد ظلت راسية باعتزاز في خليج فالير. أما أثينا فقد سقطت بأيدي الجيوش البرية الفارسية. وفكر كيخسرو بالقيام بحركة التفاف باتجاه سيتير، وذلك ليس لزيارة هيكل أفروديت[٥]، بل في محاولة لجذب جيش اسبارطة الى جنوب شبه جزيرة البيلوبونيز، غير أن الأحداث جعلته يعزف عن هذه المكيدة.

ولما شعر الأثينيون بالقلق من مجريات أحداث الحرب أخذوا يحسون بريح الذعر وهي تهب من فوق أكتافهم، ولا سيما بعد نهب مدينتهم التي أصبحت فريسة ألسنة اللهب وعاد الكلام من جديد فيما يخص فكرة الانسحاب نحو خليج كورنث. غير أن ثيميستوقل قرر أن يقلب الموقف بطرحه مخططاً سيظهر ممتازاً فيما بعد. فقد استطاع بواسطة عميل مزدوج ــ لأن دوائر المخابرات لا تعود للأمس ــ أن يحمل الفرس على الاعتقاد أن أسطوله سينسحب لدعم القوات الأرضية. وهنا سقط كيخسرو في الفخ وعجز عن مقاومة شهوة مهاجمة الهدف مباشرة قبل فوات الأوان. غير أن ملكة هليكارناس،

---

(٥) إلهة الجمال والحب والحياة عند الاغريق وقد تسربت اليهم من آسيا، وربما كان اسمها مشتقاً من عشتارته، ثم تحولت الى فينوس عند الرومان.

آرتيميز ، والتي كانت أكثر فطنة ، فقد استشمت رائحة المكيدة . ونبهت كيخسرو الذي كان بحارته يفتقرون لكثير من علوم الحرب البحرية . ولكن هذا لم يكن مستعداً لسماع النصيحة وارتكب أكثر من خطأ ، إذ خشي أن يفلت الخصم من يده ، فأرسل ٣٠٠ قادس من أسطوله كي ترابط الى الجنوب من جزيرة سالامين ، الواقعة في غرب ميناء بيريه في انتظار عديم الجدوى لأن الانسحاب المزعوم كان ثمرة... تسميم نفساني . وتصور أنه سيكسب المعركة بما تبقى لديه من سفن يبلغ تعدادها ٦٠٠ في حين أن أسطول ثيميستوقل لا يزيد تعداده مطلقاً عن ٣٨٠ سفينة حربية . وفي العشرين من شهر أيلول وفي غفلة عن أبسط مبادىء تكتيك الحرب البحرية بدأ كيخسرو المعركة في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع غير موائمة . ذلك لأن العدد والعدة لا تحل كل المشكلات ، ولهذا لم يتأخر عن دفع ثمن هذه التجربة .

وقد أفلح ثيميستوقل وهو أكثر خبرة في فن الحرب ، في إقناع أورياد بوجهة نظره ، فاصطفت سفنه في أكثر الأماكن ضيقاً في المضيق بحيث لا يستطيع العدو أن يشرك في المعركة سوى القليل من سفن المقدمة . وهكذا حصل التوازن بين الجانبين . وكان القائد الأثيني يعتمد على حليف قدير هو الريح . وعندما أخذت الريح بالهبوب في وقتها العادي لم تتأثر السفن الأغريقية كثيراً ، نظراً لأن هياكلها النحيلة كانت قليلة الارتفاع ، في حين تضررت سفن كيخسرو ذات الجوانب العالية

سبياً ، وهكذا يمكن كسب الحروب بضربات ابهام سماوية المصدر .

وقد شعر كيخسرو الذي كان جالساً فوق عرش من رخام أبيض ، أقامه على ساحل البحر كي يشهد فصول سير المعركة، شعر بأن الأمور أخذت اتجاهاً مختلفاً تماماً عما كان يأمل فطار صوابه .

وهكذا أخذت البوارج الفارسية التي انحرفت بتأثير الريح ، والتي راحت مسيرتها تتعرقل ، بتأثير ارتفاع حوافها ووزنها ، مثلما أصبحت تربك بعضها بعضاً ، أخذت تصل على شكل خطي وعجزت عن النيل من أسوار الخشب التي صنعها ثيميستوقل والتي كانت مؤلفة من مراكبه الحربية الرشيقة المصطفة كالبنيان المرصوص، وهكذا كانت الجبهة الأغريقية صلبة يستحيل اختراقها . وكان الايونيون ، أي سكان ساحل آسيا الصغرى ، هم أول من لاذ بأذيال الفرار ، في حين رمى الفينيقيون بأنفسهم على الساحل . ويذكر الشاعر ايشيل وهو مبدع التراجيديا القديمة ، والذي كان أحد شهود هذه المعركة ، يذكر أن المحاربين والرماة اليونان كانوا يمطرون الخصم بوابل من القذائف والذي كان عاجزاً عن الانكفاء بسرعة كافية لتحاشي سيل السهام المشحوذة أو الملتهبة . ولما كان الفرس عاجزين عن مجابهة الريح ، لم يكن أمامهم من حل سوى الانسحاب معرضين أنفسهم لمطاردة المراكب الاغريقية ولتطويقها والتي كانت تبقر خواصر سفنهم بواسطة المهماز النحاسي المثبت في صدر السفينة .

ويروي أحد جنود سالامين القصة التالية للملكة أتوسا، والدة كيخسرو، والتي رأت في الحلم هزيمة ولدها: «على أثر اطلاق اشارة راحت مجاذيف المراكب الأغريقية تضرب موجة المياه المالحة الهائجة حسب وتيرة ايقاعية، وبرز الاسطول برمته أمام نواظرنا وأغلق المضيق على كل عرضه. وفي مواجهة الصياح البعيد أجبنا بصرخة الحرب الفارسية. وأخذت مقدمات السفن النحاسية تصدم مقدمات سفننا وبدأت بارجة أغريقية عملية الصدام فهشمت جوانب سفينة حربية فينيقية. وانقض الاسطولان على بعضهما، انقضاض عدو على عدوه. ولم يتراجع الجيش الفارسي أبداً في بداية المعركة، ولكنه تكدس في رقعة محصورة بحيث لم تقدم مراكبنا أية معونة لبعضها بعضاً بل أصبحت تتصادم بمناقيرها النحاسية وغدا بعضها يقوم بتهشيم صفوف مجاذيف السفن الأخرى هذا في حين كان الأسطول الأغريقي يقوم، في أعقاب مناورة خارقة، بتطويق السفن الفارسية ويكيل لها الضربات من كل جانب. وهكذا تحطمت سفننا وتغطى سطح البحر تحت أكوام من الأنقاض العائمة ومن القتلى. أما على السواحل فقد تغطت الشعاب الصخرية بالجثث. وحاولت سفننا الهرب بصورة كثيفة معتمدة على سرعة التجذيف. ولن أسهب أبداً في ذكر خسائرنا، لأن عشرة أيام كاملة لا تكفي لتعدادها ولم يحدث اطلاقا أن هلك مثل هذا العدد من الرجال في يوم واحد...».



سفينتان اغريقيتان مرسومتان في داخل كأس (المكتبة الوطنية في باريس غرفة المداليات)

أما الملكة آرتيميز المعروفة بدهائها فقد لجأت إلى خدعة أصبحت تقليدية للنجاة والانسحاب من ميدان المعركة حيث كانت الأمور تجري على غير ما يشتهي مخطّطوها . وهكذا نصبت فوق صارية قادسها راية أغريقية واستغلت ذلك في طريقها ، وبكل هدوء ، بأن أغرقت سفينة فارسية تحمل سيثيموس ، ملك كاليند ، والذي لم تكن تضمر له أي حب . ويبدو أن كيخسرو لم يحمل لها أية ضغينة على هذه الخيانة لأنه ادعى أن الفرس تصرفوا كنساء والنساء كأبطال . وكافأ كيخسرو الملكة آرتيميز على شجاعتها بأن ائتمنها على أولاده الذين عادت بهم الى مدينة ايفيز الواقعة على ساحل بحر ايجة قرب ازمير الحالية .

وعندما أزفت ساعة الحسابات تذوق ثيميستوقل الأريب لذة انتصاره: فقد خسر خمسين سفينة في حين فقد كيخسرو أكثر من مائتين غرقاً أو حرقاً، والتي يجب أن نضيف اليها تلك السفن التي سقطت في أيدي الاغريق. وكان ذلك أعظم فشل حدث حتى ذلك التاريخ. وهكذا فشلت الحملة وهلك جيش كيخسرو البحري أو تشتت. وبعد أن تم اصلاح هذا الاسطول وترميمه كيفما اتفق تلقى الضربة القاضية في العام التالي تجاه جزيرة ساموس، وهو جبل على شكل شبه جزيرة من اقليم ايونيا على ساحل آسيا الصغرى الغربي.

وعلى الرغم من تعرض الفرس للملاحقة بلا انقطاع فقد تمكنوا من سحب ما تبقى من سفنهم على الساحل عند ميكال في أيونيا وحموها بتحصينات، ولكن الاغريق كانوا يهاجمونها ويرمون البوارج بالنار.

وفي الوقت ذاته كان ١١٠٠٠٠ جندي يوناني بقيادة بوزانياس، ملك أسبارطة، منهمكين في ابادة بقية الجيش الفارسي في معركة ضارية في سهل بويثيا قرب مدينة بالاتية، ذلك الجيش الذي عهد به كيخسرو الى قائده الأعلى مرديونوس. وكانت هذه الهزيمة الأخيرة اشارة وبرهان على انتصار مؤزر أنجزه المحارب اليوناني إلى جانب الجلد الاسباطي. أما كيخسرو الذي خشي قطع طريق الانسحاب عليه فقد عاد على عجل الى مدينة سارد في آسيا الصغرى تاركاً خلفه

سلسلة طويلة للغاية من الموتى الذين تساقطوا تحت سهام سكان المناطق المفتوحة ، أو هلكوا ضحية العطش والجوع وفتك الأمراض .

أما عودة ثيمستوقل فقد كانت أكثر بريقاً ، وهذا لا ريب فيه ، فقد غمرت الأمجاد هذا البطل . اما اسبارطة التي زارها بعد نهاية المعركة بقليل فقد عممت هامته بتاج من أغصان الزيتون وأهدته أجمل مركبة موجودة في المدينة . وواكبت ثيميستوقل حتى الحدود أفواج مؤلفة من ٣٠٠ شاب من أكرم العائلات ، مثلما نال جائزة المحكمة . ولكن كل ذلك لم يشفع دون قرار نفيه الصادر عن شعب أثينا الذي طرده بعد اثني عشر عاماً عندما أصبح حظه في السياسة دون مقدرته في الاستراتيجية البحرية . ووجد ملجأ .. في فارس ، حيث أكرم الملك وفادته واختصه باستقبال طيب . ولما حان اليوم الذي جعلته ظروف الحرب مضطراً لمحاربة أبناء وطنه آثر ثيميستوقل الانتحار . نعم لقد كانت نهاية مأساوية ، ولكنها مشرفة ، لذلك الذي كسب أول معركة بحرية كبرى في تاريخ العالم ، وأنقذ وطنه من التهديد الفارسي ، وذلك ليس بفضل التسليح الأجود الذي زود به قواته ، ولكنه أيضاً بفضل بسالة الاغريق الوطنية وبفضل كرامتهم العزيزة عليهم كرجال أحرار .

ليبانت

ـ ٧ تشرين الأول ١٥٧١



اذا كان كل من المحيط الأطلنطي وبحر الشمال مسرحا للنزاعات البحرية بين فرنسا وبريطانيا، خلال ستة قرون متوالية فقد كانت هناك أيضا ساحة أخرى للعمليات الحربية البحرية تتجابه عليها أساطيل أخرى خلال فترات الهدوء النسبي. وهي البحر الأبيض المتوسط. ففي القرن السادس عشر كانت دولة البندقية تملك اسطولاً قوي الشكيمة سبق له أن قام لثلاثة قرون خلت بدور كبير في دعم الحروب الصليبية. وخاض معارك عديدة أحرز فيها انتصارات رائعة مما جعل هذه الدولة الصغيرة تحلم دوما بالاحتفاظ بسيادتها على هذا البحر. لهذا أصبحت تنظر بامتعاض إلى تدخل الاسطول العثماني الذي عرّض امتيازها للخطر ولا سيما عندما راحت السلطنة العثمانية تتوسع في أوروبا وفي أفريقيا مما سمح للكثير من المجاهدين العرب من فلول الاندلسيين ومن المغاربة بعرقلة النشاط البحري الأوروبي في البحر الأبيض المتوسط. وهكذا تعرض ازدهار البندقية على الصعيد التجاري لأزمات خانقة.

تفوق اسطول البندقية

لقد كان البنادقة يملكون مراكب من حمولة ثقيلة ولكن دون أن يؤدي ذلك الى التقليل من مرونة حركة أسطولهم. ولما كانت الرياح قليلة الفائدة في البحر الأبيض المتوسط، فقد جعلوا قواتهم البحرية على شكل مراكب تتحرك بسهولة وقت المعركة وتستطيع أن تنشر قلوعها عند الانسحاب. وعندما جهز الملك الفرنسي القديس لويس التاسع حملته الصليبية الثانية في عام ١٢٥٠ ميلادية في اتجاه فلسطين، وضعت البندقية تحت تصرفه سفناً ضخمة استطاعت خمس عشرة منها ان تنقل عشرة آلاف من جنود المشاة و ٤٠٠٠ رأس من الخيل. وكانت سفن الشحن الكبرى تمخر عباب البحر تحت حماية اسطول من سفن بحرية حربية ظل يعتبر، ولفترة طويلة، أفضل أمثاله في ذلك العصر.

وفضلاً عن المهماز النحاسي الرهيب المثبت في مقدمة المركب، والذي كان بإمانكه اختراق أية سفينة معادية عند اقتحامها بعنف فجائي، فقد كانت المراكب الحربية مجهزة أيضا بعضاضات خشبية ضخمة مسلحة بمهماز معدني من نهايتها ومعلقة بالصاري، والتي يكفي أن تقذف بمهارة على السفينة المعادية كي تحدث فيها تخريبات مرعبة. وكان التكتيك المتبع في المعارك البحرية في ذلك العصر هو

اقتحام السفينة المعادية ، وكانت المدافع مثبتة في مقدمة السفينة والمدفع الرئيسي من طراز كورسييه .

وفي حوالي عام ١٥٢٨ أصبح الخطر التركي أكثر تهديداً لمصالح البنادقة اذ كانت سفن السلطان سليمان القانوني تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط. وكانت تندفع أحيانا حتى سواحل أقطارالمغرب حيث كانت تتحالف مع المجاهدين الجزائريين في الاستيلاء على السفن التجارية الاوروبية ، والذين كانوا يعمدون الى استخدام الأسرى الأقوياء كمجذفين على مراكبهم الحربية مدى الحياة ، أما جيوشه البرية فقد انساحت في اوروبا الوسطى ناشرة الذعر والرهبة أمامها ، فاجتاحت هنغاريا ولم تتوقف الا أمام أسوار العاصمة النمساوية . وأمام موجة الرعب هذه رأت جمهورية البندقية أن من الحكمة التفاوض بالحسنى التماساً للسلامة ، وشراء تراخيص تسمح لقوافلها التجارية البحرية التجوال بطمأنينة وسلام . كما نحا ملك فرنسا فرانسوا الأول المنحى ذاته واختار سياسة عدم التدخل. وبالفعل لم تتعرض مصالحه لأية مخاطر تذكر لسبب بسيط هو عدم وجود اسطول فرنسي حقيقي في البحر الأبيض المتوسط . وهكذا سارع هذا الملك إلى توقيع معاهدة تحالف ، أعلنت على الملأ ، مع السلطان سليمان عام ١٥٣٤ حصلت فرنسا بموجبها على امتياز بسط حمايتها على نصارى بلاد الشام وكنائسهم ، وعلى الترخيص بإقامة مراكز تجارية في موانىء ساحل بلاد الشام مثل اللاذقية

وطرابلس وبيروت وعكا واسكندرون ، وعلى حرية التجارة بالنسبة للسفن التي تحمل العلم الفرنسي ، وفي مقابل ذلك سمح فرانسوا الأول للعثمانيين بأن يكون لهم دور كبير في السياسة الاوروبية عن طريق منحهم حرية العمل على الصعيد العسكري . والواقع لم يكن السلطان العثماني يؤلف بالنسبة لفرنسا خطرا يماثل طموح الاسرة الحاكمة النمسوية .

الموت في سبيل قبرص

لقد كان الأتراك اذن سادة الموقف في البحر الأبيض المتوسط عندما عمد البابا بيوس الخامس، الذي كاد يقضي كمداً وغيظاً من الهيمنة العثمانية ، الى الدعوة لتضافر الأساطيل الاوروبية في حلف مقدس يضع حداً لتطلعات السلطان سليم الثاني الذي خلف أباه السلطان سليمان الثاني . وقد لبى الأسبان هذا النداء توا مثلما استجابت جمهورية جنوا ومملكة نابولي ودوقية السافوا وتوسكانة ، في حين رأى الفرنسيون والانكليز أن من الأنسب عدم التورط في هذه العملية ، اذ لن يحصلوا على كبير فائدة من عملية قد تنقلب عليهم ، وظلت البندقية مترددة حذرة الى أن وقعت حادثة جعلتها تغير موقفها .

فقد تدهور الموقف في الشرق ، اذ على الرغم من مقاومة مستميتة أبداها قائد فرسان رودس ، فيليب ديفيليه دوليل آدم ، في وجه حصار رهيب ، سقطت جزيرة رودس عام ١٥٢٢ في أيدي

الأتراك ولم يبق من الثغور البحرية التي كانت أوروبا تتشبث بها في وجه الاندفاع العثماني سوى جزيرة قبرص وكريت، والواقع كان الاتراك يستعدون للانقضاض على هاتين الجزيرتين اللتين كانتا تؤلفان تهديداً لامبراطوريتهم. وابتداء من عام ١٥٦٢ وضعت حكومة الآستانة في مخططها اجتياح قبرص. وبعد عامين أخذت الاستعدادت تقوم على قدم وساق على الساحل الآسيوي المقابل لجزيرة قبرص.

وفي عام ١٥٧٠ م أرسل السلطان سليم سفيراً الى البندقية يطالب حكومتها بالتخلي عن قبرص الواقعة كليا تحت سيطرة البنادقة. وكان السلطان يعتمد في طلبه هذا على ضعف قوات البندقية وتلاشي عظمتها، كي يوفر على القوات العثمانية عناء حصار قد يطول أمده. ولكن خاب أمله في هذا المسعى لأن البنادقة رفضوا تسلم الرسالة الدبلوماسية، وكان لهذا الرفض دواعيه. فقد كانت قبرص أثمن ممتلكات أمبراطورية البندقية الاستعمارية فهذه الجزيرة الكثيرة الخصب تنتج الكثير من القمح والقطن والزيت والسكر والملح، حتى أن عائداتها كانت تبلغ سنوياً ٣٦٠٠٠٠ دوكاً (دينار) تتدفق على خزينة جمهورية البندقية. وبالرغم من ضعف حامية الجزيرة فقد كانت تتمتع بموقع حصين للغاية يتمثل بقلعة فاماغوستا الواقعة على الساحل الشرقي المواجه لميناء اللاذقية الشامي. فهذا الموقع كان معداً للصمود في وجه حصار شديد بفضل أسوارها التي شيدها المعمار العسكري

الايطالي الشهير جيوفاني جيروكولامو سانميشيلي والذي استطاع أن يحول هذا الموقع الى ثغر حربي يكاد يكون من المحال الاستيلاء عليه .

وبناءً على رفض البندقية الجلاء على قبرص ، سلماً ، قام اسطول عثماني قوي عهد بقيادته الى مصطفى باشا بعملية انزال كبيرة في الجزيرة التي تم الاستيلاء عليها كلها تقريباً فسقطت نيقوسيا بسرعة . غير أن قلعة فاماغوستا التي انعزلت عن سائر أنحاء الجزيرة والعالم ودون أي أمل يذكر ظلت صامدة في وجه جحافل المهاجمين الأتراك . وكان يترأس المقاومة مارك انطوان براغادينو وكان الحصار طويلاً وقاسياً ، اذ كان المدافعون يحاربون باستماتة الى أن جاءت الساعة الحاسمة في أول شهر آب من عام ١٥٧١ حيث حصلوا على وعد غامض بالأمان فاستسلموا . ولكن مصطفى باشا الذي حز في قلبه ثقل الخسارة التي بلغت خمسين ألف جندي من رجاله البواسل في هذا الحصار ، أمر بشنق الضباط الأسرى وقتل كل الجنود الذين تم القبض عليهم . أما قائد الحامية براغادينو فقد كانت له معاملة خاصة اذ أمر بسلخ جلده حياً ، ثم أوعز بدباغة جلده الذي أرسل للسلطان في القسطنطينية كي يحتفظ به في قصره . وبعد بضعة أعوام افتدت البندقية جلد هذا القائد بمبلغ كبير من الذهب واحتفظت به في كنيسه القديس يوحنا وبولس حيث تقع مدافن رؤساء جمهورية البندقية ومواطنيها المثاليين .

وبسقوط قبرص أصبح العثمانيون سادة الحوض الشرقي من البحر

الأبيض المتوسط الحقيقيين، وتلقت البندقية تلك الصدمة بامتعاض شديد، بعد أن كان رؤساء جمهورية البندقية يحتفلون سنوياً بعيد السيادة على البحر.

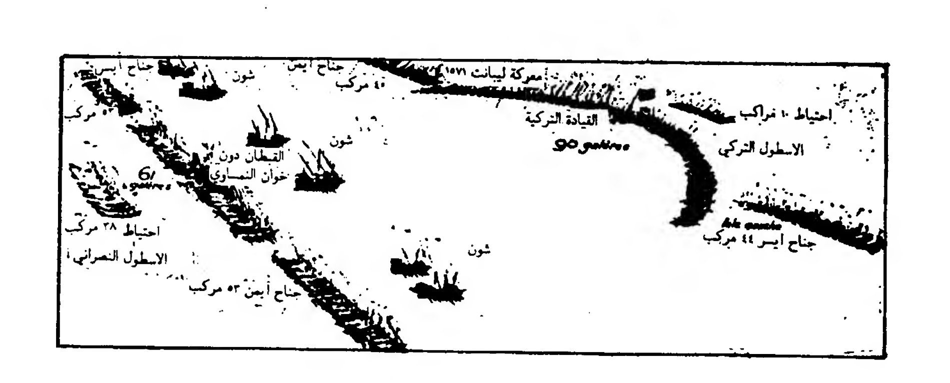
لقد عملت أنباء اعدام حامية قلعة فاماغوستا على استشاطة غضب «الحلف المقدس» في الوقت ذاته الذي أثارت في كل أوروبا حنقاً وغيظاً، على الاتراك، لا يوصفان.

وهكذا لم تتردد جمهورية البندقية في الانضمام الى الأسطول الاوروبي المجهز لمحاربة الأتراك. وقد أسندت القيادة الى الأمير النمساوي الشاب دون خوان، وهو ولد غير شرعي للامبراطور شارلكان وكان عمره حينئذ خمساً وعشرين سنة. واشتهر بأنه محارب جريء وبحار مقدام ورجل وسيم.

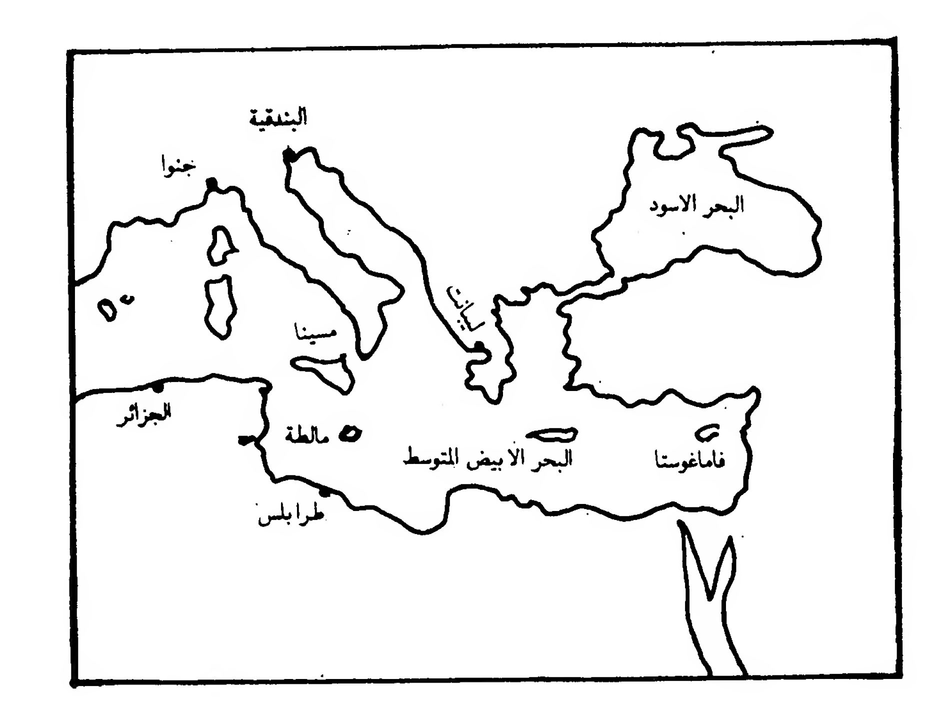
وكان قد مضى على استلامه قيادة الأساطيل الاسبانية عام كامل، وكان المستقبل ينتظره. وتلقت كل الأساطيل الاوروبيةالمتحالفة أمراً بالتجمع وحشد قواتها في ميناء مسينا في مضيق صقلية، وهي نقطة تمركز اختارها دون خوان. وكان الاسطول البابوي تحت قيادة الأمير انطونيو كولونا وأسندت زعامة الأسطول الجنوي للاميرال جيوفاني اندريا دوريا أما الاسطول المالطي فكان تحت إمرة قائد جماعة الفرسان. هذا في حين عقدت راية اسطول البندقية للأميرال سيباستيانو فينيرو وأثناء ذلك كان

الاسطول التركي المؤلف من مراكب طرادة ومن شون وزوارق ثنائية الصاري يبحر في البحر الادرياتيكي تحت أمرة علي باشا. وسرعان ما علم بنوايا الاميرال سيباستيانو من قبطان عربي لقبه «قره خوجه» كان على متن أفضل سفينة معروفة يدير دفتها بمهارة بهلوانية فتسلل تحت جنح الظلام رافعاً فوق سفينته قلوعاً سوداء كي يقترب من سفن الأعداء دون أن يروه، واندفع مغامراً حتى ميناء مسينا حيث عثر على الاسطول المعادي، وقفل راجعاً لينبىء الاميرال الجزائري علج علي، حليف السلطان العثماني، والذي قرر على الفور الابحار في اتجاه الاسطول العثماني للاحتماء بكنفه.

وهنا يجب التنويه بأن حشود هذه الأساطيل في مسينا كان باعثا على قلق العثمانيين وحلفائهم الجزائريين. فقد احتشدت ثلاثمائة سفينة حول مركب القائد الذي يحمل اسم الريال أي «المللكي». وقد تم بناؤه قبل ثلاث سنوات لحساب نائب الملك في قطالونيا، في اسبانيا، وجعل دون خوان منه مقر أركان حربه، ورفع على صاريه رايته الخاصة. وكان قد اشتغل في تزيين هذا المركب وتزويقه أمهر فناني برشلونة، فكان طلاؤه براقاً وأفاريزه الخشبية دقيقة الصنع، وقد نصب في مقدمته مهماز حاد على شكل رأس غول. وعمد دون خوان الى تقسيم اسطوله الى خمس عمارات بحرية دولية. فاحتلت المقدمة مراكب جوان دوكرادونا، المؤلفة من سبع سفن ترفع راية المثلث الاخضر، واحتشدت خلف المقدمة



المركب المرتفع الحافة ضد المركب الانسيابي

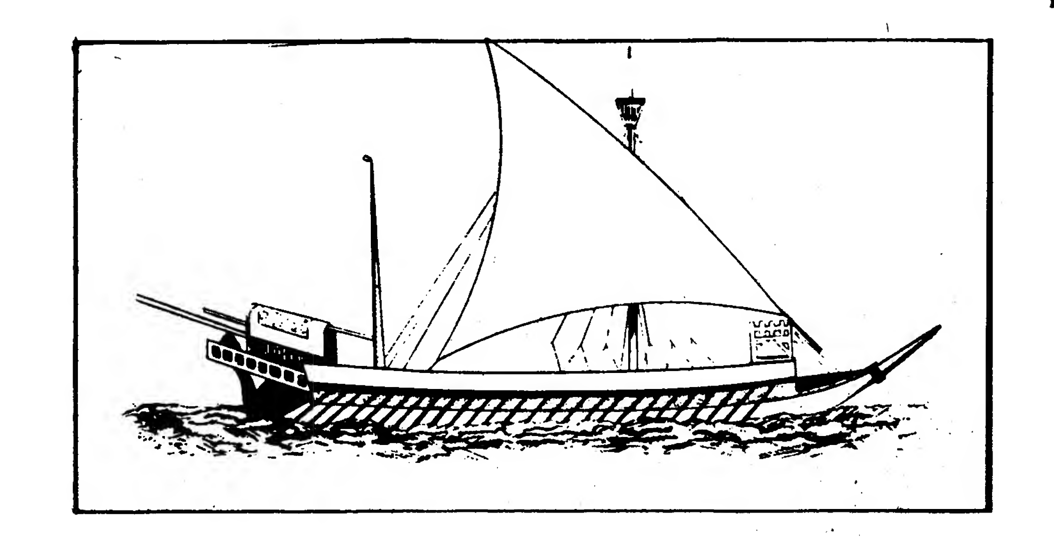

البندقية
جنوا
البحر الاسود
مسينا
ليبانت
الجزائر
مالطة
البحر الابيض المتوسط
فاماغوستا
طرابلس

المراكب كولونا فاحتلت الميمنة في حين تركت الميسرة للأميرال آندريا دوريا الذي كان يقود سفنا شراعية سريعة الحركة والتوجه، شأن أكثرية السفن الخفيفة. ولم يكن هناك سوى ست شون بطيئة، قادرة على السير بالمجداف وكانت ملحقة بالاسطول مع وظيفة محددة وهي أن تتقدم مثنى مثنى كي تؤلف جبهة لا يسهل اختراقها، ولكي تنضح الاسطول المعادي بوابل من قذائف مدافعها المثبتة في مقدمة كل منها، وذلك قبل أن تنقض المراكب الخفيفة في هجومها. وبقي انتظار انقشاع الغيوم والصحو.

وفي ١٦ ايلول أقلع الاسطول الحليف من مسينا بعد أن استعرضه وباركه مندوب خاص من طرف البابا بيوس الخامس وكان مركب «الريال» يسير في الطليعة رافعا فوق ساريته الكبرى راية الحلف المقدس.

مائتان وخمسون سفينة في كل جانب

لا تزيد المسافة الفاصلة بين مسينا في مضيق صقلية وبين خليج ليبانت في شمال غرب شبه جزيرة الموره اليونانية عن مائتي ميل، أو مسيرة نهار واحد بالنسبة لسفينة بخارية عادية في أيامنا، غير أن الأسطول قطعها قبل أربعة قرون تقريباً في عشرة أيام وذلك لمواجهة مشكلتين:



طراز المركب التركي الذي اشترك في معركة ليبانت



معركة ليبانت .. رسم فيسانتينو . قصر الدوجات في البندقية

الأولى : انعدام الرياح الموائمة .

الثانية : صعوبة الحفاظ على تقارب السفن التي تجنح عادة نحو التباعد عن التشكيلة الاصلية على شكل ثلاثة طوابير . وقامت بمهمة الحماية بضعة مراكب من اسطول جوان دو كردونا ، ومهمتها اعتراض الطليعة التركية في حال التلاقي صدفة ريثما تتمكن الاساطيل المتحالفة من التأهب للقتال . وكان كردونا يبحر على مسافة ٢٠ ميلا أمام طليعة الاسطول ولكنه كان يقلص المسافة ليلاً إلى ثمانية أميال أو عشرة فقط .

وفي السادس عشر من ايلول ألقى الاسطول مراسيه أمام جزيرة كورفو اليونانية التي كان « علج علي » قد اجتاحها وخربها وغنم ما فيها وكان الرعب لا يزال مخيماً عليها ، ثم استفحل بعد وصول أنباء المعارك الدامية أمام قلعة فاماغوستا القبرصية . وهكذا استمد دون خوان النمساوي المزيد من الحقد والعزيمة على الثأر من العثمانيين .

وبعد سقوط قبرص هدد الاتراك جزيرة كريت ثم ولجوا البحر الآدرياتيكي متوغلين حتى ميناء كتارد على الساحل اليوغوسلافي وهددوا دالماسيا . وفي ٢٦ ايلول لوحظ وجود سفن تركية في مياه جزيرة زانط قرب الساحل الغربي لشبه جزيرة الموره اليونانية ، ولكن سرعان ما جمع علي باشا اسطوله في مضيق ليبانت على حافة المضيق الواصل بين خليج باتراس وخليج كورنث . وبعد أربعة أيام عاد القبطان جيل آندرادا ،

الذي أرسل بصفة كشاف ، وهو يلهث من الارهاق ، حاملاً معلومات ثمينة للقائد العام دون خوان ، مفادها أن الأسطول التركي الذي يضم حوالي مائتي سفينة يبدو منهوك القوى بسبب وباء الطاعون الذي أودى بحياة الكثيرين من قواته . اذن كان الوقت مناسباً للهجوم .

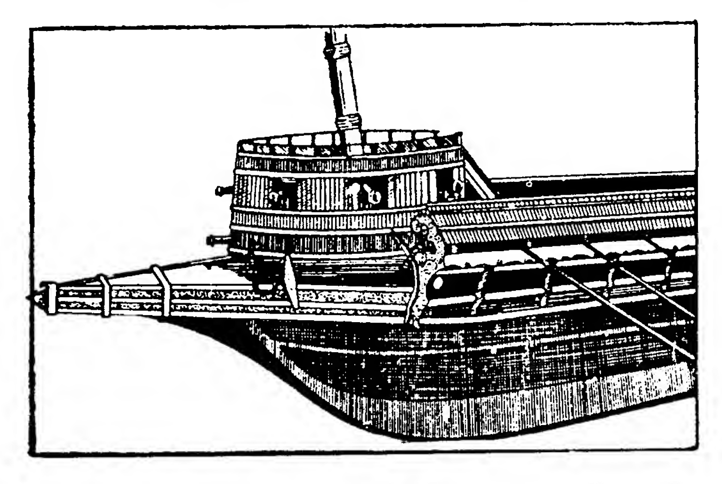


السلطان سليمان الثاني (القانوني)

غير أن المعسكر التركي أرسل أيضا مبعوث مخابرات لاحصاء عناصر الاسطول ، ولكن الظلام خدعه ، فقدم لرؤسائه تقريراً مفرطاً في تفاؤله ولا ينطبق على الواقع. وهكذا اقتنع علي باشا بتفوقه العددي ، فقرر بدوره الانتقال الى الهجوم ، وأقلع الاسطولان كل باتجاه الآخر في وقت واحد تقريبا.

وفي السادس من شهر تشرين الأول أصبح دون خوان على مسافة عشرين ميلاً من السفن التركية الراسية في مدخل خليج كورنث. وفي فجر اليوم التالي أقلعت سفن الاسطول الاوروبي وبعد قليل أبصرت المراكب المتقدمة السفن الشراعية التركية. وتم انزال قبطان ايطالي ، من روما ، الى الارض كي يقوم بتعداد سفن اسطول المسلمين بعد أن صعد فوق قمة تل يشرف على البحر ، ولم يتأخر في نقل معلومات الى قيادته مفادها أن السفن العثمانية تقارب المائتين وخمسين عددا تقريبا ، وأدرك دون خوان بأن معركة قاسية تنتظره ، اذ سيخوضها بسفنه البالغة ٢٠٢ سفينة حربية تتألف في معظمها من أسطول البندقية تدعمها ست شون وزوارق شراعية ، ووجد نفسه أمام الأمر الواقع بالرغم من الاختلاف العددي وليس هناك مجال للتراجع. وقد اتخذ علي باشا في مدخل الخليج مركزاً متوسطاً ، يسانده محمد شيركوه ، باشا مصر ، من الميمنة ، في حين كان «علج علي» في الميسرة. واندفع الاسطول الاوروبي من الممر البحري الفاصل بين جزيرة

اوكسيا الصغيرة وبين رأس سكروفا ، وانتشر حالا على هيئة خط القتال وكانت الشون في المقدمة وفي طليعة جبهة مؤلفة من مائة وخمسين مركباً . أما الاحتياطي فكان على مسافة ما في الخلف تحت قيادة سانتا كروز . وبعد أن قام دون خوان بجولة تفقدية عاد حالاً إلى سفينته « الريال » التي كانت ترفع على صاريتها الكبرى العلم الاحمر والذهبي وقد تم تطريزه خصيصاً لهذه المعركة ، أما علي باشا فقد رفع على سفينته علما بديعا أبيض اللون طرزت عليه بحروف ذهبية بعض آيات القرآن الكريم وكانت الريح تهب عليه من الجنوب الشرقي .



مقدمة شونة بندقية في القرن السادس عشر ومهمازها ومدافعها

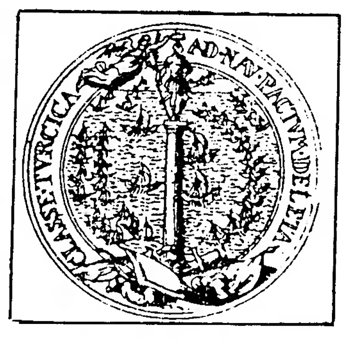
تزعزع الموقف التركي من الهجوم الأول

لقد أعطت طلقة مدفع اشارة بداية أضخم معركة خاضتها المراكب الخفيفة في سائر الأزمنة. ففي الوقت الذي لم يتمكن فيه الاسطول الاوروبي من احتلال مواقعه المخصصة له من قبل القيادة بصورة مرضية، كان الأتراك يقبلون على المعركة تدفعهم ريح طيبة وكادوا يضعون اسطول دون خوان في موقف حرج للغاية. وبلغت قلوب كثير من قوات السفن الاوروبية الحناجر، ولكن سرعان ما سكنت الريح فجأة. وما أن حرم البحارة الاتراك من هذا العنصر الدافع حتى لجؤوا مسرعين الى طي القلوع العديمة الجدوى، بينما راح بعض الجنود يوسعون الجدافين ضرباً بالسياط وهم من الأسرى والرقيق المشدودين بالسلاسل الى مجادفهم كي يبذلوا أقصى طاقتهم في تحريك السفن قدماً الى الأمام. وهكذا تأخر تقدمهم، ذلك التأخير الذي كان مفيداً جداً للأسطول الاوروبي مما أتاح لرجاله اتمام استعداداتهم. وعندما اقترب الاتراك وأصبحوا على مرمى من خصومهم دهشوا من الهدوء السائد في صفوف الاعداء، ولو أمعنوا النظر جيداً لرأوا بأم أعينهم رجال المدفعية وهم على أتم استعداد وأهبة بجوار مدافعهم، والفتيلة في قبضتهم بانتظار الايعاز كي تقصف المدافع كالرعد، في حين كان رماة البنادق في طرفي السفن على الصواري مستعدين لرشق أسطحة السفن التي تقع في مدى رميهم. وعند الظهر فتحت شون البنادقة الاربعة في الجناح الأيسر

والقلب فجأة ناراً جهنمية، سريعة المفعـول للغايـة، على المراكب الاسلامية. وقد نتج عن هذه الرشقة الأولى تحطيم هجمة الاتراك الذين قاسوا منها الامرين وتقرر مصير المعركة بعد بعثرة مراكبهم، وهنا اقتربت مراكب أعدائهم بعضها من بعض مع استمرارها في قذف قنابل ذات مفعول قتّال، ثم أخذت تقتحم السفن التركية في صدامات مذهلة وراح الدم ينساب على ظهر السفن التي أتلفها القصف.

وفي أقصى اليسار كان باربريغو أول من سقط تحت كلاليب مركب الاسكندرية الكبير الذي يقوده محمد شيركوه وأسرعت بضعة زوارق تركية لدعم المركب المصري وقذفت بموجة من الجنود الانكشاريين المدججين بالسلاح وكادت المعركة تودي بحياة باربريغو الذي أثخنته الجراح وتقهقر متراجعاً حتى الصاري الكبير لولا " ...ة التي سارعت نحوه من المراكب الخفيفة الاخرى فقام بهجوم معاكس، وطرد المهاجمين ولحق بهم حتى سفينة القيادة المصرية حيث وقعت ملحمة رهيبة خسر خلالها محمد شيركوه حياته. هذا الانقلاب في الموقف أذهل بعض الربابنة الاتراك مما جعل بعضهم يؤثر الانسحاب في حين كان بعضهم الآخر يتركون سفنهم تجنح نحو البر المجاور. أما الذين آثروا القتال فقد غلبوا على أمرهم واستشهدوا. وانطلق الاسبان والطليان كالحيوانات المسعورة بعد أن أستشرت حميتهم بفضل حماية «المظلة النارية» المؤلفة من طلقات البنادق. لكن جنود الانكشارية الذين كانوا يستعملون

القسي كفوا عن الرمي بعد اطلاق حوالي عشرين سهماً، وكانوا هم الخاسرين في هذه المعركة الرهيبة. وكلما استولى الاوروبيون على مركب من سفن الاتراك كانوا يقومون على الفور بفك اغلال الرقيق المقيدين الى المجاذيف كي يحل مكانهم الأسرى الأتراك، وهكذا حرر الاوروبيون في هذه المعركة زهاء ١٢٠٠٠ رجل بين أسير ورقيق من أبناء جلدتهم.





دون خوان النمساوي، المنتصر في معركة ليبانت
ميدالية تمثل عموداً منصوباً في مدخل خليج ليبانت وعلى قمته تمثال الأمير المتوج بالنصر. وفي الخلف وضع التأهب للمعركة مع عبارة «من أجل هزيمة الأسطول التركي في ليبانت»

القاء رأس القائد العام في البحر

ولكن حتى الآن لم يتدخل بعد معظم الاسطول التركي الى أن تقدم علي باشا الذي كان يدعمه من اليمين واليسار مشاهير رجال

البحرية من أتراك ومصريين وجزائريين وتقدم من مركب القيادة المعادية الذي كان دون خوان على متنه والمعروف برايته الكبيرة وكاد مركبه يلامس المركب الخصم عندما أطلقت النار من كلا الجانبين ، وفتحت قذيفة تركية ثغرة دموية في صفوف المجدفين . ولم يعد قبطان سفينة « الريال » يرى كبير فائده من اطلاق النار من سفينته لان المركبين قد تلاحما وجها لوجه بعنف حطم مهمازيهما . وعندما أصبحت المعركة نوعا من اشتباك كثيف لان الهجوم الذي أدى لتشابك سفينتي علي باشا ودون خوان كان يتكرر على مدى البصر . وكان قرع الطبول ونفير الابواق هو الذي يخفي في فترات قصيرة جدا صيحات المحاربين وأزيز طلقات البنادق الذي لا يكاد ينقطع ، وأصبح الاشتباك شاملاً ، حتى أن المجذفين الذين جعلهم تلاحم السفن أحراراً اشتركوا في هذا القتال الضاري وأنجز الفأس والخنجر والسيف ما بدأته الأسلحة النارية .

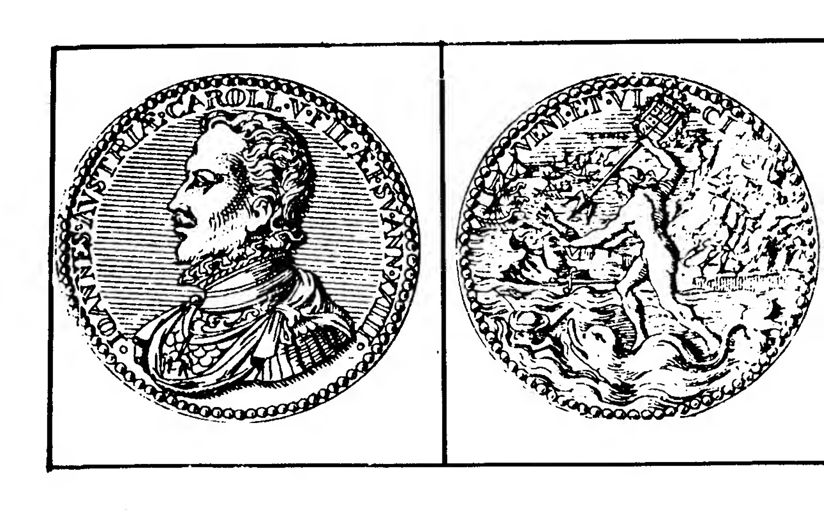
وقد تعرضت سفينة علي باشا لهجومين ولكنها استطاعت التخلص منهما مثلما تعرضت « الريال » لموقف مماثل وأمضى دون خوان فوق ظهرها مدة ربع ساعة حرجة للغاية . غير أن كولونا أنجده باقتحامه سفينة علي باشا من الخلف مما اضطر سفينة القيادة التركية للمحاربة على جبهتين . وهنا بلغت المعمعة الدموية ذروتها ، وعندما أوشك علي باشا على السقوط أسيراً طعن نفسه منتحراً ، فوثب عليه جندي من

الأعداء، واحتز رأسه وحمله الى دون خوان الذي ألقاه في اليم من على ظهر سفينته. أما على جناح الأسطول الاوروبي الايمن فكانت تدور معركة رهيبة ظلت محتدمة دون أن تلفت الانظار ضمن هذا التدخل المذهل بين عناصر الاسطولين. فقد باغت «علج علي» سفن فرسان مالطة قبل أن تتمكن من تشكيل جبهة دفاعية متماسكة ونشر بينها الموت الرهيب بشراسة لا مثيل لها، ولا سيما انه كان يقاتل عدوه اللدود، وهكذا استولى الاميرال الجزائري على راية الصليب المالطي.

ولكن وفي هذه الفترة بالذات كان مصير المعركة قد انقلب لغير صالح الأتراك فقد وصل سانتا كروز، الذي ظل حتى الآن مع سفنه كقوة احتياطية لنجدة فرسان مالطة، ولحق به دون خوان الذي علم بقرب وقوع كارثة. وهنا التأم شمل القطع البحرية الاوروبية المنعزلة واتجهت نحو قلب المعركة. وعندها لاحظ علج علي ان سير المعركة لا يترك له أي أمل بالفوز، لا سيما بعد اختفاء راية علي باشا القائد العام من فوق سطح البحر، فآثر الانسحاب بسرعة واستغل هبوب رياح موافقة فأشرع مراكبه واختفى باتجاه مضيق ايثاك.

وهكذا لم ينج من الأسطول العثماني سوى ثلاثين سفينة، واعتبرت اوروبا هذه المعركة ثأراً لسقوط فاماغوستا. وخسر الأتراك ثلاثين ألف قتيل ووقع بضعة آلاف منهم في الأسر، شد وثاقهم مباشرة الى مقاعد التجديف على السفن المأسورة.

ولما زادت حدة الرياح الجنوبية الشرقية التي ساعدت الاميرال الجزائري على الانسحاب قاد دون خوان اسطوله الى ملجأ أمين في ميناء بيتالا ، في حين أقلعت سفينتان باتجاه مسينا لنقل أنباء الانتصار على الأتراك . وهكذا انتهت معركة ليبانت وتأكدت سيطرة الاوروبيين على البحر الابيض المتوسط .



دون خوان النمساوي

الميدالية ذاتها وتمثل نبتون على ظهر دلفين وهو يقتل بحربته المثلثة القائد التركي، كما يظهر أتباعه وهم يلوذون بالفرار



الأرمادا
التي لا تقهر

ـتموز ـ آب ١٥٨٨ م

زوبعة من ريح صرصر عاتية ...

وقضي على أقوى اسطول في العالم



تلك هي مسؤولية تقع على عاتق الريح ... وهكذا نستطيع، اجمالاً، تفسير دمار نسبة جسيمة بلغت ٦٠٪ من أضخم اسطول عرفه العالم وبعثرته، انه اسطول الارمادا، ذلك لأن المعركة البحرية ليست هي التي ثبتت كتفيه على الحلبة ...

لقد مر سبعة عشر عاماً على معركة ليبانت حيث كانت الراية الاسبانية هي الخفاقة، بعد أن كان لها النصيب الأوفى في تدمير الأسطول العثماني، واعتقدت الحكومة الاسبانية ان باستطاعتها أن تعيد الكرة. فقد شعرت بأنها على قدر من القوة على متن البحار يجعلها لا تخشى أحداً. صحيح أن الانكليز كانوا يحسدونها على هذا التفوق، ولكنهم لم يكونوا الا في بواكير تطلعاتهم البحرية، فقد كانوا ينتظرون بكل تواضع الوقت الذي تأزف فيهم ساعتهم.

في عام ١٥٧٠ أنزل البابا بيوس الخامس عقوبة الحرمان بالملكة اليزابت الأولى ورماها بالهرطقة، ودعا الأمم الكاثوليكية لاعلان الحرب

المقدسة عليها ، وبعد أن توجت اسبانيا مفرقها باكليل المجد في ليبانت شعرت بأنها مدعوة لكي تكون على رأس هذه الحملة الصليبية الجديدة . أما الملك فيليب الثاني ، الذي كانت آماله قد خابت في تطلعه الى التاج الانكليزي ، والذي كان يجتر حقده الذي نتج عن اعدام الملكة ماري ستوارت في عام ١٥٨٧ ، فقد تصور ان حملة على انكلترا ، متمتعة بتشجيع رسمي من كرسي الفاتيكان ، لن تسمح له بالانتقام من الهراطقة فحسب ، بل من القراصنة الذين اشتطوا في تعدياتهم على أجزاء عدة من امبراطوريته الاستعمارية . وكان على رأس هؤلاء القبطان الشاب المتغطرس فرانسيس درايك الذي لم يقنع بتدمير سواحل البيرو وسان دومينغ وقرطاجة ، بل اندفع وهاجم لشبونة وقادس ، حيث قضى على اسطول من السفن التجارية وأحرق مخازن البضائع على طول أرصفة هذين الميناءين واختطف العديد من السكان ، تماماً كما فعل أجداده النورمان قبل سبعة قرون ونصف تقريباً ، وعلى التحديد في عام ٨٤٤ م إبان الحكم العربي الاموي في الأندلس ، اذن حان الوقت لكي يعيد الملك فيليب هؤلاء الانكليز الى جادة الصواب ، ولا سيما بعد أن سنحت الفرصة الملائمة .

لم يكن فيليب الثاني يفتقر الى الموارد المالية ، فقد كان ملكاً على اسبانيا والبرتغال ونابولي وصقلية ودوقية ميلانو ، ومقاطعة فرانش كونتيه في شرقي فرنسا ، ونصف القارة الامريكية ، هذا كما استولى على اقليم

افريقية وعاصمته تونس، ووهران، وجزر الرأس الاخضر وجزر الخالدات (كناري) . أما فرنسا التي كانت تمزقها الخلافات المدنية فلم تكن مؤهلة لان تبدي أي مقاومة .

مائة وتسع وعشرون قلعة عائمة

لقد استطاع فيليب الثاني بعد أن بذل جهوداً جبارة كلفته ١٢٠ مليون دينار ، واستنزفت شطراً كبيراً من ميزانية خزينته ، وأثار حركة محمومة في العديد من الموانىء ، أقول استطاع أن يبني اسطولاً عملاقاً مؤلفاً من ١٢٩ سفينة حربية تجهزت بمقدار ٢٦٤٠ مدفعاً ، ومزودة بذخائر تفوق التصور . وكان على متن هذا الأسطول ١٠٠٠٠ بحار و ١٨٠٠٠ محارب من قوات الانزال الموضوعة تحت أمرة دون دييغو دو بوباديللا ، وكان بينهم أفواج من صقلية ومن نابولي ، ومن الهند ، والاندلس ، ومن البرتغال وسرايا خالصة من قشتالة القديمة .

واذا تأملنا عن كثب تلك العمارة البحرية وجدناها مؤلفة من « قلاع طافية حقيقية » وثقيلة نوعاً ما ، وليس فيها ما يماثل تلك السفن الشراعية الخفيفة التي كان جنود كيخسرو يسحبونها فوق رمال الشاطىء . واليكم عناصر اسطول الارمادا :

البرتغال : بقيادة الاميرال دوق سيدونيا . ويضم ١٠ من سفن

الشحن، ٢ من السفن الحربية (غراب)، ١٣٠٠ بحار، ٣٣٠٠ جندي، ٣٠٠ مدفع.

قشتالة: بقيادة الاميرال دون دييغو فلورس دوفالدس، ويتشكل من ١٤ سفينة شحن، وخافرتين، ١٧٠٠ بحار، ٢٤٠٠ جندي و٣٨٠ مدفعاً.

الأنــدلس: وكان على رأس قواتها الأميرال دون بدرو دو فالدس، وتحوي ١٠ سفن شحن، و٨٠٠ بحار، ٢٤٠٠ جندي، ٢٨٠ مدفعا.

بيسكــاي: ويقـود عمـارتها الاميرال دون جوان مارتينـز دو روسكالد، وتتألف من ١٠ سفن شحن، و٤ من السفن الخافرة، و٧٠٠ بحار، و٢٠٠٠ جندي، و٣٥٠ مدفعاً.

غيبيزكوا: بقيادة الاميرال دون فيغل دو اوغندو. وتتألف قواتها من ١٠ سفن شحن وخافرتين ومركبين خفيفين، ٧٠٠ بحار، ٢٠٠٠ جندي، ٣٥٠ مدفعاً.

ايطاليا: وكان على رأس قواتها الاميرال مارتان دو برتندونا، وتضم ١٠ سفن حربية و٨٠٠ بحار و٢٠٠٠ جندي و٣١٠ مدافع.

أما عمارة دون جوان غوميز دوميدينا فكانت تضم ٢٣ شاحنة على متنها ٧٠٠ بحار و٣٢٠ جندياً و٤٠٠ مدفع.

وكان دو انطونيو هورتادو دو مندوزا على رأس عمارة مؤلفة من ٢٢ خافرة وسفن نقل ضخمة وسفن حربية من فئة الغراب، تحمل جميعها ٥٧٠ بحاراً و٥٨٠ جندياً و١٩٣ مدفعاً.

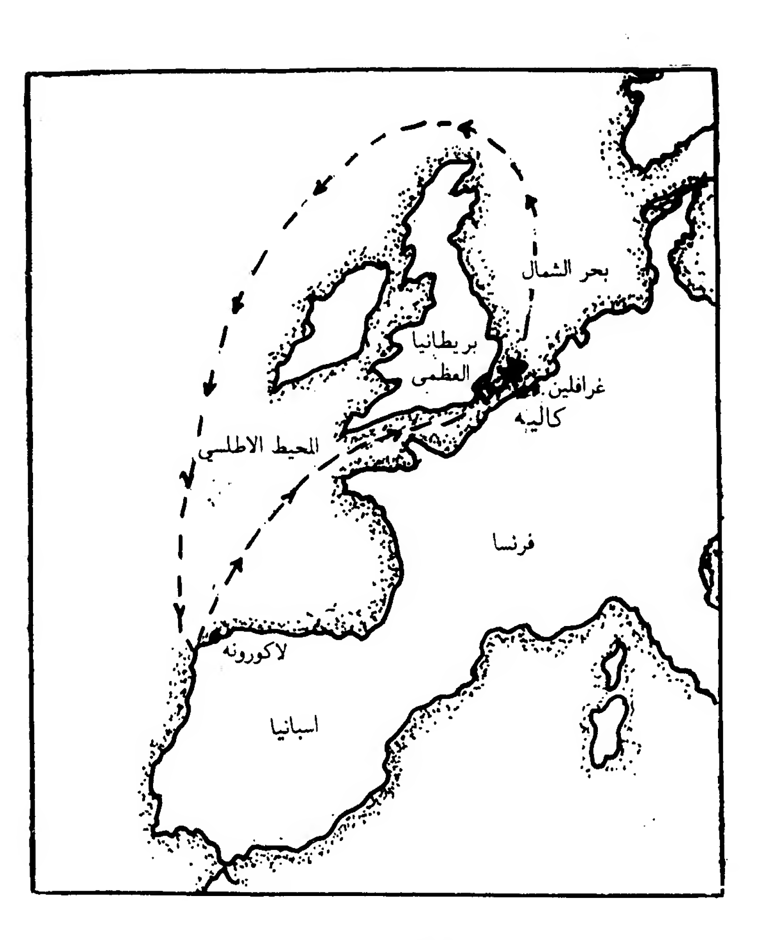
هذا كما كان دون هوغو دو منكادو على رأس عمارة تتألف من أربع سفن شحن تحمل ١٦٦٠ بحاراً و٨٢٠ جندياً و٢٠٠ مدفعاً.

وأخيراً كان تحت أمرة دون دييغو دو مدرادو أربع نقالات عليها ١٢٠٠ بحاراً و٢٠٠ مدفع.

وكانت كل هذه السفن مصفحة بدروع خشبية فوق خط العوم. غير أن وجود أربع سفن نقالة يثير الاهتمام في هذا التعداد. والواقع كانت كل واحدة من السفن المذكورة، التي كانت تحت قيادة دون هوغو دو منكادو، تحمل ٤١٥ جدافاً و٢٢٠ جندياً و٥٠ مدفعا وتتمتع بميزة الاستقرار النسبي في البحر. ووصلت احداها وهي «كونيغا» الى ميناء الهافر بعد ٦٠ يوما من الابحار في المحيط بالجداف كان منها ٥٠ يوماً من العواصف والمعارك. ويا له من احكام في لصنع...

مسألة حرجة: عبور مضيق بادوكاليه

ويبدو أن أكثر الفترات حرجا وخطورة كانت اجتياز مضيق



طريق اسطول الارمادا

بادوكاليه تحت أبصار الانكليز ومسامعهم، والذين أحيطوا علما سلفا بأنباء هذه الاستعدادات التظاهرية.

وكان على هذا الاسطول الذي أنيطت به مهمة معاقبة الانكليز أن يجتاز فعلاً المضيق كي يبلغ اقليم الفلاندر ليضم الى قواته ٢٥٠٠٠ جندي بقيادة الكسندر فارنيز دوق بارمه والذي كان يحكم هذه البلاد بعد وفاة دون جوان النمساوي. وقد احتشدت هذه الحملة المكلفة باحتلال لندن، في منطقة غرافيلين ودونكرك ونيوبور، وهي على أتم الاهبة للانقضاض على انكلترا من فوق اسطول سفن مبسطة كان لاغنى عن وجود اسطول حربي لحمايتها. وقد واجه كل من نابليون وهتلر المشكلة ذاتها عندما استعدا أيضا للقيام بعملية «انزال».

كان مخطط فارنيز واضحا كما سبق وكتب ذلك: «اذا قبلت ملكة انكلترا الحرب على سطح البحر فإن النصر آت لا ريب فيه، أما إذا فضلت الحرب فوق البر والبحر في آن واحد اذن سيكون الحل أيضا أكثر خطورة عليها،إذ سيكون عليها عندئذ تقسيم قواتها. أما اذا انتظرت قدومنا فوق البر فلن يكون أمام الاسطول المنطلق من اسبانيا الا تدمير السفن الانكليزية، وسأجتاز المضيق فوق سفني المسطحة، وسأنزل في ميناء مارغات[1]. وكل ما أرجوه فيما بعد هو تأمين عدد كاف

---

(١) في اقليم كنت، على جزيرة ثانت، جنوب انكلترا.

من السفن تنقل لي الامدادات والمؤن من بلاد الفلاندر ومن اسبانيا، دون أن أهتم بالاعداء أكثر مما يجب». وكان يبدو للعيان ان فارنيز كان يرغب في أن يقذف على البر بقوات احتلال تاركا للاسطول الاسباني مهمة تحييد البحر، وهي الطريقة الوحيدة لتحقيق النصر المنتظر.

وقد اختار الملك فيليب الثاني لقيادة هذا الاسطول الذي لم يسبق له مثيل: والذي أطلق عليه اسم «الارمادا الذي لا يقهر»، القائد العام للأساطيل الأسبانية دون الفارز دو باسان، ماركيز سانتا كروز، والذي نالت مبادرته في معركة ليبانت ضد العثمانيين تقديراً عظيماً. وكان ينظر اليه على انه أفضل قادة البحر في عصره. وقد قبل سانتا كروز «عصا الماريشالية» بكل حماسة، ورسم مخططات مشجعة للغاية، ولكنه عمد الى ارتكاب أسوأ «خديعة» تجاه ملك اسبانيا: ذلك انه مات بغتة في أثناء الاستعداد للمعركة بتاريخ ٩ شباط ١٥٨٨.

وعلى أثر ذلك أنيطت القيادة بالدون الفونسو بيريز دوغوزمان، الملقب بالطيب، دوق ميدينا سيدونيا، الذي كان عمره لا يتجاوز الثانية والثلاثين عاماً، وهو بحار سقيم لانه كان يشكو من دوار البحر، وهو أكثر خبرة بحفلات البلاط الصاخبة، وبقواعد آداب اللياقة، من معرفته بنزوات الريح وبتيارات بحر

المانش الشديدة، وبعواصف بحر الشمال الفجائية. وكان رزين الطباع ويهتم بالصغائر، وقد اتخذ لنفسه مسلكا هو تبني المخطط الذي يتوقع كل الاحتمالات، ولكنه يخلو من أية مبادرة شخصية. وقد أهمل منذ البداية الحيطة التي وضعها سلفه سانتا كروز والتي كانت كافية لانقاذه فيما بعد: وهي جعل أحد موانىء الفلاندر حراً تحت التصرف لتلافي انسحاب اضطراري، أو على أثر عاصفة مباغتة أو أي حادث طارىء. وقد نصحه دوق بارمه باحتلال ميناء فليسنغ الهولندي. ولما كان ذلك غير وارد في الخطة فإنه لم يعره أي اهتمام.

«اقتلوا ولكن لا تحلفوا»

وفي تاريخ ١٩ أيار ١٥٨٨ استعرض فيليب الثاني «الارمادا التي لا تقهر» وهي ترفع مراسيها وتغادر لشبونة. وكان الدوق ميدينا سيدونا قائد العمارة البرتغالية ينصب رايته فوق صارية «سان مارتن» وهي سفينة حربية مجهزة بثمانية وأربعين مدفعاً ويعمل فوقها ١١٧ بحاراً وتحمل ٣٠٠ جندي. وهكذا امتطى قسم كبير من نبلاء الاسبان المراكب الحربية التي كانت مصحوبة بعدد كبير من سفن النقل. وكان في عدادهم الكثير من المتطوعين، فضلا عن سفينة خاصة بالفتيات (لراحة المحارب) فضلاً عن كتيبة مؤلفة من ١٧٠ كاهناً من الجزويت

والدومينيكان والرهبان ، والذين كان الغرض من ارسالهم ارشاد الهراطقة وردهم الى ممارسة المذهب الكاثوليكي بكل حرية .

ويروى أن « الاسبان أخذوا معهم سفينة خاصة مشحونة بالحبال لشد وثاق الهراطقة العتاة فضلاً عن سفينة أخرى مليئة بالسياط لجلد الانكليزيات العاصيات . هذا بالاضافة الى ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ مرضعة لتربية الأطفال الذين سيؤتى بهم كرقيق ، لان كل الذين تتجاوز أعمارهم العشرة أعوام ستكوى جباههم بالحديد الحامي الأحمر » . وربما كان في ذلك بعض المبالغة . ولكن هذا لا يمنع من القول بأن عنابر السفن كانت حاوية على أدوات التعذيب لاقناع العنيدين بضرورة الانصات الى الكلام المقدس .

أما الناحية الصليبية فلم تكن مهملة اطلاقاً . فمن جملة التعليمات التي تلقاها القائد العام ميدينا سيدونيا وقرأها علنا وعمم هذه الفقرة التي ارتأى أن يتقيد بها الجميع : « عليكم أن تهتموا على الخصوص بتطبيق العقاب المشدد والنموذجي على كل الذين يتعدون عن أوامر أمنا المقدسة ، الكنيسة ، وأن تحولوا مهما كلف الأمر بين البحارة والجنود وبين الحلف والشتم ، الأمر الذي يمثل اهانة خطيرة للرب سيدنا ، وجرى تعميم التعليمات ذاتها على كل القادة ، ولكن عليكم أن تكرروا عليهم هذه الأوامر كلما اقتضى الأمر ذلك ، وهذا خدمة للرب سيدنا » .



ميدالية تذكارية لهزيمة «الأرمادا التي لا تقهر». يظهر رجل وامرأة وابناهما يصلون راكعين وتقول العبارة «العبد في التفكير والرب في التدبير». وفي الصورة الثانية يظهر الأسطول المحطم بالعاصفة مع هذه الكلمات: لقد جاء اسطول اسبانيا وذهب وكان..

أما في دير الاسكوريال الذي تم بناؤه قبل قليل، فقد تلقى الكهنة أمراً بأن يتبادلوا «ضربات الانضباط» أو سوط التوبة، بتاريخ الرابع من حزيران، وهذا ابتداء من صلاة السحر، في داخل الخورس، وذلك من أجل النصر السعيد الذي ينتظره الأسطول.

وبتاريخ ٢٦ حزيران انطلقت مسيرة مؤلفة من مائة وعشرين شخصاً كانوا يتفانون في تبادل ضربات السياط، تحت أبصار جمهور خاشع، وعلى رأسهم الملك، والأمير فيليب، والابنة الثانية ايزابيلا، الذين كانوا ينظرون الى هذا الموكب من احدى نوافذ القصر.

انكلترا على اهبة الحرب

أما في المعسكر الآخر فلم تكن انكلترا غافلة. فبعد أن استخفت الملكة اليزابت بالتهديد أخذت تعير هذه القضية ما تستحق من اهتمام جاد وراحت تشجع شعبها على المقاومة، فاستطاعت أن تزوده بقناعة لا تقل عما فعله ونستون تشرشل في حزيران ١٩٤٠ عندما انكفأت الجيوش البريطانية تجر أذيال الخيبة الى الجزيرة تاركة الجبهة الفرنسية وكان يتعقبها الطيران الألماني. ولا بأس من التنويه بالمناسبة أن حاجات الدعاية الحربية اقتضت ظهور أول صحيفة عبر المانش، هي ذي انكليش مركوري.

وكانت سفن التاج البريطاني تحت قيادة أمير البحر الاكبر اللورد هوارد اوف ايفنغهام. أما الأسطول المساعد فكان تحت قيادة قادة جسورين مثل اللواء البحري فرانسيس درايك صاحب الشخصية الأسطورية، والمغامر والترلي، وهو الذي ظهر لأول مرة أمام الملكة اليزابت وألقى بمعطفه على الوحل كي تسمح له بالنزول إلى مركبه، والعالم مارتن فوربيشر، والروائي كمبرلاند وروبير سيسل، وهو كونت ثمبرلاند وابن رئيس الوزراء، والرجل الهرم جون هوكنس... الخ. وقد جهز هذا الأسطول وجرى تسليحه على نفقة الموانىء الكبرى، وكانت

تقع مهمة مراقبة موانىء ساحل الفلاندر وتحييدها على عاتق اسطول خفر السواحل بقيادة هنري سيمور.



الأميرال فرنسيس درايك

—من أبرز رجال البحر الانكليز في معركة الأرمادا—

كان الشعب البريطاني في ساعة الخطر يؤلف جبهة واحدة، تماماً كما حدث في عام ١٩٤٠ . وهكذا كان الانكليز يتبارون في بذل التضحيات والتفاني لصنع الأسلحة المهيأة لرد الغزاة وصدهم. وتكلفت لندن لوحدها وعلى نفقتها بتحويل ثلاثين سفينة عادية الى سفن حربية. وقام النواخذة بتعطيل جوانب السفن التجارية كي يجهزوها بالمدافع ولكي يجعلوا منها بطاريات عائمة رابضة على نهر التايمز.

ونصب فرنسيس درايك رايته على السفينة تريومف، وهي سفينة حربية مجهزة بأربعة وثلاثين مدفعاً وعلى متنها ٩٠٠ رجل، وكان تحت امرته عشرون سفينة تتراوح حمولتها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ طنة[1]، وأفضلها تسليحا كانت مجهزة بواحد وثلاثين مدفعا وأقلها تسليحا بأحد عشر مدفعاً. وكان يتبع هذه السفن ثلاث سفن نقل ضخمة وتسعة مراكب خفيفة سريعة، وزهاء ١٥٠ قارباً مسلحاً «من التي قدمت من سائر مراسي المملكة كي تحتشد حسب اتفاق عام». وهكذا كان الانكليز يستعيضون عن ضعفهم العددي، من حيث الحمولة الاجمالية، بدقة أفضل وبسرعة أكبر بكثير في مضمار الرمي،

---

(١) الطنة أو tonneau مقياس بحري يعادل حجماً مقداره ٢٫٨٣ م^3.

فكانوا سريعي المناورة وحاذقين . ولم يكن لديهم الكثير من البارود ، ولا شيء من الأقوات تقريباً ، ولكن هناك حماسة وحمية عارمتين .

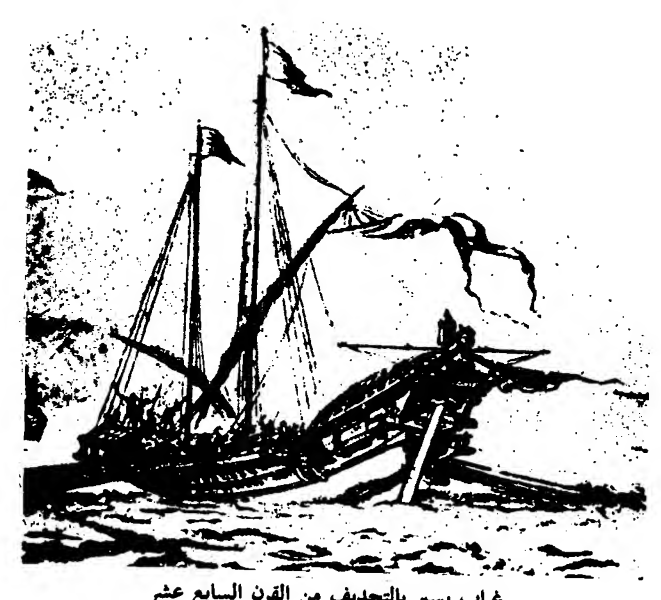
وتبعثر الأسطول من أول عاصفة

ما أن أقلع أسطول الارمادا من لشبونة حتى واجهته أول نكبة تجاه رأس فينيستر شمال غرب اسبانيا . فقد هبت عاصفة بعثرت السفن فلم يجرؤ ميدينا سيدونيا على مواصلة سيره باتجاه انكلترا خشية فقدان بعض وحداته ، وقرر التجمع في ميناء كورونيا الاسباني ، حيث وجد فيه ملجأ أميناً لقسم من الأسطول ، في حين احتمت بعض القطع بصعوبة بميناءي فيغو وفيرول على ساحل غاليسيا . وتطلب الأمر قضاء ثلاثة أسابيع لاصلاح الاضرار . وهكذا ضاع وقت ثمين كان بالغ الضرر على الروح القتالية لدى رجال البحر والقوات المحمولة . وربما كانت الحالة المعنوية أكثر انخفاضاً لو علموا بأخبار فارنيز الذي كان محاصراً وعاجزاً عملياً بفعل قوات سيمور الانكليزي ، فنفذ صبره ، وعزف عن الخروج إلى عرض البحر مع جيشه المؤلف من طليان وألمان واسبان ، والذين أصابهم الوهن المعنوي والتفكك من طول الانتظار . غير أن الأسطول ظل على درجة من القوة تسمح له بأن يفرض لوحده الهزيمة على الأسطول الانكليزي الصغير « الذي كان مغامروه وقرصانه أكثر

قدرة على نهب المدن المحرومة من الدفاع والصمود أمام أول قوة بحرية في العالم » .

وفي الثاني عشر من تموز استأنف ميدينا سيدونيا حملته ، ويقول آخرون أنه خرج إلى عرض البحر في الثاني والعشرين من تموز ، ويعود اختلاف التاريخين الى الاعتماد على التقويم اليوناني أو التقويم الغريغوري . وليس لها أهمية كبرى ، لأن الأهم هو أن الأسطول أبحر في وقت بلغ فيه مسامع اليزابت أن البحر يخلو من أي أثر للارمادا . فاعتقدت بزوال التهديد ولجأت الى نزع التسليح عن نصف سفنها في حين خفضت مخصصات أفراد الجيش الى النصف . وفعلاً ومنذ فترة طويلة كانت تدابير الاقتصاد قد دفعت الى استبدال حصص البحارة من لحم العجل والعجة بالسمك والزيت . ولكن ما أن ظهر الأسطول الاسباني حتى أدى الاستعداد للقتال الى عودة الجميع للتأهب لمباشرة الحرب . فأقلع تشارلز هوارد دون أي تأخير ، ورفع رايته فوق سفينته آرك رويال المسلحة بواحد وثلاثين مدفعاً .

أما الأسطول الأسباني فقد أقلع متقدماً ، تدفعه ريح خلفية ، على شكل ثلاث مجموعات مرتصفة على خط جبهة . وكان الأميرال ميدينا سيدوينا في القلب . وفي التاسع والعشرين كان ينتظر عند رأس ليزارل في جنوب غرب الجزيرة البريطانية ، على رأس قافلة مؤلفة من ثلاث واربعين سفينة . وكان باستطاعته القيام بمناورة خاطفة يكتسح فيها



غراب يسير بالتجديف من القرن السابع عشر

ميناء بلايموت الذي سيقع في يده كثمرة يانعة ويصبح الطريق الى لندن مفتوحاً أمامه، غير أنه كان منهمكاً بتجميع بعض المراكب الضالة، فأهمل هذه الغنيمة الباردة. غير أن هذه السلبية غير المتوقعة ألهبت حماسة البحارة الانكليز فخرجوا في عشية الحادي والثلاثين من تموز والتفوا من حول السفن الأسبانية الراسية وظلوا على مسافة معقولة منها، وقذفوها ببعض الرشقات من مدفعيتهم التي لم تكن قاتلة مثلما كانت

ذات ضجيج. وكان من جراء تلك الليلة خسارة الأسبان ثلاث سفن منها «نوتردام دل روزاريو» وهي سفينة القيادة في عمارة فالديز، التي راحت ضحية اصطدامين، و«سانتا كاتالينا» التي سقطت بالأسر وعلى متنها قسم من خزينة الارمادا. وجاءت هذه الخسائر الأولى لترفع الى القمة معنويات البحارة الانكليز في الوقت الذي أصابت فيه الاسبان بالذهول، ولكنهم لم يكونوا شديدي القلق فقد كانوا يأسفون على الخصوص، بعد ضياع سانتا كاتالينا، على خسارة مائتي برميل من البارود سقطت بأيدي أعدائهم، والذين كانوا في أمس الحاجة اليها.

وجاءت الأيام التالية لكي يخسر ميدينا سيدونيا الكثير من الوقت في مطاردة عدو من المحال الامساك به، ولكنه حاضر على الدوام. ولجأ هوارد عدة مرات الى التكتيك الذي نجح فيه أيما نجاح أمام ميناء بلايموث. ولما كان يعاني من نقص عددي فقد كان يتحاشى المعركة القريبة التي يكون التفوق فيها للاسبان، بفضل حواشي سفنهم العالية والتي تمنحهم مرابض ممتازة بالنسبة لرماة البنادق. وبعد يومين وتجاه ميناء بورتلاند وجزيرة وايت تراشق الاسطولان بالمدفعية ولكن دون أن يتسببا في الحاق الكثير من الأضرار بقطعهما الحربية.

الكارثة وقعت في كاليه

وفي السادس من شهر آب، وحوالي الساعة ١٦ ألقت

الارمادا التي لا تقهر « بمراسيها أمام ميناء كاليه الفرنسي بعد أن أصابها الاعياء من هذه السفن الشراعية الصغيرة التي أرهقتها ومن القنابل التي غربلت جوانبها ».

وتساءل ميدينا سيدونيا ماذا يصنع فارنيز في موانىء الفلاندر ؟ والواقع كان يجهل أن هذا قد عدل عن حملته لما وراء المانش، فظل ينتظر ويطرح على نفسه هذا السؤال، عوضاً عن أن يندفع نحو خليج (دون) القريب لكي يصفي حسابه مع البحرية الانكليزية، والتي كانت بدورها قد أصبحت خائرة القوى وتفتقر للذخائر افتقاراً شديداً. وقد ارتكب خطأ جسيماً بتقاعسه على هذه الصورة على مرأى العدو ومرمى سلاحه. ولقد تحاشت البحرية الألمانية الوقوع في الخطأ ذاته عام ١٩٤٢ عندما اجتازت طراداتها المحاربة بحر الشمال. فقد تسللت شارنهورست غنايسنو وبرانز اوجين في أقصى سرعة ممكنة بين جروف ساحل غرينيه الفرنسي وجروف دوفر الانكليزي.

استغل تشارلز هوارد هذا الخطأ على أفضل وجه. فقد ذهب أولاً للتمون بالبارود كي يقوم فيما بعد بالهجوم لأن الحامية الفرنسية كانت تقف موقف المتفرج من أعالي أسوار مدينة كاليه. فقد عمد هوارد الى تشكيل عمارة صغيرة في ليلة السابع من آب مؤلفة من ثماني سفن للتضحية بها وانطلق مع سفنه اضافة الى حراقات مشحونة بالبارود

وبالحديد الخردة. وفي ظلمة الليل وبينما كان يحرس أسطول الأرمادا الغافل القليل من الرجال في الهزيع الأخير من الليل، انطلقت ثماني رزم «ذات وميض رهيب» منبثقة من وسط البحر. وكان بالامكان أن يميز الانسان السنبوكات الانكليزية التي سحبت الحراقات، وهي تبتعد بقوة المجاذيف هذا في حين كانت موجة المد تدفع الاسطول المتوهج نحو الحشد البحري الاسباني اللامبالي.

وهنا استولى الذعر على رجال الأسطول الأسباني، فصدرت الأوامر بالاقلاع الذي تم خلال أكبر قدر من الفوضى، وتهاوت الفؤوس على الحبال (الكابلات) للافلات من المراسي في أسرع وقت ممكن. وما زالت حتى الآن تتناثر في قاع الخليج بقايا المراسي المتروكة، وراحت السفن التي كانت تتهالك على بلوغ عرض البحر تتصادم مع بعضها وتتسبب في الكثير من الأضرار. وجنحت سفينة كبيرة على جانبها عند مدخل ميناء كاليه، وفقد قبطان النقالة «سان لورنزو» وهو غودو مونكاد السيطرة على سفينته التي اشتبكت مع غيرها من السفن فأغلقت الطريق الى الميناء، وهنا أمطرها اللورد هوارد بقذائفه، ولما جنحت النقالة على خاصرتها أصبحت بطاريات مدفعيتها عاجزة عن الرد عليه بمدفعيتها. ورمى البحارة والمجدفون بأنفسهم في البحر في محاولة لبلوغ البر سباحة. وقام السينيور دو غوردان حاكم ميناء كاليه بالتقاطهم بواسطة السنابيك الخفيفة. وقامت المدفعية الساحلية

الفرنسية الرابضة في ميناء كاليه بطرد البحارة الانكليز، الذين راحوا ينهبون النقالة «سان لورنزو»، برشقة واحدة، بعد أن قتلوا هوغودو منكادو مع حفنة من ضباطه.

وفي خلال هذا الوقت الذي كان الأسطول الأسباني يتعرض فيه لريح عاتية قادمة من الشمال الغربي أخذت سفنه بالجنوح على رمال دونكرك الساحلية في حالة من الفوضى والذعر. وابتداء من تلك الفترة قضي الأمر وتخلصت انكلترا من التهديد وتوجت هامتها بأكليل النصر.

وبينما كان الأميرال ميدينا سيدونيا يكافح ضد البحرية الانكليزية التي كانت منهمكة في احراق آخر أوقية في بارودها، وضد الريح التي كانت تزداد برودة من ساعة لأخرى بزغ نور فجر اليوم العاشر من المعركة. وهكذا أصبحت سفن «الأرمادا التي لا تقهر» متناثرة على رمال الفلاندر بين مدينة كاليه الفرنسية غرباً وحتى ميناء اوستند البلجيكي شرقاً. واستطاعت سفينتا شحن أن تفلتا من الحصار وتنطلقا إلى عرض البحر وهما: «سان فيليب» التي كانت مهشمة لكثرة القذائف التي أصابتها حتى أن ربانها لم يعد قادراً على السيطرة على دفتها، و«الريال» التي انساحت في الاتجاه ذاته.

الأسطول يجر أذيال الهزيمة

وفي العاشر من آب عاد الانكليز لموانئهم تاركين الأميرال

سيدونيا يكافح ضد العاصفة التي كانت تنهش اسطوله. كما كانت السفن فريسة سهلة للرياح الهوجاء، فقد كانت تتلاحم مع بعضها بعضاً وتتراص كقطيع من الخراف المذعورة. وكانت أنبار الذخيرة فارغة تقريباً شأن عنابر الأقوات. وكان الانتظار أكثر من ذلك في مثل هذه الأوضاع ضرباً من الجنون، وشعر الأميرال ميدينا سيدونيا بهذا الوضع تماماً. وعلى أثر جلسة مع الضباط المدعوين الى سفينة الأميرالية أصدر أمره بالاتجاه نحو طريق العودة الى أسبانيا. ولم يكن هناك مجال للابحار صعدا في عكس اتجاه الرياح. وعوضاً عن الالتجاء الى ميناء ايمدن الألماني كما نصحه بعض ضباطه، أمر بالقيام بحركة التفاف كبيرة حول الجزر البريطانية شمالاً، وهي مغامرة جنونية بالنسبة لبحارة اعتادوا على بحار الجنوب. وتناثر الأسطول المتعجرف في الضباب وراح كل يتدبر أمر نفسه بصورة كيفية. ولم يعد قائد «الأرمادا التي لا تقهر» يعطي أية أوامر غير «البحث عن الخلاص المستطاع».

وكانت العودة فوق متن بحر هائج عبارة عن عذاب الموت المرير. فقد استمرت العاصفة مدة أحد عشر يوماً وكان الجرحى يتساقطون صرعى بالمئات، ولم يكن لديهم من ماء للشرب سوى ما يجمعونه من قطرات ماء المطر. وضاعت على طول طريق الانسحاب اللامتناهي بعض وحدات الأسطول التي أصبحت هياكلها تتناثر على السواحل أو اختفت كلية دون أن تترك أثراً بعد غرقها. أما البحارة الذين غرقت

سفنهم تجاه الساحل الهولندي فقد كانوا أقل من سواهم تعاسة وبؤساً، اذ أعتبروا أسرى بكل بساطة، هذا بينما تهشمت سفن الآخرين مع خسائر في الأرواح تجاه سواحل جزر شتلاند وأوركاد وهبريد في شمالي الجزر البريطانية، وفي الثامن من أيلول اندفع الناجون في قناة سان جورج الفاصلة بين الجزر الانكليزية وبين ايرلندا لأن الريح اتخذت اتجاهاً شمالياً غربياً. وكان الجوع يتحالف مع الارهاق والعطش. فالتجأت بعض القطع إلى السواحل كي تتعرض للنهب على الفور. وهنا اتخذ الضباط الانكليز موقفاً حاسماً، فهم لا يرغبون في الأسرى، عندها صدرت الأوامر بقطع رؤوس الجميع. وبعد أن بلغت مسامع السير ريشار بنغهام، حاكم مدينة كونوت في اولستر، شمالي ايرلندا أنباء الأعدام الجماعي كتب في مذكراته: «وهكذا بعد أن أفنيناهم قاطبة خصصنا يوماً كاملاً، هو يوم الأحد، لتقديم فرض الشكر لله العلي القدير.. ويا لهم من أناس طيّبين...

وهناك قضية تفصيلية لا بد من إيرادها وهي ان الانكليز كانوا يجردون الأسرى الأسبان من ملابسهم قبل اعدامهم حرصاً عليها من التلف والتلوث بالدماء ولكي يستفاد منها فيما بعد. وجاء من بعدهم أناس في تاريخ متأخر وتبنوا الفكرة نفسها في عدد من معسكرات الاعتقال المشؤومة. وكيف لا يعيد التاريخ نفسه؟

وفوق رقعة من ساحل رملي تمتد على مسافة لا تزيد على خمسة

منظر عمارة عربية من القرن السادس عشر

أميال في سليغو أمكن تعداد مقدار ١١٠٠ جثة. وقد عثر في أحد التقارير على هذا النص: «لقد بلغت شدة الارهاق والانهيار بالناجين من الغرق حداً جعل بمقدور رجل واحد أن يقتل بالدبوس ثمانين رجلاً من الجياع ومن المشرفين على الموت».

وقد هلك في قناة سان جورج لوحدها قرابة ٤٠٠٠ اسباني بعد غرق سفنهم. وقد تمت ابادة عدد لا يقل عن هؤلاء فوق رمال الشاطىء. والسبب؟ لم يكن لدى الانكليز ما يكفي من السجون لاعتقالهم أو من الجند لحراستهم.

أما النقالة «كونيغا» التي ساقتها الرياح نحو الشمال فلم تنكفىء نحو ايرلندا الا بعد ستة أيام من الابحار. وقد التجأت إلى خليج انكليزي ولكن السكان رفضوا امدادها بالمؤن. فهلك ثمانون جندياً وجدافاً من الجوع والعطش. وفي أعقاب غارة فدائية على الساحل أمكن فيها الحصول على بعض الأقوات استأنفت سيرها بحراً وتمكنت من بلوغ ميناء الهافر الفرنسي حيث كان الاستقبال أحسن حالاً إلى حد ما.. وهنا قام الفرنسيون بإطلاق سراح ثلاثمائة جداف تركي من الذين سقطوا أسرى في معركة ليبانت، وهم الذين عثر عليهم على متن الناقلة التي جنحت في كاليه. ففكوا قيودهم وأعتقوهم من الأشغال الشاقة.

أسوأ مصير لأعظم حملة

وفي خاتمة المطاف بلغت الخسارة ثمانين سفينة حربية، منها عشر سفن فقط أغرقها الانكليز. أما الباقية فقد غرقت أو جنحت بتأثير الرياح والبحر الهائج.

ووصلت إلى اسبانيا ست وأربعون سفينة حسب أقوال بعضهم، أو ثلاث وخمسون كما يقول الآخرون، الواحدة تلو الأخرى، في حالة يرثى لها، تحمل نوتية هلك الكثير منهم أو أضناهم نقص الغذاء. وما لبث الكثيرون من هؤلاء أيضاً أن ماتوا بعد أن هبطوا أرض الوطن.

وكان فشل «الأرمادا التي لا تقهر» كارثة قومية. فقد ناحت كل أسرة على واحد من أفرادها، إذ هلك في هذه الحملة الفاشلة الرديئة القيادة ستة عشر ألف رجلاً ولم يلق فيليب الثاني مسؤولية تلك الكارثة على عاتق سيدونيا الذي اعتكف صامتاً ويائساً.

أما الملكة اليزابت فقد كان انتصارها متواضعاً. فبعد أن نسبت إلى نفسها أحقية هذا الظفر ضربت أول مدالية تحمل عبارة «امرأة تمسك بزمام الأمر» ولكنها لم تغضب العلي القدير عندما أمرت بسك ميدالية ثانية، كتب عليها «لقد نفخ الرب فتشتتوا».

لكن ملك اسبانيا لم يقبل بأن تظهر عليه ملامح القنوط العظيم، فكان يقول: «لقد أرسلت ميدينا سيدونيا ضد الرجال وليس ضد الرياح والبحر. ففيما يصنعه الله ليس فيه من مكسب أو خسارة في الشهرة، والأجدر ألا نخوض في هذا الحديث اطلاقاً». تلك فلسفة مطمئنة ولكن هل كان يستسيغها الناجون من المعركة؟

وتنفست البروتستانتية الصعداء بعد هذا الانذار الساخن. وأخذت البحرية البريطانية بصعود سلم السباق نحو السيادة على وجه البحار. وراحت اسبانيا تنحدر نحو انحطاطها. وشعرت أوروبا بابتعاد تهديد نظام ملكي عالمي. تلك هي غلطة الريح.

ليه دون
LES DUNES

٢١ تشرين الأول ١٦٣٩

هزيمة اسبانية جديدة في سباق السيادة على البحار

لم تستطع كارثة «اسطول الأرمادا الذي لا يقهر» أن تخمد لدى الاسبان رغبتهم في التطلع الى استرداد السيطرة على البحار.

لقد استطاع الهولنديون أن يبسطوا سلطانهم على البحار الى حد ما، لأن تطور تجارتهم دفعهم الى تقوية أسطولهم الحربي.

ففي عام ١٦٣٩ تمت تعبئة اسطول يضم سبعاً وسبعين سفينة اسبانية برتغالية، عقدت رايته لأمير البحر دون انطونيو دوكندو، الذي جعل من السفينة «سانتياغو» مقراً لقيادته، وكانت مهمته مواكبة خمسين سفينة شحن وحراستها، كانت تحمل أربعة وعشرين ألفا من القوات المسلحة الذاهبة لمساندة جيش الكاردينال الأمير الاسباني المحاصر في دنكرك. وكان أمير البحر المذكور واثقاً من أن قوته تمكنه من اكتساح اسطول المقدم البحري الهولندي، الذائع الصيت، مارتن

ترومب الذي كان يحاصر ميناء دونكرك وكانت سفنه تحرس مضيق بادوكاليه حتى مدخل بحر المانش لقطع الطريق على القوات الوافدة لفك الحصار عن قوات الأمير الاسباني المذكور.

وفي السادس عشر من شهر ايلول ١٦٣٩ ظهر الأسطول الاسباني، تجاه ساحل ميناء سلسي بيل الواقع على مسافة اثني عشر ميلاً شرقي ميناء «بورتسماوث». وسرعان ما اكتشفه مارتن ترومب الذي عمد على الفور الى استعراض قواته التي كانت تضم سبع عشرة سفينة حربية، وأدرك أن على كل واحدة من سفنه التصدي والاستعداد لمنازلة خمس سفن معادية، ولكنه كان شديد الثقة برجاله!، وهكذا اتخذ قراراً بمباشرة العدو بالهجوم، وكان قد اتخذ من السفينة الحربية «آميليا» مركز قيادة عملياته، والتي كانت مزودة بستة وخمسين مدفعاً، وهي سفينة حديثة أنزلت الى البحر قبل عامين من الزمن في ميناء روتردام. وهنا أصيب أوكندو بالذهول لجرأة هذه القوات الصغيرة، فتصدى لها، وربما سيفلح في تطويق الهولنديين، لولا أن أصابة لحقت بسفينته الخاصة، وتسببت بأضرار كبيرة. وهنا أصبحت المعركة حامية الوطيس، وأظهر الفريقان بسالة تثير الاعجاب. هنا خطر على بال أوكندو، بأن خصمه ترومب، لم يكن ليتصرف بمثل هذا الاقدام، لو لم يكن متأكداً بأنه سيتلقى امدادات اضافية وبسرعة كبيرة جداً، وهكذا تخلى عن الأمل في احتمال الفوز في المعركة. واستغل

فرصة تكاثف الضباب الذي أدى الى شلل الاشتباك ، وأصدر أمره بحشد عناصر أسطوله في مرسى (ليه دون) قرب ميناء دوفر ، حيث يمكنه تجميع قواته ، وأن يتناقش مع قواده بقصد اصدار تعليماته التعبوية قبل نشوب المعركة التي لا محيد عنها والتي ستسمح له فيما بعد بالوصول الى دونكرك وفك الحصار .

ولما وصل الى ليه دون ، وجد في المرسى اسطولاً انكليزياً بقيادة السير جون بينينغتون الذي كان حياده يمنعه من التدخل . وكان وضعا حرجا ومتوتراً ، لأن عواطف البحارة والشعب الانكليزي كانت متجهة نحو الهولنديين ، رغم جهود الملك شارل الأول وبلاطه الراميه لدعم الاسبان .

انتظار لا يغتفر

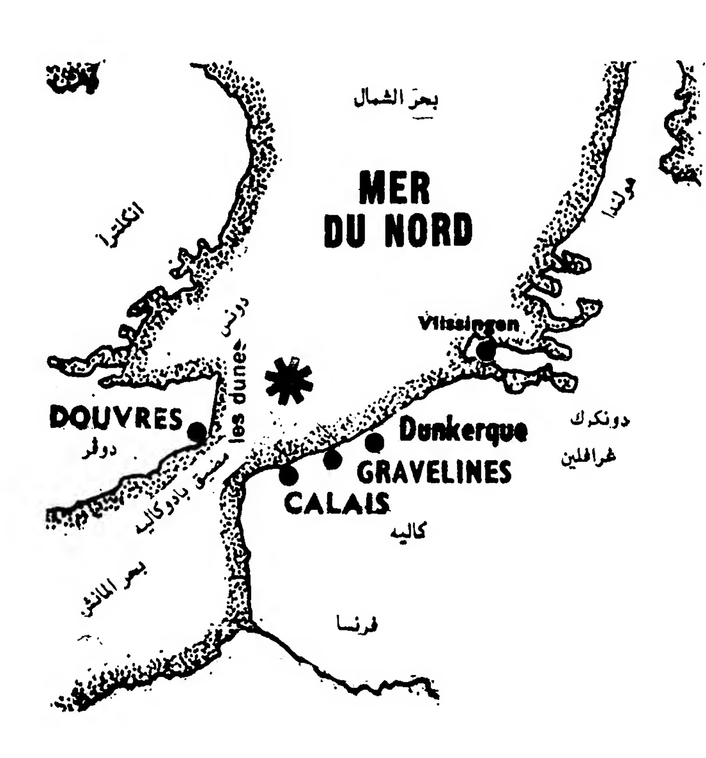
في الوقت الذي كان فيه دوكندو ، الذي يتحمل طيشه الكثير من المسؤولية ، يقوم بتزويد اسطوله بما يحتاج إليه من أقوات ومياه ، كان ترومب يشدد الحراسة ، ويقوم بتعبئة كل ما يمكن أن يعوم فوق سطح الماء فضلاً عن أكبر قدر من الذخائر . وكانت الأيام تمر وتتلوها الأسابيع دون أن يحرك أوكندو ساكناً ، ودون أن يدرك أن احتمالات خروجه من المرسى تتضاءل يوماً بعد يوم ، وأن قوات مارتن ترومب كانت في حالة

نماء مستمر . وهكذا وبعد فترة قصيرة ، ارتفع عدد سفنه السبع عشرة فأصبح ثلاثين ، ثم خمسين ، ثم مائة ...

وكان الواجب يقضي على دوكندو أن ينطلق من مكمنه منذ زمن بعيد ، أضف الى ذلك ، أنه كان ينوء من عبء الكثير من سفنه التي كانت من ناقلات الجنود ، والتي لم تكن مؤهلة لأية مجابهة بحرية ، ولهذا لا يكون التفوق العددي دوماً كافياً لكسب المعارك .

أما مارتن ترومب فقد كان متفائلاً ، وقد صرح لأحد الضباط الانكليز : «سأستولي على السفن الأسبانية وعلى الشيطان أن يهتم بمصير بحارتها» .

وفي ٢١ تشرين الأول وجد ترومب أن فرصة الانقضاض قد سنحت ، وذلك بعد أن أكتملت قواته عدداً وعدة ، ولهبوب ريح طيبة ولرداءة وضع خصمه ، فهاجم . ولما كان يتميز بالحذر والحنكة ، فقد ترك ثلاثين سفينة بقيادة الأميرال ويت دو ويت لمراقبة الأسطول الانكليزي من طرف خفي ، هذا اذا ما خطر على بال قائده أن يدلي بدلوه بين الدلاء ، وينخرط في المعمعة . والواقع أن الأسطول المذكور لم يتحرك ، كما أن ملك بريطانيا شارل الأول كان يتحرق غضباً عندما بلغته أنباء هذا المسلك . غير أن الأميرال الانكليزي بينينغتون لم يكن



بحر الشمال
MER
DU NORD
انكلترا
هولندا
Vlissingen
دونس
les dunes
DOUVRES
دوفر
Dunkerque
دونكرك
GRAVELINES
غرافلين
CALAIS
كاليه
مضيق بادوكاليه
بحر المانش
فرنسا

قادراً على التصرف دون أوامر. فدولته لم تكن رسمياً في حالة حرب معلنة، وليس من اختصاصه أن يسهم في هذه الحرب.

وهكذا اندفع مارتن ترومب نحو الأسطول الاسباني الغافل وكان النصر ساحقاً. وذلك أن أسطول دوكندو، لم يتخذ أي وضع من الأوضاع التعبوية التي تسمح له بدفع المهاجمين، مهما كانت الجهة التي يندفعون منها. وهكذا تم القضاء على أكثر من أربعين سفينة حربية، منها سفينة اللواء البحري أمير غاليسيا بالاضافة إلى نقالة برتغالية كبيرة مزودة بثمانين مدفعاً على متنها الف واربعمائة مقاتل. أما السفن التي لم يتم اغراقها فقد سقطت غنيمة باردة في أيدي ترومب وبحارته، هذا بينما جنحت على الساحل احدى وعشرون سفينة دون أمل كبير في تعويمها، وأن كان الانكليز قد استطاعوا انقاذ بضع سفن منها.

وقد هلك سبعة آلاف اسباني، منهم بضع مئات في حريق سفينة ضخمة هي «سان تيريزا» في حين سقط بالأسر ألفان منهم. أما الهولنديون فلم يصابوا إلا بخسائر بسيطة، اذ سقط بضعة قتلى ومثلهم من الجرحى وغرقت سفينة واحدة. وعاد ترومب أدراجه مكللا بالغار. يجر في موكبه ست عشرة سفينة حربية اسبانية، واستقبل استقبال الأبطال في روتردام. وبعد عدة أيام منحته زوجته طفلة ونال أذنا بتسميتها «آنا ماريا فكتوريا مارتنسيس ترومبنسيس دونينسيس» تخليداً لذكرى معركته المظفرة. أما دوكندو فلم يدخل ميناء دونكرك إلّا على

رأس ثلاث عشرة سفينة فقط من اسطوله . أما سفينة « سانتياغو » التي كانت مقر قيادته فقد استهدفتها ١٧٠٠ قذيفة من كل المقاييس . وبعد فترة عاد الى اسبانيا بصورة محزنة ، مثلما عاد قبل نصف قرن مضى القائد الاسباني ميدينا سيدونيا . وهناك قص على الملك فيليب الرابع قصة فشل المهمة التي عهد بها اليه . وبذلك تلقت البحرية الاسبانية ضربتها القاتلة ، وتنازلت ، الى غير رجعة ، عن زعامتها على سطح البحار .

ادعاءات البحرية الانكليزية

أما بريطانيا فقد خلا لها الميدان لتأكيد هيمنتها ، غير أن حكومة « الأقاليم المتحدة » التي منحتها معاهدة وستفاليا الاستقلال في عام ١٦٤٨ ، لم تكن تسمع ذلك من الاذن ذاتها . ذلك أن كل هولندي بين أربعة كان يستمد مصادر رزقه من البحر ، أي من صيد سمك « الرنجة » أو من التجارة هذا فضلا عن أن تسعة أعشار حركة الموانىء الانكليزية كانت تقوم على عاتق المراكب الهولندية . ولم يكن من المقبول أن يستمر إلى الأبد وضع شاذ كهذا . وقد أشعل الانكليز النار فوق البارود ، عندما أعلنوا « صك الملاحة » الذي يخول السفن التي ترفع رايتهم لوحدها حق احتكار الاستيراد . وكان معنى ذلك الحرب على المدى القريب .

وقد كانت البحرية الانكليزية، الصلبة والكثيرة العدد والجيدة التسليح والتجهيز، تحت قيادة عسكريين بحريين، تركوا للقبطان مهمة قيادة السفن. وكان في عداد هؤلاء القادة روبير بلايك وهو عقيد سابق، ارتقى إلى رتبة لواء بحري، في عام ١٦٤٩، وجورج مونك، وكان نائب كروميل، ودوق البيمارل فيما بعد، هذا دون أن نتعرض لذكر سواهم من مشاهير الضباط البحريين اللامعين.

أما البحرية الهولندية فقد كانت تتصرف بسفن أصغر أبعادا، وأكثر مواءمة مع الملاحة فوق مياه بحر الشمال الضحلة وممر بادوكاليه. وكان أكثر قادة البحرية بسالة مارتن ترومب، الذي ولد في عام ١٥٩٧ والذي شغف حبا بالبحر والملاحة وعمره لا يتجاوز الحادية عشرة. والذي رأيناه قبل قليل في معركة ليه دون. وكان هناك ابنه كورنيليوس، الذي رأى النور في سنة ١٦٢٩ والذي كان من العجينة ذاتها، يتحرق شوقاً لخوض المعامع البحرية.

وأخيراً كان هناك أكثر البحارة الهولنديين شهرة، ونقصد به ميشيل رويتر المولود في سنة ١٦٠٧. ولقد لمع نجمه في عام ١٦٢٢ لحنكته واقدامه في الدفاع عن برغ اوب زوم التي كان يحاصرها الاسبان. وبعد أن سقط أسيراً وهو فوق متن البحر، استطاع الافلات من اسبانيا، واخترق فرنسا سيراً على الأقدام، يتسول الخبز على طول طريقه.





ميدالية هولندية تمثل مارتن ترومب . ويظهر على الوجه الآخر معركة بحرية مع سفينة آخذة في الغرق «مقدمة الصورة»

اعلان الحرب

وقد وقع أول حادث في سنة ١٦٥٢ عندما فتحت فرقاطات انكليزية النار على خفارة قافلة هولندية لم تكترث برد التحية بمثلها . ولم يكن هذا بكاف لاعتباره « حالة حرب » .

وبتاريخ ٢٨ أيار من العام نفسه ، لجأ مارتن ترومب الى مرسى ليه دون مع أربعين من سفنه المكلفة بحماية التجارة، ورفض أخذ التحية لراية حاكم دوفر ، المنصوبة فوق القصر الذي يطل على الجرف الساحلي . وفي اليوم التالي ، وفي الساعة الرابعة عشرة ، أقلع ترومب متجها الى كاليه ، ولكن ما لبث أن اعترضته عمارة انكليزية مؤلفة من زهاء

عشرين قطعة بين فرقاطة وسفينة حربية عادية، وفتحت عليه النار بغتة. وتمت معاقبة هذه الوقاحة بطلقات المدفعية. وسرعان ما أصبحت المعركة شاملة. واستمر تبادل القذائف حتى الساعة الثانية عشرة مساء. وأصيبت السفينة جايمس التي كان بلايك على متنها بسبعين طلقة على جانبيها وعلى صواريها. وخسر الهولنديون سفينتين من حرس المؤخرة، اذ تم أسر واحدة واغراق أخرى.

أما انكلترا فقد اعتبرت هذا الموقف كافياً لاعلان حرب شكلا وموضوعاً. وأعلنت حكومة «الجمهورية الانكليزية» الحرب بتاريخ ١٧ تموز، وتدفعنا الحقيقة الى القول بأن ما من أحد كان يتوقع اليوم المذكور للانتقال الى ميدان العمل.

ومنذ اليوم الأول من تموز امتطى بلايك متن البحر على رأس اسطول مؤلف من ثمان وستين سفينة شراعية باتجاه جزر اوركاد وشتلاند الشمالية، حيث عثر على سفن صيد هولندية، كانت فعلاً بلا حماية، فأخذ قرابة مائة مركب غصبا، ولم يخل سبيل بعضها الا بعد دفع الغرامة المفروضة.

وقد كان الحادث مؤسفا لأن تجارة سمك الرنجة كانت تؤلف تجارة كبيرة، تؤمن معيشة شطر كبير من السكان. فقد كانت هولندا ترسل أكثر من ١٠٠٠ مركب صيد إلى جانب عدد من السفن، وكانت تبيع أسماك الرنجة المملحة في معظم أسواق دول أوروبة. وكانت

هذه التجارة توفر معيشة أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة. وتحقق عوائد ضخمة لخزينة الدولة.

وفي هذه الأثناء كان السير جورج آيسكوه ينقض تجاه رأس غرينيه الواقع على مضيق بادوكاليه، على قافلة هولندية بتاريخ ١٣ تموز. فأسر سبع سفن، وأجبر البقية على الجنوح على ساحل بيكاردي القريب من كاليه، وانكفأ على سفنه ليربض في صدر مرسى ليه دون.

غير أن الاهانة لا يمكنها أن تمر بسلام. فقد استطاع مارتن ترومب ان يلحق الهزيمة بآيسكوه تجاه ميناء ديل. غير أن الرياح المعاكسة حالت دون تحقيق رغبته في الانقضاض. فترك أشرعة أسطوله لرحمة الرياح وقرر ملاقاة بلايك في بحر الشمال، لكنه لم يعثر عليه. وبين الثالث والسادس من شهر آب باغتته عاصفة هوجاء أطاحت بصواري أسطوله. وعاد الأسطول أدراجه منهكا واستقبل بفتور. لأن الشعب كان ينتظر منه بلاغاً عن النصر. وقد دفع هذا الفشل الذي أضيفت اليه خسارة سفينتين في قضية دوفر، والاستياء الذي نجم عن اعلان الحرب، كل ذلك دفع حكومة «الولايات العامة» الهولندية الى الاستعاضة عن ترومب برويتر في قيادة الأسطول. لكن القائد «المعزول» أعيد بعد بضعة أشهر إلى مركزه وثأر لفشله السابق، ولكننا لسنا في معرض ذلك الآن.

وفي السادس والعشرين من شهر اب ، هاجم رويتر الذي كانت رايته تخفق فوق السفينة « بنتون » آيسكوه تجاه بلايموث ، على رأس ثلاث وعشرين سفينة حربية واستمر العراك طيلة فترة بعد الظهيرة ، وقد نتج عن ذلك الكثير من الضجيج ولكن القليل من الأضرار . واضطر آيسكوه الى خوض معركة بائسة أخرى في آخر الشهر التالي وكانت بدورها غير حاسمة كذلك .

وفي الثامن من تشرين الأول باغت بلايك ، بدوره ، والذي كان على رأس خمس وعشرين سفينة ، اسطول الاميرال دو ويت أمام مرسى ليه دون ، عند مدخل مضيق بادوكاليه وهزمه ، وكانت عودة الناجين باعثة على الأسى . ويقول الأميرال دو ويت في تقريره : « لم يسبق لي اطلاقا ان رأيت قادة بحريين جبناء ، مثل ضباطي » ، ولكنه كان صادقاً مع نفسه عندما اعترف بأن الأسطول الانكليزي ، الذي كان يعادل اسطوله عدداً تقريباً ، كان يتفوق عليه من حيث التسليح وقوة تكوينه الذاتية .

وهكذا كانت أمور انكلترا لا تسير بصورة سيئة . اذن ما تنتظر حكومة « الأقاليم المتحدة » الهولندية كي ترد بشكل أفضل ؟

أرمادا سائرة نحو مضيق بادوكاليه

وعملت هولندا، بتريث، على دعم قواتها البحرية، ولكن عندما علمت بأن الانكليز، الشديدي الثقة بأنفسهم، قد أخذوا بتجريد قسم من اسطولهم من سلاحه بسبب حلول فصل الشتاء، وكتدابير اقتصادية، شعرت بأن ساعة العمل قد أزفت. ولما كان مارتن ترومب لا يزال متمتعاً بحب ضباطه وبحارته، فقد استدعته السلطات المسؤولة للخدمة مجدداً. وعمد في السادس من كانون الأول الى اتخاذ السفينة « بريدروت » مقراً لقيادته، ورفع عليها رايته في طليعة اسطول « أرمادا » وأقلع باتجاه مضيق بادوكاليه: وقامت مائة سفينة حربية بمواكبة زهاء ثلاثمائة سفينة تجارية متجهة نحو الموانىء الفرنسية، وموانىء البحر الأبيض المتوسط، والموانىء الأفريقية والشرقية، مما جعل هذه القافلة التظاهرية تذهل الانكليز وتخنقهم غيظاً. وبينما كانت الجيوش الانكليزية تحتل استحكاماتها على ساحل كونتية كنت لصد أية عملية انزال بحرية محتملة لقوات معادية، كان بلايك يقوم بتجميع كل المراكب التي يمكن تحويلها الى سفن حربية، والتي لم يتجاوز عددها الخمسين، مسلحة بألف وأربعمائة مدفع وتحمل ٥٨٠٠ محارب. أما ترومب فكان يقود ما يعادل ضعف قوات الانكليز وسفنهم ولكن لم تكن الرياح تجري حسبما تشتهي سفنه.

وحصل اللقاء في العاشر من كانون الاول تجاه ميناء دنجنس الذي يقابل رأس غرينيه الفرنسي على الجانب الآخر من المضيق، واستمرت المعركة من الظهر حتى حلول الظلام، وكانت نتيجتها فوز الهولنديين. وكان بلايك، الذي جعل من السفينة «تريومف» مقراً له، كان يحارب بضراوة، مثلما كان يتمتع بمساندة السفينتين «فكتوري» و«فانكوارد»، ولما أثخنته الجراح اضطر الى أن يلتجىء الى مرسى ليه دون، كي يقوم بجرد قواته، ويضم شمل اسطوله الذي بدت عليه آثار الابتلاء المرير. أما ترومب، الذي كان يحارب من الجانبين، فقد أمضى بدوره فترة عصيبة قبل أن يحرز النصر ويأسر السفينتين اللتين كانتا تهاجمانه وهما «غارلاند»، وهي سفينة حربية من الدرجة الثالثة المسلحة بأربعة وأربعين مدفعاً، والسفينة «بونافنتور»، وهي سفينة مسلحة بثلاثين مدفعاً، واللتين خسرتا نصف قواتهما الذين حصدتهم رشقات المدفعية. ولكن سفينة هولندية واحدة كانت الضحية في أثر حادث، فقد حصل انفجار في عنبرها، أدى الى مقتل قبطانها وكل طاقمها تقريباً. وما أن أنقذ ترومب قافلته حتى تهلل بشراً وفرحاً. وهناك رواية تؤكد بأنه وضع في رأس صاريته الكبرى مكنسة للدلالة على أنه أفلح في تنظيف البحر من خصوم هولندا. ولما كان صافي الذهن، فقد أدرك مع ذلك أنه لن يخسر الكثير اذا تحلى بالصبر.



« روبير بلايك »

مارتن ترومب يسقط صريعاً بطلقة طبنجة

لقد كان ما حدث في ٢٨ شباط ١٦٥٣ حوالي الساعة العاشرة مفاجأة على كل حال. فبينما كان ترومب يقوم بالتعاون مع

رويتر ، بمواكبة قافلة مؤلفة من مائتي سفينة شراعية ، وجد طريقه مسدوداً تجاه ميناء بورتلاند بحاجز مؤلف من سبعين سفينة حربية انكليزية يقودها بلايك مونك . وهنا ترك ترومب قافلته كي تستأنف طريقها ، واندفع كي يهاجم الانكليز ، فتعرض في البداية الى رشقة من عيار ٢٦ قذفها بلايك تجاهه . وقد كانت المعركة أكثر ضراوة من معركة دونجنس . واستمر الاشتباك ثلاثة أيام ، وكان كل فريق يناور بأكبر قدر من المهارة . وقد خسر الهولنديون في هذه المعمعة تسع سفن حربية واربع وعشرين سفينة تجارية ، ولكنهم استطاعوا انقاذ القسم الأعظم من القافلة . أما الأسطول الانكليزي ، فقد كانت خسارته أقل ثقلاً : اذ خسر ست سفن حربية ، في حين كان العديد من السفن الأخرى عاجزة عن استئناف الملاحة قبل مضي عدة اسابيع لحاجتها للترميم . وقد فقد بلايك ألفي قتيل وجريح في الوقت الذي قتل من صفوف رجال ترومب ستمائة رجل . وعملت البحرية الهولندية ، التي كانت الحاجة تقضي بتجهيزها بسفن حديثة ، خلال الأشهر التي تلت ، على جعل الملاحة مريرة أمام الأسطول الانكليزي لشدة مضايقتها له ، فكانت تهاجمه دون هوادة ، وأحيانا على مرأى من قصر مدينة دوفر . وفي تاريخ ١٦ حزيران ، وحوالي الساعة الحادية عشرة ، نشبت معركة استمرت حتى هبوط الليل ، تجابهت خلالها مائة وعشر سفن يقودها مونك تجاه ميناء نيوبور ضد ثمان وتسعين سفينة ، أصغر أبعادا ، يقودها ترومب . واستؤنفت الاشتباكات في اليوم التالي ، ولكن أصبح تقرير

مصير المعركة في هذه المرة بأيدي الانكليز . وخسر ترومب عشر سفن ، وسقط الف وثلاثمائة وخمسون رجلاً من قواته بالأسر ، حتى لقد اضطر أن يمطر الهاربين بوابل من قذائف مدافعة كي يردهم للاشتراك في المعركة .

وعند عودته إلى ميناء فلسينغ في جنوب هولندا ، تبادل أطراف الحديث مع النواب الذين أوفدتهم حكومة « الولايات العامة » الهولندية وقال لهم : « لم يكن من المستطاع عمل شيء ملموس في هذه الحرب دون تلّقي دعم مؤلف من العديد من السفن الجيدة التجهيز » . وأضاف قائلاً : « يوجد في الأسطول الانكليزي أكثر من خمسين سفينة أصغرها أكبر من سفينتي ، وكان في أسطولي أكثر من ثلاثين سفينة غير مهيئة اطلاقا للصمود أمام سفن العدو ، التي كانت أكبر منها حجماً وأكثر قوة » .

في الساعة الرابعة عشرة ، وبعد أن اخترق الهولنديون صفوف الانكليز أربع مرات ، وبعد تحطيم كمية كبيرة من الصواري من الجانبين ، خارت قوى الاسطولين ، وأصبحت سفنهما تجري على غير هدى ، وانسحبا من المعركة . وراح كل طرف ينسب لنفسه أحراز النصر . ولكن النتيجة كانت تدمير عشرين سفينة حربية انكليزية وسقوط اربعمائة قتيل منهم ثمانية من قباطنة السفن وخمسمائة جريح ،

في حين أحصى الهولنديون خسائرهم التي بلغت عشر سفن حربية ومثل عدد القتلى والجرحى في صفوف الانكليز .

وبعد عشرة شهور جرى التوقيع على معاهدة السلام بين الفريقين .

وفي الثامن من آب ، وقعت معركة جديدة أمام كوتويك ، استمرت من الساعة الحادية عشرة حتى غروب الشمس . وفي صبيحة اليوم التالي هبت ريح صرصر عاتية شلت حركة الأسطولين المتحاربين . وفي العاشر منه استأنف الأسطولان الحرب على مسافة خمسة فراسخ من ميناء شينينغن ، واندفع ترومب ليخترق صفوف العدو على متن سفينته « بريدردت » في الوقت الذي أصيب فيه بجرح قاتل في صدره نتيجة طلقة طبنجة ، أطلقت عليه من فرقاطة انكليزية . وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، كان لديه ما يكفي من القولة ليقول : « تشجعوا يا أولادي ، اعملوا ما تستطيعون ، كي تجعلوا نهايتي مجيدة ، مثلما كانت حياتي » وكان عمره ستاً وخمسين سنة . وقد دفن في ضريح من رخام أبيض في كنيسة دلفت .

الأيام الأربعة

١١ ــ ١٤ حزيران ١٦٦٦

ظفر البحرية الهولندية

شبت نيران هذه الحرب في ٢٢ شباط عام ١٦٦٦ ، عندما أشهر ملك انكلترا الحرب على الولايات المتحدة الهولندية « في أعقاب الشكاوي التي بلغته عن الشتائم والاهانات ، وأعمال النهب التي قامت بها الشركات الهولندية الشرقية والغربية » . والحق يقال ، لقد كانت الأخطاء متبادلة ، لأن كل جانب كان يتحرق شوقاً لرؤية بحريته صاحبة لكلمة الأولى فوق البحر .

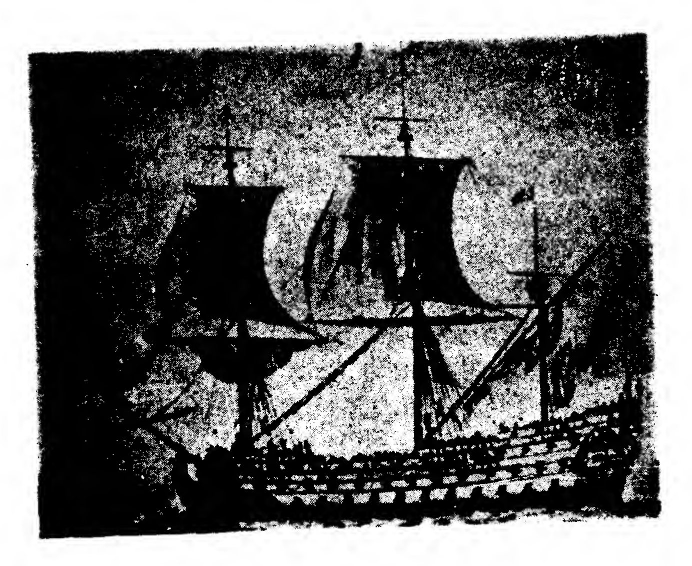
ونظراً لغياب رويتر ، الذي ذهب على رأس حملة الى جزر الأنتيل في أمريكا الوسطى ، فقد كان الأسطول الهولندي تحت قيادة جاك دوفا سناير ، أمير او بدام ، وكان يعمل تحت إمرته العميد البحري كورتنار ، وكورنيليوس ترومب ، وإيفرتزن . أما من الجانب الانكليزي فقد كان دوق يورك ، أخو الملك شارل الثاني ، قائداً عاماً للأسطول ،

وكان يساعده الأمير روبرت ، ومونتاغو ، وبن ، ولاوسون وايسكوه .

وجاءت الضربة الأولى من الهولنديين . فبعد أن أقلع اسطولهم الجيد الاعداد والعدة من ميناء تكسل الهولندي ، شمالي خليج زويدرزه ، استولى رجاله بتاريخ ٣٠ أيار ١٦٦٥ على قافلة مؤلفة من ثلاثين سفينة موسوقة بحمولة ثمينة ، قادمة من هامبورغ ، حيث اعترضوا سبيلها في منطقة دوغربانك في أواسط بحر الشمال هذا في الوقت الذي كانت تبحر فيه تحت حماية وهمية كانت عبارة عن سفينة مسلحة بأربعة وثلاثين مدفعاً . وقد كان انتصاراً سهلاً ، اذ كان لدى المهاجمين مائة سفينة مسلحة بمدافع بلغ عددها ٤٨٦٩ مدفعاً .

ولما علم دوق يورك بنبأ هذه المصادرة ، جن جنونه ، وأقلع على الفور وأدرك القافلة بتاريخ ١٤ حزيران على مسافة خمسة عشر ميلاً من ميناء لووستوفت ، شمالي شرق لندن . وفي خلال المعمعة الرهيبة التي أعقبت ذلك انفجرت فجأة السفينة الهولندية ايندراخت ، ذات الأربعة وثمانين مدفعا ، والتي كانت مقر قيادة الأميرال فاسناير ، أقول انفجرت حوالي منتصف الليل وسط السفن الأخرى من القافلة ، وذلك في جوف جلجلة رهيبة ، وجرت معها نحو الهاوية ٥٨٥ بحاراً ولم ينج من طاقمها سوى خمسة رجال ظلوا فوق سطح البحر . وزاد من ايلام وقع ذلك أن السفينة ايندراخت كانت على وشك أن تأسر سفينة الأميرال الانكليزي ، واسمها رويال شارل ، وكأنها معركة بين قادة . وقد أصيب

دوق يورك بجراح وغشته الدماء نتيجة قذيفة مدفع وحيدة أدت إلى تناثر أدمغة ثلاث أمراء بريطانيين صرعوا على مقربة منه .



سفينة حربية من الدرجة الأولى في عام ١٦٦٥

أما في الصفوف الهولندية فقد ساد الارتباك ، الذي استفحل بسبب مصرع كورتناير ، الذي قتلته قذيفة بينما كان يحاول أن يشغل مكان فاسناير . ونظراً لاعتقاد كورنيليوس ترومب بأنه أقدم ضابط برتبة جنرال على قيد الحياة ، فقد أخذ على عاتقه قيادة السفن التي التأم شملها

حوله ، هذا في حين كان ايفرتزن يقوم بالعمل ذاته من جانبه . وساد الهرج أيضاً عندما ارتطمت ثلاث سفن هولندية ببعضها البعض ، مما جعلها تعجز عن تحاشي حراقة معادية ، فسرت النيران من سفينة لأخرى وغرقت في الوقت نفسه الذي كانت تغوص فيه أربع سفن أخرى ، كانت ضحية نيران الحراقات .

فقد كانت الحراقة لا تزال في ذلك العصر أفضل سلاح لارسال الخصم في اتجاه قاع البحر ، أما القذيفة من عيار ١٥ ، أو ٢٠ ، وحتى ٣٠ كيلو غرام ، فقد كانت قادرة على نشر الموت بين بحارة السطح والتخريب في البنى العليا للسفن، ولكنها لم تكن كافية لخرق بدن السفينة بحيث تتسبب في غرقها . وكان من الممكن سد منافذ المياه ، ولبلوغ النتيجة الحاسمة ، كان يتم اختبار البرهة التي يفقد فيها الخصم حرية المناورة : كحالة تحطم الصواري ، أو تعطل مقبض الدفة ، او اقتلاع الدفة ذاتها ، والانقضاض عليه مع ريح موائمة ، أو العمل على الصاق سفينة ضحية ملتهبة سلفاً بخاصرة اسطول العدو . ويستدعي الأمر مهارة ورشاقة لتحاشيها أو لابعادها قبل أن تنفجر براميل البارود الموضوعة في عنابرها .

وهكذا عادت ستون سفينة هولندية الى ميناء تكسل، واثنتا عشرة سفينة الى مرسى فيلي ، وألقت ثلاث عشرة سفينة مراسيها في ميناء



شارل الثاني ملك انكلترا

فيلنغن وفي مصب نهر الموز . أما البقية وهي اثنتا وثلاثون سفينة . فقد أسر الانكليز ثماني عشرة واحدة في حين أغرقوا وأسروا أربع عشرة

سفينة. أما الانكليز فلم يفقدوا سوى سفينة واحدة هي «شاريتيه» واقتادوا معهم ٢٠٦٣ أسيراً الى ميناء كولشستر، الى الشمال الشرقي من لندن.

وليس من العسير تصور مدى الذهول الذي أصاب هولندا لدى وصول أنباء الهزيمة اليها. فصدرت الأوامر لدراسة سلوك كل قبطان خلال المعركة، وتم الحكم على ثلاثة منهم بالاعدام رمياً برصاص البنادق: في حين تم التشهير بثلاثة آخرين على أنهم غير مؤهلين لشغل أي منصب وكسرت سيوفهم، هذا بينما تم عزل آخرين وتسريحهم.

وضمد الهولنديون جراحهم بكل شجاعة، وعوضوا السفن التي فقدوها، وأصلحوا السفن التي تعرضت للأضرار، وأصبحوا بعد قليل في وضع يؤهلهم للتصدي فوق البحر. ولكن من هو القائد الذي سيكون على رأس هذا الأسطول؟ لقد كان كورنيليوس ترومب شجاعاً، ولكنه استراتيجي هزيل، ويفتقر للحكمة. كما ساهم تعلقه بأسرة أورانج التي كانت حينئذ سبباً في نزاعات أهلية، في استبعاده عن منصب القيادة التي أسندت الى رويتر الذي رفع الى رتبة لواء أمير بحر في هولندا واقليم وسترفريز، وكان عمره ثمانية وخمسين عاماً.

هذا الأسطول الذي تسلم رويتر قيادته كان من أعظم ما عرفته أساطيل دول ذلك العصر وأكثره عدداً. فكان يتألف من ٩٣ سفينة أو



الدوق بوفور: قائد الأسطول الفرنسي في البحر الأبيض المتوسط

فرقاطة، ومن ١٢ حراقة، وعدة سفن عتاد وسفن شراعية صغيرة، وبضع سفن أخرى موسوقة بالذخائر.

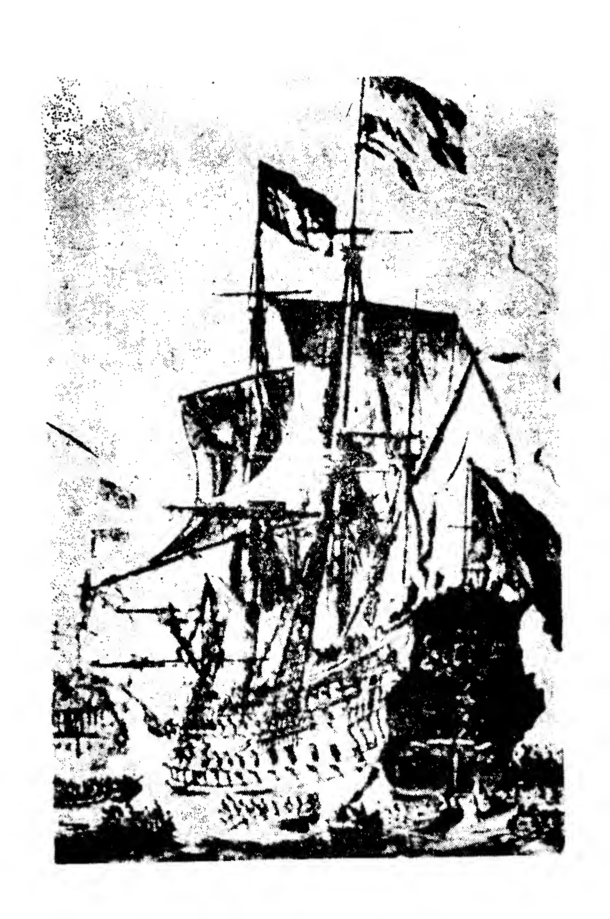
أول التحام في مضيق بادوكاليه

لقد أعلن الملك لويس الرابع عشر منذ السادس عشر من شهر كانون الثاني ١٦٦٦ الحرب على انكلترا، هذا على الرغم من ميثاق ١٦١٠ الذي كان ينص على أن رابطة التحالف يجب أن تظل أزلية بين ملكي فرنسا وانكلترا في ذلك الزمن وبين خلفائهم من بعدهم. غير أن لويس الرابع عشر لم يشأ، على كل حال، أن يستدعي اسطوله المرابط في البحر الأبيض المتوسط والمؤلف من ست وثلاثين سفينة بقيادة الدوق بوفور. وكان لديه ما يبرر ذلك لأنه كان أمام أمرين أحلاهما مُرّ، فأما أن ينتصر اسطوله أو يخرج مهزوماً من المعركة. فإذا انهزم الأسطول فإن الملك لويس الرابع عشر سيظل شاهداً على دمار أسطوله الفتي لفترة طويلة. ذلك الأسطول الذي سيكون في أمس الحاجة اليه بين يوم وآخر من أجل مصالح ولاياته الخاصة ذاتها. أما في حالة الانتصار فإن الهولنديين سينسبون الى أنفسهم كل الأمجاد لأن اسطولهم أكبر عدداً من الأسطول الفرنسي الحليف بثلاث مرات. وهكذا ارتأى لويس الرابع عشر أن يرجىء موعد لقاء الأسطولين، بحجة أن الرياح لا تهب حسبما تشتهي سفنه. غير أن دوق بوفور سار

فعلاً في اتجاه بحر المانش، بيد أنه لم يتجاوز اطلاقاً سواحل فرنسا الغربية. وما أن علم الانكليز باقتراب الاسطول الفرنسي حتى ثارت ثائرتهم فارتكبوا خطأً استراتيجياً اذ أرسلوا في اتجاه غربي بحر المانش الأمير روبرت مع ثلث اسطولهم، وتركوا مع مونك ٨١ سفينة، مسلحة بأربعة آلاف وأربعمائة وستة وستين مدفعاً، وتحمل ٢١٨٠٥ رجال لمواجهة سفن رويتر المائة، المتجابهتان تقريباً على مستوى واحد من حيث القيمة العددية.

هكذا نشبت معركة الأيام الأربعة الشهيرة في الحادي عشر من حزيران ١٦٦٦. ففي حوالي الساعة التاسعة صباحاً شاهد رويتر، القادم من ميناء تكسل، والمتوجه نحو بحر المانش، والذي كان ايفرتزن في مقدمته، وكورنيليوس ترومب في مؤخرته، شاهد اسطول مونك قرب ميناء ليه دون، والذي كان يرفع مراسيه استعدادا للهجوم.

وحوالي الساعة الثانية عشرة انبرت العمارة الانكليزية في تشكيلة قتالية تؤلف زاوية مقدارها ٤٥ درجة بالنسبة للأسطول المعادي، وقام الهولنديون بالمناورة بعد قليل. وكانت مؤخرة الساقة هي التي تلقت رشقات مونك، غير أن رد فعل ترومب كان في منتهى الشدة. وعندما غير مونك اتجاهه لتحاشي رمال ساحل الفلاندر حيث خشي أن يتعرض لرشقات من القلاع الساحلية، كان أسطوله قد ناله الكثير من العنت والارهاق. وهنا قرر رويتر استغلال ارجحيته بالنيل من مؤخرة



سفينة الأميرال رويتر

الأسطول الانكليزي التي كانت بحاجة لبعض الوقت كي تلتحق ببقية السفن. وهكذا استطاع أن يعزل وأن ينفرد بثلاث أو أربع سفن حربية صفي معها حسابه. وقد قاومت السفينة سويفتشور المسلحة بسبعين مدفعاً، والتي تحمل ٣٨٠ رجلاً، قاومت بضراوة الأسود في وجه بضع سفن معادية. ولم تخمد مقاومتها الا عندما أصيب قائدها اللواء البحري السير ويليام بركلي بجرح قاتل من رصاصة طبنجة أصابت منه الحلقوم. كما استطاع رويتر أن يأسر سفينتين هما فيديل جورج وتحمل ٤٤ مدفعاً وسفينة مساعدة مسلحة بستين مدفعاً.

وهناك مقاومة أخرى مجيدة أبدتها السفينة هنري الذي كان العميد البحري جون هارمان يرفع فوقها رايته. فقد ربط الهولنديون بميمنتها أول حراقة. وعندها قفز ملازم في وسط اللهب وقطع الحبال. وجاءت حراقة ثانية والتحمت بها وتصاعدت ألسنة الحريق من فوق السفينة. وهنا سيطر الذعر على البحارة الذين راحوا يرمون بأنفسهم في البحر، ولكن جون هارمان اعترضهم شاهراً سيفه. وبذلك أمكنت السيطرة على الحريق الثاني عملياً. وعندما اقتربت الحراقة الثالثة استطاع رماته إغراقها بطلقات المدافع. ولما شعر ايفرتزن ان قوى خصمه قد خارت اقترب منه ونادى عليه كي يناشده التسليم، غير أن هارمان، الذي كان متمدداً في الشرفة العليا من سفينته، بعد أن انكسرت ساقه بسبب سقوط عارضة الساري التي بترتها قذيفة

هولندية ، أجابه : « لم أصل بعد لمثل هذا الموقف » وعزز جوابه برشقة من مدافعه . وأصابت إحدى القذائف الأميرال الهولندي بضربة قاتلة . أضف الى ذلك ان السفينة « هنري » التي جرُدت من سلاحها بعد أن غدت نصف محترقة ، تمكنت من اللجوء الى ميناء هارويش ، شمال شرق لندن .

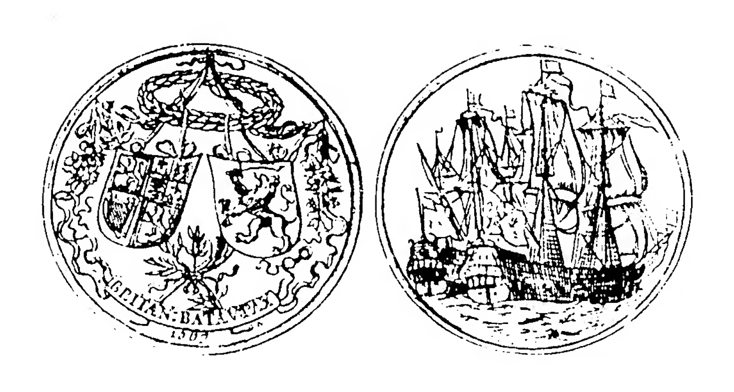
وبموت ايفرتزن خسر الهولنديون ضابطاً آخر هو فريدريك ستاشوير . أما كورنيليوس ترومب فقد اضطر للانتقال الى السفينة بروفنس دو ترخت ، التي كانت سفينة العميد البحري اسحق سويرز ، بعد أن تعرضت سفينته هولندا ، الى عطب شديد . هذا كما لم يكن رويتر في وضع أفضل . وهكذا خسر كل معسكر سفينتين أو ثلاث ، وذلك عندما توقفت المعركة حوالي الساعة ٢٢ ليلاً . وقد جرى استغلال الظلام لضم الشمل ، ولاصلاح الأضرار ، ولرأب خروق السفن والاستعداد للهجوم في اليوم التالي .

سقوط الأميرال آيسكوه بالأسر

وعند بزوغ الفجر استأنف مونك هجومه . وقد كان يتفوق بما معه من أربع وأربعين سفينة ظلت سليمة على خصمه الذي كانت سفنه الثمانون الرديئة التأهب تضايق بعضها البعض . ولما كان يتمتع بمزية هبوب الريح المناسبة لاشرعته فقد راح يسدد ضرباته الضامة

لاسطول كورنيليوس ترومب الذي كان يحاول دون نجاح الانتقال ليكون في اتجاه الريح مما أدى الى انقطاعه عن اسطول رويتر ، وأعقب ذلك بلبلة حقيقية . ولما وصلت مسامع رويتر أصوات القصف الحاد ورأى أن ترومب في ورطة ، اندفع لنجدته وانخرط في المعمعة قبل أن يتمكن من اتخاذ وضعية تكتيكية . ولو لم يكن الانكليز أقل من خصومهم عددياً لاستطاعوا أن يفتكوا فتكاً ذريعاً بذلك «القطيع» المؤلف من سفن عديمة النظام ، والعاجزة عن القيام بأية مناورة حاذقة . ولقد تميز مونك غيظاً من هذا الوضع ولكن أبسط قواعد الحذر كانت تملي عليه أن يقوم بالانسحاب . وعندما هبط الليل استطاع أن يلجأ الى الساحل دون خسائر كبيرة .

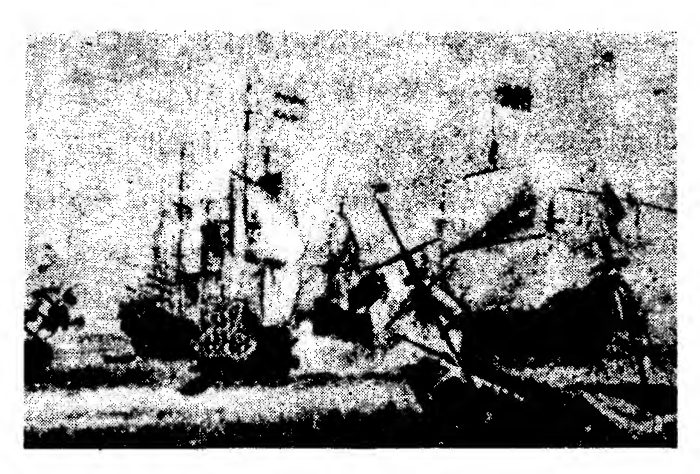
وفي هذه الكرة أيضا خسر كل فريق ثلاث سفن ، وفجع الهولنديون بثالث أميرال ، هو ابراهام فان درهوست وهو من العاملين في اسطول ترومب . وفي اليوم الثالث كانت الريح شرقية واستؤنفت المعركة في الساعة الثانية بينما كان مونك يضم شمل السفن التي ما زالت قادرة على خوض المعركة وعددها ثمان وعشرون . وكان ينتظر بفارغ الصبر وصول الأمير روبرت الذي عبأ كل أشرعته من أجل اللحاق بمونك ، ولكن كان عليه أن يقطع كل بحر المانش ، اذ سبق أن عهد إليه ، وهذا من سوء التدبير ، بمهمة اعتراض عمارة فرنسية .. كانت محتمية بميناء لاروشيل على ساحل فرنسا الغربي .



ميدالية لمعاهدة بريدا للصلح : الى اليمين سفينتان احداهما انكليزية والأخرى هولندية والى اليسار شعار انكلترا وهولندا يرمزان للسلام في عام ١٥٦٧

وفي يوم ١٣ حزيران هذا، وهو يوم عيد العنصرة، استطاع الهولنديون ان يستولوا على غنيمة رائعة، اذ استحوذوا على رويال برنس المسلحة بمائة مدفع، وتحمل ٦٢٠ مقاتلاً، وعليها راية السير جورج أيسكوه. والواقع لقد كانت هذه السفينة الضخمة ضحية الضباب الكثيف مما جعلها تجنح على رمال غالوبر الساحلية في المضيق. وبعد أن أحاط بها الأعداء من كل جانب قامت بكل ما يمكن القيام به للمقاومة. ويشهد عدد القتلى الجسيم، من الذين تساقطوا على متنها، على حدة المعارك قبل انزال الراية من فوق ساريتها. وأرسل السير جورج

آيسكوه أسيراً الى لاهاي. وقد تمنى ترومب اقتياد الرويال برنس الى هولندا، ولكن رويتر لم يرغب في ضياع الوقت فجعلها فريسة حريق، لأنه كان يخشى أمراً ما. والحقيقة لقد أنبأه المراقبون عن وجود أشرعة تلوح في الأفق. ترى هل هي سفن أعداء أم أصدقاء؟ هل هو بوفور؟ أم هو روبرت؟ نعم لقد كان هو روبرت الذي جاء يحمل دماً جديداً على رأس أسطوله المؤلف من اثنين وعشرين سفينة لعمارة مونك المنهكة القوى. غير أن الهولنديين الذين كان أسطولهم قد ناله قدر لا بأس به من الأضرار رفضوا إخلاء ساحة المعركة.



منظر لأحد فصول معركة الأيام الأربعة

الانكليز يختفون في غياهب الضباب

لقد كان اليوم الرابع والأخير من المعركة مكرسا لتراشق حاد بالمدفعية مع الانكليز . ففي البداية تجابه الاسطولان على شكل خطين متوازيين ، ثم التحما عندما أعطت الراية الحمراء ، التي رفعها رويتر فوق ساريته ، اشارة الهجوم العام . وعند العصر ، وعلى أثر ضباب كثيف اكتنف الأفق ، على شكل سحب منخفضة مواتية ، انسحب الانكليز . وفي فجر الخامس عشر من حزيران ومع انبلاج النور وجد الهولنديون البحر خالياً ، وعندها أصدر رويتر أوامر اشارة الانسحاب لاسطوله ، الذي كان في حالة تعيسة ، والاتجاه شرقاً نحو ميناء فييلنغن .

وقد خرج الهولنديون راضين عن نتيجة المعركة لأنهم اذا كانوا قد خسروا ثمانمائة رجل فإنهم أوقعوا بالانكليز خسائر اكثر جسامة بكثير ، وربما كانوا مبالغين بتقدير خسائر البريطانيين بحوالي ٦٠٠٠ رجل ، منهم ألف قتيل ، و ١٢٤٠ جريح ، و ٣٠٠٠ أسير ، ولكنهم لم يكونوا بعيدين جدا عن الواقع ، اذ خسرت البحرية الانكليزية ٢٣ سفينة منها ١٧ بين محروقة أو غارقة وجرى أسر ست سفن . بيد أن الأنكليز لم يقبلوا بالاقرار بهزيمتهم فقاموا بصلوات شكر في الكنائس مثلما أوقدت نيران الفرح في الطرقات . بيد أن مونك والأمير روبرت لم يفلحا بأسر أية سفينة معادية ولم يعودوا بأكثر من عدد زهيد من الأسرى . ولكن كان

من الضروري رفع معنوية السكان خشية عدم العثور على بحارة يتطوعون بالعمل في الأسطول لتعويض اولئك الذين هلكوا او الذين اقتيدوا اسرى إلى هولندا .

وهنأت حكومة « الولايات العامة الهولندية » رويتر على بسالته وعلى سلوكه المشرف . وقد أجاب الأميرال بأنه كان باستطاعته الثبات مدة أطول على سطح البحر لو لم تعمل المعركة التي استغرقت أربعة أيام على ارهاق اسطوله وقلصت ذخائره الى حد كبير ، ولا سيما مخزوناته من بارود المدافع . وقد كان لمأثرته البحرية صدى واسع في أوروبا كما تمتع الأسطول الهولندي بشهرة لم يرق اليها اطلاقا من قبل .

وقد كتب رسالة رفعها الى فان بونينغ رئيس المجلس التنفيذي الهولندي يقول فيها : « منذ بضعة قرون لم يسمع أحد بمعركة نشبت فوق المحيط من مثل هذه ، مثلما لا نستطيع أن نفي الحزم وحسن والسلوك والشجاعة البطولية ، التي وجهت العمل الحربي ، حق قدره من الثناء ، والذي ختم المعركة بصورة سعيدة جداً » .

وبعد عام كامل ، ودون أن تنشب أية معركة بحرية كبرى من جديد ــ هذا فيما عدا محاولة جريئة قام بها الهولنديون لدخول نهر التاميز ــ جاءت معاهدة بريدا في ٢١ تموز ١٦٦٧ لتضع خاتمة للحروب الهولندية الانكليزية . ومرت خمسة أعوام كاملة قبل أن تسمع

أذنا رويتر ، من جديد ، صفير القذائف ، وقبل أن يتعرف على الذي كان له القول الفصل في النهاية ، وهو الماركيز ابراهام دوكن، أمير بوشيه، والقائد العام لقوات الملك لويس الخامس عشر البحرية .

آغوسطا

ـ ٢٢ نيسان ١٦٧٦ م



الأميرال الفرنسي ابراهام دوكن[1] يفرض إرادته

في السابع من نيسان ١٦٧٢ ، انضمت فرنسا الى جانب انكلترا في اعلانها الحرب على هولندا . ولكي نكون منصفين نقول : ان

---

(١) الماركيز ابراهام دوكن: قائد بحري فرنسي شهير ، ولد في دييب على بحر المانش في عام ١٦١٠ م، ومات في باريس عام ١٦٨٨ . اشترك في أكثر المعارك البحرية خلال حرب الثلاثين عاماً ، وهزم البحرية الاسبانية في موقعة غيتاريا ١٦٣٨ ، وبعد أن خدم في البحرية السويدية، أصبح القائد العام للبحرية الفرنسية في عام ١٦٦٧ ، واشترك في حرب هولندا وانتزع من منافسه في الأمجاد العسكرية البحرية، رويتر ، معركة سترومبولي في ١٥٧٥ ثم أرسل في مهمة لردع رجال البحرية المغاربة فقصف طرابلس الغرب في عام ١٦٨١ ، وفي العام التالي قصف مدينة الجزائر ، ثم ضرب ميناء جنوا في عام ١٦٨٤ حليفة الأسبان، وكان بروتستانتيا متحمساً ، ولكن لم تطاله نتائج الغاء مرسوم نانت ضد البروتستان ، فاحتفظ بمراتبه ، ولكن اضطر أولاده للنزوح عن فرنسا .

الملك لويس الرابع عشر، كان يتحين الفرص لمثل هذه الحرب التي عمل بصورة مباشرة على انجاحها. وهكذا تحالفت أكبر دولة عسكرية مع أكبر دولة بحرية... ويبدو أن الوضع الهولندي كان رديئاً من البداية.

هكذا أعادت «الولايات العامة» الهولندية لرويتر قيادة الأسطول مع مرتبة ليوتنان أميرال جنرال. ومع أن رويتر كان يبلغ الخامسة والستين من العمر، فقد كان لا يزال يقظاً، رشيق الحركة. وقد وصفه عارفوه انه كان متوسط القامة، نحيل القوام، عريض الوجه، ناتىء الجبين، ذا عينين خضراوين ثاقبتين ووجه متمايز اللون. وكان هو المسيطر دوما في معركة القيادة، يعرف بسرعة كيف يمايز بين المصلحة وضدها وهي مزية نادرة بين الرجال.

وابتداء من ٢٣ نيسان، أخذ اسطوله ينطلق من مصب نهر الموز، كي يرابط في ميناء تكسل، ويلم شمل كل قواته. فاتخذ من سفينة (الأقاليم السبعة) التي تحمل ٨٠ مدفعا، مقرا لقيادته، وهي التي أنزلت للبحر لأول مرة عام ١٦٦٨، واشتهرت بأنها أحسن قطعة في البحرية الهولندية، بفضل تفوق سرعتها، وكثرة نقوشها وتماثيلها التي كانت تزدان بها طوابق كوثلها[1] الخمسة. أي مؤخرتها، والتي كانت

---

(١) الكوثل: هو الهيكل الخشبي الظاهر من السفينة.

تعلوها أيضا ثلاثة فوانيس ضخمة من البرونز المطلي بالذهب. وفي الثاني عشر من أيار علم رويتر بأن جيش البحرية الفرنسية بقيادة الكونت جان دستريه، والمؤلف من ثلاثين سفينة، يتأهب لدخول بحر المانش كي ينضم الى ثلاث وخمسين سفينة تؤلف اسطول انكلترا، الذي يقوده دوق يورك. وهنا فكر بتنفيذ خطة ترمي لاقتحام مرسى ليه دون كي يضرب الانكليز وهم في مراسيهم قبل وصول حلفائهم، ولكنه عدل عنها، عندما أخطره قبطان دانمركي بأنه شاهد الانكليز والفرنسيين في شرقي جزيرة وايت جنوب ميناء ساوثامبتون. وقد حققوا تلاقيهم: وهكذا كان عليه أن ينتظر سنوح فرصة أخرى ولكن هذه السانحة لم تتأخر كثيراً لأن الحلفاء، من جهتهم، فضلوا الاقلاع شرقا لتحدي الاسطول الهولندي.

ولكن رويتر الذي رابط قرب ضفاف نهر التايمز استشف أعداءه في ٢٩ أيار. غير أن الريح والضباب تسببا في وضع العصي في عجلاته. فقد كانت دونيته العددية تفرض عليه أن لا يندفع دون تبصر في مغامرة قد يتعرض فيها لهزيمة تقود لدمار اسطوله. وبعد مضي بضعة أيام من الانتظار والمراقبة ظل خلالها رويتر محتميا بحذر ويقظة خلف أرصفة الفلاندر الرملية، اتجه الانكليز والفرنسيون نحو مرسى سليباي شمال مصب التاميز، بين ميناء هارويش وغريت يارماوث للتمون بالمياه العذبة. لماذا لا يباغتهم؟ نعم لقد كان مزاج رويتر يملي عليه اغتنام

الفرصة. وما أن أقبلت الريح المناسبة حتى أقلعت أشرعته. وفي صباح السادس من حزيران أقبل على مدخل الخليج وكانت كل قلوع سفنه منتشرة، وكان أسطوله يضم ثمان وسبعين سفينة، تحمل أربعة آلاف ومائة وثمانية وثمانين مدفعا، واربع وعشرين سفينة خفر سواحل، وست وثلاثين حراقة تحمل جميعا ١٩٩٣٠ رجلاً. وقد كان الأسطول موزعاً بين ثلاث عمارات هي: عمارة زيلندة وفريز، وعلى رأسها الليوتنان أميرال آدريانز بنكرت، وعمارة الموز التي عقدت رايتها لليوتنان أميرال جنرال رويتر، وعمارة آمستردام ويرأسها الليوتنان أميرال ويلهلم فان غنت.

كان الأسطولان المتحالفان قرب الساحل، غير أن قطع كل منهما كانت راسية على مسافة قريبة جداً، كل منهما من الأخرى، الأمر الذي لم يكن يساعدهما على حرية المناورة برغم وجود مسافة ما بين الأسطول والآخر.

منافسة مؤذية

لنتفحص الآن عن كثب وضع الأسطولين الحليفين. فقد كانا يشتملان على أربع وثمانين قطعة مسلحة بنحو خمسة آلاف مدفع تقريباً، وعلى وجه الدقة ٤٩٥٤ مدفعاً، وسبع عشرة فرقاطة، وثلاث وعشرين حراقة، وثلاثين سفينة نقالة، تحمل جميعها ٣٠٥٠٠ رجل.

وكان الأسطول الفرنسي يتألف من إحدى وثلاثين سفينـة، وست فرقاطات، وثماني حراقات، ويحمل ١٧١٤ مدفعاً و ١٠١٤٠ رجلاً. وكان يضم عمارة برستد بقيادة دوكن، وعمـارة روشفـور ويقودهـا ديستريه.

ولد دوكن من أب كان يتعاطى القرصنة، ولقد لقي حتفه على يد الاسبان. وارتقى دوكن الى رتبـة عقيـد بحري في سن الخامسة والعشرين، وأصبح قائد عمارة بحرية في السادسة والثلاثين، وسبق له الاشتراك في معارك بحرية ضد الهولنديين والأسبان وضد الدانمركيين عندما تولى قيادة البحرية السويدية. وارتقى الى رتبة فريق على الجيوش البحرية ـــ غير أن مذهبه البروتستانتي كان يحول دائما دون تقدمه في المراتب ـــ، ولكنه كان بحاراً ممتازاً يجمع كل المزايا المطلوبة. ويؤكد بعضهم أنه كان رئيساً مضجراً، كثير التدقيق، مهووساً بالاتقان في كل شيء. وكان متوسط القامة، نحيلاً عصبيـاً، وكان له شاربـان بيضاوان يتحركان برعشة عصبية، فقد كان دوكن مزاجاً قائماً بذاته. وكان الوزير كولبير يكن له الاحترام. ولكن لا يمكن قول الشيء ذاته بحق زميله ديستريه الذي شاء القدر أن يكون دوكن تحت امرته في هذه الحرب ضد الهولنديين. وكان الكره المتبادل بين هذين الرجلين معروفاً لدى الجميع هذا ولم يكن ديستريه بحاراً محترفاً، بل كان بعيداً عن هذا النشاط، بعد أن ظل ضابطا في الجيش البري حتى سن السادسة

والأربعين من عمره. وعين برتبة لواء بحري بعد خدمة امتدت عشرين شهراً في سلاح البحرية، عندما كان الوزير كولبير يعبىء ضباطه لتولي قيادة أساطيله. وقد حدث أن فقد القدرة على استعمال يده اليسرى أثر جرح أصابه أثناء حصار ميناء غرافلين، قرب دييب، ضد الاسبان، مما جعله يحمل يده المغلولة الى عنقه على الدوام. لقد كان رجلاً شجاعاً، ولكن كفاءته لم تكن واضحة في ميدان التكتيك البحري، فارتكب العديد من الهفوات.. على أثر حملة على سواحل المغرب العربي في عام ١٦٧٠، ولم يتردد دوكن في توجيه النقد الى ديستريه وقد كان باستطاعة العدو أن يستغل هذا التنافر بينهما، لذلك كان ينبغي تحاشي وضعهما مرة أخرى جنبا الى جنب.

بعد أن أقلع الأسطول الفرنسي من ميناء برست في العاشر من أيار ١٦٧٢ حاذى ساحل جزيرة وايت الانكليزية حيث استعرضه ملك انكلترا الذي أبدى اعجابه بسفينتي الأميرالية الفرنسية وهما سان فيليب وعليها ديستريه، والتي تحمل ٧٨ مدفعا، وطاقمها مؤلفا من ٦٠٠ رجل، والسفينة تيرييل المسلحة بسبعين مدفعاً وعلى متنها دوكن. وفي الخامس والعشرين من الشهر المذكور دخل الأسطول الحليف مضيق بادوكاليه، واستشف قوات العدو من خلال حجب الضباب. ولما كان ارتفاع الماء آخذا في التناقص تحت صالب السفن بسبب هياج البحر، فقد كان من الخطر تعقبه وملاحقته. وفي الثاني من حزيران اتخذ قرارا

بالاتجاه الى ميناء سوليباي في كونتية سوفولك الانكليزية بقصد التموّن بالماء العذب .



الأميرال ابراهام دوكن

وكان دوق يورك بالغ الثقة بقوته حتى أنه ألغى دوريات الاستطلاع. فقد بلغ مسامعه نبأ مغلوط جعله يعتقد أن رويتر عاد الى هولندا. غير أن قبطانا جريئا هو كوغولان، قائد الفرقاطة ايول، المرابط في عرض البحر أدرك المخاطر التي تتعرض لها تلك الكتلة، العديمة الحركة، والمؤلفة من المراكب الراسية، فحاول أن يحث دوق يورك على الاقلاع في أسرع وقت ممكن. غير أن أمير البحر الرئيس هز كتفيه استخفافاً، اذ لم يقبل أن يملي عليه قبطان فرنسي صغير تصرفاته وسلوكه.

البحرية الفرنسية تبرز في معركة سولباي

لقد هبت ريح الذعر على الأسطول الراسي عندما أخذ القبطان كاغولان في فجر السابع من حزيران يطلق مدافعه وما لديه من قذائف، ونصب كل الرايات المتوفرة لديه كي يشير الى اقتراب العدو. وهكذا أقبل رويتر على سولباي تدفعه ريح مواتية، واتخذ وضع الاستعداد العام للمعركة. غير أن رفع المراسي كان كارثة، لأن البحارة كانوا يعمدون الى قطع الكابلات التي تشد السفن بالفؤوس اذا ما تعذر عليهم رفعها، أو تقلع السفينة ساحبة المرساة من خلفها. ومن المنتظر في مثل هذه الحالة الا يكترث القادة بانتظار عودة الطواقم التي أرسلت الى البر للقيام بجلب المؤن.

وجرت المعركة بصورة غامضة، بسبب النيران، والدخان، والريح، وذلك من ناحيتين متميزتين، الأولى من الشمال بين القائد الهولندي فان غنت، وبين خصمه الانكليزي ساندويش، والثانية بين بانكرت الهولندي وبين الفرنسيين. وكانت الاشتباكات شرسة، حتى



الكونت ديستريه

أن رويتر ذكر فيما بعد أنه لم يشهد خلال حياته معارك مثل هذه المعركة في ضراوتها.

وبدأت المبارزة، في الشمال، من الساعة السابعة صباحاً، وقد عانت السفينة رويال جايمس ذات المائة مدفع، وهي أجمل سفينة لدى انكلترا، والتي كانت تحمل راية مونتاغو، دوق ساندويش، عانت من نيران مركزة كانت ترميها بها السفينة غراند هولند. وقد تضايقت لدرجة جعلتها تعجز عن التخلص من حراقة أشعلت فيها النيران، وقد مات القائد ساندويش غرقاً أثناء عملية اخلائها، وتشاء الصدفة أن يسقط خصمه قتيلاً في الفترة ذاتها.

ولما تعرض دوق يورك نفسه للهجوم من طرف رويتر وقائد هولندي آخر، فقد قاوم لمدة ساعتين، ونجا بمهارة مع سفينته رويال برانس من حراقتين، ولكنه خسر ساريته الكبرى فضلا عن مائتي رجل. وعمد بعدئذ الى نقل رايته الى السفينة سان ميشيل. وكانت مدافع رويتر ترمي بصورة محمومة حتى شبهت بتفريغ الطبنجات. واستغل الانكليز البلبلة التي انتشرت في اسطول آمستردام نتيجة مصرع قائده، فأعادوا تكوين تشكيلة مناسبة تقريباً، وبدؤوا الهجوم المعاكس. وهنا جاء دور رويتر كي يجد نفسه في الموقف السيء اذ هوجم من عدة أطراف واستهدفته الحراقات. وتشاء الظروف أن يصل الأميرال الهولندي آيرت فان نس في ذلك الوقت كي ينضم الى اسطول

آمستردام الذي خسر قائده فتسلم زمام القيادة . وبعد قليل أصبحت سفينة دوق يورك القيادية في حالة من التخريب جعلته يضطر لنقل مقره مرة ثانية الى السفينة لندن .

وما أن هبط الظلام حتى انسحب رويتر لينضم الى بانكرت الذي كان يحارب على عدة جبهات تحت ريح غير مواتية . وقد اقتصر الصدام بين بانكرت وديستريه على مبارزة عنيفة بالمدفعية المتباعدة نوعاً ما ، لأن الهولنديين الذين كانوا أقل عدداً ، تحاشوا الاشتباك ولم يقتربوا أبداً لمسافة تزيد عن ٥٠٠ متر . أما الأسطول الفرنسي ، الذي أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً باتجاه الجنوب ، فقد خسر الحراقة ايمريون التي وقعت بين نارين . وتعرضت ثلاث أو أربع سفن لاضرار كبيرة أدت لعطبها . فقد ثقبت خاصرة السفينة سوبرب بالعديد من القذائف ، فالتجأت لتحتمي بمصب نهر التايمز ، حاملة على متنها قائد عمارتها ، رابسنيير ترابيوا ، الذي أصيب بجرح قاتل متأثراً بقذيفة ، هذا كما كان على السفينة ذاتها أحد فرسان مالطة الصغار ، وعمره ثلاثون عاماً ، والذي لمع نجمه أثناء المعركة ، ونقصد به آن هيلاريون دوكوتنتان ، كونت دو تورفيل ، وهو الذي سيدفع الناس للتحدث عنه كثيراً فيما بعد .

«الاشارة الناقصة ليست اشارة»

وبالاختصار ، لقد كلفت معركة سولبياي الهولنديين ضياع

سفينتين وأميرال ، فضلاً عن عطب سبع سفن ، واصابة قبطان بجراح . أما الحلفاء فقد خسروا سفينة وأميرالين ، وأكثر من ثماني سفن معطوبة ، وتلف عدة حراقات ، وهلاك ١٦٠٠ رجل بين قتيل وغريق بينهم سبعة من قباطنة السفن.

وادعى رويتر لنفسه النصر ، وهذا ما فعله الانكليز أيضاً ، أما فرنسا فقد سحبت خيطها من اللعبة بصورة مشرفة ، اذ اشترك حلفاؤها وأعداؤها في كيل مدائح مماثلة للأسطول الذي قام نتيجة جهود الوزير كولبير .

وفي فجر الثامن من حزيران بلغ الأمر بالكونت ديستريه ان رغب في استئناف المعركة، غير أن تغير اتجاه الريح حال دون ذلك. وارتأى رويتر الذي لم يكن يعجبه وضع سفنه ، الاستغناء عن خوض معركة جديدة ، وأصدر أوامره بالاتجاه نحو موانىء زيلندة الهولندية .

ولكن بقيت هناك ملاحظة الشقاق ، أي العداوة الناشبة بين ديستريه ودوكن والتي وصلت أصداؤها الى لندن وباريس .

ومما كان يثير الاستغراب بقاء دوكن دون انفعال . فعندما رفع اميرال انكلترا الأكبر ، أي دوق يورك ، الراية الحمراء، مشيراً الى بداية الرمي ، تغافل دوكن عن مساندته بطلقتي مدفع، وذلك حسبما تنص الاتفاقات . ترى هل كان ذلك السلوك يعود الى برودة دمه أم الى

الاستخفاف والسخرية ؟. وعلى كل استمر دوكن في متابعة العدو ولكن دون أن يطلق عليه النار . وعندما أثير موضوع هذه الملاحظة بشأن سلوكه المستغرب ، اكتفى بالاجابة : « الاشارة الناقصة ليست اشارة » .
وهكذا اختفى رويتر في الضباب مع خمس عشرة سفينة فرنسية تسير في أعقابه ، والتي كانت قادرة على أسره بكل سهولة .

ولم يستطع دوكن أن ينتصر على ديستريه المتمتع بدعم البلاط في هذا النزاع. وهكذا جرى عزله من منصبه، ولكن فرنسا هي التي خسرت من هذا المسلك .

وقد حال ضياع حظوته هذه دون الاشتراك في العمليات التي قام بها ديستريه في بحر المانش ، وقد امضى عامين قبل أن يسترد القيادة في البحر الأبيض المتوسط .

أول نصر تحرزه البحرية الفرنسية لوحدها

بعد أن فسخت فرنسا عقدها مع انكلترا أصبحت محاولة التعاون البحري بينهما هدفا لمجادلات طويلة وعقيمة . وبعد تحالف لم يكتب له أن يستمر أكثر من عامين تقريباً ، وجدت البحريتان نفسيهما في حالة تنافر ، وهكذا ستستمر خصومتهما مدة مائة وخمسين وعشرين عاما . فقد اتهمت انكلترا فرنسا بأنها القت كل ثقل الحرب ضد هولندا



معركة ٧ حزيران ١٦٧٢ تجاه ساحل صقلية الشرقي

على عاتقها لوحدها، ولم تكن مخطئة في ذلك، فانسحبت. وبالاضافة الى بقاء الفرنسيين وحدهم في الميدان، فقد زاد الطين بلة عندما أعلنت أسبانيا الحرب عليهم في ١٥ تشرين الأول ١٦٧٣.

ففوق الأرض كانت الجيوش الفرنسية تلهث ضد عدو متحصن بقوة وتحميه مساحات واسعة مغمورة بالمياه. أما على سطح البحر فقد تعادل الأسطول الفرنسي مع اسطول هولندا، ولكنه اضطر للانشطار الى اسطولين موزعين بين المحيط الأطلسي، ويضم أربعين سفينة حربية، وبين البحر المتوسط، الذي كان اسطوله يتألف من ثلاثين سفينة وأربع وعشرين سفينة خفيفة. وعهد بأمر قيادة أسطول الأطلسي الى ديستريه، في حين اسندت قيادة عمارة البحر المتوسط الى فكتور دو ريششوار، دوق فيفون. وقد كان جندياً باسلاً في سن التاسعة والثلاثين. ولكنه كان بحاجة الى من يساعده في الحرب البحرية.

ففي مطلع عام ١٦٧٥ كان سكان مسينا، في صقلية، وهي مدينة حرة كانت تحت السيادة الأسبانية، قد انتفضوا ضد السلطة الوصية الشديدة الشطط. وناشدوا فرنسا أن تساعدهم. وفي الثاني من شباط انطلق دوق فيفون من مرساه في جزر هيير، قرب ميناء طولون، وفي مقدمته دوكن. وفي الحادي عشر من شباط هزم الأسطول الأسباني بقيادة دوق ملخيور دولاكويفا، قائد أسطول المحيط، والذي كان محجوزاً في مدخل ميناء مسينا. وهكذا سقطت السفينة نويسترا

سينورا دل بوبيلا في أيدي الفرنسيين . وانطلق فيفون بعدئذ على عجل كي يضرب الحصار على ميناء آغوسطا اذ سانده دوكن الذي استخدم حذقه لأقصى حد . وعندما تراءى له أن الأمدادات أصبحت ضرورية أوفد دوكن الى فرساي ليطالب الملك بها ولكي ينبئه بأن الراية ذات زهرة الزنبق ، وهو علم فرنسا قبل الثورة ، قد كسبت لوحدها أول معركة بحرية .

ودفع الذعر الأسبان الذين كانوا يطمعون في استرداد مسينا الى الاتجاه نحو اعدائهم القدامى ، أي الى الهولنديين ، وكان لهم ما أرادوا . وهكذا أقلع رويتر على رأس قافلة مؤلفة من أربع وعشرين سفينة ، مسلحة بألف وثلاثمائة مدفع وتحمل ٦٠٠٠ رجل ، فضلاً عن حراقتين وسفينتي شحن ، كما انضم اليه اللواء البحري هان . واجتاز مضيق جبل طارق سراً لينطلق رأساً في اتجاه مضيق مسينا ، الذي يفصل صقلية عن البر الايطالي .

وفي الثامن من كانون الثاني ١٦٧٦ ، وبينما كان قرب جزيرة آليكوني ، وليس لديه أكثر من ثماني عشرة سفينة ، التقى بدوكن العائد من طولون والذي أطلق العنان لأسطوله المؤلف من ثلاثين سفينة . ونشبت المعركة قرب سترومبولي ، وهي احدى جزر ارخبيل ليباري ، شمال صقلية ، وانطلقت الصليات من سائر السفن ابتداء من الساعة العاشرة صباحا وحتى غياب الشمس . وظل دوكن سيد الموقف . وقد

أصيب بجرح في ساقه ، وهو فوق سفينة الروح القدس بسبب شظية خشبية ، ولكن دون خطر يذكر .

لقد كانت سفينته الجديدة ، احدى أجمل قطع الأسطول الفرنسي ، وكانت تتألق باتقان صواريها ، وبجهازها ، هذا فضلا عن نوعية مدفعيتها . وكانت بطارياتها وسطوحها واضحة الملامح بالموازنة مع مثيلاتها في السفن الأخرى ، التي كانت على العموم وسخة ، مزدحمة بأقفاص الطيور وبالمواشي . هذا كما كانت مقصورتها الأمامية والخلفية مغطاة بالتذهيبات . وكانت تتمايز مغالق كوات المدفعية ذات اللون الأحمر القرمزي عن البياض الباهر الذي طلي به هيكل السفينة .

وفي اليوم التالي من المعركة التحق به الفريق دالميرا مع عشر سفن موفداً من طرف فيفون . وهنا اتخذ دوكن قراراً جريئاً ، إذ استدار حول جزيرة صقلية واقتحم مضيق صقلية من الجنوب ، حيث كان أقل حماية ، كي ينجد المحاصرين بالذخائر التي لولاها لاضطروا الى الاستسلام خلال ثمان واربعين ساعة . وبعد هذه المناورة الحاذقة وهذا النجاح الكامل ، كتب الملك لويس الرابع عشر الى دوكن ليعبر له عن امتنانه من انجازه المهمة المزدوجة ، وهي الالتحاق بعمارة دالميرا وبعودته بكل الاسطول الفرنسي الى مسينا .

وهنا حزم الأسطول الهولندي أمره على القيام بضرب الحصار

تجاه ميناء آغوسطا. أما فيفون الذي آثر أن يمكث على البر لاعتبارات سياسية، هذا فضلاً عن كونه بليداً الى حدٍ ما، فقد عهد بزمام قيادة الجيش البحري الى دوكن، الذي أقلع على رأس ثلاثين سفينـة، مسلحة بألف وسبعمائة واثنين وعشرين مدفعاً، وتحمل ١٠٦٦٥ رجلاً. وقد اكتشفت مراصده وكشافاته الأسطول المعـادي المحتشد أمام سيراكوزه على ساحل صقلية الشرقي بين كاتانه وآغوسطا. وقد استطاعت أن تحصي بالاستعانة بالمناظير تسعاً وعشرين سفينة حربية أصغر أبعاداً، وتسع فرقاطات وبضع حراقات، مسلحة بمقدار ٨٥٢ مدفعاً، وعلى متنها ٤٥٠٠ رجل.

قلب محفوظ في علبة فضية

ونشبت المعركة في الثاني والعشرين من نيسان ١٦٧٦ نحو الساعة ١٦. وكانت في أقصى ما يمكن من العنف، اذ قذفت المدفعية لوحدها ٣٠٠٠٠ طلقة. وقد تلقت المقدمة الفرنسية، التي يقودها دالميرا، أول صدمة، والذي كانت رايته منصوبة فوق السفينة «ليس». أما على السفينة الطليعية «فيديل»، فقد كان القبطان كوغولان، الذي سبق له أن قذف بالطلقات الثلاث الأولى في معركة سوليباي، التي سبق لنا الكلام عنها، فقد أصيب بجروح نتيجة أوائل القذائف. وما كاد الطبيب يفرغ من تضميد جراحه حتى طالب بحمله كي يوضع

على عارضة مؤخرة سفينته ليستمر في القيام بدوره بكل حماسة.

وقد دافع دالميرا بصورة رائعة للغاية بعد أن تلقى دعم دوفالبيل، رئيس العمارة، بصورة ناجعة من فوق سفينته القديمة بومبو. وبعد قليل أصبحت المعركة شاملة.

ويعطي دوق دوفيفون في تقريره المرفوع الى لويس الرابع عشر فكرة عن معركة آغوسطا البحرية والذي لا يزال محفوظاً في الأرشيف الفرنسي، مع بعض التفاصيل عن هذه الحادثة:

«في الساعة السادسة عشرة ألقت مقدمة رويتر بنفسها على مقدمتنا وبدأت المعركة على مرمى الطبنجة لشدة الأقتراب. ولحق بها رويتر مع سفنه وبذل جهداً خارقاً. وقد استقبلته سفننا الطليعية بحمية واندفاع مماثل ومن بقية عناصر اسطولنا. ولما رأى رويتر أن جهوده كانت عبثاً كما لم يكن راغباً في الالتحام والاقتحام بعد ساعتين ونصف من معركة شديدة الضراوة، أقلعت أشرعته وانسحب من وجه أسطول القائدين دالميرا ودفالبيل، في الوقت الذي كان فيه يطلق نيرانه على سائر أجزاء خط النار وحتى أواسط الأسطول، واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى مغيب الشمس. وفي هذا الوقت وصلت مؤخرة اسطوله لتنقض على مؤخرة اسطولنا واستمر النزال بكل عنفوانه حتى الساعة العاشرة ليلاً اذ انسحب الأعداء سالكين طريق سيراكوزة.



غرق «رويال — مارك»

وقبل أن تغيب الشمس كنا نرى السفن الخفيفة الأسبانية، من نوع قادس، وهي تقوم بسحب أربع سفن هولندية معطوبة بصورة بالغة في صواريها ودقلها، وفي المساء تم سحب سفينة هولندية خامسة».

وقد كانت المعمعة رهيبة في الواقع. فقد كانت الرشقات تتقاطع بشكل فوضوي ضمن قصف يسبب الصمم. وفي هذه الفترة بالذات شهدت هولندا سقوط أكثر زعمائها أمجاداً، فمنذ بداية المعركة خسر ميشيل رويتر «وهو الرجل الذي يساوي جيشاً بكامله»، رجله اليسرى التي أطاحت بها قذيفة مثلما تهشمت ساقه اليمنى. وكان ممدداً فوق سطح مؤخرة سفينة «لاكونكورد»، ولم يلبث بعد قليل أن سقط من ارتفاع مترين ونصف كي يصاب بجرح في رأسه. ولكنه لم يتوقف عن اصدار أوامره حتى النهاية، وهو يصرخ في كل مرة كان يسمع فيها قصف المدفعية: «تشجعوا يا أبنائي تشجعوا، هكذا يجب أن تصنعوا، لكي تنالوا شرف النصر».

وبعد ساعة من تأثر رويتر بجراحه وعجزه التام عن قيادة المعركة فعلاً أخذ رجال المدفعية الهولندية بثأرهم اذ قتلت احدى قذائفهم القائد الجريء داالميرا من فوق سفينته. ولما أصبح رويتر مهدداً بالتطويق وقنط من رؤية الأسطول الأسباني بقيادة اللواء دون فرانسيسكو دولاسردا الذي خذله بمنتهى الجفاء، اضطر لاصدار آخر أمر له، وهو اعطاء

اشارة الانسحاب تحت وابل من القذائف التي كانت تبقر قواقع السفن وتهشم الصواري، وبينما كان دوكن المنتصر يدخل ميناء آغوسطا كان الأميرال الهولندي الجريح يقصد سيراكوزه اذ فارق الحياة متأثراً بجروحه بعد اسبوع، في مساء التاسع والعشرين من نيسان. وانتزع قلبه كي يحفظ في علبة فضية ثم حمل على فرقاطة كي تقوم بنقله الى هولندا. ويشاء سوء الحظ أن تسقط الفرقاطة في أيدي الفرنسيين. وعندما علم دوكن بحقيقة الأمر صعد الى ظهر الفرقاطة وطلب توجيهه الى المقصورة التي أودع فيها قلب رويتر. اذ انحنى أمامه خشوعاً، أي أمام الصندوق الصغير الذي يضمه وقال: «تلك هي بقايا رجل عظيم استقبل الموت في وسط الأخطار التي سبق له أن تحداها في الكثير من المرات». ثم منح الهولنديين ورقة أمان كي يكون بإمكانهم العودة لبلادهم مع وديعتهم الثمينة. ولقد استحق رويتر هذا الثناء من الرجل الذي سبق أن قال عنه: «يبدو لي دوكن، بين كل أعداء وطني، أكثرهم رهبة». ولا يعرف الرجال سوى الرجال.

وعندما انطلق الأسطول الأسباني الهولندي قاصداً الالتجاء الى مرسى سيراكوزة تغاضى دوكن عنه وخلى سبيله، ذلك أن ذخائره نفذت، كما كان قسم من أسطوله محروماً من قائده على أثر مصرع دالميرا. لهذا رأى أن من الأنسب والأكثر تعقلاً الانحياز الى جانب التريث.

معركة باليرمو

وبعد ستة أسابيع قضاها الأسطول الحليف الهولندي الأسباني لاصلاح ما أصابه من عطب ألقى مراسيه أمام بالرمو ، وبعد أن استرد دون دوفيفون الفرنسي زمام القيادة جعل من السفينة « سيبتر » حاملة رايته وخرج على أتم أهبة الأستعداد ليتحدى الأسطول المعادي على رأس ٢٨ سفينة و٢٥ قارباً و٩ حراقات . أما الأسطول المعادي الذي كان راسياً فكان يضم قوة مماثلة قوامها ٢٧ سفينة و١٩ قارباً وأربع حراقات مصفوفة جميعاً على شكل خط منحن اتخذ شكل نصف دائرة .

غير أن هذا التفوق المزدوج لم يجعل فيفون يعود على أعقابه بل رفع راية الانتقال الى الهجوم .

وهنا اتجه دوكن نحو رأس الخط المعادي وكان يبدو عليه عدم الاكتراث بالرمي الشديد الذي أصبح هدفاً له . ولما أصبح على مسافة تقل عن المائتي متر فتح النار . وبينما كانت السفن المعادية متكئة على طافيات مراسيها راحت تتعرض لأضرار شديدة ، وكانت البلطات تنهال على الكابلات لتقطيعها وجنحت السفن بتأثير قرب المكسر واستغلت ثلاث حراقات هذه البلبلة فقامت بإشعال النيران في ثلاث سفن هولندية .

وما أن مضى على بدء المعركة قرابة الساعة حتى انفجرت سفينة الأميرالية الأسبانية نويسترا سينورا دلبيلار المسلحة بأربعة وستين مدفعاً ضمن ضجيج مخيف، وذلك بعد أن اشتبكت مع حراقتين وسرى اللهيب منها الى السفينة سان فيليب. ولما كانت مرساة سفينة الأميرالية منحلة فقد جنحت على الشاطيء اذ لحقت بها الحراقات الفرنسية وأحرقتها بالكامل بالتضافر مع ثلاث سفن حربية أخرى هي: غوفر نمان، تروا مونتان، وبريون.

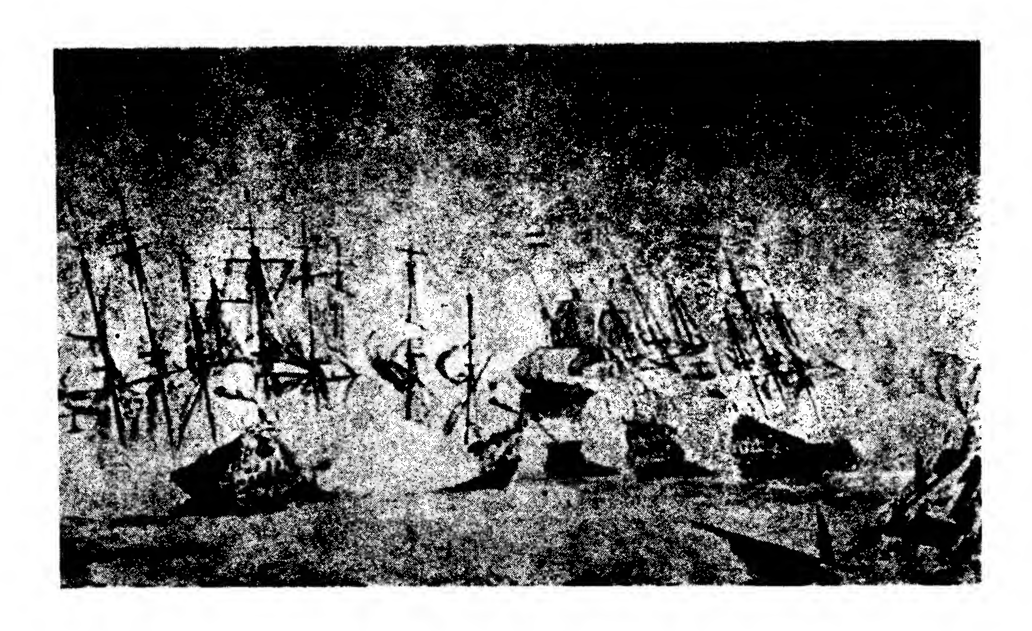
لقد كان الانتصار الفرنسي باهراً. فقد خسر الجانب المعادي ثلاثة آلاف قتيل، بينهم خمسة من أمراء البحر، أي من رتبة أميرال، اثنان من الهولنديين وثلاثة من الأسبان، كان في عدادهم دون فرانسيسكو دولا سردا، وهو نفسه الذي تخاذل عن نجدة رويتر في ٢٢ نيسان، كما فقد اثنتي عشرة سفينة، وستة مراكب من نوع «قادس» وأربع حراقات. أما الفرنسيون، من جانبهم، فلم تتجاوز خسائرهم مائتي رجل بين قيتل وجريح.

وأرسل لويس الرابع عشر تهانيه الى فيفون على هذا النجاح: «ليس هناك ما يشير، وذلك بعد النصر العظيم الذي أحرزه جيشي البحري بقيادتكم، إلى أن الاعداء سيكونون قادرين على الظهور على سطح البحر مرة أخرى. ولكن اذا كان لديهم من الجرأة ما يكفي للعودة، فإنك ستكون قادراً، على رأس قوات متفوقة، على مطاردتهم

حيثما كانوا، الى أن تتمكن من القضاء تماماً على البقية الباقية من سفنهم، ومراكبهم من فئة قادس، التي لا تزال موجودة في بحار صقلية، هذا اذا صادفتهم وسيكون هذا بالطبع أكثر فائدة لمصلحتي في سبيل مجدك الشخصي».

ومهما كان النصر حاسماً فلم يكن في الواقع كافياً لوضع حد للحرب التي لم تستطع أن تنهيها سوى معاهدة السلام المعقودة في مدينة نيميغ الهولندية بتاريخ ١٦ أيار ١٦٧٨ . وهكذا وبعد أن عاد السيف الى غمده استحق دوكن بعض الراحة. وفي عام ١٦٨١ وبعد أن اشترى اقطاعية بوشيه من الماركيزة كليمبو قرب مدينة ايتامب، قرب باريس، وأنعم عليه الملك وتحولت اقطاعيته الى ماركيزية شريطة الا يمارس هو ولا خلفه من بعده فيها الطقوس الكالفينية. والحقيقة كان دوكن بروتستانتياً، وهذا هو السبب الذي حرمه من نيل كل المراتب والتكريم التي برهن على أهليته واستحقاقه لها، والذي حال بينه وبين تسلم عصا الماريشالية.

وبعد أن ساعد الوزير كولبير في تصميم التحسينات التي كانت الترسانات البحرية في أمس الحاجة اليها عاد هذا البحار الهرم الى البحر الأبيض المتوسط لمحاربة رجال العرب المنطلقين من مرسى طرابلس الغرب. وقد أوفد في مناسبتين لقصف ميناء الجزائر في عام ١٦٨٢



معركة ضد الهولنديين في ١٦٧٦

والتي كان بحارتها يعترضون سبيل السفن التجارية الفرنسية ويفرضون عليها الغرامات.

وفي عام ١٦٨٤ عهد اليه بآخر مهمة، وكان عمره حينذاك خمسا وسبعين سنة، وهي الانطلاق لقصف جنوا اذ كانت ورشاتها منهمكة ببناء أربعين قادساً مما أثار مخاوف الملك لويس الرابع عشر من أن يرى هذه المراكب وقد تأهبت لشن الحرب عليه. وكان على سفينته الماركيز سينيلي ابن كولبير البكر ووزير البحرية. وهكذا ختمت حياة دوكن البحرية. فاعتزل العيش مع اسرته، وقضى نحبه بعد ثلاثة أعوام أثر نوبة قلبية كما يقول بعضهم، أو كمداً كما قال آخرون، على أثر نفي أبنائه، في الوقت الذي كان فيه البروتستانتي الوحيد الذي يسمح له بالبقاء في فرنسا بعد الغاء مرسوم نانت.

ويعود هذا الاستثناء الى الأعمال الجليلة التي أداها لوطنه.



بيفيزييه

١٠ تموز ١٦٩٠

الأميرال آن هيلاريون دو كونتنتان ، كونت دو تورفيل ، يلحق الهزيمة بالحلف البريطاني الهولندي ، من فوق بارجته « الشمس الملكية » .

لم تكن خاتمة القرن السابع عشر تمر بسلام دون أن تشهد أيضاً بعض المعارك البحرية الذائعة الصيت، اذ وقعت معركة «بيفيزييه» الذي حاز إكليل غارها «الكونت دو تورفيل» التي حققت فوزاً لا ريب فيه للبحرية الفرنسية والتي كانت في قمة مجدها. فلقد تطورت التجارة والصناعة في فرنسا وتوسعتا بدافع من سياسة الوزير كولبير الذكية. ونشأ اسطول جبار أصبح شيئاً فشيئاً، سيد البحار بلا منازع. وقد استطاع القادة الفرنسيون من أمثال تورين (Turenne) وكونديه ولوكسمبورغ أن يهزموا، ظافرين، جيوش الامبراطورية الجرمانية، والنمسا، واسبانيا، وهولندا، التي حاولت عبثاً تشكيل حلف ضد فرنسا. وقد استطاع لويس الرابع عشر أن يفرض شروطه على المغلوبين في معاهدة نيميغ.

وبعد أن استغلّ فترة السلم عاد لاستثارة دول أوروبا نتيجة استفزازاته الجريئة.



فيكتور ماري، دوق ديستريه، قائد طليعة اسطول تورفيل

فعلى أثر سقوط جاك الثاني، وهو دوق يورك، الذي كان يقود الأسطول البريطاني في معركة سوليباي (Solibay) آل العرش الى صهره غليوم دورانج، الذي تُوجّ ملكاً على بريطانيا العظمى، الى جانب احتفاظه بالعرش الهولندي. وبعد أن استردت بريطانيا قواها خلال فترة السلم الطويلة، أخذت على عاتقها عبء الكفاح ضد لويس الرابع

عشر ، بالنيابة عن هولندا الخائرة القوى ، وأوجدت حلفاً جديداً لحسم المشكلة دفعة واحدة .

وما أن شعر وزير البحرية الفرنسية « سينيوليه » بدنو الخطر حتى بادر الى تركيز قوات بلاده على البحر كي يرهق هولندا المنهكة ، بالاضافة الى انكلترا ، التي كانت منقسمة على نفسها . وجاءت أوائل



فرانسوا دالي ، ماركيز دامفروفيل ، والذي رافق تورفيل في موقعة بيفيزييه

النجاحات التي أحرزها اللواء البحري ، شاتورينو ، في خليج بانتري ، على الأميرال هربرت الانكليزي، في الثاني عشر من أيـار ١٦٨٩ لتبرهن على نجاعة هذه الاستراتيجية . وتلى ذلك نصر آخر ليؤكد حسن تصرف البحرية الفرنسية ، ونقصد به معركة بيفيزييه .

السفينة الرائعة : « الشمس الملكية »

سنشهد في هذه الموقعة بحاراً سبق لنا ذكره، وهـو « آن هيلاريون دو كونتنتان ، كونت دو تورفيل » المولود في ميناء « تورفيل » على ضفة بحر المانش ، في عام ١٦٢٢ . وقد كان هذا في عداد فرسان مالطة وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وتمرّس على القتال على متن السفن الحربية ، واشترك في معارك عدة ضد الأتراك العثمانيين ونازل رجال البحر الجزائريين ، وشارك في معركة سولبياي (Solibay) عندما كان يقود واحدة من سفن اسطول الكونت « ديستريه » مثلما حضر معركة آغوسطا ، وكانت أعماله هذه عبارة عن مغامرات براقة استحق عليها رتبة قائد عمارة بحرية . ولمع نجمه في « بالرمو » مرة أخرى ، مثلما تمكـن تحت قيـادة « دوكين Duquesne » من مطـاردة رجـال البحـر الطرابلسيين (الليبيين)، وقصف مدينة الجزائر بمدفعيته وكذلك ميناء جنوا الايطالي فيما بعد . وفي بداية الحرب المعلنة على هولندا ، في ١٦٨٨ ، اسندت اليه قيادة عمارة تضم خمس وحدات . وما أن أقلع

من ميناء برست حتى استولى على سفينتين تابعتين لشركة جزر الهند الهولندية ، اندونيسيا حالياً .

وفي أواخر ربيع عام ١٦٩٠ ، وكان سنه لا يتجاوز الثامنة والأربعين ، توجه ليحارب في بحر المانش ، تدعمه فرقة « شارتورينو » القادمة من البحر الأبيض المتوسط ، كما حصل على وعد بمساندة قوامها خمسة عشرة سفينة بقيادة أمير « نوايْ » ، ولكن هذا الدعم تأخر في طريقه من ميناء طولون الى ميناء برست ، فوصل ... ولكن بعد فوات الفرصة .



تورفيل



تورفیل



التشكيلات في ميدان معركة بيفيزية

وكان مشهد الأسطول الفرنسي غاية في الروعة، عندما أقلع من ميناء برست في الثالث والعشرين من حزيران ١٦٩٠ اذ كان أكثر الأساطيل التي حملت الراية الفرنسية جلالاً، فكانت طليعته تتألف من أربع وعشرين سفينة تحت إمرة فكتور ماري ديستريه، البالغ من العمر ثلاثين عاماً، والذي اتخذ من السفينة «غران» المزودة بثمانين مدفعاً، مقراً لقيادته: وفي الوسط، حيث يقع قلب الأسطول المحارب، كان «تورفيل» ينصب رايته على السفينة «الشمس الملكية» المجهزة بثمانية وتسعين مدفعاً وحولها أكثر سفن الأسطول الفرنسي كفاءة، والبالغ عددها ستاً وعشرين سفينة. وكان في مقدمة عمارة تورفيل صفوة من القادة أمثال «الماركيز دولابورت» ابن شقيق الفارس دوفالبيل، بينما كان يقود سفينة المؤخرة الفارس «دو كوتيلوغون»، وكان «شاتورينو»، البالغ من العمر ثلاثة وخمسين عاماً، يقوم بمهمة حراسة المؤخرة المذكورة، من على سفينته «دوفان رويال» ذات المائة وعشر مدافع



وزير البحرية سينيوليه ابن كولبير

وكانت خمس وعشرون سفينة خاضعة لقيادته. وبعبارة مختصرة كانت هناك نخبة من رجال البحر الفرنسيين معبأة في هذا الموكب البحري نذكر منهم غاباريه ولاغاليسونيير، ودورو لينغ، وجان بار وفوربان، ولاهاتولوار، ودامفرفيل، وبوانتيس، وفيلينت، وبانتوييه... وكان حشداً مهيباً باسطولهم البالغ خمساً وسبعين قطعة بحرية عليها ٤٨٠٠ مدفع و ٢٦٠٠٠ مقاتل من المتحرقين شوقاً لخوض المعمعة.

وقد ظهرت بادرة جديدة هي تخصيص سفن لمعالجة الجرحى تصحب الأسطول لأول مرة. فقد أدخل «الماركيز سينيوليه» نصاً في قانون البحرية الفرنسية العسكرية يقضي بضرورة وجود «سفينة ـ مستشفى» ضمن كل فرقة مؤلفة من عشر سفن، تدعى «المراكب الاستشفائية»، وصدرت في الوقت ذاته الأوامر الى ثلاث موانىء هي: بولونية، كاليه، دونكرك، بالاستعداد وأخذ الأهبة لاستقبال ستة آلاف بحار، بين جريح ومريض، وذلك بمعدل ألفين لكل ميناء. وفي حالة عجز المشافي على النهوض بهذه المهمة المنوطة بها، فقد كانت الأوامر تنص على وجوب الاستيلاء على منازل الأهالي وأسرّتهم والتفاوض معهم بالحسنى لتوفير العلاج والغذاء.

أمر من الملك: النصر

لقد خسر الأسطول مدة ثلاثة أيام كاملة تجاه ميناء



اللواء البحري شاتورينو

« كامار » بسبب الرياح المعاكسة، وذلك على ساحل شبه جزيرة بريتانيا. وفي الخامس من تموز تجاوز الأسطول جزيرة « وايت » حيث كان « دو تورفيل » ينوي ـــ حسب تقرير أحد الجواسيس ـــ مباغتة ثماني وخمسين سفينة راسية، ولكنه وجد ميناء « سانت هيلين » مقفراً.

وهنا اندفع « جان بار » قبطان الفرقاطة آلسيون، وهي إحدى فرقاطات المطاردة المعدة للقيام بدور الكشافة في الطليعة، أقول اندفع، متطوعاً، للقيام بمهمة استطلاع، فامتطى قارباً صغيراً يسحب شباكه، كي يظهر على هيأة صياد سمك. وكان من حسن طالعه أن اكتشف العدو على مسافة مائة كيلو متر تقريباً الى الشرق، أي فيما وراء رأس « بيش هيد »، بين ميناء ايستبورن، وميناء هاستنغ، أمام مرسى بيفنسي الذي كان البحارة الفرنسيون ينطقون اسمه حينئذ بصورة لا تخلو من التحريف، وهو بيفيزييه، وهو الاسم الذي عرفت به هذه المعركة حتى أيامنا هذه.

ولم يبق أمام « دو تورفيل » سوى المبادرة لتنفيذ مخططاته بعد أن استطلع عدوه. غير أن الريح لم تكن تهب كما تشتهي سفنه، وتجاه موقف كهذا لا يكون هناك الكثير من الحلول.

ترك الأميرال الفرنسي مراكبه تجري على هواها، ولكنه كان يلقي مراسيه في حالة الجزر. وبهذه الطريقة اقترب من العدو الذي كان



عمارة هولندية

يتمتع بكل الظروف المواتية للامساك بزمام المبادرة . فقد كان الأسطول الانكليزي تحت قيادة اللواء البحري « آرثر هربرت » ، أو « كونت أوف تورينغتون » ، الذي جعل من السفينة « رويال جيوفيرين » مركز قيادته . وعندما وقع بصر هربرت على الأسطول الفرنسي ، في فجر العاشر من تموز ، رفع راية الاقلاع عالياً ، وذلك بعد مشاورة عاجلة مع الأميرال الهولندي « ايفرتزن » الذي كان مساعداً للأميرال « رويتر » . وكانت الأوامر هي الأوامر . فقد سبق له أن تلقى من مليكه أوامر تقضي بالهجوم ... وبالفوز . ولم يكن لديه سوى سبع وخمسين سفينة ، منها اثنتين وعشرين هولندية ، في الطليعة ، مقابل خمس وسبعين سفينة

فرنسية تخضع لأوامر «دو تورفيل». غير أن هذا التفوق العددي لم يكن كافياً، بادىء ذي بدء، لكي يبعث على الفزع في نفس هربرت، الذي اندفع ببسالة لينقض على «دو تورفيل» الذي انبرى اليه بفرقه التسع حسب تشكيلة تتألف من صفوف متعاقبة.



غاباريه

وهنا اندفعت العمارة الهولندية بقيادة «ايفرتزن» أولا لمباشرة القتال في الساعة التاسعة، وانهمرت قذائف مدافعها على سفن «شارتورينو» الذي كان في مقدمة عمارة «ديستريه». وبذلك تعرضت السفينة «دوفان رويال» الفرنسية القريبة لسيل من القذائف مزقت قلوعها، وهشمت الصواري، وقطّعت الحبال وقضت على البحارة. وبعد أن كابد الأسطول الفرنسي الأمرين من هذه الصدمة الأولى، وهي أشدها مرارة، ظهر للعيان أن هربرت كان عاجزاً عن مساندة حلفائه الهولنديين الأوفياء. وهكذا حاول هربرت التصدي لمؤخرات سفن الأسطول المعادي، وهي أقل جوانب جسم الأسطول الفرنسي مناعة. فقد تصور أن العملية سهلة ولكنه اضطر الى التخاذل. فقد دافعت فرقة «دامفر وفيل» التي تتألف من تسع قطع، بكل شجاعة، حتى أن سفينة هربرت، المثلثة الجسيرات، وهي «رويال سوفيريني» تحطمت وخسرت عتادها متأثرة بهجوم احدى السفن الفرنسية «فوغو» المسلحة بثمانية وخمسين مدفعاً، وهي سفينة حربية بسيطة، من الدرجة الرابعة، كان يقودها القبطان «سان مارك» مما اضطر هربرت الى الانسحاب من المعركة.

ولم يكن بمقدور بريطانيا أن تنقذ سمعتها في ذلك اليوم المشهود إلا بفضل إقدام أحد قادتها وهو اللواء البحري «رالف ديلاوول» الملقب «بالخنزير البري المنعزل» والذي انتزع إعجاب خصمه القائد الفرنسي

« غاباريه » وخصومه الآخرين، وذلك عندما قام بشطر الأسطول الفرنسي وعزل بين قسميه. وكانت السفينة « كورونيشن » المسلحة بتسعين مدفعاً مقر قيادة « ديلاوول » الذي قام بعملية الشطر، على رأس ثلاث عشرة سفينة، وبذلك أفلح في إخراج السفينة « مودريه » المسلحة بخمسين مدفعاً، والسفينة « فلورون » ذات الاثنين وخمسين مدفعاً، من المعركة، وذلك قبل أن تتغلب عليه نيران المدفعية الفرنسية وتجعل جهوده تذهب أدراج الرياح. وعلى أثر ذلك قطع عليه « غاباريه » الطريق بفضل سفينته « آنتربيد » التي تحمل ثمانين مدفعاً، هذا في حين عمدت السفينة « فايّان » المزودة بثمانية وأربعين مدفعاً بقيادة « فوكيير » الى تبديد عتاد السفينة الانكليزية « سان آندريو » ذات الستة وتسعين مدفعاً.

إرهاق الهاربين

وعندما أرخى الليل سدوله، لم تكن الأمور على غير ما يرام بالنسبة للأسطول الفرنسي، صحيح أنه كان هناك إصابات بين صفوفه غير أن المعسكر البريطاني نال من الضربات الموجعات أكثر بكثير.

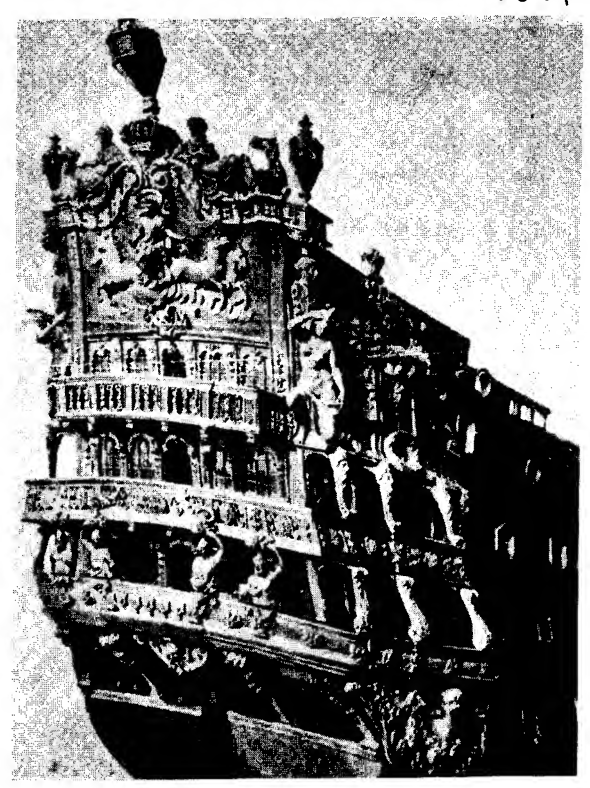
وهنا بدل الانكليز اسلوبهم وأطلقوا حرّاقة... استطاع رجال المدفعية الفرنسية أن يفجرّوها وهي في منتصف الطريق. وعندما اعتبر « هربرت » أن المعركة خاسرة أشرع راية الانسحاب متجها نحو بحر

الشمال حيث كان واثقاً من العثور على ملجأ أمين في مصب نهر التايمز، وجيء بالقوارب لجرّ السفن العاجزة عن الحركة، ولكي ينجز انسحابه، دون مخاطرة، ترك أشرعته مقلعة وأنزل ... مراسيه. وجاء تيار الرياح من خلفه ليسعفه كما كان يتوقع، في حين كانت الرياح، نفسها، تدفع بالسفن الفرنسية في الاتجاه المعاكس بصورة لا قِبَلَ للبحارة الفرنسيين بمقاومتها، وحيث لم يدرك قادة سفنهم أبعاد الحيلة الانكليزية إلّا بعد فوات الأوان.

وبعد قليل أصبح اسطول الاميرال «دو تروفيل» مشلول الحركة بسبب سكون الريح، وهنا استشاط هذا الأميرال غضباً وحنقاً من رؤية عشر سفن معادية، وهي شبه متوقفة ودون حماية، وكانت على مدى مرمى مدافعه تقريباً، وهو عاجز عن استغلال الفرصة للاستيلاء عليها، ولو وصلت سفن «أمير نواي» أي النجدة الفرنسية في هذه الفترة، بالذات، لكان في مقدوره إنجاز ملحمة مطاردة خارقة، ولتمكن من تسديد ضربة قاضية الى هذه السفن المتعطلة، ولكان من السهل عليه تماماً أن يحرقها أو يقتادها، أسيرة.

وراحت فرقة «المركيز دوفيلليت ــ مورساي» الفرنسية تمطر الهولنديين بوابل من قنابلها، والذين كان جل همهم اللحاق بأسطول الأميرال «هربرت» الذي لاذ بأذيال الفرار. فتمكنت من القضاء على

ست سفن واضطرت أربعاً منها على أن ترمي بنفسها على الساحل حيث تم إغراقها.



«الشمس الملكية» ذات الـ ١٠٤ مدافع وهي سفينة الأميرال دو تورفيل في هوغ. منظر أمامي (متحف البحرية)

وكتب «دو تورفيل» في صبيحة المعركة أول تقرير وأرسله الى فرنسا، بواسطة فرقاطة فرنسية يقول فيه: لقد كان الريح حليفاً لأعدائنا، وبعد قيامي بتشكيل الخط الهجومي، جاء الهولنديون بكل ما استطاعوا من زخم لمهاجمة المقدمة، ولم يكن هربرت راغباً في منازلة الأسطول الفرنسي كما لم يحاول الاشتباك مع أي من سفننا. وقد اشتبكت مع مساعده، وهو لواء بحري، ومع اثنين من أعوانه، لا يقلان كفاءة ومراساً عنه. وكان الكونت «ديستريه» يحارب مع قواته التي تشكل المؤخرة الفرنسية. ولحسن الحظ صمدنا في وجه الريح كي ننقضّ على الهولنديين الذي خذلهم حلفاؤهم الانكليز تقريباً، لأنهم عجزوا عن استغلال الريح بسهولة، ولهذا كانوا عاجزين عن المناورة، فاستطاعت السفن الفرنسية أن تحرم اثنتي عشرة من سفنهم، ومن سفن الانكليز، من صواريها... وجاء السكون الذي حرمنا من الاستيلاء على أكثر من سفينة واحدة من سفنهم، وكانت هولندية تحمل ثمانية وستين مدفعاً. ومن المؤكد أنه لو كان لدينا عدد من السفن الخفيفة لسقطت كل هذه السفن، التي اجتثّت صواريها، غنيمة في أيدينا، والتي كانت راسية بسبب الجزرْ... وفي المساء تحولت الريح لمصلحتنا مدة نصف ساعة تقريباً، ولو استمر ذلك مدة أطول لاستولينا على عشر سفن هولندية. ولما ألقى الجيش المعادي مراسيه كيلا ينقض علينا، ولكي يحتفظ بمزايا المد، أدركت من مناورتهم بأن كل سفنهم كانت مقلعة



الأميرال دوتورفيل

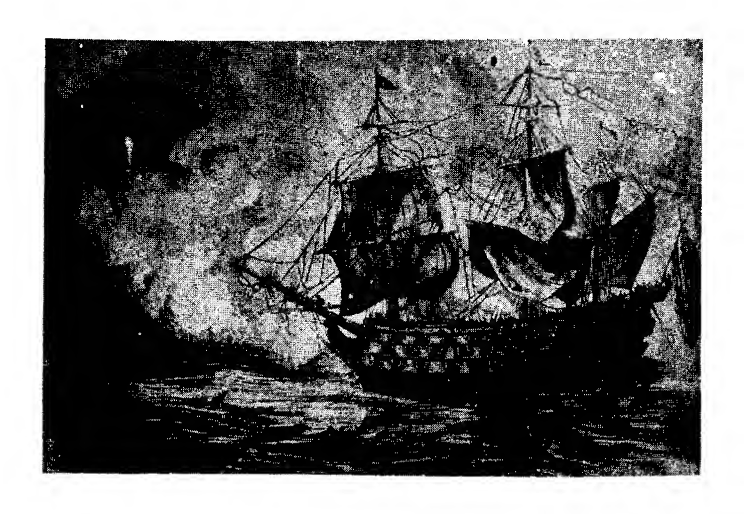
الأشرعة. فأرسيت مع بضع سفن من اسطولي على مرمى من سبع أو ثمان سفن هولندية كانت في متناول مدافعي. وما أن انتهى المد حتى رفعوا مراسيهم وراحو يجرّون سفنهم بالزوارق، وكانت سفناً مسطّحة، قليلة الغاطس بالماء، وبالتالي أسهل سحباً من سفننا (...) ولا يجوز أن يساوركم ريب في أن سفننا لم تتعرض لكثير من العطب بعد معركة استغرقت ثماني ساعات، ولكن أكثريتها كانت تفتقر للذخيرة تماماً، ومع ذلك طاردنا الجيش المعادي.

وبعد أن أورد بعض الثناءات المتملقة حول سلوك قباطنته خلص «دو تروفيل» الى القول: «لقد وجدت أن الأعداء قد حاربوا بكفاءة، ولم يكن هناك سوى (هربرت) وأعوانه الذين لم يرموننا عن كثب، والذين لم يتعرضوا الا لسفن (الماركيز دامفرفيل). ولو كانت الريح في جانبنا لكانت العملية أقرب للكمال. ولكن باستطاعتك أن تطمئن الملك بأنه لم يكن من المستطاع أكثر مما فعلنا، لأن الريح كانت حليفة أعدائنا».

الأميرال الانكليزي في برج لندن

وكانت النتيجة أن خسر الهولنديون أربع عشرة سفينة، والأنكليز ثلاثاً، ولكن الأميرال «تورفيل» لم يخسر ولا واحدة. هذا كما تمخضت المعركة عن سقوط اربعمائة قتيل، مقابل خمسمائة جريح من

الجانب الفرنسي. وأنزل الأسطول الفرنسي ٢٨٠٠ مريضاً في الموانىء النورماندية، فضلاً عن عدة آلاف آخرين في ميناء برست، لأن وخامة سفن ذلك العصر كانت أكثر إضراراً من قنابل الأعداء. وقد استاء الوزير الفرنسي «سنيوليه» من عدم استخدام ميناء بولونية، وكاليه، ودونكرك بناء على موافقة شخصية من القائد العام للأسطول، حيث اتخذت كل الاستعدادات بصورة مسبقة. غير أن الموانىء المذكورة لم



لوحة عن معركة العاشر من تموز ١٦٩٠ في بيفيزييه

تكن مهيأة تماماً لترميم وتجهيز السفن التي كانت تنتظر الإبحار الى ميناء برست على أحر من الجمر.



فوربان

غير أن تفاصيل هذه المعركة الرائعة جعلت وزير الحربية يتغاضى عن هذه الأمور . وقد مات بعد أربعة أشهر من تلك المعركة ، ولم يكن يتجاوز عمره التاسعة والثلاثين ، بعد أن أضناه الافراط في العمل والشراب والحياة الماجنة .

أما من الجانب الآخر من بحر المانش فلم يكن لدى الأميرال هربرت ما يتباهى به ، ووجّه اليه الاتهام بأنه ضحّى عن عمد بالهولنديين ــ وهم أكبر الخاسرين في هذه القضية ــ فحكم عليه بالسجن في برج لندن لمدة بضعة أشهر قبل أن يقدم للمحاكمة في محكمة عرفية . ولم يعهد اليه فيما بعد بأي منصب قيادي . ترى كيف لا نتفق مع الكاتب « كلود فارير » الذي قال في كتابه « تاريخ البحرية الفرنسية » : « ليس من معركة بحرية ، في كل تاريخ فرنسا ، كمثل هذه تستحق التمجيد والفخار ، وتثبيت الثقة في مصائر شعبنا المستقبلية » . هذا صحيح ، ولكن كم من الفرنسيين يعرفون اليوم مقدار العظمة الذي يرتبط بهذه الكلمة المفردة « بيفزيه » ؟ .



شيزابيك

٥ ايلول ١٧٨١

معركة صغيرة.. ونتائج كبيرة



لم تكن مآثر بول جونز الحربية كافية لأن تمنح الولايات المتحدة نصراً حاسماً على حكامها الانكليز، فلم يكن «المتمردون» يملكون أية قوة بحرية على سواحل أمريكا الشمالية. وكان من حسن طالعهم أن كانت فرنسا مطمئنة على سلامة حدودها القارية، لذا قررت أن تساند قضيتهم جهاراً فأعلنت الحرب على انكلترا. ولم يتردد لويس الخامس عشر في أن يرسل الى هناك في عام ١٧٧٨ أسطول نجدة، مؤلفاً من اثنتي عشرة سفينة، عهد بقيادته الى اللواء البحري الكونت هنري ديستان[1]، وهو عسكري محترف انتقل متأخراً الى الجيوش البحرية. وفي عام ١٧٧٩ دعمت هذه الفرقة بأربع سفن بقيادة رئيس الأسطول الكونت فرانسوا دوغراس، وبسفينتين تحت إمرة الماركيز «دوفودروي» ثم أردفتها ست سفن من أسطول دولاموت بيكيه، أي أصبح الأسطول

(١) وهو من أجداد رئيس جمهورية فرنسا الأسبق فاليري غيسكارديستان.



الكونت دو روشامبو

يضم أربعاً وعشرين سفينة جيدة التسليح قامت ببعض المناوشات ضد بعض قطع البحرية الملكية البريطانية التي لم تكن تتمتع بوضع متفوق .

وفي بداية عام ١٧٨١ وفي أعقاب بعض النكبات ، كسقوط مدينة شارلستون ، في كارولينا الجنوبية ، وخيانة الجنرال آرنولد ، أصبح

الجنرال واشنطن، المحاصر في وادي الهدسن، يتساءل قلقاً عن المصير القادم. ولم يكن تحت تصرفه سوى قرابة ألف رجل لحماية ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية. أما قوات الجنرال الفرنسي روشامبو فقد كانت معزولة في نيوبورت، وكانت تقتل الوقت في اللعب وبمغازلة النسوة، وكانت هناك ضرورة للتجمع من جديد قبل أن يحدث انهيار كارثي.

دوغراس: دقة في الموعد

وفي السادس من تموز ١٧٨١ بينما كان دوغراس، وهو على رأس أسطول مؤلف من عشرين سفينة قتال كبيرة، وفرقاطات، وغربان[٢] ونقالات وسفن تموين، أقول بينما كان يلقي بمراسيه في رأس فرانسيه، في جزيرة هاييتي، تلقى رسالة مستعجلة من روشامبو، أو بالأحرى اقتراحاً، ذلك أن قائد القوات الموفدة لنجدة الأمريكيين كان يعلمه فيها بأنه، على أثر لقاء مع زعيم الثورة واشنطن، تمّ الاتفاق على القيام بعمل مشترك يضم القوات البرية والبحرية، وأن أمر اختيار ساحة المعركة فقد تركاه لتقديره، لأن مساندة القوات البحرية هي

---

(٢) جمع غراب، أو سفينة (Corvette)، وهي سفينة حربية قديمة، وسيطة بين الفرقاطة وسفينة بريك (Brick).

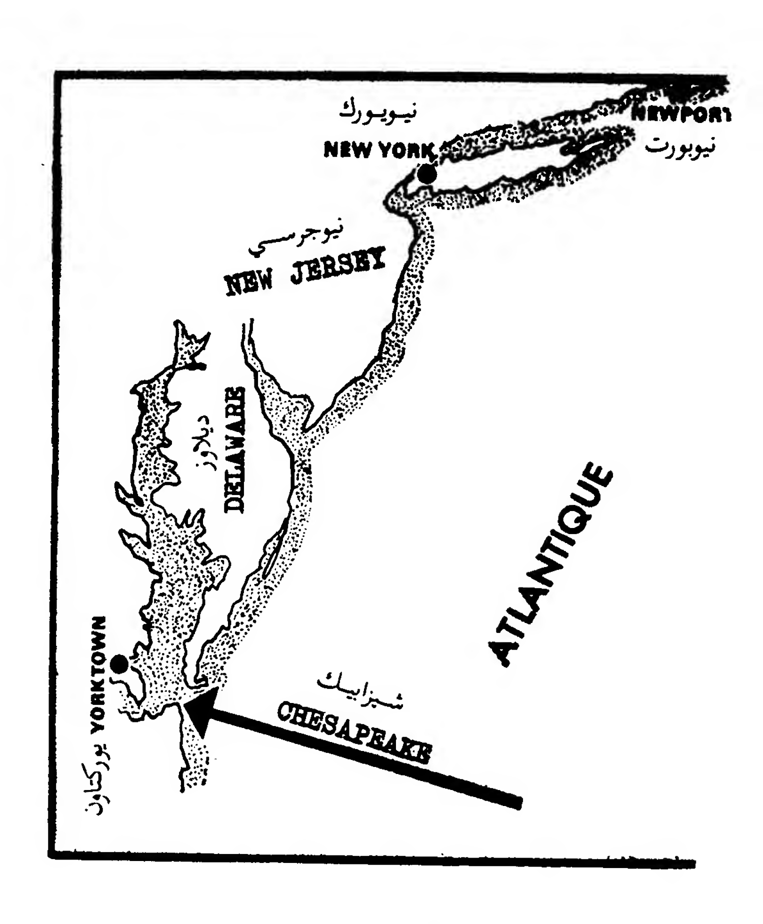
الحاسمة وذات القول الفصل. وهنا كان على دوغراس أن يختار بين قطاع نيويورك، وهو القاعدة الرئيسية للقوات البريطانية، وبين قطاع هامبتون رودس، في مدخل خليج شيزابيك. ولم يتردد في اختيار الثاني، حيث يتوفر هناك احتمال أشد في أن يكون تدخله أكثر نجاعة. وكان الجيش الانكليزي، بقيادة الجنرال شارلز كورنواليس، والذي يتألف من سبعة آلاف من المحاربين الأشداء، قد هرع من ولاية كارولينا ومن فرجينيا، ورابط هناك في السادس من تموز، وكان علمه يخفق فوق مدينتي يوركتاون وغلوسستر، أي على ضفتي نهر جيمس المتقابلتين.

وما أن اتخذ دوغراس قراره حتى بعث بفرقاطة سريعة لإطلاع روشامبو على المكان الذي اختاره لأرض المعركة، وأركب الى جزيرة سان دومينغ مفارز من أفواج الغاتينيين[٣] والآجينيين[٤] ومن أبناء اقليم تورين، قرب نهر اللوار، وكان مجموعهم قرابة ثلاثة آلاف رجل بقيادة الماركيز سان سيمون كي تكون مدداً للقوات الفرنسية الأمريكية الحليفة، هذا كل حمل معه مبلغ ١٢٠٠٠٠٠ جنيه التي طلبها منه روشامبو لتوزيعها على المعمرين (Colons) الأوروبيين، ذلك أن هؤلاء بدءوا يتململون من تكاليف الحرب، لهذا اكتتب لهم سكان هافانا الإسبان بمبالغ طائلة

---

(٣) نسبة إلى اقليم (Gatinais) غاتينيه جنوب غرب باريس.

(٤) نسبة إلى مدينة آجن (Agen) في اقليم لوت وغارون، جنوب غرب فرنسا.



خارطة معركة شيزابيك

من المال كرد فعل ضد الانكليز. وأقلع دوغراس في الخامس من آب. ووصل خفية سالكاً طريقاً غير مطروقة كثيراً إلى أن ظهر في ٢٨ آب أمام شيزابيك.

ولما كان سنّ دوغراس يناهز الستين عاماً فقد كان يفتقر للموهبة التي تجعله محبوباً لدى الآخرين. ذلك أن تجهّمه واكتناز جسمه لم يكونا في مصلحته، لهذا درجت رباعية رديئة بين جنوده تقول:

مجنّح باللحم ومحشو بشحم الخنزير.
وبكلمة موجزة كانت الطبيعة والفن
يحلمان بالغمد أكثر مما كانا يفكران بالنصل
في الوقت الذي شيّد أسوار نفسه.

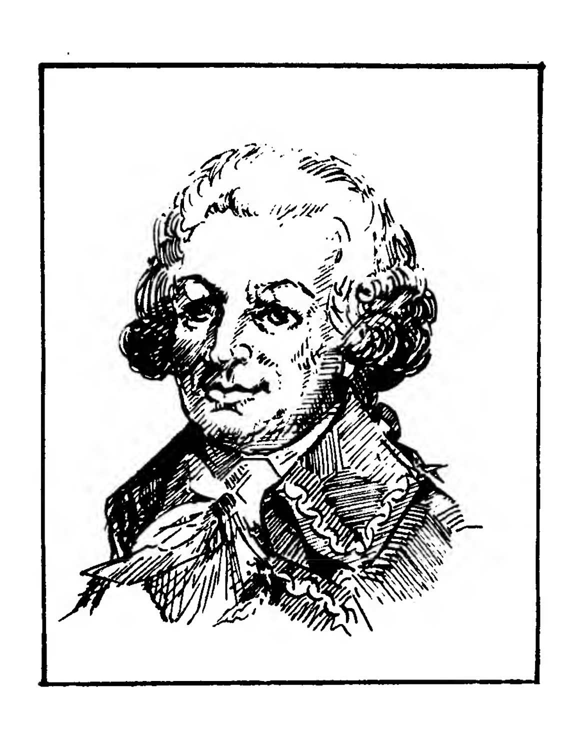
بيد أنه كان بحاراً شجاعاً، ورجلاً مستقيماً، مقداماً، جسوراً. وقد اتخذ من السفينة «فيل دوباري» مركزاً لقيادته، وهي سفينة قتال أنزلت إلى البحر عام ١٧٦٤ ومسلحة بمائة وأربعة مدافع. وكان يعمل تحت إمرته ثلاثة من كبار رجال البحرية وهم: بوغاتفيل، توشتريفيل ومونتاي.

ولما علم روشامبو بنوايا دوغراس، غادر نيوبورت للقيام بمسيرة خادعة باتجاه نيويورك. وعندما أفلح في خداع الخصم، ترك المدينة على

يساره، وقطع مراحل مستعجلة، تحت شمس محرقة، واتجه نحو نيوجرسي حتى خليج ديلاور، الذي اجتازه عند مخاضة ترانتون بين الأول والثاني من ايلول. وفي الرابع من الشهر المذكور كان في فيلادلفيا، حيث قام باستعراض قواته أمام بناء الكونغرس بحضور حشد كبير من السكان. وفي الخامس من ايلول أنزل قواته في مدينة شستر حيث كان واشنطن بانتظاره، واقفاً على الساحل، وهو يحرك قبعته ومنديله، ولم يتمالك من الارتماء بين ذراعيه حينما وطأت قدماه الأرض. وفي اليوم نفسه سجل دوغراس اسمه في التاريخ من خلال نصر ذي مدى متواضع نسبياً، ولكن كانت نتائجه تتفوق كثيراً على أكبر المعارك البحرية في عصره.

الأسطول الانكليزي يفوت فرصة نادرة

لقد انتقلت قيادة القوات البحرية الى عاتق العميد البحري توماس غزافز، نظراً لغياب الأميرال رودني، الذي عاد الى انكلترا للعناية بصحته التي لم تكن على يرام. ولما كانت راية غرافز فوق السفينة «بارفلور» ذات المائة مدفع فقد اتجه نحو عرض البحر لقطع الطريق على أسطول الكونت دوباراس، المؤلف من اثنتي عشرة سفينة حربية، تقوم بحراسة ناقلات الجنود ــ أو مفرزة شوازي ــ ومدفعية الحصار، الموفدة لدعم القوات الأمريكية. وفي ٢٥ آب ألقى نظرة على خليج شيزابيك فوجده خاوياً. عندها صعد في اتجاه الشمال حيث ألقى



لويس انطوان كونت دو بوغانفيل قائد طليعة الأسطول الكونت دوغراس

مراسيه في الثامن والعشرين من الشهر المذكور في مدخل نهر الهدسن متصوراً نفسه في وضع ممتاز كي يقطع الطريق على العمارة الفرنسية فيما اذا خطر ببالها مهاجمة نيويورك، هذا حسبما كانت مسيرة روشامبو توحي له.

وفي الوقت ذاته رابط الكونت دوغراس في خليج شيزابيك في الوقت الذي ترك فيه سفينتين عند كل من مصب نهر يورك ونهر جيمس لإغلاق مدخلهما ولقطع أي اتصال مائي على الانكليز. وهكذا جعل المقدم كورنواليس محاصراً تماماً من جهة البر وفقد أي أمل في النجدة الوحيدة الممكنة، أي التي تأتيه من عرض البحر.

ترى هل استشعر العميد غرافز بنوع من مكيدة؟ من الممكن تصور ذلك. لهذا قام بتجميع عمارته التي تضم عشرين سفينة، وقرر الهبوط جنوباً مرة ثانية. وانقسم اسطوله الى ثلاث مجموعات، وكان هود في الطليعة وصار غرافز في الوسط، ورايته فوق السفينة «لندن» ذات المائة وثمانية مدافع، في حين كان صموئيل فرانسيس درايك في المؤخرة، ورايته فوق السفينة «برنسيسا» المسلحة باثنين وثمانين مدفعاً.

وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح الخامس من ايلول حاذى ساحل ماريلاند وكانت الريح تدفعه من خلفه، وراح يتجاوز رأس شارلز عندما كانت الراصدات تشير لوجود بعض الأشرعة التي تلوح في الأفق. والحقيقة كانت هذه الأشراعة القليلة هي قلوع الأسطول الفرنسي الراسي في لينهافن... هذا الأسطول الذي فوجيء هو أيضا به أبصرت فرقاطته الاستكشافية أشرعة من جهة الشرق، متجهة نحو الخليج. وكان هذا الأسطول لا يتوقع مواجهة العدو بمثل هذه السرعة نظراً لأن ١٥٠٠ رجلاً و٩٠ ضابطاً كانوا غائبين، ومنهمكين



الكونت دوغراس

في سنبوكاتهم في إنزال قوات الماركيز سان سيمون، بحيث لم يستطيعوا الاشتراك في المعركة. غير أن الكونت دوغراس الذي كان فوق سفينته، «فيل دوباري» لم يتريث كثيراً في اتخاذ قراره. فقد خشي أن يسقط في الفخ، كما حصل في الماضي للأميرال دوكندو في مرسى ليه دون،

فأصدر أوامره بالاستعداد للمعركة والتأهب للإقلاع دون تفويت أية ثانية من الوقت. وعند الظهيرة، وعندما سمح تيار المد بنشر القلوع، نصب راية الانطلاق مع الأمر بترك الكابلات مسحوبة عوضاً عن رفع المراسي «الهلب»، لأن رفعها عبارة عن مناورة لا نهاية لها عندما كانت العملية تتم بالأيدي بواسطة الرحويّة Cabestan. وخلال مدة تقل عن النصف ساعة كانت الصواري والعوارض العليا مكسوة بالقلوع، وراحت السفن تراوغ في مسيرتها في القنال، التي لا يزيد عرضها عن ثلاثة أميال، والتي تفصل بين رأس هنري وبين القيعان الرملية الضحلة في ميدل غراوند، كي يفلت من هذا الخليج حيث كان من المحتم عليه أن يحارب في أكثر الظروف رداءة. وقد كانت مناورة عسيرة بالنسبة لسفن ثقيلة كهذه والتي كان عليها أن تقوم بمسيرة حسب خطوط متكسرة متراصة. وبفضل الله أمكن تحقيق ذلك بصورة تثير الاعجاب.

غير أن غرافز لم يعرف كيف يستغل فرصته السانحة. وبدلاً من أن يهاجم السفن الفرنسية على الفور، الواحدة تلو الأخرى، في الوقت الذي كانت تحاول فيه التملص من الخليج، فقد تركها تخرج بكل سكينة لتتخذ وضع تشكيلة قتالية. وهكذا فاتته إحدى تلك الفرص «التي تتجاوز أكثر الأحلام روعة من نوع التي يمكن لقائد بحري أن يتجرأ على تصورها» كما ذكر ذلك فيما بعد أحد الكتاب البريطانيين.

ولما كان غرافز ذا عقلية فروسية أكثر منها استراتيجية، فقد اكتفى باستغلال ميزة الريح، واتخذت قواته الأهبة لمعركة تقليدية، أي مقدمة ضد مقدمة، وأسطول مقاتل ضد اسطول مقاتل... الخ.

ولسوء حظه ارتكب خطيئتين: أولاهما عجزه عن إفهام مرؤوسية لافتقاره لسلاح إشارة مناسب للموقف، إذ لو كان عنده جهاز والكي تالكي Walki- talkie لتغير تاريخ العالم، وثانيتهما كانت تغيير أمره الأول. فقد ترك في مؤخرة حراسته القائد التكتيكي الممتاز صموئيل هود، الذي كان معطلا من الناحية العملية، هذا في الوقت الذي كانت مقدمته مسنودة الى درايك «وهو ضابط كبير الأسم، ولكن قيمته دنيئة».

الريح تحجز بين المتحاربين

لقد استغل الجانب الفرنسي هذه المهلة غير المنتظرة أحسن استغلال، فقام الأسطول بمناورة حاذقة جداً وكان خط القتال أفضل تشكيلاً. وكان في المقدمة لويس دو بوغاتفيل، وعمره اثنين وخمسين عاماً، وكانت له خدمة عسكرية طويلة ومجيدة، وكانت شارته فوق السفينة «اوغستا» ذات الثمانين مدفعاً. واستأخر بوغانفيل بمهارة وقت الاشتباك بكل برودة أعصاب وبذلك ترك الوقت الكافي للأسطول لاتخاذ الوضع القتالي المرغوب. وكانت هذه المبادهة هي التي جعلت



العميد البحري توماس غرافز

الكونت دوغراس يمنحه فيما بعد الشهادة المادحة بأنه هو الـذي يستحق تهنئة النصر.

وكانت الساعة ١٦ عندما احتدم أوار المعركة بين المقدمتين، على مرمى رماة السفن الطليعية. وتلقّت السفينة «ريفليشي» أول رشقة من القنابل الانكليزية، وسقط قائدها القبطان دو بورديـه قتيـلاً. واصطلت أربع سفن من المقدمة بنـار جهنيمـة مماثلـة. وأخـذت أحداها وهي السفينة «دياديم» بالإحتراق. واقترب بوغانفيل لينهك السفينة الانكليزية «تيريبل» بقساوة بحيث عجزت عن البقاء فوق سطح الماء، فهجرها بحارتها الانكليز بعد أن أضرموا فيها النيران. وخسر بوغانفيل في هذه المعركة كابل عمود الصاري العلوي الأمامي، وهو حبل يستخدم في توجيه الشراع، والذي أطاحت به قذيفة ورأى اثنين من رجاله وهما يسقطان صريعين عند محاولتهما استبداله بآخر، وعندما صرخ «أقدم كيس نقودي هدية لمن يعيد هذا الحبل لمكانه» وهنا اندفع بحار هاتفاً «أيها الأميرال لا داعي لأن تدفع لي شيئاً لكي أقوم بواجبي» وأفلح في ذلك.

وأخذ الفرنسيون يرمون السفن الانكليزية المتقدمة للهجوم رمياً ضاماً وراحوا يقصفونها قصفاً كثيفاً. وقد تحاشت المؤخرة الانكليزية بقيادة هود، الذي ظل على الدوام في اتجاه الريح، أقـول تحاشت هجمات السفن الفرنسية، التي كا نت بقيادة الفارس دو مونتاي،



الأميرال صموئيل هود الذي كان تقاعسه مؤلما

الذي كانت شارته فوق صاري السفينة « لانغدوك » ذات الثمانين مدفعاً والذي حاول أن يجر هود الى المعركة . وادعى هود المستاء ، فيما بعد ،

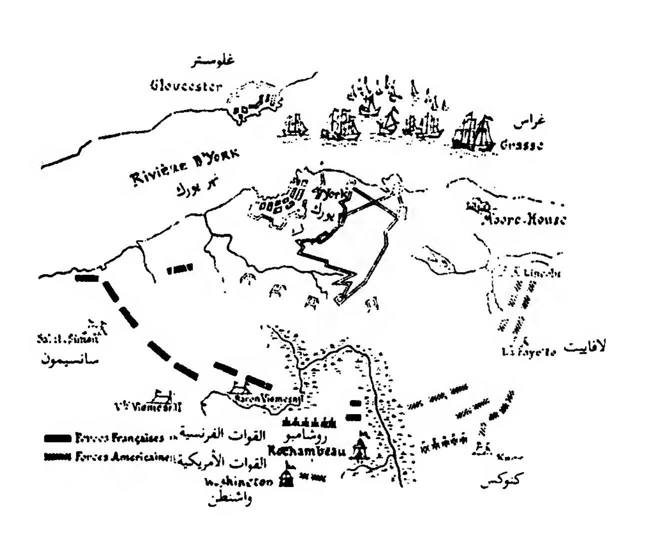
أن غرافز أهمل تبليغه إشارة الهجوم تاركاً راية الاحتفاظ بالسفن مرتصفة خلف بعضها البعض. وهو مثال طيب عن طاعة عمياء. وبذلك افتدى هود نفسه.

«واترلو بحرية»

لقد خسر الفرنسيون في هذه المعركة، غير الحاسمة في الواقع، ٢٢٠ رجلاً بين قتيل وجريح، مقابل ٣٣٦ رجلاً في الجانب الانكليزي. كما كانت خسائرهم المادية أقل من الخسائر الانكليزية، إذ لم يتعرض للعطب فعلاً سوى السفينتان «دياديم» و«كاتون». أما الجانب البريطاني فقد خسر، فضلاً عن السفينة «تيريبل»، السفينة «آنتريبيد» و«برنسيسا» و«شريو سبوري» و«آجاكس» و«مونتاغو» والتي تعرضت الى تقطع صواريها وعوارضها فضلاً عن شقوق فاغرة في خواصرها... الخ.

وعلى كل لم يكن ذلك عبارة عن هزيمة ماحقة بالنسبة للانكليز، ولكن كان ذلك قليلاً بالموازنة مع نتائج ذلك اليوم الخالد. ولما كان واشنطن وروشامبو واثقين من قدوم نجدات الأميرال باراس الفرنسي فقد كرسا جهودهما لاحكام فكي الملزمة حول ميناء يوركتاون. ومع ذلك كان لديهما ما يكفي من وقت للتمتع بالمنظر المشجع لدى

اصطفاف ست وثلاثين سفينة بقيادة الكونت دوغراس وكونت باراس ، والتي كانت منتشرة من رأس هنري حتى رأس شارلز لتقطع طريق الانسحاب في وجه اللورد كورنواليس . وعقدوا مجلساً حربياً على متن سفينة الأميرالية « فيل دو باري » حيث كان البحارة المتناثرين فوق كل العوارض على شكل ستارة بشرية ، وهم يحيون بهتافاتهم الحماسية ذهاب القادة برشقة من بنادقهم .



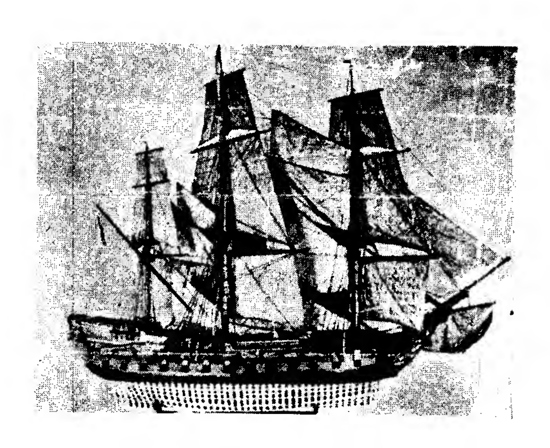
مخطط حصار يوركتاون ، عن خارطة قديمة محفوظة في قصر دو روشامبو





ميدالية الذكرى المئوية لمعركة يوركتاون، من حفر توران، في ١٩٣١ ويظهر من اليسار جانبيه وجه واشنطن، دوغراس وروشامبو. والى اليمين مخطط المعركة

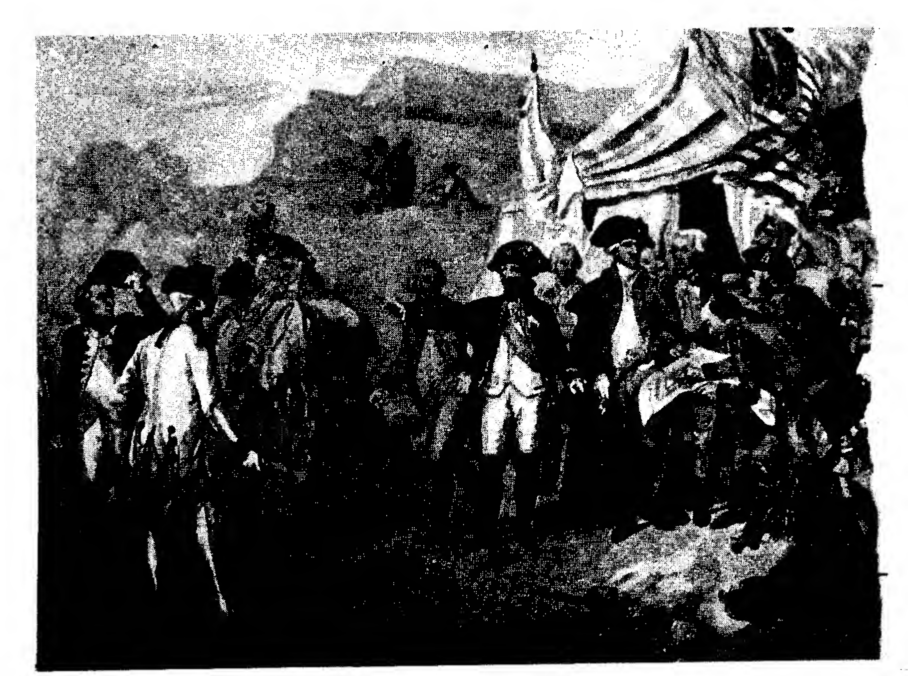
ولما علم كورنواليس بأن بقية الأسطول الانكليزي قد آثرت الانسحاب وقنط من وصول أي نجدة ما دام دوغراس قد سدّ عليه كل المنافذ، طلب الاستسلام. وفي التاسع عشر من تشرين الأول كانت قواته تمر صفوفاً أمام المنتصرين طارحة أسلحتها أرضاً. وهكذا أصبحت معركة استقلال الولايات المتحدة مؤكدة. وعليه منح انتصار معركة شيزابيك البحرية المؤزر لواشنطن بكل تأكيد، تماماً كما لو كان كريفز قد أفلح في سحق القوات الفرنسية الامريكية الى جانب انتصار كورنواليس. وقد تمت موازنة هزيمة الأسطول الانكليزي، فيما بعد،



« بروتكتور » سفينة ذات ٦٤ مدفعاً من عمارة دوغراس

بنوع من « واترلوّ بحرية » ، كانت أكثر ثقلاً من حيث نتائجها من انتصار ويللنغتون في سهل واترلو الكئيب على قوات الامبراطور نابليون الأول بعد ذلك التاريخ بأكثر من ثلاثة عقود من الزمن.

واعترافاً من الكونغرس للكونت دوغراس بجميله بسبب المهارة والبسالة اللتين برهن عليهما أسطوله في مطاردة البحرية البريطانية من « النقطة الساخنة » التي كان وجودها قادراً على تغيير مجريات الأمور ، فقد قدم اليه الكونغرس أربعة مدافع من التي غنمت في يوركتاون ، والتي وضعها بعد ترخيص من الملك لويس الخامس عشر ، في مدخل قصره في بلدة تيللي . وفي أعقاب هزيمة دوغراس أمام الأميرال رودني الانكليزي



لافاييت يستقبل روشامبو وواشنطن اثناء حصار يوركتاون



معركة بحرية بين سفينة أمريكية وبين سفينة بريطانية في معركة شيرانيك

بتاريخ ١٢ نيسان ١٧٨٢ ، أي بعد ثمانية شهور من الزمن ، في أرخبيل القديسات ، في غرب فرنسا ، حيث خسر معركة أمام مدفعية أكثر إحكاماً من مدفعيته ، تلقى المواساة من خلال رسالة بعثها اليه واشنطن كتب فيها : «تبرهن صروف الدهر القاسية على أن أكبر الأبطال هم دوماً من بني البشر ، وعرضة لصروف الحظ الذي يظل سيداً عشوائياً في توزيع أفضاله . إنها مثل غانية مغناجة حقيقية ، والتي

تجد متعتها أحياناً في إلحاق الكروب بأولئك الذين يتمتعون بأفضل سلوك والذين هم أقل الناس استحقاقاً لها » .

نيغابا تام

٦ تموز ١٧٨٢

«القاضي دوسوفرن يعمل على ترجيح استراتيجيته في خليج البنغال».



لعل من المناسب تثبيت اسم القاضي سوفرن بين الأوائل من كبار رجال البحر الفرنسيين فقد عرف ببسالته ويقظته ورباطة جأشه وعناده. وقد اشتهرت حملة الكاب والهند، مع أنها لم تكن مجهزة بأكثر من امدادات هزيلة وبعمارة[1] بحرية متباينة الطراز والأجيال، وبضباط ضعاف غير انضباطيين.

في الطريق الى الهند

ولد بيير أندريه دوسوفرن دوسان ترويبز، في السابع عشر من شهر تموز ١٧٢٩ في جنوب فرنسا. وقد سبق له، قبل هذه المعركة أن حارب الانكليز ورجال البحر المغاربة، في عرض البحر الأبيض المتوسط، كما حارب في جزر الهند الغربية الامريكية، وعند الالتحام مع

---

(١) العمارة طائفة من السفن الحربية تكون معا تبحر في آن واحد.

عمارة الأميرال هاوك الانكليزي سقط أسيراً، مما أتاح له تعلم اللغة الانكليزية لأنه كان يمقت تبديد الوقت. وبعد ستة أعوام عرف مرة أخرى مرارة الأسر في معركة لاغوس، لأن الانكليز خرقوا عن عمد حياد هذا المرسى البرتغالي، الذي كان قد لجأ بسفينته اليه. فاستطاع سوفرن، بعد ذلك، أن يرد للانكليز الصاع صاعين. فبعد أن أطلق سراحه عن طريق المبادلة عاد للخدمة في البحرية، ولكن ترقيته كانت وئيدة الخطا. وعندما تبنت فرنسا قضية الامريكيين الذين ثاروا على حكامهم الانكليز، كان سوفرن يقود سفينة مسلحة بأربعة وستين مدفعاً.

وعندما عاد الكونت دوغراس الى فرنسا، في عام ١٧٨١، بحثا عن سفن لمساعدة القائد الامريكي واشنطن وحليفه القائد الفرنسي روشامبو. ولما أقلع من ميناء برست كان سوفرن بصحبته، وكان لا يزال رباناً بسيطاً لاحدى السفن، يبلغ من العمر اثنين وخمسين عاماً. ولكن المسافة المحددة من الطريق لا تتجاوز جزر آزور، في المحيط الأطلسي. وعند بلوغ جزر ماديرا، انفصل عن بقية القافلة البحرية وحده كي يتجه نحو الجزيرة التي اتخذت بعد ذلك اسم جزيرة «موريس» في المحيط الهندي وكان عليه أن يتوقف في أثناء طريقه في رأس الرجاء الصالح الذي كان حينذاك في أيدي الهولنديين المرتبطين آنذاك بحلف مع فرنسا ضد انكلترا، وأن يعد ميناء الكاب للدفاع. وكانت فرنسا ترى أن من

الضروري تحصين هذا الموقع، لأنه كان يؤلف محطة ممتازة على طريق الهند. وكانت البحرية الهولندية آنذاك عاجزة عن حماية مستعمراتها التي كلفت حكومة هولندا من أجل الاستيلاء عليها الكثير من الجهود المضنية. وكان على «سوفرن» أن ينزل في ميناء الكاب حامية تردع الانكليز عن أية رغبة في احتلال الكاب الذي خططت لندن مسبقاً لاحتلاله والمعروف أن انتزاعه من هولندا سيؤدي حتماً الى ضياع باتافيا (جاكرتا الحالية) وسيلان (سريلانكا الحالية) وكذلك بقية ممتلكاتها الأخرى، في خليج البنغال، وعلى ساحـل كورومانـدل، أي على الساحل الشرقي من شبه جزيرة الهند. ويبدو مما تقدم مدى اهتمام هولندا بهذا الموقع الاستراتيجي الذي عهدت بحمايته لفرنسا، آخذة على عاتقها دفع مرتبات بعض الجنود الفرنسيين. وكان الهدف الآخر لمهمة سوفرن هو قيادة فرقته الى جزيرة فرنسا، محمولة على ناقلات، كان الغرض منها دعم القوات التي يقودها هناك الكونت دورف، وهو عقيد بحري أيضاً. ولكنه متقدم على سوفرن في الرتبة.

قام الماركيز دوكاستري سكرتير الدولة الجديد للشؤون البحرية باختيار السفن التي ستتألف منها الفرقة البحرية وكان قوامها: السفينة هيرو: وهي سفينة جديدة ذات ٧٤ مدفعاً نصب عليها سوفرن رايته. وهانيبعل، وفانجور، وسفنكس، والارتيزيان، هذا فضلا عن فرقاطتين.



الاميرال سوفرن

وهكذا كانت القافلة تضم ست ناقلات وسفينة سويدية استأجرها الملك وقافلة متجهة الى السنغال ترمي الى تبديل الحامية وتضم ست سفن صغيرة .

وعندما افترق سوفرن عن دوغراس ، كي يبدأ رحلته الطويلة ، بدأ يشعر ولأول مرة بعد طول انتظار أنه بلغ درجة معينة في حياته

العسكرية. فقد أصبح يقود عمارة بحرية متواضعة فعلاً، ولكنها مستقلة. وأخيراً سنحت له الفرصة كي يستغل خبرة تراكمت لديه خلال ثمان وثلاثين عاماً من الخدمة في الأسطول الحربي، ولكي يقوم بتطبيق نظرياته الخاصة، وقد كانت مبادرته الأولى ضربة صائبة:

نصر مضاعف

وتشاء المصادفة أن ذهبت احدى سفنه للتمون بالماء العذب فكان من حظها أن باغتت في مرسى برايا في جزر الرأس الأخضر بتاريخ ١٦ نيسان ١٧٨١ قوة بحرية انكليزية راسية دون أي احتراز. وقد ألقت مراسيها بشكل فوضوي منهمكة في تجديد مؤونتها من الماء العذب وكانت هذه الفرقة موجهة لمهاجمة الكاب وكانت تضم ست سفن حربية هي: مونماوث، وايزيس، وهيرو، وفورتيتدد، وجوبيتير، وآكنيف، موضوعة تحت إمرة القائد جورج جونستون وهو بحار جيد طموح، لكنه كان يبالغ في تقدير قيمته الذاتية. ورأى سوفرن أن القضاء على قوات جونستون في مرسى لابرايا، سينقذ الكاب، التي كانت على مسافة ٨٠٠٠ كيلومتر، مما سيؤدي الى تفوق الراية الفرنسية في الهند الواقعة على مسافة ١٥٠٠٠ كم عن هذا الموقع الذي هو فيه وكان رد الفعل الذي يتنافى مع اتجاهات القرن الثامن عشر من

حيث توجيهها هو الاهتمام بالناحية الاستراتيجية ما ينذر بقدوم الأزمنة الحديثة .

وعلى الرغم من قلة عدد قوات سوفرن فقد اندفع بإقدام نحو المرسى غير عابىء بالحياد البرتغالي وراح يمطر السفن الانكليزية بوابل من مدافعه عن كثب وكانت المعركة حادة وضارية ، واستغرقت قرابة الساعة والنصف . وعلى أثر هذه الغارة الفجائية ، انعطف سوفرن وأقلع أشرعته تاركاً خلفه عمارة انكليزية بحالة تدعو للرثاء . وهذه أول نقطة سجلها لحسابه . وهكذا وصل الى الكاب قبل وصول جونستون بشهر كامل ، الذي تأخر بسبب التصليحات والعطب الذي أصاب عمارته ، مما سمح له بتحصين الموقع . وعندما وصل القائد الانكليزي أمام الميناء وكانت الأوامر تقتضي عليه بمهاجمتها ، أدرك أن الوضع قد طرأ عليه تعديل جوهري ، فلم يعد باستطاعته أن ينتقل الى الهجوم مع الموارد الهزيلة المتوفرة لديه . وهكذا ارتأى الاستمرار في طريقه باتجاه الهند بانتظار أوامر جديدة . وهكذا سجل سوفرن النقطة الثانية لحسابه .

وعندما اقتربت العمارة البحرية الفرنسية من الساحل الهندي ، كان الفرنسيون يعانون المتاعب في الهند مما اضطرهم للانسحاب من ميناء بوند يشيري ، هذا على الرغم من الدعم الذي قدمه لهم سلطان ميسور حيدر علي . والواقع كان لدى الانكليز هناك أسطول قوي الشكيمة مرابط في تلك الانحاء بقيادة السير ادوارد هيوغس وهو من

رجال البحر المحنكين. وهنا سارع سوفرن كي يرم سفنه التي عانت أكثر من سواها خلال المناوشة في خليج برايا. وجدد تموينه على عجل ومخزونه من الذخيرة، وراح يمطر رجاله بسيل من الأوامر كي يختصروا وقت مرساهم.

وهكذا أقلع سوفرن بصحبة العقيد دورروف تحت إمرته بتاريخ ٢٧ كانون الأول كي يرى ما يمكن عمله لمساعدة مواطنيه على الساحل الشرقي من شبه جزيرة الهند، وهو ساحل كوروماندل. وكان في الوقت ذاته يقوم بخفارة قافلة من السفن التجارية كانت تقصد الهند. واستطاع سوفرن أن يأسر هانيبعل احدى السفن الثلاث التي أرسلها جونستون كأول امداد للأميرال هيوغ، وهي في طريقها اليه. وتشاء المصادفة أن يقع حادث غير منتظر يضعه على رأس الأسطول الفرنسي الهندي كله. فقد مات القائد دورروف بغتة في ٩ شباط ١٧٨٢. وقد شعر بدنو أجله في الثالث من الشهر المذكور فعهد بشؤون القيادة الى سوفرن.

تكتيك ثوري

وبعد أن أصبح القاضي سوفرن حراً طليقاً من الآن فصاعداً تابع طريقه على رأس احدى عشرة سفينة قتال كبيرة، وثلاث فرقاطات، وثلاثة غربان (كورفيت) قاصداً مدراس، على الساحل

الجنوبي الشرقي من الهند. ذلك الميناء الذي ضرب عليه الأميرال بوردونيه الحصار في عام ١٧٤٩ والذي هو الآن في أيدي الانكليز والذين لم يقبلوا أن يؤخذوا على حين غرة. وفي ١٤ شباط شاهد سوفرن أسطول الأميرال هيوغس ــ الذي كان دونه عدداً ــ قوامه تسع سفن مقابل سبع عشرة. لكنه كان في وضع قتالي ممتاز ومتمتعاً بتغطية البطاريات الساحلية، وهو موضع لا يمكن التعرض له. وهكذا عاد القائد الفرنسي باتجاه عرض البحر وسرعان ما سار هيوغس في أعقابه، اذ استطاع تجاوزه خلال الليل. وأفلح بالاستيلاء على ست سفن تجارية كان الأسطول الفرنسي يقوم بخفارتها والذي عجز عن التدخل بسبب ريح معاكسة. وفي ١٧ شباط أصبح الأسطولان وجهاً لوجه. وسرعان ما اتخذت أهبة القتال تجاه ميناء مدراس.

وكان الحظ حليف سوفرن، اذ هبت ريح مواتية. وفتح النار على السفن الخمس الأخيرة التي كانت تناور لتجتازه. وقد تعرضت السفينة اكستر ذات الأربعة وستين مدفعاً وحاملة راية الكومودور كينغ لنيران حامية، حتى ساد الاعتقاد بأنها آيلة للغرق، أو أنها ستسقط بأيدي الفرنسيين، لولا أن هبت ريح معاكسة فجائية ردتها الى بقية قطيعها، هذا في الوقت الذي كانت السفينة الانكليزية الأخرى سوبرت تتعرض لتثقيب القنابل الفرنسية من خاصرتها. ولم يصب أسطول سوفرن بأكثر من بعض الخدوش وبثلاثين قتيلاً ومائة جريح. فقد كان

يتمتع بدعم ممتاز من ربابنته ، مما جعل نجاحه بارز المعالم أكثر . ومع هبوط الظلام انفض المعسكران .

وبينما كان هيوغس يتجه نحو ميناء ترانكومالي لتضميد جراحه ، وهو ميناء سيلاني انتزعه الانكليز من الهولنديين قبل شهر مضى . كان الفرنسيون يقصدون ميناء بوند يشيري ، الذي سقط بأيدي قوات « حيدر علي » الذي كان أقوى ملوك آسيا وعدو الانكليز اللدود . وهكذا استطاع الفرنسيون انزال حملتهم سالمة في ميناء بورتونوفو ، اذ حظيت السفن بكل الاصلاحات التي كانت في أمس الحاجة اليها .

وما أن علم سوفرن بمرور العمارة الانكليزية على مرمى مدافعه حتى أقلع نحو عرض البحر ووقع الاشتباك تجاه ساحل سيلان في ١٢ نيسان ١٧٨٢ . وكان تحت تصرف هيوغس احدى عشرة سفينة حربية ، ولكنه كان شديد الاقتراب من البر ، اذ لم يكن بمقدوره المناورة بسهولة واستخدم سوفرن تكتيكاً كان فيه من الفائزين ، اذ هاجم جزءاً من الجبهة الانكليزية بمعظم قواته ، تاركاً بقية سفنه لتضرب الجناحين . ودفعت سفينة مونماوث وسوبيرب قيمة هذا التكتيك . ولكن ليس دون أن تردا بمقاومة ضارية ، لأن السفينة مونماوث تعرضت للتلف تماماً بفعل القنابل الفرنسية هذا بينما ذاقت السفينة الفرنسية هيرو مرّ العذاب من جانب سوبيرب ، حتى أن سوفرن اضطر أن ينقل رايته فوق صارية السفينة اجاكس .

وتوقف الجانبان عن الرمي مع حلول الظلام. وقد كان لدى الانكليز سفينتان معطوبتان تماماً في حين أصيبت سفينتان فرنسيتان بأضرار كبيرة، ولكنهما قابلتان للاصلاح. وكأن الأيام القليلة مخصصة لسد الثغرات العاجلة وللعناية بالجرحى. وظهر بين البحارة مرض الاسقربوط.

وهنا أدرك سوفرن أن قواته قد خسرت الكثير من العدد ولا سيما من الناحية الصحية، مما جعلها غير مؤهلة لاستئناف الهجوم. فقرر القاء مراسيه في خليج ترنكبار. وهناك أمدته السفن الهولندية بأغذية طازجة. وفي الثالث من تموز خرج من جديد الى عرض البحر وهو ينوي انزال رتل من المدفعية ومن الجند لاسترداد نيغاباتام من الانكليز وعلى أمل عزيز لديه هو أن يصادف الأميرال هيوغس لتصفية حساب جديد. ولكن لم تكن هناك حاجة للبحث. فقد شكل هيوغس حاجزاً بين الساحل وعرض البحر بأن صف قواته أمام نيغاباتام وكان ينتظره وهو ثابت الجنان.

معركة نيغاباتام

لقد وقعت الواقعة التي كان من المحال تحاشيها بتاريخ السادس من تموز، وانهمرت نار حامية من كلا الجانبين. ولما كان هيوغس هو الذي فرض شروط المعركة بالوضع الذي اتخذته قطعاته البحرية. وكانت

مجابهة تقليدية كالتي نجد كثيراً من أمثالها في المؤلفات التاريخية أي كل سفينة تستهدف منازلة السفينة التي تقابلها. وقد كانت مباراة رماية شرسة لكنها غير حاسمة. وبعد معركة استغرقت أربع ساعات ونصف، انسحب الأسطولان لمراجعة حساباتهما. وقد سجل هيوغس لحسابه نقطة لا خلاف عليها بمدافعته الناجعة عن حمى نيغاباتام حتى لقد كان هو الأول في الكف عن إطلاق النار.

ولكن سوفرن، لم ينج من هم اضافي، فقد كان قائد السفينة «سيفير» واسمه دوسيلار، رجلاً ضعيفاً كانت قدرته موضع شك سابقاً. فقد طاش صوابه، وفقد توازنه حتى انه تقدم بسفينته من السفينة المعادية «سلطان» الانكليزية وهذا على خلاف رأي ضباطه الذين لم يقبلوا بالاضطراب الذي استولى على قائدهم. فاستأنفوا اطلاق النار، هذا في الوقت الذي كان فيه فريق من البحارة الانكليز المكلف باستلام السفينة يتقدم على متن السنابيك والمدافع صامتة باتجاه السفينة «سفير» بحسبانها سفينة معادية مستسلمة بالاضافة الى الضحايا الأبرياء الذين لقوا حتفهم نتيجة ذلك. فقد كان الشرف العسكري في الميدان. وبناء على ذلك أرسل الأميرال هيوغس سفينة مفاوضة للمطالبة بتسليم السفينة سيفير باسم ملك انكلترا باعتبارها مستسلمة لاحدى سفنه. وكان هذا صحيحا تماما، وان كان القائد دوسيلار قد عاد فنصب رايته في مكانها وفي وقت متأخر. وهنا أجاب



معركة نيغاباتام ٦ تموز ١٧٨٢

الأميرال سفرن : اذا كانت السفينة سيفير قد استسلمت مثلاً فهو الذي ذهب بنفسه لانتزاعها من وسط الأسطول الانكليزي . وأضاف قائلاً للرسول الانكليزي بصوت قوي : « اذن قل للسيد هيوغس بأنه اذا كان عليه أن يلح في ذلك ، فباستطاعته القدوم للبحث عن السفينة شخصياً » .

وقد نقل عن أحد ضباط السفينة « سيفير » المعارضين ، ويدعى

« ديو »، فيما بعد في فرنسا قوله: لقد كان قائد السفينة يرغب بالاستسلام للانكليز، ولكن الضابط ديو لم يسمح له بذلك، وهكذا جرد القائد دوسيلار من وظائفه. وأعيد الى فرنسا، واعتقل تمهيداً لمحاكمته. كما أعيد ثلاثة من الربابنة، كانت حماستهم خلال المعركة فاترة الى فرنسا لينالوا جزاءهم الذي يستحقونه ولكي يمحو سوفرن آثار هذا الحادث المؤسف راح يبذل جهوداً مضاعفة. فقد أطيح خلال المعركة بتسع عشرة صارية وسطى من فوق ظهور سفنه ولكن هذا لم يثبط همته. فقد نقل صواري الفرقاطات الى سفنه، في حين نصب على فرقاطاته صواري السفن التي سقطت بيده بعد الأسر. كما راح يقطع من أخشاب الغابات المجاورة، وأقام أفران حديد ميدانية وورشات لصنع الحبال ومصانع للبارود. ولما كانت معركة نيغاباتام، قد كلفته ثمانمائة رجل، فقد طلب من سلطان « ميسور » جنوداً من الهنود الذين دعمهم ببقية رجاله. وهكذا استطاع أن يقلع في وقت قياسي. هذا في حين ظل الأميرال هيوغس الذي كان يتصرف بكل موارد ترسانة مدراس، مدة شهر كامل زيادة كي يضمد جراح أسطوله.

وأخيراً أقلع هيوغس قاصداً خليج ترنكومالي.. هناك وجد خصمه وقد استولى على الميناء، وهو أحد أجمل الموانىء الهندية، ذلك الخصم ذو الحظ السعيد الذي ربح لعبة على خصمه في الأمس. وصل « سوفرن » الى الخليج بتاريخ ٢١ آب وولج في الميناء في ٢٥ منه، اذ

أنزل ألفي رجل مع قوات تكفي لبضعة أيام، ومدفعية الحصار والذخائر. وفي ٢٩ منه فتح ناراً هدامة ضد الحصون التي أذعنت وقبلت بالاستسلام في ٣٠ آب. ولم يبخل على المحاصرين بكل المراسيم العسكرية: وكانوا ٤٠٠ من الأوروبيين فضلاً عن ٦٠٠ خيال هندي. وقد كانت حكومة الولايات العامة الهولندية سعيدة جداً بهذا الفتح المبين. فطلبت من النحات هودان الشهير، أن يصنع تمثالاً نصفياً من الرخام للأميرال سوفرن: اذ لانزال نجد صورته في كتب التاريخ المدرسية الفرنسية، وأرفقوا ذلك بسيف ثمين مرصع بحبات الألماس.

سوفرن بلا دعم من ضباطه

لكن سوفرن لم يطفىء غليله. فما أن انذرت أبراج المراقبة بوجود قلوع انكليزية تلوح في الأفق في الثاني من أيلول حتى أصدر أمراً بالمطاردة. وكان تحت امرته خمس عشرة سفينة. أما خصمه فهو دائماً الأميرال هيوغس الذي كان على رأس عمارة مؤلفة من اثنتي عشرة سفينة. وحدث التعادل نظراً الى أن بضعة من قادة فرنسيين، من الذين فضلوا قضاء فصل الشتاء مخلدين للدعة والهدوء في ميناء ترينكو مالي، لم يستجيبوا لتعليماته الا بشكل فاتر.

وقد توجه سوفرن الى ضباطه بالكلمة التالية: «أيها السادة، اذا كان لدى العدو قوات أعظم، فأني سأنسحب، أما اذا كانت القوات

متكافئة فإني قد أخوض المعركة بعد تروّ وتفكير . ولكن إذا كانت أمام قوات أقل فتلك هي الفرصة ، فلا مجال للموازنة . اذن يجب أن نخوض المعركة ولنرفع الأشرعة » .

واستغرقت المعركة أكثر من ثلاث ساعات . ولكن النصر الذي أصبح في حكم المؤكد ، أفلت من يدي سوفرن الذي لم ينل شيئاً يزيد على خط اصطفاف ممتاز اتخذته سفن أسطوله . وعاد بعمارته الى مرساه . وفي أثناء ذلك اتجهت السفينة ادريان بغباء نحو شعب صخري مرجاني فتهشمت قوقعتها وضاعت نهائياً .

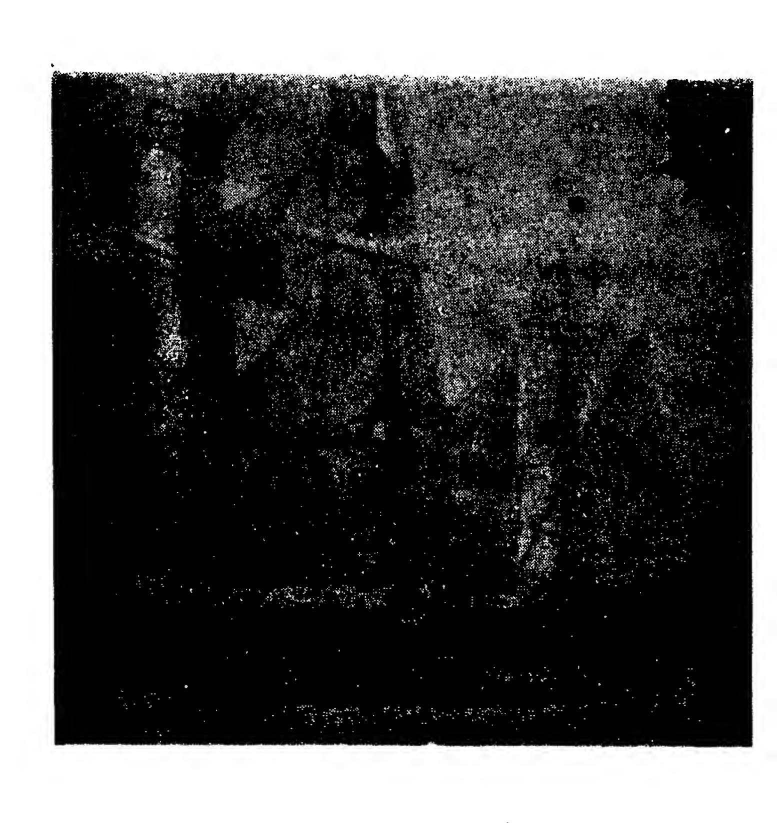
وكان سوفرن يستشيط غيظاً من ضباطه الذين رماهم بالخيانة لافتقارهم الى الروح المحاربة والذين كانوا يفكرون بصفقاتهم وعشيقاتهم اللواتي ظللن بجزيرة فرنسا (جزيرة موريس حالياً) أكثر من انصياعهم لتعليماته . فقد كانوا عاجزين عن ادراك مفاهيم سوفرن التي تصطدم بالتعاليم الوجلة التي كانت عليها البحرية الفرنسية في ذلك العصر . وكانت بلادتهم تحول بين هذا الثوري البحري أي سوفرن ، وبين القضاء تماماً على القوة البحرية الانكليزية في بحر بلاد الهند .

وأعاد القاضي سوفرن أيضاً أربعة من ربابنة سفنه إلى فرنسا وعين أربعة في مكانهم . وكان من بين الذين نالوا الترقية فيللاريت دو جوايوز . ولكن لم يلمع اسم هذا الضابط في هذه المعركة . وقرر سوفرن خداع

عدوه مرة أخرى. فقد كان المنطق يملي عليه أن يقود عمارته البحرية الى جزيرة فرنسا لقضاء فترة استجمام شتوية قبل هبوب الرياح الموسمية. ولكنه اختار موقعاً أكثر قرباً، وهو جزيرة سومطرة على ساحل آشم الحرون وحيث يوجد مرسى أمين، تحرس مدخله ثلاث جزر عالية. كما يتمتع بتموين ممتاز. وخلال طريقه خسر أيضاً السفينة بيزار المجهزة بأربعة وستين مدفعاً والتي راحت ضحية جنوح. كما فقد سفينة تجارية سقطت بأيدي الانكليز أسيرة. أما هيوغس فقد آثر تمضية فصل الشتاء في بومباي اذ وفدت خمس سفن حربية لمساندته بقيادة السير ريشارد بيكرتون.

المعركة الأخيرة

لقد كانت الاقامة في سومطرة مباركة من سائر وجهات النظر. فقد استرد المرضى والجرحى عافيتهم تحت نظر قائدهم. هذا وكما تم اصلاح السفن على عجل ــ اذ كان الخشب وفيراً جداً هناك ــ واستطاع سوفرن ان يسترد السيطرة على ضباطه بعد أن أفلح في رفع معنوياتهم. وفي العشرين من كانون الأول، غادرت الفرقة هذا المرسى الفردوسي للعودة الى ساحل كوروماندل الهندي في أسرع وقت ممكن. وفي الثاني عشر من كانون الثاني ١٧٨٣ ومع هبوط الليل ألقت فرقاطة بمراسيها وسط الأسطول الفرنسي الراسي أمام مصب نهر الغانج. وقد



« الفاتح » سفينة ذات ٧٤ مدفعا

كانت مفاجأة، لأنها كانت ترفع الراية الانكليزية .. وكان خطأ محتوماً. فقد كانت هي الفرقاطة كوفنتري المسلحة بثلاثين مدفعاً، ويقودها ابن أخ الأميرال هيوغس، والذي كان يتصور أنه التحق بالأسطول الانكليزي. وهكذا سقط أسيراً والتحقت سفينته بالأسطول الفرنسي لتدعمه. وعلم سوفرن من قائد الفرقاطة الأسير بنبأ وفاة السلطان «حيدر علي» حليف فرنسا في ٧ كانون الأول.

وبعد أن وصل التشكيل الفرنسي الى ميناء غودلور في الأول من شباط، التحقت به ثلاث سفن حربية وفرقاطة وقافلة تضم ثلاثين ناقلة جنود وذخائر موضوعة تحت قيادة دو بوشي.

وما أن تم انزال الجنود والعتاد، حتى عاد سوفرن الى ميناء ترينكو مالي خشية أن يسبقه هيوغس لا سيما وان الرياح المعاكسة كانت تعرقل مسيرته. وقد تنفس الصعداء لما وجد الخور شاغراً. وما كادت أوائل السفن تلج في الميناء حتى أشارت المراصد الى ظهور الأسطول الانكليزي .. الذي يعتقد بأنه قد بلغ مأمنه، ولكنه لم يتشبث بموقفه أبدا بل تابع سيره.

وبعد بضعة أسابيع علم سوفرن بأن الانكليز يهددون القائد دو بوشي في موقع غودلور. وضربوا حوله نطاقاً من الحصار من البحر والبر. وهنا بادر القاضي سوفرن الذي لم يسمح لثانية من الوقت أن تذهب

هدراً، بدعم قواته بكل ما يقع تحت يده عن طريق تفريغ السفن الشاحنة والفرقاطات المجردة من سلاحها. وأقلع بتاريخ الحادي عشر من حزيران. وبلغ ميناء غودلور في السادس عشر، اذ استشف عن بعد وجود ثماني عشرة سفينة حربية مرابطة الى الجنوب منه.

واذعاناً لأمر ملكي جديد، اتخذ على أثر الحادث المؤلم الذي تعرض له الكونت دوغراس والذي سقط أسيراً فوق سفينته الثقيلة، فقد نقل سوفرن رايته الى الفرقاطة كليوباترة وقت نشوب الاشتباك.

وفي السابع عشر من الشهر المذكور، وصلت خمس عشرة سفينة فرنسية لمواجهة ثماني عشرة سفينة انكليزية. واقترب سوفرن خلال الليل من البر ودعم قواته بالمزيد من المقاتلين، وذلك بإركاب فصائل من قواته البرية ومن الخيالة الهنود. وظل يناور مدة يومين دون أن يقسر الانكليز على الاقتراب من مرمى مدافعه. وأخيراً، وفي العشرين من الشهر ومع مساندة الرياح الخلفية، باشر الفرنسيون القتال في الساعة الخامسة عشرة.

وقد حارب الجميع، في هذه المرة ببسالة ولا سيما الطليعة. وعندما أرخى الليل سدوله بعد ثلاث ساعات كان الضباط يلاقون الكثير من العناء في الطلب من رجال مدفعيتهم بالكف عن الرمي لشدة حميتهم الجياشة. وقد طرحت قذيفة بالأميرال سوفرن أرضا.

ولكنه لم يصب بأكثر من رضوض إذ نهض بمعونة من أحد الضباط، رابط الجأش. وفي الصباح شوهد الأسطول الانكليزي لائذا بالفرار قاصداً مدراس، كي يلتجيء الى مينائها الأمين. وهكذا أصبح سوفرن سيد الموقف مرة أخرى. وعندما قفل عائداً الى سودلور رفع الجيش الانكليزي العلم الأبيض، وكان ضارباً حصاراً محكماً حول الميناء عندما رأى أشرعة الأسطول الفرنسي. وانتصب القائد دو بوشي ليستقبل القاضي سوفرن على الشاطيء الرملي محاطاً بأركان حربه. وتوجه نحو رجاله، كي يقدم الأميرال لهم قائلاً: «هذا هو منقذنا». ورفع الجند الأميرال على الأكتاف ــ وهذا قليل من كثير ــ وحملوه على محفة يحملها أربعة من الزنوج، ودخلوا به الميناء كبطل فاتح.

وفي ٢٩ حزيران، وصلت فرقاطة انكليزية مفاوضة وتحمل راية بيضاء لتنقل للقاضي سوفرن رسالة من الأميرال هيوغس الذي كانت دائرة استخباراته تمتاز بالتفوق على مثيلتها الفرنسية، تقول أن لا فائدة ترجى من متابعة الحرب.. وعلى مسافة آلاف الكيلو مترات. جرى توقيع اتفاقية سلام قبل أن تعلم بهما العاصمتان لندن وباريس ببضعة أسابيع، وانتهت ملحمة سوفرن ومفاهيمه التجديدية في فن الحرب البحرية...

بريريال[1]

من العام الثاني للثورة الفرنسية

ــ ٣٠ أيار ــ ١٨ حزيران ١٧٩٤

معارك ضارية تجاه ميناء برست ضد الانكليز

ونهاية السفينة « المنتقم » (Vengeur)

(١) بريريال هو الشهر التاسع من العام الثوري الجمهوري الفرنسي ، ويوافق الفترة الواقعة بين ٢٠ أيار و١٨ حزيران .



لقد مرّت البحرية الفرنسية في عام ١٧٩٢ بأزمة خطيرة. فقد أدّت الثورة الى هجرة الكثيرين من الضباط الذين كانوا يقودون سفن الدولة، هذا اذا لم تقم بتقتيلهم، لأنهم كانوا جميعاً، تقريباً، منحدرين من الطبقة النبيلة ومن الأسر العريقة. وقد كتب الأميرال جوليان دولاغرافيير بعد فترة من الزمن يقول: «يبدو أن كل هذه البحرية الغنية بأمجادها، والمخيفة، والمخلصة لوطنها، قد تلاشت بكليتها خلال عام واحد من الارهاب»[٢].

وقد عمل غاسبار مونج، وزير البحرية، على وضع حد لهذا التدهور، وعلى انعاش الأسطول الفرنسي. ففي ١٣ كانون الثاني

---

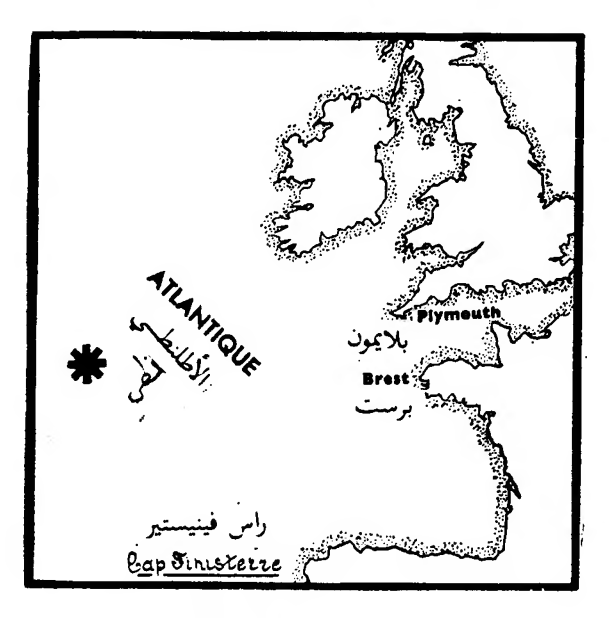
(٢) لقد كانت فترة الارهاب بزعامة روبسبيير شؤما على فرنسا اذ قتل فيها العالم الشهير لافوازييه على المقصلة. وقال احد الكتاب راثياً: لقد استغرق إعدام لافوازييه خمس ثوان ولكن فرنسا تحتاج لخمسين سنة كي تنجب واحداً من أمثاله.

١٧٩٣ صدر مرسوم عن حكومة الاتفاق (Convention) يقضي بتسليح ٣٠ سفينة و٢٠ فرقاطة، بقصد رفع عدد السفن الحربية والفرقاطات التي يتألف منها جيش البحرية الى ١٠٤ قطع، وبناء ٢٥ سفينة و٢٠ فرقاطة و٢٠ غراب (Corvette) أو سميرية (Aviso) و٦ سفن شراعية صغيرة من المقنبلات. هذا كما سمح باطلاق العنان للقرصنة، وانطلق من كل الموانىء الفرنسية قراصنة كانوا مصدر ذعر بالنسبة للتجارة المعادية.



فيلاريه دو جوايوز

وكانت أكثر المشكلات استعصاءً على الحل هي مشكلة الكادرات . ولجأت الدولة لسد الثغرات ، التي حفرتها الهجرة في أجهزة طواقم البحرية ، الى تعبئة عناصر من البحرية التجارية ، ورفعت بحارة ناشئين ، دون خبرة ، لمراتب عليا ، ممّن لم يسبق لهم أن قادوا سفينة كي يمكنهم قيادة عمارة أو أسطول ، ولما كانوا جَهَلة في التكتيك البحري فلم يكونوا يستخدمون ، ولا يفهمون ، إلا بشكل ناقص ،



خارطة معركة ١٣ بريريال البحرية

الاشارات التي تقود الحركات الشمولية في عمارة بحرية. أما في المعارك المتقاربة والاقتحام فقد كان البحارة، الذين كانت تتدفق منهم الوطنية والشجاعة، كانوا قادرين على تنفيذ أروع الملاحم، وعلى الموت مكللين بتيجان الفخار اذا اقتضى الأمر، ولكن الشهداء لا يجلبون الانتصارات، في كل الحالات. وحدثت معركة بحرية كانت مجرياتها تستدعي وجود ملاحين محنكين، ذلك ان الاستراتيجية الباردة لدى خصوم فرنسا كانت لها كفة الرجحان على شجاعة التلامذة البواسل. وقد حققت بحرية الجمهورية الفرنسية الناشئة بعض شرارات من المجد لامعات ولكنها شهدت فعلاً نكبات وهزائم انتهت بفنائها في عهد امبراطورية نابليون، لا سيما وأن أعداء فرنسا حينذاك كانوا في طليعة الدول البحرية وهما: انكلترا وهولندا.

قافلة مؤلفة من مائة وسبع عشرة سفينة موسوقة بالقمح والدقيق والسكر:

كانت فرنسا لا تزال تملك في آخر عام ١٧٩٣ ثلاثة جيوش بحرية، كان اثنان منها يمخران عباب البحر الأبيض المتوسط، تحت إمرة العميد البحري تروغيه، والثالث في المحيط الأطلنطي بين ميناءي غروا (Groix) وبيل ايل (Balle- ile) ويخضع لأوامر اللواء البحري مورار دو

غال . ولم يكن هناك مجال للاحتكاك أو بالتحرش بالبحرية البريطانية ما دام البحارة الفرنسيون ناقصي التجربة . ومنذ الأول من شباط ، الذي أعلنت فيه الحرب على بريطانيا ، كانت التعليمات تقول : يجب تحاشي التماس . وفي بداية عام ١٧٩٤ ظهر أن من اللازم أن يُقلع الأسطول لهدف دقيق محدد : وهو تحويل يقظة الانكليز ، الذين كانوا يتربصون تجاه السواحل الفرنسية ومحاولة ابعادهم . وكان السبب بسيطاً وقاهراً في الوقت ذاته .



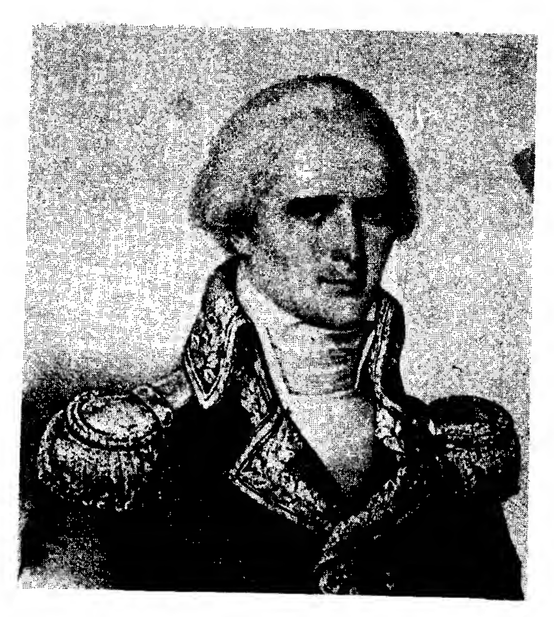
الأميرال هاو

فقد كانت فرنسا تجتاز قحطاً رهيباً ، فقد نجم عن الحرب الأهلية المتضافرة مع الطقس الرديء تلف المحاصيل. ولما كانت الحكومة الجمهورية في حالة نزاع مع كل أوروبا ، فقد كانت مضطرة لارسال عملاء تجاريين لمختلف موانىء الولايات المتحدة الامريكية لكي يعقدوا صفقات شراء حبوب ودقيق كما كان من الواجب تجميع كل السفن التي تحمل هذه المؤن وتوجيهها نحو ميناء أمين. وقد عهد إلى العميد البحري بيير فانستابل، وهو رجل بحر من دونكرك ، البالغ من العمر ثمانية وأربعين عاماً ، بمهمة خفارة هذه القافلة الحيوية التي تضم مائة وسبع عشرة سفينة تحمل القمح والدقيق والسكر ، والتي تجمهرت في خليج شيزابيك.

وقد نصب القائد فانستابل رايته فوق السفينة الحربية تيغر (النمر) ذات الأربعة والسبعين مدفعاً ، وكانت تواكبه سفينة حربية أخرى هي جان بار ، وفرقاطتان ، ومركب شراعي ذو صاريين . وأقلعت القافلة بتاريخ ٢ نيسان ١٧٩٤ ، وكانت حياة الأمة الفرنسية تتعلق بوصول هذه القافلة سالمة غانمة لتجنب اضطرابات داخلية خطيرة . لنترك الآن القافلة ، وهي تبحر في عرض المحيط لأننا سنراها في خاتمة هذا السرد ، بعد شهرين، وهي تصل الى مقصدها بهدوء لا يحلم به أحد في العالم.

وكلما كانت الأيام تمضي، وكلما كان موعد وصول القافلة المرتقب يزداد اقتراباً ، وهي تطوي طريقها في الأطلنطي ، كانت نفوس

الفرنسيين تزداد عصبية وتشنجاً . وهكذا تم اتخاذ أول تدبير : في ٦ أيار جرى تكوين قوة مؤلفة من ست سفن حربية ، هي سان باراي (Sans-Pareil) ذات الثمانين مدفعاً ، واوداسيو ، باتريوت ، تيميرير ، وتراجان المجهزة بأربعة وسبعين مدفعاً ، وكانت بقيادة العميد البحري نييللي (Nielly) وكان بمرتبة ملازم أول في أيام الملك لويس السادس عشر ، واستفاد من ترقية ... خاطفة) ، والذي أقلع من ميناء روشفور لملاقاة



العميد البحري بيير فانستابل

اسطول فانستابل. ومع ذلك كان من المتوقع أن هذه الفرقة لا تستطيع أن تكفي لصد هجوم انكليزي متقن التحضير.

وقد قررت الحكومة، المصممة على انقاذ القافلة مهما كلف الثمن، تشكيل عمارة بحرية تضم ستاً وعشرين سفينة حربية عهد بمهمة تجهيزها لاثنين من مفوضي لجنة السلامة العامة لدى الجيوش البحرية، وهما بريور دو لامارن وجان بون سانتاندريه. وبعد تهيئة هذه العمارة في ميناء برست، وضعت تحت أوامر أحد مساعدي الأميرال سوفرن، هو العقيد البحري لويس توماس فيللاريه دو جوايوز، المولود في سنة ١٧٤٧ في اوش، والذي أمطرته حكومات الاتفاق بالترقيات فأصبح عميداً بحرياً، ووضعته في مكان اللواء البحري مورار دو غال.

مع ضباط مرتجلين

لقد رفع العميد البحري الجديد ــ كان يدعى الجنرال فيللاريه، وصار يوقع اسمه، من الآن فصاعداً فيللاريه جوايوز ــ أقول رفع رايته فوق السفينة مونتانيه (Montagne)، وهي ذات ثلاثة جسور، أو طوابق، مزودة بمائة وعشرين مدفعاً، كانت تعرف حتى ذلك الحين باسم ولايات بورغونيا. وقد اصطحب معه صاحب النفوذ الشديد جان بول سانتاندريه، المكلف بفرض احترام أوامر حكومة الاتفاق (Convention) وأن يطارد، عند اللزوم، الضباط الذين لا زالوا يحتفظون

بتعاطف مع طبقة النبلاء أو مع رجال الاكليروس. وكان فوق سفينة القيادة مونتانيه، وحدها، يخفق العلم الفرنسي المثلث الألوان، والذي أصبح نظامياً في البحرية الفرنسية اعتباراً من تاريخ ٢٠ أيار ١٧٩٤. ونظراً للافتقار الى الأصبغة النباتية بمقادير كافية، فقد ظلت السفن الأخرى تنصب الراية البيضاء، المزدانة في قسمها العلوي بمربع يحوي الألوان القومية.

ولنتأمل الآن، باختصار، أوضاع خدمة ستة وثلاثين قائداً بحرياً في هذا الأسطول، فقد كان بينهم تسعة عقداء محترفين، وأربعة عشر بين ملازم أول وملازم ثان بحري، واثنان من النوتية، والباقي من المرشدين ومن المعلمين في فن المناورة. وقد استفادوا جميعاً من ترقيات متهافتة للغاية، كما حدث في قوات فرنسا الحرة، خلال الحرب العالمية الثانية، بعد مائة وخمسين سنة من الزمن لاعتبارات نفسية، أي سيكولوجية، غالبا ما كانت ذات مفعول موضع الريبة. ولندع ذلك الآن فقد كان الوضع مماثلا لدى رماة المدفعية، فقد تم انزال اولئك الذين كانوا يعملون فوق السفن البحرية لاستبدالهم برجال موثوقين أكثر من الزاوية السياسية، وعلى العموم كانوا من المتطوعين من الجيش البري.

نعم لقد كانت هناك مجموعات شاذة من النوتية، العديمة التجانس، يقودهم ضباط ارتقوا بصورة اعتباطية، وارتجالاً، من عديمي



هونوريه غانتوم الذي اشترك في معركة ١٣ بريريال

الخبرة، والذين كان عليهم أن ينالوا الشرف الرهيب، وهو مواجهة عمارة انكليزية تضم ستاً وعشرين سفينة — وهي قوة معادلة عددياً للقوة الفرنسية، وهي النقطة الوحيدة المشتركة بين الاثنين — والتي كانت بقيادة اللورد هاو (Howe)، وهو محارب عتيق محنّك، وكان يبدو أحياناً غامضاً، والبالغ الثامنة والستين من العمر، والذي كانت رايته تخفق منصوبة فوق السفينة كوين شارلوت. واذا استطاع القارىء أن

يتصور استبدال هاو بقائد من أمثال نلسون، أو من طينة سوفرن، بأنه سيقرأ هذه المقالة متوقعاً هزيمة فرنسية كاسحة، أو قصة إبادة اسطول حربي فضلا عن الاستيلاء على قافلة ثمينة. غير أن هذا الأميرال الانكليزي، المتصف ببطء اتخاذ القرارات، باستثناء قطع المعركة، كان يسانده عدد من ضباط دربتهم حرب الاستقلال الامريكية على تقنيات القتال البحري. فقد كان الى جانبه توماس غرايفس (المهزوم في معركة



مندوب الحكومة السيامي جان بول سانتاندريه

شيزابيك) وبنيامين كالدول وآلان غاردنر، وكوللينغوود (وهو الذي سيخلف نلسون في موقعة الطرف الأغر) ... الخ.

أول سفينة تخرج من ساحة المعركة «لوريفولوسيونير» أي «الثوري»

وما إن أخطر فيللاريه بإقلاع العمارة الانكليزية التي خرجت من ميناء سبيتهيد (Speathead) بتاريخ الثاني من أيار، حتى غادر برست في ١٦ أيار ١٧٩٤. وقد صدرت الأوامر اليه بانتظار القافلة في جزيرتي كورفو وفلوريس، من جزر أرخبيل آسور، مع تمرين سفنه على المناورات والاستدارة، ولا حاجة لخوض معركة عديمة الفائدة، إلاّ اذا كان الانكليز هم البادئين.

ولما كان قد تمّ ارسال الاميرال هاو لملاقاة هذا الأسطول الفرنسي، فقد أدركه في ٢٨ أيار صباحاً على مسافة ٤٠٠ ميل غرب ميناء ويسان (Ouessant) وكان الراصدون يصرخون من فوق السفن الفرنسية التي كانت تتقدم حسب تشكيلة مؤلفة من ثلاثة خطوط، أقول كانوا يصرخون من أعلى أبراج الصواري الوسطى «السفن تحت الريح الذي يساندنا». وبعد قليل تقلّد البحارة سلاحهم كما لو كان الاقتحام هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على الخصم. وقد كان هذا

سابقاً لأوانه. وقد أنذر فيللاريه منذ ثلاثة أيام باقتراب الانكليز بواسطة قبطان فرقاطة صدام، ولكنه لم يعمل شيئاً استعداداً للإقتراب. وقد استدعى الأمر إلحاح جان بول سانتاندريه للكف عن الاستمرار في متابعة الطريق، وان تتخذ الاجراءات اللازمة لاشتباك وشيك. وكان البحر عالي الموج، وكنت الريح تهب باردة نوعاً ما.

وقد اصطفت العمارة الفرنسية على شكل خط واحد في مجابهة الأسطول الانكليزي، مع التميز بهبوب ريح موائمة، بانتظار رد فعل هؤلاء الأعداء. غير أن هاو لم يكن يطرح أمامه الكثير من المسائل. وكانت خطته واضحة المعالم، وتقضي بتدمير الأسطول الفرنسي الجمهوري والاستيلاء على القافلة. وأخذ زمام المبادرة بأن أرسل فرقة تتألف من ست سفن، يقودها العميد البحري باسلي (Pasley) الذي كانت شارته فوق السفينة بيللورفون، ذات الثمانية والسبعين مدفعاً، لمهاجمة المؤخرة، وبدلاً من أن ينقض القائد الفرنسي فيللاريه على هذه الفريسة، بتطويقها قبل أن تتمكن بقية الأسطول الانكليزي من الوصول لنجدتها، عمد هذا القائد الذي يفتقر للحماسة الى نشر أشرعته لمتابعة حركته الأصلية.

ولما كانت السفينة «لوريفولوسيونير» ذات الثلاثة جسور، و١١٤ مدفعاً، والتي يقودها فاندونجن، في مؤخرة القافلة، فقد



اللحظات الأخيرة من حياة السفينة «فانجور». رسم مشهور للرسام دوزان

تعرضت للصدام بصورة رهيبة. وظل رمي المدفعية يصم الآذان ويقرع لمدة ساعة وربع، كما اضطرت السفينة بيلليرفون، تجاه عنف الرد الفرنسي، أن تنسحب كي يحل محلها ثلاث سفن أخرى هي روسل، ومالبورو، وفوندرر، وكلها قطع حربية من ذوات الثمانية وسبعين مدفعاً، والتي قدمت لدعم السفينتين ليفياثان وأوداسيوس. ولما كانت السفينة الفرنسية «لوريفولوسيونير» واقعة بين نيران متقاطعة، فقد هشمتها القنابل تماماً، وفقدت صواريها وقلوعها، مثلما قتل قائدها، وتبدلت قيادتها مرتين، وآلت أخيراً الى الملازم دوريه (Dorré). وهلك

معظم نوتيتها، الذين سقطوا بين قتيل وجريح، واختلطت أجسادهم بشكل فوضوي، يتخبطون في دمائهم، بين مجدوعين ومشوهين، وكلهم متمددين بين العوارض المبتورة. ومع هبوط الظلام تمكن الملازم دوريه من الابتعاد، وكان سعيداً جداً، في صبيحة اليوم التالي، اذ التقى بسفينتي الأميرال نيللي الذي جرّ السفينة المهيضة الجناح حتى ميناء جزيرة ايكس، على الساحل الأطلسي، تجاه شارنت.

أما من الجانب الآخر، فقد تعرضت السفينة أوداسيوس لأضرار



فانجور في النزع الأخير

كبيرة مما برر ردها الى ميناء بلايموث . وهكذا أدى الاشتباك الصغير في مساء ٢٨ من الشهر الى استبعاد سفينة واحدة من كل جانب .

الضباب يعلق المعركة

في التاسع والعشرين من أيار (١٠ بريريال) وعند الفجر كان الانكليز لا يزالون تحت تأثير الريح ، وباشر فيللاريه المعركة . وقامت سفينة الطليعة لومونتانيار بقذف أولى رشقاتها ، هذا في الوقت الذي كان فيه هاو ينتقل الى الهجوم على المؤخرة الفرنسية .. واستطاع أن يعزل خمس أو ست سفن فرنسية تعرضت لهجوم من جانب بلليرفون وليفياثان ، وأوريون وبارفلور ، فتهشمت صواريها وتثقبت قواقعها في أكثر من مائة مكان ، وابتعدت السفينة تيرانسيد (Tyrannicide) (قاتلة البغاة) التي يقودها دودولان ، وكذلك السفينة آندومبتابل ، وقائدها لاميل ، بعد أن فقدت صواريها وأشرعتها ، عن ميدان المعركة حوالي الساعة ١٧ مساءً للوصول الى مرسى دولة صديقة . غير أن دفاعها المجيد لم يكن عديم الجدوى . فقد اضطرت السفينتان البريطانيتان بلليرفون وليفياثان ، بعد أن تمّ صدهما بعنفوان ووقوعهما ضمن ميدان الرمي الفرنسي ، وبمحاذاة السفن الفرنسية جنباً لجنب ، اضطرتا إلى الانفصال عن بقية القطيع ولم تلتحقا ببقية العمارة الانكليزية الا بعد يومين من تلك الموقعة . وفي الثلاثين من أيار ساد ضباب شديد الكثافة بحيث لم

بتمكن الأسطولان من رؤية بعضهما بعضاً إلا من خلال فتحات قصيرة وعلى وميض الفوانيس المتقدة . وهكذا توقفت المعركة واستغل فيللاريه الفرصة لاعادة تشكيلته وذلك بضم سفن الأميرال نيـللي الثلاث الذي لحق به وكذلك سفينة رابعة واسمها ٣١ أيار التي يقودها هونوريـه غانتوم ، التي وصلت من ميناء كانكال على بحر المانش .

وفي الأول من حزيران ١٧٩٤ (١٣ بريريال من العام الثاني للثورة) انقشعت غياهب الضباب وعادت الشمس للبزوغ . وكانت الاستعدادات للمعركة قائمة على قدم وساق من كل جانب ، مع حماسة ومرح لدى الفرنسيين وهدوء ورباطة جأش لدى الانكليز ، وكان الأمر دوماً على هذا المنوال .

معركة لا هوادة فيها

لقد كانت الساعة الثامنة صباحاً عندما زج هاو بكل قواته في المعركة . وأفلح في قطع الخط الفرنسي في ثلاثة مواقع كي ينعطف ليطلق النار من سائر قطعه العالية منها والمنخفضة . واختلط الحابل بالنابل في هذه المعمعة ، والغامضة نوعاً ما ، مع حدوث ثمانية أو عشرة أعمال بطولية يستحق كل منها قصة لوحده . وغلفت سحب الدخان سفن الأسطولين ، والتي لم يكن يثقب تلك السحب ، سوى ومضات طلقات المدفعية .. ولما كان الرمي يجري عن كثب ، فقد كان الرمي

الانكليزي موجهاً نحو هياكل السفن لإغراقها في حين كان الرمي الفرنسي يرجح استهداف الصواري بقصد شل الخصم والانتقال الى اقتحام السفن المعادية حيث يتم الاشتباك عادة بالسلاح الأبيض. غير أن عمل الأسطول الفرنسي كان يعاكسه عدم تدخل مقدمته التي ظلت في حالة تحفظ لأنها لم تبصر الاشارات المتكررة التي كان يصدرها اليها القائد فيللاريه ويطالب فيها بالتقدم للالتحام.



سفينة القائد فيللاريه دو جوابوز أثناء الاشتباك

وأخذ الأميرال هاو، من فوق سفينته كوين شارلوت، والتي كانت تسانده السفينتان جبل طارق وبرنسويك بالانـقضاض على السفينة لامونتانيه La montagne التـي اعتقـد بالتأكيـد بأنها سفينـة الأميرالية. ولم يكن فيللاريه في وضع أفضل جودة كي يرد التحية بمثلها، اذ تم عزل بحاره الخلفي عن مركزه في أعقاب مناورة خاطئة. وبعد أن عانت سفينته من معركة شرسة، ردت عليها بأقصى طاقتها، تلقت ٢٣٠ قنبلة فوق خط عومها، والتي وجدت العدد ذاته من الثقوب في قوقعتها.

وقد أوضح فيللاريه في تقريره لوزير البحرية بقوله: «لقد أكدت السفينة مونتانيه (الجبل) بأنها تستحق اسمها، ولم يحدث لبركان أن تقيأ سيلا من نار كهذه السفينة. وأعتقد أنني قمت بواجبي كجنرال وكجندي. وتبرهن نيران سفينتي مونتانيه وعدد الموتى والجرحى، إذ أنعي اليكم بحزن عميق فقدان قبطان الراية، وموظف المحاسبة البحرية، ونصف عدد ضباطي وثلاثمائـة رجـل من طاقمـي، أقوال تبرهـن للجمهورية كلها أن الأحداث وحدها هي التي تسببت في النتيجة التعيسة لذلك اليوم».

انسحاب الأسطول الانكليزي

ولما شعر فيللاريه ببعض الهدوء لاحظ ان المعركة قد بعثرت

سفنه. فقد كانت الأوامر لا تصل الى مرؤوسيه الا بمشقة، كما أن الاشارات لم تكن مرئية بسبب كثافة الدخان. ولما كان الاقتتال يجري على مرمى المسدسات، وعلى نصف المرمى أحياناً، وذلك وسط ضجيج وفي صخب انفجارات بضعة آلاف من فوهات النار، فقد كانت تظهر من كل جانب الصواري المنقلبة، والعوارض المدلاة، وحزم الحبال المقطوعة، والقلوع الممزقة، وسفناً جانحة بشكل شديد.

وبعد أن استطاعت السفينة الفرنسية المثلثة الجسور تيربيل أن تقضي على السفينة المعادية سقطت بدورها تحت ضربات سفن أخرى ثلاثية الجسور هي رويال سوفيرن لو لم تهرع سفينة صديقة لنجدتها، كما تدمرت السفينة «الأول والثلاثون من أيار» بدورها وأصيب قائدها غانتوم بثلاثة جروح خطيرة.

أما على السفينة مونتانيه حيث أصيب جان بول سانتاندريه، مندوب الحكومة السياسي، برعب شديد نتيجة النيران الجهنمية التي أتلفت الجسر العلوي، فقد تذرّع بأنه يرغب في زيارة البطاريات السفلى، لكي يختبىء. أما القائد العام فيللاريه فقد انقلب عن مقعده بفعل انفجار، ولكنه نهض واستمر في ممارسة قيادته. وكان الضباط الجرحى من حوله ثابتين في مراكزهم بعد تضميد خفيف لجراحهم. كان أحدهم وهو بوفيه دو كريسيه، رئيس مطبعة الأسطول، قد أصيب بثلاثة جروح وبترت ذراعه اليسرى، ولكنه تقدم لاشعال فتيلة مدفع



السفينة فانجور وهي تكابد النيران من عدة قطع حربية معادية

من عيار ٣٦ والذي اكتسح الجسر من فوق السفينة الانكليزية المعادية . وهنا أشفق عليه فيللاريه ولفت نظره الى أنه يهم بقتل نفسه ، غير أن الشاب أجاب فوراً : « لا بأس سأكون مسروراً اذا كان في موتي فائدة للوطن » .

وقد أصيب بخمسة جروح أخرى قبل أن يتمكن من الوصول الى المدفع ويفتح ناراً هدامة على جسر السفينة كوين شارلوت ، حتى أن الأميرال هاو رفع قلوعه وانسحب ، مما وضع حداً لهذه المعركة الخيالية ،

والتي لا تعود حدتها الى مهارة المناورة لدى المشتركين فيها ولكن لصلابة المقاومة، التي تكاد تلامس التعصب، من جانب بحارة الجمهورية.

وبعد أن أصيب الانكليز بالذهول من ضراوة الدفاع الفرنسي انسحبوا نحو موانئهم «حيث عادوا مذعورين من انتصارهم وقد امتلأوا اعجاباً بشجاعة البحارة الفرنسيين الناشئين» كما ذكر ذلك تيير في كتابه «تاريخ الثورة الفرنسية».

اسطورة السفينة «فانجور» = «المنتقم»

عند تعداد الأعمال المجيدة، التي تخللت هذه المعركة، لا يكون من المستطاع إغفال احدها، وهو الذي قامت به السفينة فانجور دو بويل واختصاراً فانجور، والتي زخرفتها الأسطورة كي تستثير المزيد من الاعجاب بفرنسا وفي الخارج. والواقع لقد حاربت السفينة فانجور مثل السفن الأخرى، لا أفضل، ولا أقل جودة، وان كان من الأصح القول بأنها كانت أقل جودة، بسبب نقص الحذق، أو الخطأ في اصابة الهدف، اذ أطلقت رشقة من مدفعيتها على سفينة القائد فيللاريه ذاته، حيث عانى الضباط الكثير من العناء والمتاعب لمنع رجال مدفعيتهم عن الرد. ولا داعي هنا للدهشة، ضمن أوار المعركة كانت سحب الدخان فيها تعرقل أية رؤية، مما لا يجعل مثل هذه الأخطاء شيئاً استثنائياً. وعندما تعرضت للهجوم من جانب السفينة الانكليزية برنسويك التي



مشهد من معركة ١٣ بريريال

ظلت مرساتها اليمنى منغمسة في قوقعتها كأنها صنارة عملاقة، ظلت السفينة فانجور، التي كان يقودها المقدم جان فرانسوا رينودان، ظلت تطلق النار عن كثب، حتى أن رماة المدفعية كانوا يمتطون فوهات المدافع المعادية كي يدسوا فيها عصي التنظيف، أي في فوهات مدافع أعدائهم. وكان من جراء ذلك أن خسرت السفينة الانكليزية برنسويك قائدها ومائتي رجل وأتلفت كل صواريها. وعندما أصبح فك الارتباط

بين السفينتين ممكنا كانت السفينة فانجور محرومة من صواريها ، ومثقبة كالغربال ، مما أوقعها تحت ضربات السفينة البريطانية راميلليز ، التي كان قبطانها هو شقيق قائد السفينة برنسويك . وقد تعرضت فانجور الى قصف صاعق على مسافة ٤٠ متراً اذ اجتاحتها المياه من كل صوب ، وغرقت عنابرها السفلى وبدأت في الغطس . وأصبح كل دفاع مستحيلاً وعديم الجدوى ، وأخذت السفينة تغطس شيئاً فشيئا ، وأمكن استنقاذ الراية . وكانت السفينة فانجور هي أول سفينة تستسلم للانكليز . وبذل هؤلاء جهودهم لالتقاط الناجين ، وبينهم قائدها ، وأركبوهم في سنابيك ، هذا بينما كان هيكل السفينة « يفتح ثغرته » في عباب المحيط ليسحب معه الجرحى المحتضرين في اتجاه الأعماق .

وقد أعيد نشر هذه القصة ، البديعة بحد ذاتها ، وتوسعت ولا سيما على يد بارير في مدحه الاسطوري الذي يتصف بالافراط بتاريخ ٢١ من شهر ميسدور من العام الثاني للثورة ، وذلك من فوق منبر حكومة الاتفاق . وادعى أن السفينة فانجور أغرقت ثلاث سفن معادية ، مع ان الانكليز عادوا مع كل سفنهم ، وذلك عندما بقرت خاصرتها . ولما كان البحارة الفرنسيون يفضلون الموت على التسليم ، فقد استغلوا الفترة التي كانت فيها أواخر المدافع فوق سطح الماء كي يطلقوا الرشقة الأخيرة . ومن ثم صعدوا الى الجسر وثبتوا الراية فوق قطعة من الصاري لتجنب عومها على الماء وكيلا تسقط في أيدي العدو ، قائلاً :

« كانوا رافعين أيديهم نحو السماء ، وهم يهزون قبعاتهم في الهواء وينشدون المارسيلليز ، مرددين حتى آخر لحظة : (تحيا الجمهورية تعيش الحرية ، تحيا فرنسا ، ونزلوا ، ظافرين ، في لجة البحر التي ابتلعتهم) . وقد التهبت حماسة الشاعر ماري جوزيف شينيه من هذه التضحية فنظم هذه القصيدة السامية :

إنهضي ، واخرجي من البحار العميقة
أيتها الجثة المحروقة في السفينة فانجور
أنت التي رأيت الفرنسيين منتصرين
وشاهدت الانكليز والنيران والأمواج
من أين تنطلق تلك الصرخات الممزقة
ما هي تلك الأصوات الشريفة !
إنها من هؤلاء الشجعان في نزعهم الأخير
الذين ينشدون من قاع الأغوار السحيقة :
المجد للشعب الفرنسي

الوهم يتجاوز الحقيقة

وعندما وصل تقرير رينودان ، قائد فانجور ، والذي أرسله من انكلترا الى وزارة البحرية ، حدثت فترة من ذهول . إذن لم تغرق فانجور ، ورايتها عالية ، بل استسلمت ؟ وخلافاً لأبسط قواعد وظيفته لم يغادر

القائد السفينة بعد إنقاذ آخر رجل من بحارتها؟ هل سقط بالأسر؟ إذن لنهمل ذلك. فلن تمزق صفحة التاريخ البديعة التي تلهب حماسة جيوشنا، وبحريتنا، وبلدنا برمته. وقد دفن التقرير في درج عميق ونام لفترة طويلة.

أما اليوم فمن الممكن قراءة التقرير بكل سكينة. فبعد أن سرد قصة المعركة التي شرحت آنفاً، كتب القائد رينودان ما يلي: «لقد اقتربت فانجور بصورة محسوسة من الفترة التي أخذت فيه بالغوص في البحر، واستفحل الخطر بصورة مخيفة رغم جهود الطاقم في ضخ المياه ونتحها. فقد ارتفع مستوى الماء الى ما بين الجسرين، فاضطررنا الى القاء عدة مدافع في البحر. وكان الجزء من الطاقم الذي يعرف الخطر يقوم ببث الذعر، وهؤلاء الرجال، الذين عجز العدو عن ترويعهم، كانت فرائصهم ترتعد لمرأى المصيبة التي تتهددهم. وقد كنا جميعاً منهكين من التعب، وقد نكست الأعلام، وأنزلت عدة سفن انكليزية قواربها الى البحر وكفت المجاذيف والمضخات عن العمل. وتلقت هذه المراكب عند وصولها الى حافة السفينة كل اولئك الذين رموا بأنفسهم فيها في البداية. وما أن كادت تبتعد هذه المراكب حتى تراءت لأبصارنا أكثر المشاهد ترويعاً وهلعاً: فالذين بقوا من رفاقنا على السفينة فانجور كانت أيديهم موجهة نحو السماء، يتوسلون، وهم يطلقون صرخات تتقطع لها نياط القلوب، طالبين نجدة لم يكن باستطاعتهم أن يأملوا فيها: وبعد



السفينة فانجور في النزع الأخير

قليل اختفوا، أي السفينة والضحايا التعيسة التي كانت تضمهم.

وفي وسط هذا الهول الذي كانت توحي به الينا جميعاً هذه اللوحة الحزينة، لم نستطع أن ندفع عن أنفسنا عاطفة اختلط فيها الاعجاب بالألم. وقد سمعنا ونحن نبتعد عن بعض رفاقنا وهم لا يزالون يعبرون عن تمنياتهم لوطنهم: فقد كانت آخر صرخات هؤلاء التعساء

هي « تحيا الجمهورية » وماتوا وهم يلفظونها. وعاد بضعة رجال للظهور فوق الماء، اذ كان بعضهم فوق ألواح ودسر خشبية، وكان الآخرون فوق أجزاء الصواري أو أنقاض أخرى، وقد تم انقاذهم بواسطة جندول وسنبوك وبعض المراكب الصغيرة حيث نقلوا فيما بعد الى سطح السفينة الانكليزية ».

ومن جملة الطاقم الذي كان يتألف من بحارة السفينة فانجور والذين كان عددهم يبلغ ٧٢٧ رجلاً لم يمكن إنقاذ سوى ٢٦٧. وكان بين المفقودين وعددهم ٤٥٦ رجلاً ٢٥٠ قتيلاً أو جريحا في المعركة هذا عدا المرضى.

وقد ظل التقرير البحري سرياً وحدث برود عندما عاد المقدم رينودان مع عدد من رجاله، الذين كان الناس يعتقدون أنهم لقوا حتفهم كأبطال، بين قتلى وغرقى، وقد عادوا من الأسر ليرووا ما حدث حقيقة على السفينة فانجور. وقد استقبلوا بصورة رديئة ككل الذين يقوضون الأساطير. وهذا هو أيضا مصير المؤرخين النزيهين.

هزيمة تكتيكية ولكنها نصر استراتيجي

وبالاختصار لقد كلفت هذه المعركة فرنسا سبع سفن، منها واحدة أغرقت وهي فانجور، في حين تم أسر ست سفن ـــ سنتكلم عنها ـــ و ٢٠٠٠ رجل من القتلى، و ٦٠٠٠ جريح أو سقطوا أسرى.

أما الانكليز فقد بلغت خسائرهم ٨٠٠ رجل بين قتيل وجريح، ولم يفقدوا أية سفينة.

غير أن الهدف المحدد للقائد فيللاريه فقد أمكن بلوغه. ففي الثالث من حزيران وصلت القافلة التموينية الى برست وأنقذت الشعب من مجاعة محققة. وعندما اجتاز الأميرال فانستابل الرقعة المائية التي شهدت نشوب المعركة، لاحظ أن البحر كان محجوباً بأنقاض من كل الأنواع: صواري مبتورة، عوارض وتجهيزات مقتلعة. ومن هو المنتصر؟ وفي الجواب على هذا التساؤل تكمن سلامته، ولكن كيف يمكن معرفة ذلك؟ وتابع طريقه ولامس ميناء برست دون أي إزعاج مع قافلته التي زادت بأربعين سفينة أخرى استولى عليها خلال اجتيازه المسافة بين ضفتي الاطلنطي.

ولحقت به بقايا عمارة فيللاريه في اليوم التالي. وقام جان بول سانتاندريه، في تقريره الذي قدمه لحكومة الاتفاق، بإطراء بطولة البحارة الفرنسيين. وكان عرضه شديد الحرارة حتى أنه جرى التصويت على تقديمه التهاني له شخصيا. ولكن عضو حكومة الاتفاق امتنع عن كشف الخطأ الخطير الذي ارتكبه وهو بإصدار الأمر الى فيللاريه، في نهاية المعركة، بعدم الاهتمام بالمؤخرة الفرنسية، والتي كانت ممسوحة السطح كأنها الطوف أو الرمث بعد أن خسرت نصف طواقمها، والتي اقتادها الانكليز وسحبوها حتى بورتسماوث. ويبدو أنه كان من

الممكن التقدم لنجدتها دون مخاطر كبيرة، لأن معظم الأسطول الانكليزي كان قد ابتعد عن الساحة. وكانت هذه السفن تحمل الأسماء التالية: سان باراي، ايمبيتوو، جوست، أمريكا، نورثمبرلاند، وآخيل. أما السفن التي تحمل أسماء انكليزية فهي سفن أسيرة سابقاً والتي لم يكترث المسؤولون بتبديل اسمائها بأسماء فرنسية.

وكان الفرنسيون الذين كانوا سعداء بانقاذ قافلة القمح، بهذه الكلفة البسيطة، والذين أضافوا صفحة ملتهبة لتاريخ بلادهم، كانوا يفتخرون بمعركة ١٣ بريريال. أما الأنكليز، من جهتهم، والذين اعتاضوا بالاهانة التي نفذوها حول دونكرك وفي طولون، فقد احتفلوا بانتصارهم البحري المسمى «الأول من حزيران المجيد» Glorious First of June، على صورة أعياد وتنويرات في العاصمة مع فرح عارم تجلى في سائر أنحاء المملكة.

وقد حقق الأميرال هاو على الصعيد التكتيكي نجاحاً لا يمكن انكاره. ولكن ذلك كان خطأ استراتيجيا وسيكولوجيا في وقت واحد بأن ترك قافلة تموينية ضخمة تصل الى الموانىء الفرنسية والتي كان لضياعها بالنهاية بالنسبة للعدو نتيجة أفضل من اغراق فانجور المجيد، وأسر ست سفن شبه تالفة.

هوارثيو نلسون

١٧٥٨ ــ ١٨٠٥

« ان بريطانيا لعلى ثقة بأن كل مواطن سيقوم بواجبه »



الرجل العسكري النموذجي ، لدى الانكليز ، هو ويللينغتون[1] ، الدوق الحديدي ، أما البحار الذي حجب كل أمجاد سائر رجال البحر البريطانيين الآخرين ، فهو نلسون ، الذي جاءت أجيال من مرشحي الضباط من بعده لتكرر خلال مراسم تخرجها كلمات القيادة : لا مستحيل في وجه البحرية البريطانية وتثق بريطانيا بأن كلاً سيقوم بواجبه .

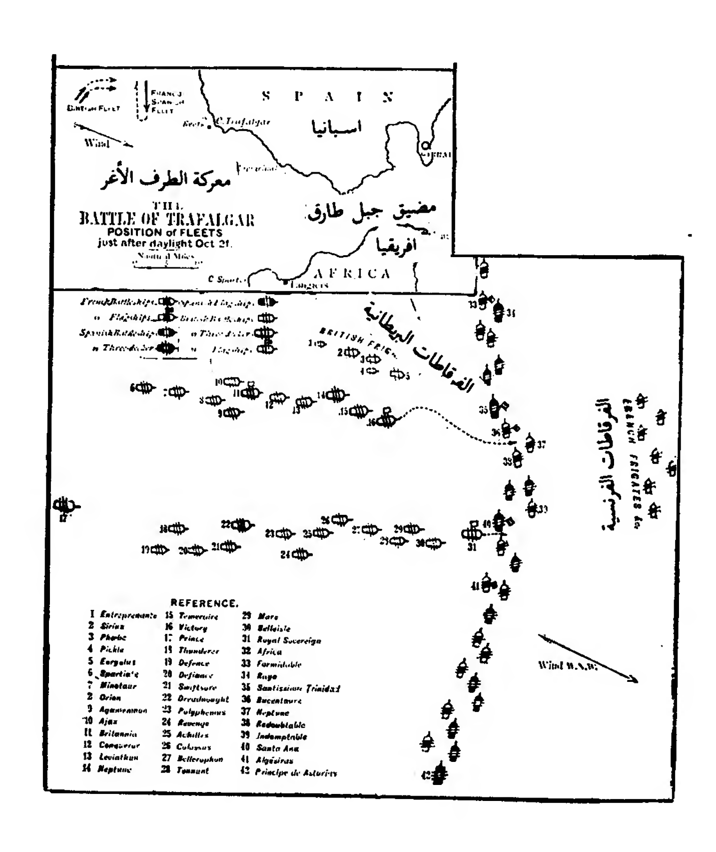
هذا ولا نعرف إطلاقاً الشيء الكثير عن طفولة الرجال العظام ، اذ لا يعرف أحد المستقبل الذي ينتظرهم عندما يصبحون في سن

(١) ارثر ولسلي ، دوق ويللينغتون . جنرال انكليزي ولد في دبلن ومات في والمر باست (١٧٦٩ ــ ١٨٥٢) حارب القوات الفرنسية في البرتغال وفي اسبانيا وانتصر في معركة فيتوريا ، ثم انتصر على رأس الجيوش المتحالفة في معركة واترلو وكان يتميز بعناده وبقوة جسمه وارادته التي لا تلين .

تتكشف فيها مقدرتهم ومواهبهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لحالة نلسون . وفضلاً عن ذلك فقد كان سادس مولود لأسرة تضم أحد عشر ولداً . وقد رأى النور ، لأول مرة ، في عام ١٧٥٨ في بلدة صغيرة في اقليم نورفولك ، وكان والده راعياً في الكنيسة الانكليزية متمتعاً باحترام رعيته . وقد ماتت أمه في وقت مبكر ، وقد كانت تدين بالولاء بصورة غامضة للسير والبول[٢] الذي ظل الوزير الأول خلال احدى وعشرين سنة . ولا يبدو ان أسرة نلسون قد حصلت على بعض الامتيازات المادية من وراء ذلك ، فقد ظلوا دائماً في عداد الفقراء . غير أن شقيق السيدة نلسون كان ضابطاً لامعاً في بحرية صاحب الجلالة ، وكان يدعى موريس سوكلينغ ، وهو الذي لعب الدور الرئيسي في وجهة حياة ابن اخته هوارسيو .

فقد ابتدأ هذا الطفل النحيل دراسته في مدرسة مدينة نورويش حيث كان يقوم معلمه الرهيب بجلده بالسياط أحياناً . وعندما بلغ سن الثانية عشرة ، أي في عام ١٧٧١ ، أراد العم أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مستقبله ، فقام بكل بساطة ، ودون أية شكليات ، بتسجيله

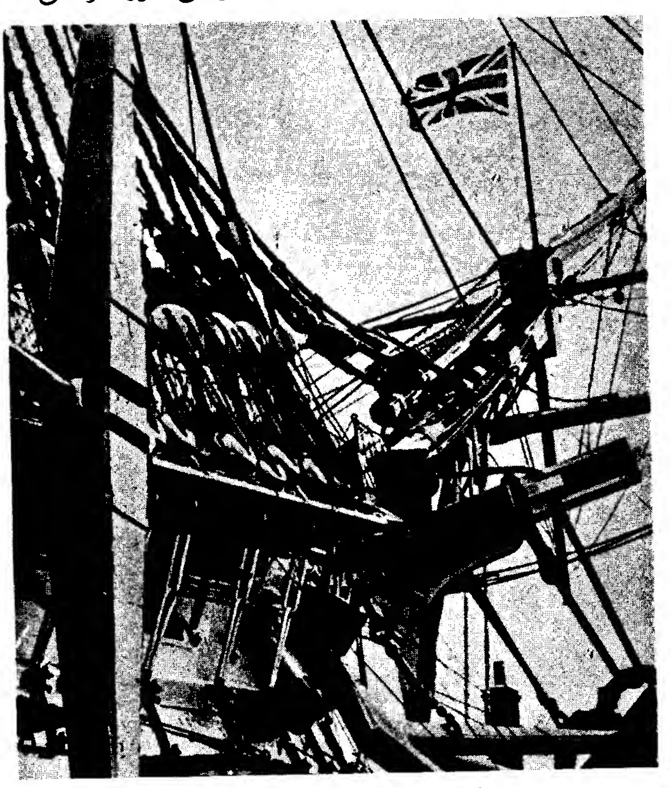
(٢) والبول : سيرروبرت ، كونت أورفولد . رجل دولة انكليزي ولد في هوفتون عام ١٦٧٦ ومات في لندن سنة ١٧٤٥ وكان زعيم حزب هويغ . وكان يسيطر على البرلمان بالرشوة وتفوقت في عهده سياسة السلم والتحالف .



معركة الطرف الأغر

نقلا عن مؤلف انكليزي « نلسون وزمانه »

على لائحة طاقم السفينة ريزونابل التي كان يقودها شخصياً. وكانت البحرية البريطانية بحاجة دائمة لضابط مرشح جديد. وكانت السفينة المذكورة راسية في شاتهام على نهر ميدواي، وتلقى هوراسيو على متنها



نموذج عن سفينة نلسون «فكتوري»

مبادىء فن الملاحة الشراعية مثل جدل حبال المركب ، وصنع العقدة بأنواعها ، ثم التسلق فوق مقصورة الصاري ، وكان يقف ، على مرأى منه ، مركب رائع ، يحمل تسعين مدفعاً فوق طوابقه الثلاثة ، وهو فيكتوري ، والذي سيلقى عليه مصرعه فيما بعد .

وقد انتقل نلسون من على متن ريزونابل الى السفينة تريومف المسلحة بأربعة وسبعين مدفعاً ، والراسية في نهر التايمز كقطعة من سلاح خفر السواحل ، وبعدئذ انتقل للعمل على ظهر سفينة تجارية تعمل على خطوط الهند الغربية ، أي باتجاه جزر الانتيل في أمريكا الوسطى . وعلى هذه السفينة المذكورة أتقن مهنة فن الملاحة التي تتمتع باحترام عظيم لدى أبناء جيله . وبعد عودته الى انكلترا ، وكان قد بلغ الخامسة عشرة من العمر ، وفي عنفوان صباه ، وكله اندفاع وحب لمهنته ، عهد إليه عمه سوكلينغ مباشرة بقيادة سفينة صغيرة ذات طابق كانت تستخدم كطليعة أمامية للسفن العاملة بين شاتهام ولندن .

وقد كان ذلك بداية متواضعة فعلاً لمغامرة كان الشيطان يوسوس بها في دماغ نلسون . وبعد برهة كان عضواً في الحملة القطبية التي كان يقودها فيليبس ، وعاد لجزر الهند الغربية على متن الفرقاطة سيهورس ، حيث اعتلت صحته واضطر الى لزوم سرير المرض في اليوم نفسه الذي تلقى فيه شهادته كمرشح ضابط بحري . فقد كان جسمه الواهن غير قادر على تحمل متاعب مثل هذه الأسفار البحرية . ولكنه لم

يلبث أن استرد صحته ونجح في الحصول على رتبة ملازم مصحوبة بتهاني لجنة التحكيم. وظل يمارس مهنته كملاح في بحار مختلفة. وفي ١٧٧٨ ارتقى الى منصب قائد سفينة. وابتدأ ذلك بأن كان قائد مركب ذي صاريين، ومن ثم، وبعد ستة شهور، استلم قيادة فرقاطة ذات ثمانية وعشرين مدفعاً، وبذلك سيكون بمقدوره منازلة الفرنسيين الذين كان يمقتهم، والذين كان يبغضهم، مثلما كان يضمر لهم قدراً كبيراً من الاحتقار. ما هو سبب ذلك يا ترى؟ والجواب: لأنهم كانوا يملكون قوة بحرية كانت الوحيدة التي كان باستطاعتها التصدي للبحرية البريطانية.

وكان سن نابليون بونابرت حينذاك لا يتجاوز عشر سنين، وكان تلميذاً في مدرسة برين. وكانت بؤرة الحرب البحرية تقع آنئذ في البحر الكاريبي حيث كان الانكليز يملكون قواعد ممتازة في جزيرة جامايكا. وفي ذلك العصر كانت الأساطيل الفرنسية تهرع لنجدة حلفائها في أمريكا الشمالية الذين كانوا منهمكين في انتزاع استقلالهم من انكلترا.

وقد عثر نلسون في جزر سولوفان على المرأة التي تناسب ذوقه، وهي ابنة أخ حاكم جزيرة نيفيس، وهي السيدة نيسبت، أرملة طبيب ووالدة لطفل صغير. فقد سمحت هذه السيدة لنلسون بمغازلتها والتي لم تجد في هذا الضابط، الذي سيعيدها الى انكلترا، ما يدعو لنفورها منه، وهكذا أصبحت السيدة فرنسيس، أوفاني، السيدة نلسون بتاريخ ١١ آذار ١٧٨٧.



نلسون (تصویر توسو)

وما أن أصبح نلسون زوجاً حتى راح يميل لأن يقبع في أمكنة ولادته ، أي في بلدة بورنهام ثورب حيث استقبله القس الهرم بدموع فرط التأثر . وظل مدة ثلاثة أعوام كاملة دون عمل يستحق الذكر ، أي بين ١٧٨٩ و١٧٩٢ وفي هذا الوقت كانت فرنسا تتمخض عن غليان في سبيل التخلص من سادتها ، واندفعت بإصرار نحو الطريق التي تقودها مباشرة الى الحرب .

البحر الأبيض المتوسط

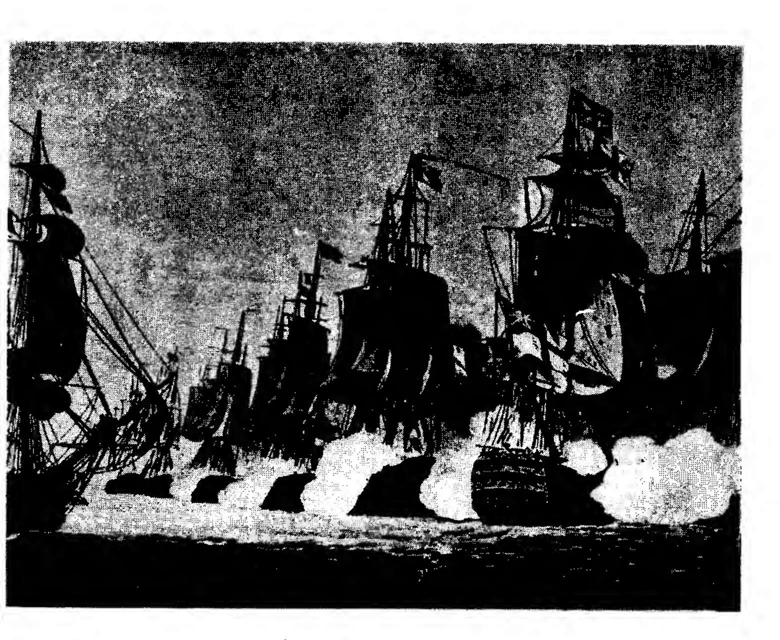
وهنا ارتقى نلسون لمنصب قائد أجمل سفينة شراعية في كل أسطول بريطانيا ، وهي السفينة آغاممنون المجهزة بأربعة وستين مدفعاً ، وسيكون البحر الأبيض المتوسط ميدان عمله تحت قيادة أمير البحر اللورد هود .

وهذه الحرب التي اندلعت كي تستمر حتى عام ١٨١٥ ادت الى الاشتباك بين شعبين متساويين في تعصبهما ، واللذين كانا يدعوان الى عقائد متنافرة ، واللذين سينخرطان في معارك ضارية وهدف كل منهما افناء الآخر . وكانت بريطانيا بقصفها وقضيضها تضمر للفرنسيين حقداً لم يكن مماثلاً حتى ولا للحقد الذي كانت تشعر به ، بعد قرن كامل ، للألمان ، أي كانت حرباً لا تعرف الهوادة ، حتى الموت .

وكانت تمتلك بريطانيا في بداية النزاع الكبير ١١٥ سفينة تحمل ٨٧١٨ مدفعاً، ولكن عدد سفن الأسطول الفرنسي لم يكن يتجاوز ٧٦ سفينة، ولكن كان لدى فرنسا ٢٥ سفينة في ورشات دور صناعتها البحرية. وكان عدد مدافعها البالغ ٦٠٠٠ عدداً ذات عيار أكبر مثلما كان العتاد البحري متفوقاً أيضاً. هذا كما كانت السفن التي تصنع في الورشات الفرنسية أكثر صلابة من تلك التي تخرج من ورشات نهر التايمز، اذ كانت سفناً شراعية أفضل، أكثر سرعة، وذات صواري متينة. ترى لأي شيء يعود هذا التفوق في التجهيز؟

إنه يعود طبعاً لحكمة الملك لويس السادس عشر، ذلك الأسطول الذي ورثته الثورة. ولن يكتب لهذه القدرة البحرية البقاء لأنها ستنهار، مع الأسف، ضمن الفوضى السائدة، وفي الافتقار للمواد الأولية، في حين كان تحت تصرف خصمها مخازن وترسانات غاصة بالامدادات وبالمؤن.

وبعد ذلك فقد مضى عهد سوفرن وانقضى، فقد عملت الثورة، والهجرة، والمقصلة على إفناء عدد كبير من الضباط الذين خرجتهم مدرسة مستشار الملك المذكور. وبينما كان الانكليز يتمتعون بانضباط دقيق حازم، كان لدى رجال الثورة الفرنسيين مجالس سوفيات. وفي تاريخ ٢٨ آب ١٧٩٣ استسلم ميناء طولون للبريطانيين بعد أن أنهكه



صورة عن معركة الطرف الأغر

الارهاب ولم يبق أمام الأميرال هود سوى أن يضع يده على ٣٢ سفينة من اسطول أعالي البحار والراسية في خليج طولون .

ولكن هود كان مع ذلك يشعر بالعزلة ، بعد أن أصبح ميناء طولون الحربي تحت يده ، إذ لم يكن يتصرف بأية قوة برية ، والذي علم أن جيشاً ثورياً كان يزحف للقيام بهجوم معاكس ، وهكذا لم ير بدأ من

ايفاد نلسون الى نابولي كي يلتمس من الملك فرديناند دو بوربون دعمه بجزء من قواته . وفي العاشر من ايلول ١٧٩٣ ألقت السفينة آغاممنون مراسيها على مقربة من بركان فيزوف . ونزل القائد نلسون لمقابلة سفير بريطانيا، السير ويليام هاملتون، الذي كان يمثل صاحب الجلالة البريطانية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط منذ أمد طويل. أما زوجته ـــ وهي امرأة ذات جمال أخاذ ـــ واسمها ايما ، فقد كانت تشعر ببعض القلق من هذا الزائر غير العادي ، وقد توجه زوجها اليها قائلاً : لن استغرب اذا أصبح هذا الرجل، في يوم ما، أكبر رجل أنجبته انكلترا إطلاقاً . وكان جواب زوجته التي كانت أصغر منه عمراً بكثير :

ـــ أنت تبالغ دائماً يا ويليام .

كورسيكا

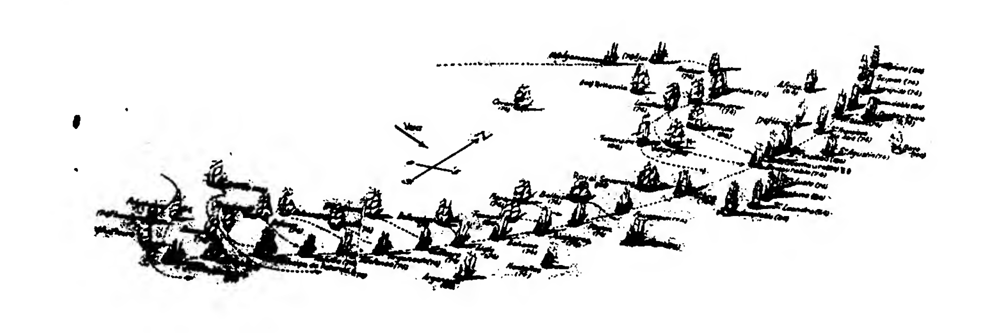
وقد كانت حصيلة أول بعثة قام بها نلسون الى نابولي هي الخيبة ، فقد رفض الملك فرديناند مد يد المعونة الى نلسون الذي قصد تونس لمقابلة الباي، الذي كان أحد حلفاء بريطانيا ، كي يناشده اغلاق مراسي بلاده في وجه الفرنسيين ، وقد كان جواب الباي هو الرفض أيضا .

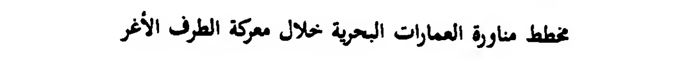
وفي خلال هذا الوقت استرد الفرنسيون ميناء طولون وراح اللورد

هود يبحث عن نقطة ارتكاز آخرى. فقرر آن يجدها في كورسيكا. وفي الرابع من نيسان ١٧٩٤ قام نلسون بعملية إنزال فيها على رأس ١٢٠٠ من جنود البحرية و ٢٥٠ من الملاحين وضرب الحصار على باستيا التي لم تلبث أن سقطت في يده في التاسع عشر من أيار. ودارت معركة غير حاسمة، في الوقت ذاته، في خليج سان تروبيز الذي تدور فيه هذه الأيام مباريات، ولكن غير دموية. وتابع نلسون عملياته على البر فاحتل ميناء كالفي. وفي الثاني من تموز أصيب بشظية حجر في عينه نتيجة قذيفة منحرفة عن هدفها. وفي غضون ثلاثة شهور فقدت عينه اليمنى أية قدرة على الإبصار.

وفي عام ١٧٩٥ كان الأميرال الفرنسي مارتن يقاوم الانكليز في خليج جنوة. وقد طال الحديث عن معركة ١٣ آذار حيث تعرض نلسون لمحنة حقيقية. فقد اشتبكت سفينة آغاممنون مع الفرقاطة آنكوستانت، وسائيرا، وفستال، والسفينة الحربية سانكولوت ذات المائة مدفع. وبعد بضعة أيام من ذلك التحم الأسطولان من جديد، وكان ذلك، في هذه المرة، في خليج جوان، ولكن دون نتيجة تستحق الذكر فعلاً، لأن وقت المعارك الكبرى لم يحن بعد.

وبعد عام من ذلك كان نلسون يقود عمارة بحرية صغيرة كانت لا تزال مؤلفة من آغاممنون ومن ثلاث فرقاطات ومن غرابين (كورفيت)، وكانت المهمة المسندة إليه هي مساعدة النمساويين، قدر





مخطط مناورة العمارات البحرية خلال معركة الطرف الأغر

استطاعته، والذين فتك بهم نابليون بونابرت فتكاً ذريعاً على رأس جيشه في ايطاليا. غير أن نلسون لم يتمكن، رغم كل ما لديه من حقد على الفرنسيين، من احتواء اعجابه بأعمالهم البطولية. وكل ما قدر عليه كان اعتراض قافلة بحرية مشحونة بالمدفعية ذات العيار الكبير والموجهة لحصار مدينة مانتو. ولم تصل هذه الشحنة الى بونابرت اطلاقا واضطر لايقاف حملته ولكن على الرغم من كل شيء، أصبح نابليون بعد ثلاثة أشهر من ذلك السيد المطلق في كل ايطاليا الشمالية، ولم ير الانكليز بداً من الانسحاب من كورسيكا.

رأس سان فانسان

وكانت أول معركة كبرى اشترك فيها نلسون هي معركة رأس سان فانسان، وهو اللسان الأرضي الواقع في أقصى النهاية الجنوبية من بلاد البرتغال. وقد كانت العمارة الانكليزية تحت قيادة الأميرال جارفيس الذي رفع رايته على السفينة فكتوري. أما العمارة الاسبانية، التي كانت تحاول العبور الى المحيط الاطلنطي للانضمام الى الأسطول الفرنسي في ميناء برست، فقد كانت بقيادة دون خوزيه دو قرطبة. ووقعت الواقعة في ١٤ شباط ١٧٩٧ وكان نلسون هو الذي انتزع النصر بعد أن استولى على السفينة سان نيقولا ذات الثمانين مدفعاً بالالتحام ومن ثم بالاقتحام، ولقي الأميرال فرانسيسكو ونتويس

مصرعه. وكان الفرح في انكلترا عارماً وكان الناس يرددون اسم المنتصر باحترام وتوقير. وارتقى نلسون لمرتبة عميد بحري، ومنح وسام فارس من مرتبة الحمام Bain[٣] ونال راتباً مقداره ١٠٠٠ جنيه انكليزي.

وحاول بعد ستة شهور من ذلك الاستيلاء على ميناء سانتا كروز في جزيرة تينيريف في أرخبيل كناري (جزر الخالدات) ولكن كان حظه أقل في هذه المرة فقد هشمت قذيفة ذراعه اليمنى.

واستقبله موطنه الأصلي مرة جديدة واعتزل في ايبسويش، وكان يفكر بأنه لم يعد يصلح لعمل شيء بعد اليوم. وطوقته زوجته بحنانها، وكان وضعه يماثل شبه إحالة على المعاش.

ولكن ما لبث أن استرد عافيته على غير انتظار، وعين قائداً على السفينة الحربية فانكوارد والتحق بالأميرال جارفيس، وكان ذلك في شهر آذار من عام ١٧٩٨.

وكان الناس في انكلترا يستشعرون بشكل غامض بأن الفرنسيين يزمعون عمل شيء ما. ولكن ما هو؟ فقد توقفت الاستخبارات عند هذا الحد. وكانت المعلومات المتوفرة تشير الى أن هناك عمارة قوية تتمركز في طولون تحت أوامر الأميرال فرانسوا بول، كونت برويس

---

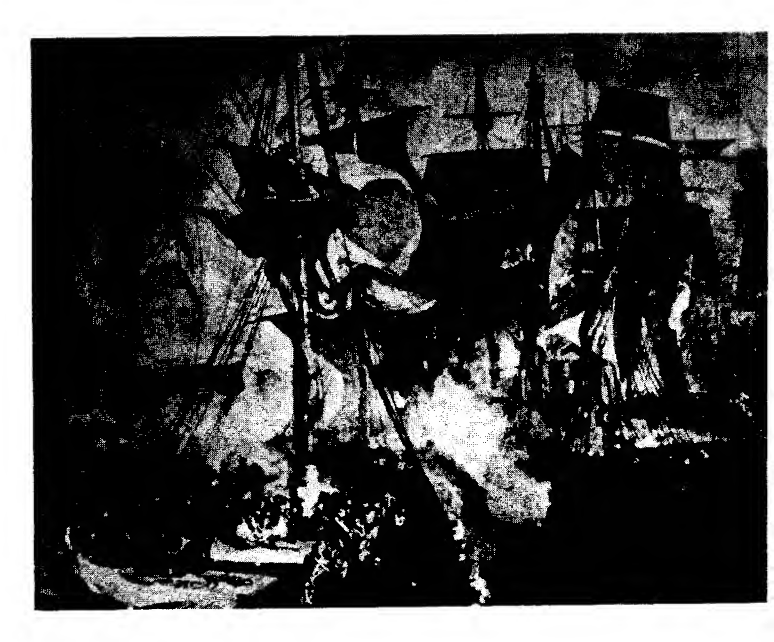
(٣) نظام فروسية انكليزي اسسه ملك انكلترا هنري الرابع في عام ١٣٩٩ م.

ديغاللبيه . ولكن الى أين ستتوجه هذه العمارة؟ وليس لهذا التساؤل من جواب. وكان هناك حشد يضم ٤٠٠ سفينة تجارية حسب أقوال قنصل انكلترا في ميناء ليفورنه الايطالي، الذي كان في مركز طيب للملاحظة، أي اسطول قادر على نقل ٤٠٠٠٠ رجل، ولكن ما هي الاتجاهات المرتقبة؟ فقد كانت فرائص رجال بلاط مملكة نابولي ترتعد من الذعر.

المطاردة الكبرى

لقد اوكلت القيادة الى نلسون مهمة الانطلاق لمواجهة الأسطول الفرنسي المذكور على رأس ثلاث سفن حربية هي فانكوارد، اوريون، آلكسندر. وهكذا غادر قاعدة جبل طارق في الثامن من أيار ١٧٩٨ أي في اليوم الذي وصل فيه نابليون الى طولون. ولكنه تعرض بين ١٧ و٢١ من الشهر المذكور لإعصار رهيب وكانت الكارثة. فقد تشتت الفرقاطات في العاصفة ولم تصل اليه أخبارها إلا بعد فترة طويلة جداً. أما فانكوارد فقد اجتثت صواريها واضطرت العمارة للبحث عن ملجأ لها في جون سان بيترو على سواحل جزيرة سردينية.

وفي خلال هذه الفترة استغل الأسطول الفرنسي ريحاً موائمة فرفع مراسيه وأقلع مبحراً نحو عرض البحر الأبيض المتوسط. وكان يضم اثنتين وسبعين سفينة حربية. وكانت راية برويس ديغاللبيه منصوبة على



معركة ابو قير وتدمير الأسطول الفرنسي

السفينة اوريان وكان يحمل معه بونابرت وأحلامه العظام. وهبط نحو شمالي كورسيكا في اليوم الذي كان فيه نلسون يلقي مراسيه في ميناء سان بييترو، ثم حاذى ساحل سردينية واستولى على مالطة وتابع طريقه قاصداً مصر.

أما الأميرال الانكليزي فقد كان يسير على غير هدى وهو يمخر

عباب البحر الأبيض المتوسط دون أية معلومات موثوقة. وأقلع في ٢٧ أيار بعد أن حصل على مساندة هامة للغاية مؤلفة من احدى عشرة سفينة حربية هي: كوللودن، جولياث، دفانس، مينوتور، بلليروفون، ماجستيك، سويفتشور، ثيزوس، ليندر، زيلوس.

وهكذا كان نلسون على رأس أحد أجمل الأساطيل التي استطاعت انكلترا أن تعبئها فوق البحر. ولكن كان ـ مع الأسف ـ محروماً من الفرقاطات، وكان مضطراً بالتالي أن يعمل على غير بصيرة. وأخذ يقوم بمطاردة عشوائية في فيافي البحر الأبيض المتوسط اللامتناهية.

وكان ما ينفك يطرح على نفسه السؤال التالي: أين يقبع اولئك الفرنسيون اللعينون إذن؟ وظل يبحث عنهم مدة شهرين كاملين.

وفي ١٨ حزيران طوى قلوع سفن اسطوله في نابولي وعزم على أن يطلب من الملك فرديناند السماح له بالرسو والتموّن من موانىء مملكته. ورفض الملك الذي كان في حالة سلم مع فرنسا ولم يكن يرغب في أن يصب على رأسه جام غضب نابليون أو الآخرين. هذا كما تلقى السفير الانكليزي هاملتون رفضاً صريحاً، وعندها تدخلت زوجته ايما، فقصدت الملكة ماري كارولين، وكانت شقيقة ملكة فرنسا ماري انطوانيت زوجة لويس السادس عشر، والتي كانت تحمل أكثر من

سبب واحد للحقد على الفرنسيين . ولما كانت ذات صوت مسموع في مجلس وزراء نابولي فقد منحت التراخيص الضرورية للأسطول الانكليزي الذي كان يقوده نلسون .

وحملت الليدي هاملتون الورقة الضرورية التي ينتظرها الأميرال نلسون وكانت تغمرها نشوة النصر ، وهنا شكرها بعبارات موجزة وانطلق من جديد ، في آذار ، قاصداً مالطة . وعندما أصبحت عاصمتها لافاليت على مرأى منه كان أسطول الأميرال الفرنسي برويس قد غادرها قبل ثمانية وأربعين ساعة . وهنا استولى على سفينة جنوية ذات شراعين وعلم من طاقمها أن الأميرال الفرنسي قد اتجه نحو الجنوب الشرقي . ولم يكن يخامره شك اطلاقاً في أن هدفه الرئيسي هو مصر ، فتوجه نحو الاسكندرية التي بلغها في ٢٨ منه ، ولكن لم يجد أحداً اذ كان الميناء خالياً .

اذن لم يكن الفرنسيون في مصر ، فأين هم يا ترى ؟ هل نزلوا في صقلية ؟ وعاد نلسون أدراجه . لقد انخدع . فقد وصل الى الاسكندرية قبل الأميرال برويس ، اذ تجاوز الأسطول المعادي دون أن يراه وذلك على مستوى جزيرة كريت وذلك بسبب الضباب الكثيف ... وكان من المنتظر أن يلتقي بالأسطول الفرنسي في طريق عودته من الاسكندرية ، ولكن الرياح المعاكسة قسرته على الانحراف وهكذا بلغ برويس ميناء

الاسكندرية دونما عائق. ونزل جيش بونابرت فيها في الأول من تموز ١٧٩٨.

وصل نلسون الى سيراكوزه في صقلية بتاريخ ١٨ تموز كي يمتار منها ولم يجد الفرنسيين فيها، إذ لم يبصر بهم أحد من أهلها. وعاد أدراجه كرة أخرى قاصداً الاسكندرية وكان الغضب قد بلغ به حد الجنون. آه لو كان بحوزته فرقاطات!!

أبو قير

وأخيراً وفي الأول من آب وصل الى مقربة من الاسكندرية واكتشف الأسطول الفرنسي وقد ألقى مراسيه. فقد كان برويس يعتقد بأنه في حرز حريز. فقد علم قبل شهر مضى ان الانكليز قد عادوا أدراجهم دون أن يعثروا على شيء ولم يعد يعرهم أي اهتمام. أين كانوا؟ هذا السؤال كان آخر ما يخطر بباله من الاهتمامات، فقد ترك عمارته في خليج أبو قير. أما فرقاطاته ــ التي كان يملك العديد منها، ولكنه كان لا يستغلها بصورة جيدة لقلة اعتماده عليها ــ فقد أنبأته بوصول الأسطول الانكليزي في آخر برهة، وعندما كان على مقربة منها.. وكان قسم من طواقم اسطوله على البر. وعندما احتدمت المعمعة كان الوقت قد فات. وبعد أن مضى شطر على النهار تبادر الى ذهن برويس أن الانكليز لن يبدأوا الهجوم ليلاً. وقد انخدع على حساب نلسون اذ كان

يتصور أن لديه من الوقت ما يكفي للانسحاب الى جزيرة كورفو في غرب اليونان. غير أن نلسون باشر الهجوم على الفور وحمي وطيس المعركة. وقد أصيب نلسون بجروح في رأسه بطلقة بندقية وأسعفه الأطباء تحت وابل من قذائف المدفعية وقد غشى الدم بصره. وكانت سفن الطليعة الفرنسية الخمس تصلى نيران تسع سفن مماثلة معادية وقد عانت السفينة غيرييه، سبارتيات، وكونكيران من أضرار كبيرة وتحول ليلها الى جحيم. وجرح الأميرال برويس أكثر من مرة، الى أن تلقى جرحه الثالث الذي كان قاتلاً في هذه المرة وانفجرت سفينته اوريان. واستمرت المعركة طيلة الليل. وفي الصباح استطاع الأميرال فيللونوف، على ظهر سفينته غليوم تل، الافلات من المعركة وانطلق نحو عرض البحر مع سفينة حربية اخرى وفرقاطتين، وكان ذلك كل ما تبقى من القوة الفرنسية البحرية، وهكذا أصبح الانكليز سادة البحر الأبيض المتوسط بلا منازع واحتفظوا بهذه السيادة لمدة طويلة جداً امتدت على قرن ونصف من الزمن تقريباً.

ما العمل الآن؟ لقد تردد نلسون. وحملت اليه فرقاطة قادمة من نابولي رسالة تهنئة من ملكها ورسالة أكثر حناناً بكثير من الليدي هاملتون زوجة سفير بريطانيا فيها. وأقلعت سفنه باتجاه بركان فيزوف المطل على نابولي ووصل الى خليجها في ٢٢ ايلول. ولم تتمالك ايما نفسها من فرط التأثر فتسلقت على متراس السفينة ورمت بنفسها بين

ذراعي نلسون. وكانت جماهير الناس تهتف صارخة : يعيش محررنا. ولم تصل أنباء الانتصار الى انكلترا الا في الثاني من شهر تشرين الأول وأدت الى اشتعال الحماسة لدى جماهير الشعب البريطاني . وفي خلال هذا الوقت كان الأميرال الانكليزي يعيش أياماً منسوجة بالذهب والحرير فقد وجد امرأة حياته ، وهي تلك الليدي هاملتون ، التي ظل اسمها مرتبطاً دوماً باسم نلسون ، البطل البريطاني النقي .

نابولي

على اثر انتصار معركة «أبو قير» الرائع أنعمت الحكومة البريطانية على نلسون بلقب «بارون النيل» مع راتب مقداره ٢٠٠٠ جنيه وتلقى هدايا عديدة ومِنحَ مقدار ١٠٠٠٠ جنيه من شركة الهند التي كانت تدين له بالكثير من الفضل. وبعد أن أسكرته أشكال التكريم المتنوعة التي أصبحت تنهال عليه من كل حدب وصوب أخلد للراحة في نابولي وتدهورت صحته، التي انهكتها الجراح ومتاعب الحملات ، الى حالة رديئة جداً.

وفي سنة ١٧٩٩ دخلت مملكة نابولي في حرب مع فرنسا ، وكان هناك ٣٠٠٠٠ محارباً ولكن دون قيادة . وقدمت النمسا المطلوب ، وهو الجنرال ماك ، من قدماء حرب السنوات السبع ، والذي غلب على أمره في معركة أولم فيما بعد ، وقدمت انكلترا المال اللازم . وكانت هزيمة



نلسون في مكتبه

جيش نابولي شنيعة واضطر الملك والملكة الى
الليدي هاملتون أن تقود العائلة المالكة باتجاه
سرداب مهجور ، يقود الى البحر . وامتطت متن

باليرمو ، في صقلية ، تحمل الملك والملكة وابناءهما وخزينة التاج ، وأسرة هاملتون ، وتعرض كل هؤلاء لعاصفة هوجاء لم يشهد لها نلسون مثيلاً خلال كل حياته البحرية . ومات أصغر أبناء الملك فرديناند ، وبلغت السفينة باليرمو في ٢٦ كانون الأول ١٧٩٨ .

ودخل الجنرال الفرنسي شامبيونيه نابولي ولكن الاحتلال لم يدم
لاً . فقد استغل الروس والنمساويون في الشمال غياب بونابرت في
فطردوا القوات الفرنسية . هذا كما اضطرت القوات الفرنسية
في الجنوب للانسحاب كيلا ينقطع اتصالها مع الوطن الأم مما
كليز بالعودة لاحتلال العاصمة نابولي . وكان القمع خالياً من
ضع « المتعاونون » لمعاهدة ردوا بموجبها القلاع التي كانت
لإبقاء على حياتهم. غير أن نلسون اعتبر هذا الاتفاق
ق النار . وكان أحد أكثر الضحايا شهرة هو
رانسيسكو كارا كشيولا ، الذي لعب دوراً
يه محكمة عرفية بالإعدام شنقاً في أعلى صواري
لب الموت رمياً بالرصاص ، ولكن دون جدوى .
برودة دم ، من عنقه حتى الموت ، ومن ثم ألقيت
وبينما كانت السفينة التي تحمل العائلة المالكة
ت جثة الأميرال على سطح الماء وارتاح الملك

لمرآها وسأل مذعوراً «وماذا يريد مني؟» هذا في الوقت الذي كان كاهنه الخاص يجيبه «جنازة مسيحية يا مولاي». وقد كان.

كوبنهاغن

وما ان ارتقى نلسون لرتبة لواء بحري بتاريخ ١٢ كانون الثاني ١٨٠١ حتى استأنف مغامراته البحرية. وفي ١٢ شباط رفع رايته فوق سفينته سان جورج ذات الثلاثة طوابق، التي غادرت ميناء يارموث في الثاني من آذار، بعد أن توترت العلاقات بين انكلترا وأقطار الشمال وهي السويد والدانمارك وروسية، التي شكلت حلفاً من الحياديين كي يمنعوا الانكليز من حق تفتيش السفن التجارية التي كانت تنقل مواد حربية مهربة لحساب فرنسا وحلفائها. وقررت انكلترا ارسال اسطول لتهديد كوبنهاغن. وكان ذلك بقيادة الأميرال السير هايد باركر، وكان نلسون القائد المساعد.

ورفضت كوبنهاغن الانذار، فهل يجب الانتقال الى الهجوم؟ وكانت الآراء منقسمة على نفسها. لكن نلسون لم يكن يود هدر دقيقة واحدة من الوقت لأن الدانمركيين كانوا يزيدون في تحصيناتهم الدفاعية. وهنا صعد على السفينة ايليفان واجتاز مضيق السوند في الثلاثين من آذار وألقى بمراسيه على مسافة خمسة أميال من الميناء. وقد تحصنت

العاصمة الـ.. مركية بستمائة مدفع. وظل الأميرال باركر في الشمال، وفي الثاني من نيسان أصدر نلسون أوامره بالهجوم ونشبت المعركة.

وكان الأميرال والعميد البحري، قائد قوات الإنزال، يذرعان سطح السفينة ايليفان دون اكتراث بشظايا الخشب والقذائف التي كانت تتساقط من حولهما وهنا قال نلسون:

ـــ الطقس حار جداً هنا، بل ومفرط في حرارته اذا استمر لمدة طويلة، ثم أضاف:

ـــ قد يكون هذا اليوم آخر أيام حياتنا، ولكن لا أريد أن أكون في غير هذا المكان ولو أعطيت كل ذهب العالم.

وكان باركر مرابطاً على مسافة أربعة أميال الى الشمال من ميدان المعركة ويراقب العملية عن كثب. وعندما اعتقد أن الهجوم قد باء بالفشل أعطى اشارة للسفن يأمرها بالإنكفاء. وجاء ضابط ليخطر نلسون بفحوى الأمر ولكن نلسون أفهمه بأن ليس من الممكن تغيير شيء من التدابير المتخذة.

ثم هرع ضابط آخر نحوه قائلاً:

ـــ لا يزال الأميرال باركر يشير اليك آمراً بالعودة، وعندئذ قال نلسون:

ــ لِنَرَ ذلك .

وهنا رفع منظاره وراقب برهة من الوقت وقال :

ــ حقاً لا أكاد أرى شيئاً ، أنت تعرف ليس لدي سوى عين واحدة ، ولي كل الحق ألا أرى بها بصورة واضحة جداً ، أحياناً ، لا أرى شيئاً بالفعل ، وأقسم بذمتي أني لا أرى شيئاً .



اللواء البحري فيللونوف

وكان يمسك بفتحة منظاره امام عينه العوراء.

وكانت نيران الدانمركيين تنهمر باستمرار وبصورة كثيفة.

وعقدت هدنة في الرابع من نيسان، وهبط نلسون الى البر قاصداً القصر الملكي سيراً على الأقدام عبر جمهور متجهم. وتم عقد سلام مؤقت.

وفي الأول من تموز عاد الى لندن لاسباب صحية.

الطرف الأغر

وكانت آخر مرحلة في حياته، إذ أسندت الى اللواء البحري نلسون قيادة عمارة البحر الأبيض المتوسط. فقد استؤنفت الحرب مع فرنسا. وراح يراقب ميناء طولون بصورة مستمرة حتى عام ١٨٠٥ الى أن حان الوقت الذي كان فيه الأميرال الفرنسي فيللونوف ــ الذي أصبح الآن خصمه المباشر ــ يمر مع اسطوله على مقربة منه، فراح يبحث عنه في مصر.. ويظل يذرع عباب البحر الأبيض المتوسط خلال بضعة شهور. والواقع كان فيللونوف في جزر الآنتيل. فقرر أن يتعقب آثاره ويلحق به الى هناك، فزار جزيرة بارباد، والترايينيداد، وغريناده، ولكن لم يعثر على الفرنسيين أي ان لعبة الاستخفاء المماثلة لعام ١٧٩٨ قد عادت من جديد. ثم جاءته معلومات أخرى: إنهم في المكسيك. ولكن فيللونوف كان أقلع عائداً الى اوروبا. وكانت مهمته

تنحصر في إبعاد الأسطول الانكليزي عن ضفاف بحر المانش كي يتمكن الجيش العظيم، المحتشد على ساحل مدينة بولونيا الفرنسية، من تنفيذ عملية الانزال على الساحل البريطاني المقابل. ولكن القسم الأعظم من الأسطول الانكليزي ظل مرابطاً دون حراك. وعندئذ اتجه فيللونوف نحو سواحل اسبانيا وفي ٢٣ تموز ١٨٠٥ خاض غمار معركة صغيرة ثم التجأ الى ميناء فيرول الاسباني. وفي خلال هذا الوقت كان نلسون يتمتم دائماً وعاد الى بحر المانش ونزل في ميناء بورتسماوث وقدم تقريراً للأميرالية وعاد ليقبع في قرية مرتون بلاس.

ولكن بعد مضي بضعة أيام من عودته أقبل عليه ضابط في الساعة الخامسة صباحاً ليخبره ان اسطولا متحالفاً فرنسياً ـــ اسبانياً، مؤلفاً من ٣٤ سفينة حربية، قد غادر ميناء فيرول والتجأ الى ميناء قادس، في جنوب اسبانيا حيث يقوم الأميرال كولينغوود بتضييق الخناق عليه، وهنا وجب الانطلاق. وكان وداعاً تتقطع له نياط القلوب، إذ كانت ايما، أو الليدي هاملتون، تناشد عشيقها أن يندفع نحو المعركة بأقصى سرعة: وكان يؤمن أن العمارة الفرنسية ستكون ملك يديه. وفي ١٥ ايلول صعد درجات سلم السفينة فكتوري، وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور كان في مواجهة قادس، ينتظر بفارغ الصبر قرار فيللونوف بالخروج من الميناء، ولكن هذا لن يبقى في الميناء كل حياته!!.

تشكيلة المعركة الحليفة في الطرف الأغر

المراكب الفرنسية	١٨ سفينة ذات ٧٤ إلى ٨٠ مدفعاً
العمارة الأولى	بوسنتور (راية الأميرال فيللونوف : القبطان ماجندي)
نبتون رودوتابل آندومبتابل هيرو	(القبطان مسترال) (القبطان لوكا) (القبطان هوبير) (القبطان بولان)
العمارة الثانية	**فورميدابل** (راية العميدالبحري دومانوار لا بللي، القبطان لوتيلليه)
سيبيون آنتريبيد دوتمان تراون	(القبطان بودوان) (القبطان آنغيرنيه) (القبطان توفيه)
العمارة الثالثة	**الجزيرة** (راية العميد البحري ماغون، القبطان كورنور)

فوغو بلوتون آيغل سويفتسور آرغونوت برويك آخيل	(القبطان بودوان) (القبطان كوسماء وكرجوليان) (القبطان غورّيج) (القبطان فيللو مادران) (القبطان آيرون) (القبطان كاماس) (القبطان دونيببور)
المراكب الإسبانية	١٥ سفينة منها ثلاث ذات ثلاثة طوابق
برنسيب دو آستورياس سانتا آنا سانتيسيما ترينيداد	(آميرال غرافينا) ١١٢ مدفعاً (اللواء البحري آلافا) ١١٢ مدفعاً (العميد البحري سيسنيروس) ١٣٠ مدفعاً

وفي العاشر من تشرين الأول جمع نلسون القادة التابعين له وقرأ عليهم تعليماته، وكان عليه مجابهة سفن الأسطول الحليف الفرنسي الاسباني وعددها ٤٦ سفينة بأسطوله الذي لا يتجاوز عدد سفنه الأربعين. وقد صمم تشكيلة على شكل ساريتين تتألف كل منهما من ١٦ سفينة والباقي تؤلف المقدمة. وعهد إلى إحدى الساريتين بقيادة كوللينغوود بقطع مؤخرة العدو والقضاء عليها. أما الثانية ويقودها

نلسون بنفسه فكانت مهمتها الحيلولة دون بقية عمارة فيللونوف وبين التقدم لنجدة المؤخرة.

وقد جزع فيللونوف وطاش صوابه. فقد أصبح من واجبه أن يقاوم الأسطول الانكليزي الرهيب بسفن رديئة المناورة تعمل عليها طواقم غير متمرسة كثيراً في فن الحرب. وقد كان مقداماً ولكنه هلوع. وكان يشعر أن صبر الامبراطور نابليون كاد ينفذ وكان مستعداً لعمل أي شيء. ولما أصبح الآن على تماس مع العدو، فقد كان مهيئاً حتى للوقوع في الغفلة.

وهكذا أقلع من خليج قادس في ١٩ تشرين الأول ١٨٠٥، واتجه في اليوم التالي نحو الجنوب الغربي ثم انكفأ نحو الجنوب الشرقي دون أن تغمض عيناه عن الأشرعة المعادية. وعند حلول الظلام أشار بتشكيل خط المعركة واتخاذ الأهبة للنزال.

وكان البحر هائجاً في الحادي والعشرين من تشرين الأول، وكانت سفن فيللونوف متراصفة على خط واحد، وكانت العمارة الاحتياطية في الرأس وكانت تتبعها العمارات الثلاث الأخرى على شكل خط مستقيم. ولكنه لاحظ في الساعة الثامنة صباحاً أن الأسطول الانكليزي قد اتخذ تشكيلة مؤلفة من ساريتين متجهتين على خطين متوازيين نحو وسط الأسطول الفرنسي الأسباني. وعندئذ أمر فيللونوف

بالانحراف واستدبار الريح والاتجاه نحو الشمال قاصداً قادس كي يلجأ الى مينائها اذا دعت الضرورة. وهكذا كانت قواته تتألف من خط طويل غير منتظم، وعاجز عن المناورة، معرضاً للصدام مع العمارتين اللتين كانتا تتقدمان ببطء، تقودهما السفينة فكتوري والسفينة رويال سوفرين، وكان نلسون على ظهر فكتوري، يحمل فوق سترته الزرقاء أوسمته الأربعة الرفيعة المألوفة، وقد ترك سيفه في مقصورته.

وعندئذ أعطى تعليماته الى قباطنة فرقاطاته: «يجب عليكم أن تجهزوا على العدو، ولا أود أن أرى أية سفينة تقدر على اللجوء الى قادس، ولا داعي لانقاذ السفن أو أحد من رجالها، فأنا لا أكترث بالغنائم ولا بالأسرى، وكل ما أريده هو الإبادة التامة».

انه انكليزي، بارد، قاس، طاغ، حازم.

وانحدر إلى مقصورته ودبّج ملحقاً لوصيته، فقد أوصى بزوجته وإيما، أي الليدي هاملتون، لمليكه ولوطنه. وكتب على يومية السفينة آخر صلاة له: «أرد حياتي وأعيدها لخالقي» وكان يعرف أنه سيلقى حتفه، وخرج من مقصورته بعد أن أدى صلاته، واجتاز البطارية العالية حيث كان ثلاثون مدفعاً من عيار ١٢ تمدد فوهاتها من الكوات ولما صعد الى الطابق العلوي أشار لسفن أسطوله بالعبارة التالية: تنتظر انكلترا من كل رجل أن يقوم بواجبه.

England expect that every will do his duty



أحد فصول معركة الطرف الأغر

وانطلقت موجات من الهتافات الحماسية من فوق كل السفن الانكليزية . وراح يذرع بفتور سطح السفينة بمحاذاة المقدم هاردي الذي كان صديقه أيضاً .

نلسون هدف أحد رماة الحدق

كان أحد رماة النخبة يقبع في برج المراقبة فوق السفينة الفرنسية رودوتابل ، والذي كان يترصد الضابطين اللذين لم يكترثا لحماية نفسيهما . فأسند بندقيته الى كتفه واستهدف ملياً الضابط الذي

يحمل أكبر قدر من الأوسمة وأطلق رصاصة، فانهار نلسون في منتصف الطريق بين الصاري الكبير وصاري المؤخرة:

ـ لقد قتلوني، لقد تهشم عمودي الفقري.

وقام الجنود بانهاضه ونزلوا به الى مكتب الاشارة واكتشف الطبيب الجراح البحري، الدكتور بيتي، مكان الجرح، وسبر مسار الرصاصة واعترف بأن ما قاله الرجل الذي يعاني النزع صحيح، ولا فائدة من أي عمل كان. فبلل شفتيه بالماء...

وكانت المعركة على أشدها اذ كانت السفينة فكتوري في وضع غير مريح. فقد عملت نيران السفينة الفرنسية رودوتابل على بعثرة جثث القتلى على سطحها فضلاً عن الجرحى. وفي الوقت الذي كان يستعد فيه البحارة الفرنسيون لاقتحام سفينة نلسون هرعت السفينة الانكليزية تيميرير على أثر طلب النجدة واستطاعت أن تطرح بعد أول رشقة ٢٠٠ محارب فرنسي على أرضية الطابق العلوي الخشبية. واستغرقت المعركة مدة ساعتين دون رحمة ثم تحولت السفينة رودوتابل الى حطام وغرقت.

وسمع نلسون صراخ الهجوم المنطلق من بحارته وجاء الضابط هاردي ليخبره أن كل شيء يتم حسب خطته، فكان رد نلسون الذي يعاني النزع الأخير.

ـــ سأعيش أيضا نصف ساعة أخرى ، ولكن عندما ألفظ آخر أنفاسي قصوا خصلة من شعري وارسلوها الى حبيبتي ليدي هاملتون ولا تقذفوا بي من فوق حافة السفينة .

ومات وهو يقول :

ـــ بفضل الله لقد قمت بواجبي .

وهكذا انتهت معركة الطرف الأغر . وكانت الخسائر جسيمة ولكنها كانت نصراً كبيراً لانكلترا : فقد أسرت عمارة نلسون ١٨ سفينة حليفة . وفقد الفرنسيون والاسبان ٥٠٠٠ قتيلاً عدا ٣٠٠٠ من الجرحى .

وتم نقل جثمان نلسون الى انكلترا على سفينته فكتوري وجرت مراسم الدفن في ٨ كانون الثاني من عام ١٨٠٦ .

وماتت الليدي هاملتون فقيرة[١] في مدينة بولونيا الفرنسية عام ١٨١٥ وعاشت ابنتها هوراسيا بصورة غامضة وتزوجت من كاهن هو الدكتور وارد وتوفيت في سنة ١٨٨١ تاركة العديد من الابناء والاحفاد ، في حين ماتت الليدي نلسون في عام ١٨٣١ .

---

(١) مصداقاً للقول المأثور : بشّر القاتل بالقتل والزاني بالفقر .

وظل اسم الطرف الأغر خالداً ـــ ٢١ تشرين الأول ١٨٠٥ ـــ
مثل اسم اوسترليتز ـــ ٢ كانون الأول ١٨٠٥ ـــ من جهة أخرى والتي
هزم فيها الامبراطور نابليون الأول جيوش امبراطوري الروسيا والنمسا .



نافارين

ـ ٢٠ تشرين الأول ١٨٢٧

مقدمة : في خريف عام ١٩٧٣ أغرقت الزوارق المصرية البارجة الاسرائيلية ايلات الى الشمال من سواحل شبه جزيرة سيناء ، مما أعاد للذاكرة آخر معركة بين الدولة العثمانية والخديوية المصرية من جهة وبين الدول الاوروبية المتحالفة ، معركة جرت قبل قرن ونصف من الزمن تقريباً .

فقد سعت الدول الاستعمارية على اختلافها ، وبصورة منهاجية ، الى استئصال كافة الأساطيل العربية والاسلامية من البحار ، كتدمير الأسطول العربي التجاري والحربي في الخليج العربي والمحيط الهندي على أيدي البرتغاليين في القرن السادس عشر ميلادي ، واحتلالهم مسقط والبحرين والقطيف ، ردحاً

من الزمن، وكانت آخر مأساة بحرية هو لجوء فرنسا الى بيع قطع الأسطول المغربي بالمزاد العلني بعد فرض الحماية الفرنسية على المملكة المغربية في عام ١٩١٢.

«المترجم»

لقد وقعت آخر معركة بحرية خاضتها الأساطيل الشراعية بتاريخ ٢٠ تشرين الأول من عام ١٨٢٧ ميلادية ، أي قبل قرن ونصف من الزمن ، وبالتحديد في خليج نافارين ، حيث يقع ميناء يوناني صغير على البحر الأيوني ، وحيث أبادت القوات الانكليزية والفرنسية والروسية المتحالفة الأسطولين العثماني والمصري اللذين لم تقم لهما قائمة بعد هذا التاريخ وتحولا إلى اسطولين هزيلين ثانويين لا يحسب لهما حساب في الاستراتيجية العالمية .

لم يكن أحد من الفريقين في حالة حرب معلنة رسميا وكان كل فريق يلقي باللائمة على الطرف الآخر بأنه هو الذي أطلق القذيفة الأولى التي أدت الى هذه المبارزة المأساوية التي تمخضت عن دمار أكبر قوة بحرية عربية اسلامية في الأزمنة الحديثة .

والحقيقة لقد كانت بلاد اليونان ، شأن كل دول البلقان ، تؤلف

جزءاً من الامبراطورية العثمانية منذ أن سقطت القسطنطينية في عام ١٤٥٣ م في أيدي جيوش السلطان محمد الفاتح، بعد أن استعصت على الجيوش العربية في الماضي وتحطمت أمام أسوارها كل الهجمات التي شنها الأمويون والعباسيون والحمدانيون، وليس أدل على ذلك من وجود ضريح الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري في أحد أحيائها الخارجية. ولكن الروم أو اليونانيين، كانوا يتمردون كلما آنسوا ضعفاً من الدولة العلية، أو كلما انشغلت بحرب مع الروس، أعدائها التقليديين، كما كانت ثوراتهم في الفترة الأخيرة بتحريض خفي تارة أو مكشوف تارة أخرى، من قبل الدول الأوروبية الكبرى، ولا سيما روسيا القيصرية التي دخلت ميدان التوسع الاستعماري متأخرة، الى أن أعلنوها حرباً حقيقية في سنة ١٨٢٠ وكادوا يظفرون باستقلالهم بعد معارك ضارية لولا استنجاد السلطان العثماني بالخديوي محمد علي باشا الذي أنجده بأسطوله الناشيء وبجيشه الحديث التدريب. ولقد تمكن الجيش المصري بسرعة فائقة أن يأسر الحامية اليونانية المرابطة في نافارين بعد حصار استغرق خمسة عشر يوما، واتبع هذا الجيش في شبه جزيرة الموره سياسة الأرض المحروقة وعمد الى نفي الكثير من العائلات اليونانية التي كانت على رأس حركة التمرد.

وقد أيقظ هذا الانتصار الساحق لدى الدول الاوروبية النزعة الصليبية الكامنة واعتبرت ذلك ماسا بكرامتها، وانتاب دهاقين

معركة نافارين : لوحة بوتروك

الاستعمار الاوروبي شعور بالقلق من هذا النصر العربي الاسلامي المبين، ولا سيما بعد معركة ميسولونجي التي هلك فيها الشاعر الانكليزي الشهير بيرون، والتي خاضها الأتراك والمصريون ببسالة فائقة وبعد سقوط اثينا ذاتها بأيديهم، وبمبادرة من القيصر الروسي نيقولا الأول عقدت معاهدة في لندن بتاريخ ٦ تموز ١٨٢٦ بين فرنسا وانكلترا وروسيا تقضي بدعوة الباب العالي الى عقد معاهدة مع اليونانيين في خلال شهر واحد والتفاوض معهم لعقد سلام يحقق استقلال اليونان الذاتي. وقد أبلغ سفراء الدول المذكورة نص المعاهدة الى السلطان العثماني بتاريخ ١٨ آب من العام نفسه، ولكن هذا الانذار لم يحظ بأي اهتمام والحقيقة كان انذاراً غير مقبول من وجهة النظر الحقوقية.

وقد تحولت الوساطة المقترحة الى وساطة مفروضة وقرر الحلفاء القيام بتظاهرة قوامها اثنتان وتسعون قطعة حربية شراعية اتجهت للاحتشاد في خليج نافارين، في مكان غير بعيد من ميدان المعارك في اكتيوم وليبانت.

الأسطول المتحالف يفرض التحكيم

وهكذا تكونت قوة انكليزية فرنسية روسية، مؤلفة من عشر بوارج وعشر فرقاطات وخمسة مراكب حاملة للجنود وسفينة انذار، وعهد بقيادة الأسطول هذا الى الأميرال الانكليزي السير ادوارد

كودرينغتون ، وعمره ٥٧ سنة ، وكان تحت امرته الأميرال الفرنسي هنري دو ريني ، وعمره ٤٥ عاماً ، الذي كان يقود الفرقاطة سيرين ، والأميرال الروسي هايدن .

وفي الثاني والعشرين من شهر ايلول تقابل الكونت دو ريني الفرنسي في ميناء نافارين مع ابراهيم باشا ، ابن خديوي مصر ، والمكلف بقمع التمرد اليوناني وأنذره بطبيعة الخطر الذي يتعرض له فيما اذا استمر في اصراره على مواصلة أعماله الحربية ، ودام الاجتماع ساعتين كاملتين دون التوصل الى النتيجة المرغوبة سوى الاتفاق على عقد لقاء ثان غامض بعد ثلاثة أيام .

وفي خلال هذا الاجتماع أصر القائد الفرنسي على فكرته قائلاً : نحن نطلب منكم عقد هدنة طوعا أو كرها ، فأجابه ابراهيم باشا : «أنا في حيرة من أمري ، فعيون الأتراك مفتحة علينا ، واذا أذعنا لكم فسيغضبون» ولكن القائد الفرنسي رد عليه : «فكر جيداً في وراثتك العرش ، فأبوك رجل عجوز ، قلق ومهدد ، فكر في مصر الغنية أكثر مما تفكر في شبه جزيرة المورة اليونانية التي تعمل على تحويلها الى صحراء» .

وقد قبل ابراهيم باشا بعقد نوع من هدنة بعد أن أرسل كتابين الى القسطنطينية والقاهرة سائلا المشورة في الموقف الذي عليه أن يتخذه

لمواجهة هذا التدخل ، كما تعهد بعدم خروج اسطوله الى عرض البحر من خليج نافارين ما لم يتسلم جوابا صريحا . وكانت هذه الهدنة بحرية فقط لأن المعارك ظلت محتدمة على البر اليوناني . وخاصة في مسينا وفي أركاديا ، لأن ابراهيم باشا لم يشأ أن يترك القوات التي تقع تحت امرته عاطلة عن العمل .

لكن هذا الركود الذي يسبق العاصفة ما لبث أن اضطرب نتيجة خطيئة الاسطول اليوناني الصغير الذي كان بقيادة اللورد كوكران الانكليزي . ولم يجد هذا الاسطول مناسبة أفضل من أن يختار هذه الفترة بالذات للدخول في خليج باتراس وتهديد قلعة فاسيلادي القريبة من مدينة ميسولونجي . وما أن علم ابراهيم باشا بالأمر حتى اعتبر مفاوضته مع الأميرال الفرنسية لاغية وأمر بأن تقلع من ميناء نافارين بارجتان وفرقاطة ونقيرتان وبعض الحراقات وعهد بقيادتها لأمير البحر بترونابك كي يقترب من الميدان ويطرد السفن الحربية التي يقودها كوكران .

الفتيلة المشتعلة بين الأصابع

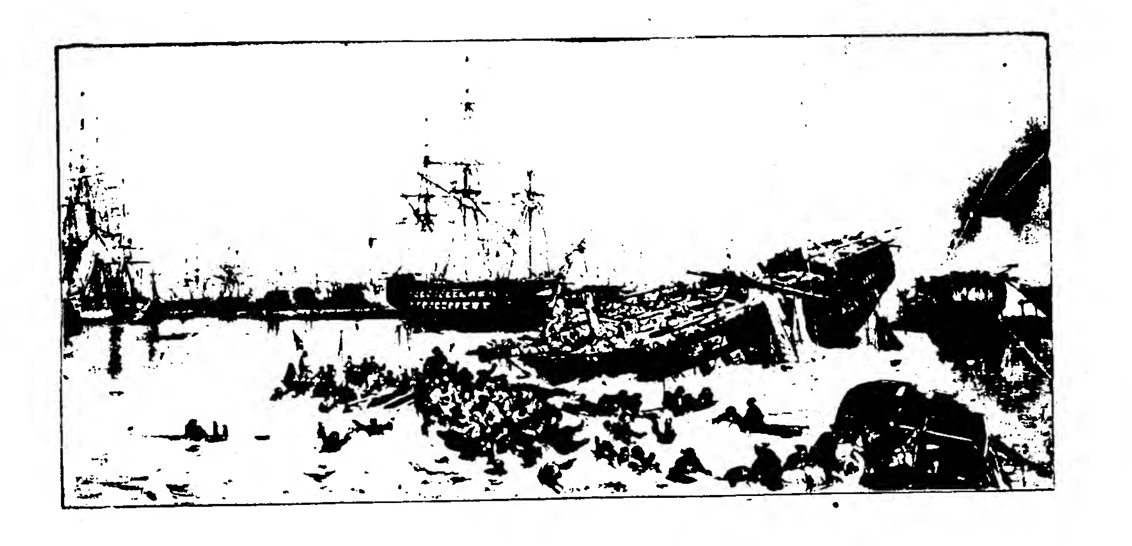
ولكن الأميرال كودرنغتون سرعان ما اعترض هذه الفرقة البحرية قرب رأس بابا مع أنها كانت راسية بانتظار هبوب الرياح الموائمة لاشرعتها كي تدخل خليج ليبانت ، ونقل الأميرال كودرنغتون تعليماته

لقائد الفرقة التركي وأفهمه بوجوب احترام الهدنة . ولكنه ترك للقائد كوكران حرية الحركة ، وأمر القائد التركي بالعودة من حيث أتى ، وتأكيداً لانذاره ، أطلقت سفنه بعض القذائف فوق رؤوس البحارة المصريين والأتراك كانت أكثر تأثيراً من الانذار الشفوي ، ولم يتشبث الأميرال التركي بموقفه بل عاد الى ميناء نافارين تحاشياً للصدام .

وفي ١٤ تشرين الأول انضمت الى الوحدات الانكليزية والفرنسية قرب ميناء زانط القوة البحرية الروسية المؤلفة من أربع بوارج وأربع فرقاطات بقيادة الأميرال هايدن . وفي العشرين من الشهر المذكور ، وعند الظهيرة ، كان الريح موائماً فدخل الأسطول الحليف خليج نافارين كي يرابط فيه ، ولينذر الأتراك والمصريين بشدة بلزوم الانسحاب والعودة الى موانىء بلادهم الأصلية .

وكان كودرنغتون يتقدم في الطليعة على متن البارجة آسيا المزودة بأربعة وثمانين مدفعاً ، وفي اثرها البارجتان آلبيون وجنوا وفرقاطتان ، وكان في مؤخرته القائد الفرنسي ريني فوق البارجة سيرين التي كانت تواكبها البوارج سيبيون وتريدان وبرسلاو ، والفرقاطة آرميد ، وسار وراءه الأميرال هايدن الروسي على البارجة آزوف تتبعه ثلاث بوارج وأربع فرقاطات .

وهكذا حشرت الأساطيل المعادية قاطبة في خليج نافارين الذي كان



الأسطول الحليف الفرنسي الانكليزي الروسي يدمر الأسطول التركي بعد ثلاث ساعات من المعركة

يضم منذ الثامن من ايلول مائة وعشرين سفينة حربية ، بين تركية ومصرية ، تحمل قرابة خمسة آلاف محارب مع ذخائر بقصد احتلال جزيرة هيدرا اليونانية .

وكان هذا الأسطول مرابطاً على شكل حذوة حصان ويضم ثلاث بوارج كبيرة وبارجة مسطحة وست فرقاطات وسبعاً وعشرين نقيرة وسبعا وعشرين حراقة وسفن شحن عديدة . واجمالا كان هذا الأسطول مزودا بحوالي ١٩٦٢ مدفعاً مقابل ١٢٩٤ مدفعا على الأسطول الحليف الأوروبي ، ولكن المدافع التركية المصرية كانت موزعة على سفن من نوعية أدنى وعاجزة عن التصدي للبوارج الأوروبية ذات الطوابق الثلاث وسواها من الفرقاطات الضخمة . والواقع لم يكن الأسطول الذي يحمل راية الهلال على مستوى خصمه . وكان في كل نهايتي حدوة الحصان ثلاث حراقات في وضع طيب . هذا وكان مدخل الخليج الذي لا يزيد عرضه عن ميل واحد محصنا من طرف نافارين بقلعة حصينة مع بطارية مدفعية رابضة عند رأس جزيرة سفكتريا وكان الجنود الأتراك على أهبة الاستعداد الى جانب مدافعهم وفتيلة المدافع مشتعلة في أيديهم بالانتظار ...

وفي ثلاث ساعات قضي الأمر

في الساعة الثانية ظهراً دخلت البارجة آسيا ميناء نافارين غير

عابئة بالبطاريات التركية الصامتة. وألقت مراسيها الى جانب سفينة الأميرال التركي وحذت كل السفن البريطانية حذوها، ومن ثم رابطت البارجة الفرنسية سيرين على مرمى رصاص المسدس من أول فرقاطة تركية في خط الدفاع وهي الفرقاطة ايزانيا المزودة بأربعة وستين مدفعا في الوقت الذي أطلقت فيه حراقة مصرية قذيفة قتلت ضابطا بريطانيا ضمن قارب تابع للفرقاطة دارماوث التي ردت على ذلك بنيران كثيفة كانت بداية المعركة الرهيبة، وفوجىء الأميرال ريني، الذي كان ينادي من مكبرة الصوت قائد البارجة التركية ايزانيا، بطلقتي مدفع أودت بحياة أحد بحارته. وعندها أرسل كودرنغتون زورق مفاوضة ليأمر ابراهيم باشا بوقف اطلاق النار ولكن قنبلة قتلت البحار الانكليزي الذي كان فوق المركب المذكور، وهنا عمت المعركة التي لم يعد هناك مجالاً لاخماد أوارها، وتحول خليج نافارين الى جحيم بسبب تلاحم وكثافة التراشق.

وبينما كان الروس منهمكين في الزحف نحو مواقعهم المحددة لرسو سفنهم سقطوا تحت وابل من نيران البطاريات الساحلية والقلاع التي كانت تستهدف البارجتين الفرنسيتين تريدان وبرسلاو، وعندها خاضت سفن الحلفاء معركة خططوا لها مع انضباط وخبرة فضلاً عن تنسيق مثالي بين بعضها البعض.

وانتهى كل شيء في الساعة الخامسة مساء بعد أن أبيد معظم الأسطول التركي المصري الذي حارب بكفاءة وشجاعة نادرتين، فلم



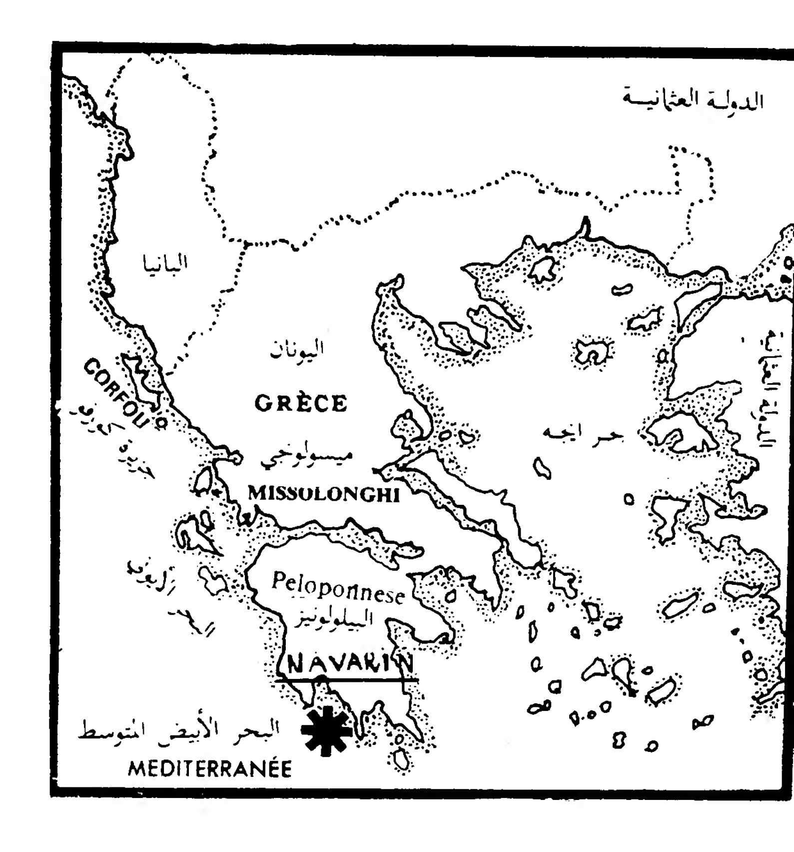
قائد الأسطول الفرنسي الاميرال ريني

يستسلم أي قبطان بل نسف الكثير منهم سفنهم، وقفز الذين بقوا على قيد الحياة من فوق سفنهم لبلوغ الساحل سباحة. أما الفرقاطة التركية ايزانيا التي كانت معقودة الراية لألمع رجال البحر الأتراك، وهو القبطان

حسن بك، فقد كانت مشتبكة مع نظيرتها الفرنسية سيرين، وتعرضت لتدمير شديد أطاح بصواريها واحترقت وقفز حسن بك مع ٥٦٠ من رجاله في البحر، وسط انفجارات مروعة، وحطام سفن محترقة أحاطت بسفينة الأميرال الفرنسي ريني التي استطاعت تدمير حراقة تركية وسفينة حربية صغيرة، ونالها الحريق الذي سرعان ما أمكنت السيطرة عليه، مثلما تعرضت لهجوم قوات تركية كلفها تحطيم عدد من صواريها فضلا عن ست قذائف حطمت كل قوارب النجاة

وهذا وقد تعرضت بارجة الأميرال الانكليزي إلى نيران تركية شديدة أطاحت بصاريها الرئيسي واقتلعت عددا من مدافعها، كما لم تنج البارجة الروسية آزوف من أضرار أحرقت معظم أشرعتها وسقطت أكثر من خمسين قذيفة على سطحها واستقرت سبع منها في خاصرتها. أما البارجة الفرنسية سيبيون فقد تعرضت لهجوم حراقة تركية كادت ترسلها الى القاع، وجنحت بصورة خطيرة نحو البارجة دفنه لولا اشارة استطاعت أن تحرفها عن مجموعة من السفن التركية، كما حوصرت الفرقاطة الفرنسية آرميد من قبل عدد من السفن المعادية ولكنها تملصت منها بمهارة.

وكان الحريق يلتهم الأشرعة وحطام السفن الجانحة في سائر أرجاء الخليج، وكان منظر سطح البحر رهيباً في خليج نافارين الذي تحول الى


الدولة العثمانيـة
البانيا
اليونان
GRÈCE
CORFOU
ميسولونجي
MISSOLONGHI
Peloponnese
البيلوبونيز
NAVARIN
البحر الأبيض المتوسط
MEDITERRANÉE

بحر متوهج بألسنة اللهيب التي اكتنفتها سحب الدخان الكثيفة والتي كانت تتطاير في أواسطها أعمدة الشرر قاذفة معها أنقاض السفن والبحارة المشوهين. وفي خلال ذلك كان الساحل غاصا بالبحارة الناجين ومن الجنود الذين كانت يعتصر قلوبهم اليأس والقنوط ومن اليونانيين الذين غمرهم فرح الانتقام والشماتة الممزوج بالبؤس والمجاعة. وكانت السماء صافية الأديم ترتسم في أجوائها صورة كئيبة عن آخر معركة بحرية كبرى في العهد العثماني، وكان رصيدها ٦٠٠٠ قتيل تركي ومصري مقابل ١٧٥ قتيل من الحلفاء الأوروبيين. فنحو الساعة الخامسة والربع خفت حدة القذف المدفعي الى أن توقف نهائياً وتلاشى الأسطول التركي المصري من الوجود. اذ تم القضاء على مائة سفينة حربية ما بين تدمير كلي أو غرق. وهكذا كانت المعركة عبارة عن عملية ابادة حقيقية في حين جنحت البقية الباقية من فلول الأسطول الى الساحل أو أحرقها بحارتها عمداً كيلا تسقط غنيمة باردة في أيدي رجال الأساطيل الحليفة. وخسر الأتراك والمصريون ٦٠٠٠ قتيل وألف جريح، بينما كانت خسائر الجانب الآخر ضئيلة نسبياً. فمن الجانب الفرنسي قتل ثلاثة وأربعون بحاراً منهم عشرون فوق البارجة سيرين وخمسة وعشرون جريحاً. وفقد الانكليز ثلاثة وستين قتيلاً ومائة وتسع وعشرين جريحا، أما الروس فكانت خسائرهم ٥٩ قتيلا و ١٤١ جريحا.

وفي ٢٥ تشرين الأول عادت السفن المتضررة أدراجها ، فابحرت السفن الفرنسية نحو ميناء مرسيليا وطولون، في حين تمّ جر السفن الانكليزية والروسية الى أحواض جزيرة مالطا لاصلاحها . ونقل الأميرال الفرنسي ريني مقر قيادته الى البارجة تريدان التي لم تتضرر كثيراً كي يظل في البحر الأبيض المتوسط تحسبا لكل طارىء . ونال ترقية من الحكومة الفرنسية ، وأصبح وزيراً للحربية في عهد الملك لويس فيليب ، ومنحه ملك بريطانيا وسام الحمام ، في حين كافأه قيصر روسيا بالميدالية الماسية من جوقة القديس الكسندر نيوسكي .

وقد أثارت معركة نافارين ردود فعل وأصداء متضاربة في صحف اوروبا ، فقد دهش الكثيرون من قساوة « التظاهرة » القاسية المفرطة في سفك الدماء ، ومن شراسة الدرس الذي أصيبت به البحرية الاسلامية دون اعلان حرب رسمية . وقد انتقدت الحكومة البريطانية الأميرال كودرنغتون واستدعته الى لندن لتبرير تصرفه . ولكن الحكومة المذكورة ــ ويا للنفاق السياسي ــ ما لبثت أن تغاضت عن فعلته وعينته قائداً للبارجة كانل فليت ، ولا سيما أن الأسطول البريطاني سبق له أن ارتكب عملية مماثلة قبل عشرين سنة خلت دعيت بقضية كوبنهاغن ، ولم يكن باستطاعتها استنكار عملية نافارين الغادرة التي تشابهها من حيث الشكل وان تباينت من حيث الدواعي .



فوتشيئو

ـ٢٣ آب ١٨٨٤

نسافات الأميرال كوربيه تغرق الأسطـول الصيني



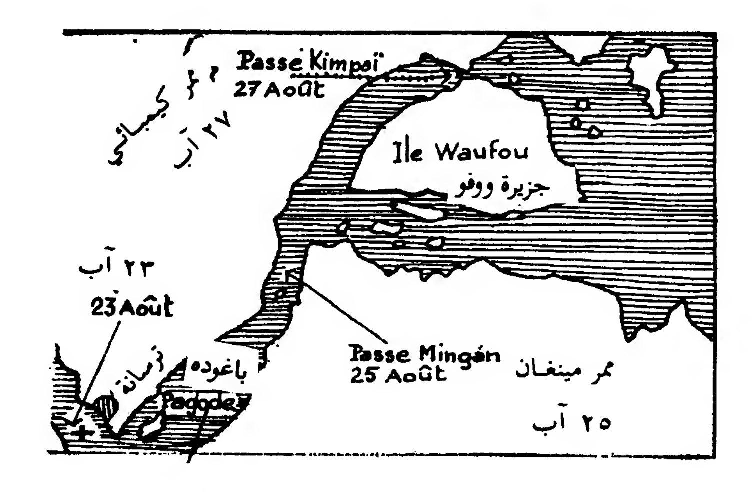
ابتداء من النصف الثاني من عهد الامبراطورية الثانية أصبحت فرانسا تواجه بعض المشكلات مع الطونكيين في جنوبي الهند الصينية، ولكنها كانت تصطدم في الشمال، وذلك في أعقاب ظروف متنوعة، تكون أحياناً على قدر لا بأس به من التفاهة، مع «الرايات السود» والتي لم تكن أكثر من أفواج قومية كانت تقوم الصين بتسليحها.

ففي العشرين من شهر تشرين الثاني ١٨٧٣ استطاع المقدم البحري فرنسيس غارنييه أن يحتل هانويّ، ولكنه ما لبث أن قتل غيلة في ٢١ كانون الأول من العام ذاته، أي بعد شهر واحد. غير أن المقدم البحري هنري ريفيير عاد الى هانويّ في الثاني من آذار ١٨٨٢ ولاقى حتفه في ١٩ أيار. وعندها قررت الحكومة الفرنسية أن ترسل الى الشرق الأقصى حملة فضلا عن عمارة بحرية صغيرة عهدت بقيادتها للعميد البحري كوربيه (Courbet)، كي يتخذ التدابير اللازمة

احتياطاً من تدخل محتمل من جانب الأسطول الصيني، ذلك لأن الصينيين ـــ الذين كانوا لا يزالون ابناء الامبراطورية السماوية ـــ يملكون اسطولاً حربياً كانت وحداته ترابط متمركزة في أطراف دار الصناعة القائمة في فوتشيئو، تجاه جزيرة فورموزة، أو تايوان الحالية، ذلك الأسطول الذي كان مستعداً لعرض عضلاته اذا ما راودته نفسه. هذا كما كانت هذه السفن، التي لا تفتقر لقيمة عسكرية أكيدة، قادمة من دور الصناعة البحرية الانكليزية والألمانية. وكان للانكليز، بالفعل، فرقة بحرية تتجول في بحر الصين وتراقب حركة الملاحة فيه عن كثب، وهل من الضروري أن نضيف الى ذلك بأنهم كانوا «متعاطفين» مع الصين ؟.

وجرى استدعاء الأميرال كوربيه الى باريس من قبل وزير البحرية الذي نقل اليه تعليمات الحكومة وأوصاه باتخاذ الحذر الشديد.

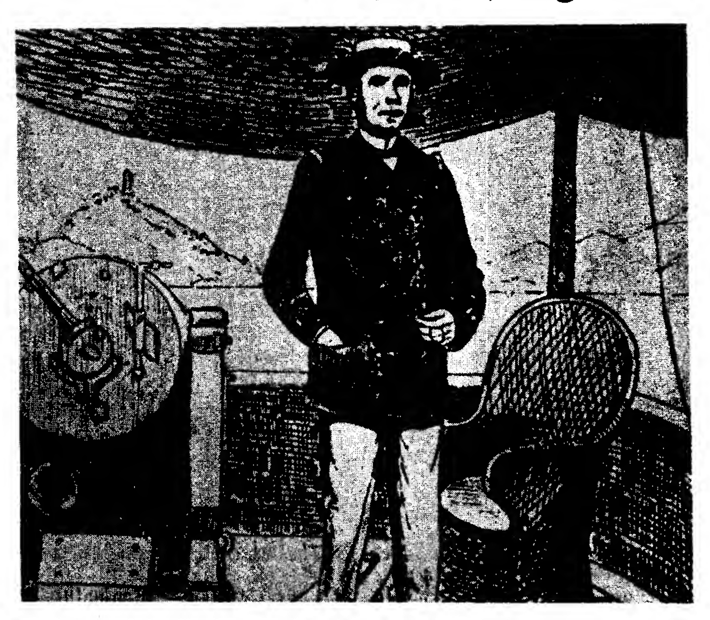
وكان من العبث إثارة أزمة دولية وتقديم ذريعة للانكليز الذين لا يرغبون في أكثر من ذلك. وقد كان كوربيه رجلاً يعود أصلاً لشمالي فرنسا، من مدينة آبيفيل (Abbeville)، وقد ولد لأسرة من التجار في ٢٧ / ٦ / ١٨٢٧. وقد أصبح يتيماً في سن مبكرة، ونشأ نشأة مسيحية، واجتاز امتحان القبول في معهد البوليتكنيك بنجاح في عام ١٨٤٧ وبعد أن اختار الانتساب الى البحرية الوطنية، ارتقى لرتبة ملازم ثان في عام ١٨٤٩ والى ملازم أول في ١٨٥٢. وقد تميز بحدة ذكائه



مصب نهر مين

وبقدرته على تحمل المسؤوليات مما جعله جديراً برتبة عميد بحري في ١٨٨٠ . وقد أقلع من ميناء الجزائر في السابع من حزيران ١٨٨٣ على متن المدرعة بايار التي تحمل رايته وألقى مراسيه تجاه سايغون في ١٣ تموز التالي. وفي السابع عشر من الشهر المذكور بلغ نقطة تجمع الأسطول في مرسى آلونغ في خليج الطونكين. وكانت الفرقة الخاضعة لقيادته مؤلفة من القطع الحربية التالية: بايار، شاتورينو، لنكس (Lynx)، آبالانت، فيبير، دراك، وانامت. وكانت السفينتان الأخيرتان عبارة عن نقالتين سبق لهما أن جلبتا الى سايغون حوالي ٣٠٠٠ رجل من المشاة ورجال المدفعية. أما العميد البحري ماير فقد

كان يضم تحت قيادته فرقة بحرية أخرى كانت تتألف من السفينة فيكتور توز ، فيللار ، كرسان ، فولتا ، والزورق المسلح لوتان ، ولم يلبث أن لحق به دعم مؤلف من السفينتين تريومفانت وتورفيل . وكان هذا الأسطول يؤلف قوة بحرية جسيمة انضمت اليها نسافات صغيرة أشير اليها بأرقام ترتيبية . وكان ذلك بداية ظهور هذا النوع من المراكب الحربية . والواقع لقد تم قذف أوائل الطوربيدات خلال هذه العمليات .



اللواء البحري كوربيه

وفي ١٨ آب ألقت هذه العمارة البحرية مراسيها بموازاة ساحل ميناء توران (Tourane) بعد أن قذفت المدينة بالقنابل ثم تلا ذلك انزال القوات الى البر . وجرت عمليات حربية برية قام كوربيه خلالها بالتنسيق فيما بينها بصفته قائد القوات البرية والبحرية . وهكذا تمت له السيطرة على قلعتي سونتاي وباكنينه (Bac- Ninh) اللتين كان رجال الرايات السود يستخدمونها للقيام بغاراتهم في الدلتا . وكان كوربيه من فوق سرج حصانه ، على رأس أفواج الجيش ، يتصف بمثل الهدوء ورباطة الجأش اللذين كان عليهما فوق سطح سفينته . وعلى إثر سقوط مدينة هونغهوا تم توقيع اتفاق تيانتسين اعترف فيه الصينيون بالحماية الفرنسية على اقليم آنام في الهند الصينية ، وفتحوا اقليم يونان في جنوب الصين أمام التجارة الفرنسية . ولكن لم يكن لهذا الاتفاق أي حظ بالاستمرار أكثر من الاتفاقات السابقة ... وفي الواقع حدث في ٢٤ حزيران من عام ١٨٨٤ أن تعرضت فرقة فرنسية متجهة للاستيلاء على لانغسون لهجوم من قبل بضعة آلاف من الجنود النظاميين الصينيين وأبيدت عن بكرة أبيها . وعندها أعطت الحكومة الفرنسية الأمر باستئناف الحرب ومنحت الأميرال كوربيه حرية التصرف المطلقة ، ومن الطبيعي ألا يكون هناك مجال لنقل الحرب الى داخل الامبراطورية الصينية الواسعة ، بل المقصود هو النيل من هيبتها عن طريق تدمير بحريتها .

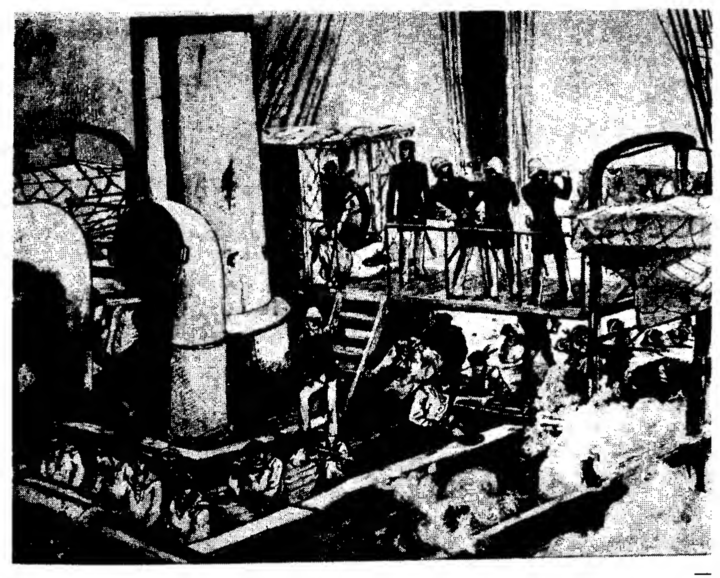
وقبل قليل من ذلك الوقت استطاع كوربيه التقدم صعداً في نهر

مين حتى ميناء فوتشيئو[1] وكان هناك اسطـول صينـي على قدر من الاعتبار راسياً أمام هذا الميناء الحربي الكبير . أما وضع الأميرال الفرنسي وسفنه الحربية فقد كان في حالة غير مأمونة اطلاقاً اذ كان الأسطول الفرنسي منعزلاً في قلب البر الصيني . وقد كانت مدينة فوتشيئو عبارة عن مدينة تضم مليوناً من السكان تبدو عليها مظاهر عدم المبالاة تماماً بما يجري أمامها من أحداث . ولم يكن الأسطول الصيني مؤلفاً فقط من سنابيك (خيزرانيات) مسلحة بل ومن سفن عصرية أيضاً . وكان يعتمد على تحصينات متينة . ولكي تبلغ السفن الفرنسية التي صعدت النهر حتى مرسى الهيكل « الباغودة Pagode » ميناء فوتشيئو ، كان عليها أن تسلك الذراع النهري الصالح للملاحة والذي كانت تواكبه الحصون من الجانبين فضلاً عن بطاريات كانت في منعة جزئية . ولم تطلق خلال هذه الفترة أية قذيفة مدفع . أما الأميرال كوربيه ، الذي سبق له أن كان مديراً لمدرسة النسافين في فرنسا ، فقد كان شديد الثقة بهذه النسافات الصغيرة المجهزة بطواقـم مختـارة . وقـد استخـلص من تقديراتـه أن باستطاعته تدمير خصمه الصيني خلال نصف ساعة من الزمن .

وكما هو منتظر في مثل هذا الوضع فقد كانت هناك عمارات

---

(١) لقد احتفظ نهر مين باسمه على الخرائط الحديثة لمنطقة مضيق تايوان التي نشرها الامريكيون ، ولكن أصبح اسم فوتشيئو فوشو أو (Foochow) .



اللواء البحري كوربيه فوق عبارة السفينة «فولتا» خلال قصف ترسانة فوتشينو وقد قتل القبطان توماس على سكان السفينة

أجنبية جاءت لتشهد ما سيحدث. فقد كانت هناك سفن حربية انكليزية والمانية وامريكية راسية أيضاً في ميناء فوتشيئو. ولقد توقع بعض ضباطها أن يذهب اسطول كوربيه نحو قاع البحر. والواقع كان الصينيون يعتبرون الوصول الى الميناء الحربي الصيني من المستحيلات لا سيما وأن فوهات البطاريات المنصوبة على ضفاف نهر مين كانت

مصوبة على الخصوص باتجاه البحر . وقد استغل كورييه فترة سلم كي يتسلل الى النهر ، ولكن أصبح عليه أن يخرج منه تحت غطاء من النار . واجمالاً كان نجاح العملية يستند على استغلال النسافـات الصغيرة بصورة عقلانية التي كان عليها أن تقترب من الأهداف المعادية كي تكون على مدى من مرماها ثم ترسل اليها طوربيداتها ، وذلك قبل أن يحدد العدو مواقع هذه النسافات المذكورة ويدمرها لأنها كانت لا تتمتع بأي نوع من الحماية .

ويجري نهر مين بين جبال عالية ، وكان عرض ممر كامباني ، الذي يصله بالبحر ، لا يتجاوز ٢٠٠ متراً . وكانت تقوم قلعة منتصبة فوق مرتفع تغطيه حتى الساحل المعاقل والمتاريس . أما على اليمين فيقوم تل أقل ارتفاعاً يشتمل على تحصينات صغيرة هذا في الوقت الذي كانت تقوم فوق الجزر المتناثرة في النهر بطاريات محمية . والواقع كانت كل هذه الزمر من التحصينات قليلة الجدوى ضد عدو قادم من العالية ، اذ لم يكن هذا الممر مغلقاً مما كان يشكل غلطة ثقيلة النتائج .

وفي شهر آب ١٨٨٤ كان يرابط في مرسى الباغودة (Pagode) الزورق المسلح فولتا الذي يحمل شارة الأميرال والسفينـة لينـكس ، وآسبيك ، ولافيير والطرادات دوغواي تروان ، ساءون ، وديستان في حين كان يرابط في السافلة السفينتان تريومفانت وشاتورينو ، هذا فضلا عن وجود عدد من النسافات أيضا .



معركة فوتشيئو

وكانت سفن المدفعية والسميريات (Avisos) الصينية تحيط بالأسطول الفرنسي، وكانت العلاقات مستمرة في فترات السلم، حتى أن الفرنسيين قاموا في ١٧ آب بتزيين سفنهم بالبيارق والستائر الملونة بمناسبة عيد امبراطورة الصين. وكانت طرادة صينية كبيرة تلقي بمراسيها بجوار سفينة القيادة فولتا.

ولما تلقى الأميرال كوربيه الأمر بمباشرة المعركة استدعى قادة الوحدات بتاريخ ٢٣ آب كي يصدر اليهم أوامره:

ـــ أولاً اغراق كل ما يطفو فوق سطح الماء.

ـ مهاجمة بطاريات المدفعية الساحلية .
ـ وأخيراً العودة الى عرض البحر تحت ستار من قذائف المدفعية .

وكان على النسافتين ٤٥ و٤٦ مهاجمة السفن الحربية الموجودة في عالية السفينة فولتا أي الى الغرب منها وستقوم الطرادات باغراق الزوارق المسلحة الصينية ثم تعمد الى تدمير السفن الحربية الصغرى أي السنابيك . وكان الطقس بديعاً ، هادئاً ، منبسطاً ، والحر خانقاً . أما سفن الخصم الصيني فقد كانت متقاربة للغاية ، ومتراصة في هذا الحوض الذي كانت ترسو فيه كذلك سفن أجنبية ومراكب تجارية .

وفي ٢٣ آب ١٨٨٤ ، وعند انحسار موجة الجزر عند الساعة الثانية بعد الظهر فتحت السفن الفرنسية جميعاً نيرانها ورفعت العلم الوطني في أعلى صواريها . وكانت المفاجأة كاملة . وأخذت الزوارق المسلحة الصينية تغرق الواحد تلو الآخر كما قامت السفن الفرنسية باتلاف الخيزرانيات الصينية المسلحة (السنابيك) ، هذا كما استطاعت النسافتان اللتان كانتا تحت قيادة المقدمين بويه دو لابيرار ودوزان بكل سهولة أن تقضي على الطرادات الصينية المعادية مما سمح بدخول أول طوربيدين فرنسيين في تاريخ الحرب البحرية . أما فوق سفينة القيادة فولتا فقد كان الوضع حماسياً ولكن الأميرال استطاع أن ينقل الى جميع مرؤسيه اندفاعه وشجاعته . وقد تعرض مرافقه رافل الى جروح بعد



النقيب البحري لاتور قائد النسافة « ٤٥ » يغرق الغراب الصينية « فوسينغ »

اصابته بشظية قذيفة . وكان يتكدس بجوار الياغودة (المعبد) خليط من هياكل السفن والصواري التي غربلتها القذائف كي تؤلف مقبرة الأسطول الصيني الذي خسر ٢٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح فضلا عن غرق تسع سفن حربية . أما الخسائر الفرنسية فقد اقتصرت على ١٠ قتلى و٤٨ جريحا منهم ٦ ضباط . هذا كما جرى قذف دار الصناعة

البحرية الصينية بشدة من جانب الأسطول الفرنسي. وفي اليوم التالي، أي في ٢٥ آب، صعد الأميرال الى متن السفينة دوغواي ــ تروان التي أخذت على عاتقها فتح طريق العودة نحو البحر تحت غطاء من نيران قطع مدفعيتها الضخمة. وتم عبور مضيق مانفان في ٢٦ آب وجرى نسف قلعة كيميائي في ٢٩ منه وهكذا كان الانتصار شاملاً.

وبعد قليل من الوقت حظي الأميرال كوربيه بالوسام العسكري، وهو المكافأة الرفيعة الشأن التي تمنح للضباط القادة الذين سبق أن أمسكوا بزمام القيادة تجاه العدو. ثم انطلق ليضرب الحصار تجاه جزيرة فورموزة. وفي ١٥ شباط ١٨٨٥ قام ببعثرة اسطول معاد في ميناء شيبو (Shei- Poo) في خليج هونغتشيئو (Hong- tchéou)، عند مصب نهر اليانغتسيه كيانغ. وقام زورقان من حاملات الطوربيد باغراق فرقاطة وسفينة غراب من صنع أوروبي وكان يقود الزورق الأول النقيب غودرون وعلى متن الثاني الملازم دوبوا. وبعدئذ وفي أواخر شهر آذار من عام ١٨٨٥ اجتاح كوربيه جزر بسكادورس. وكانت مشاريع أخرى تراود مخيلته كعزمه الذهاب لتدمير الترسانة البحرية الواقعة في بورت آرثر في خليج بتشيلي والتي اكتسبت شهرة واسعة بعد عشرين عاما من ذلك التاريخ. ولكنه لم يكن يملك الوسائل اللازمة ولا النور الأخضر من حكومته. وجاء التوقيع بالحروف الأولى على معاهدة السلام مع الصين لتضع حدا للعمليات الحربية.



مرسى الباغوده في ٢٢ آب ١٨٨٤

وقبيل عودة كوربيه الى فرنسا اعتلت صحته وفاضت روحه فوق السفينة الحربية بايار في الحادي عشر من حزيران ١٨٨٥ . وبموته خسرت فرنسا بحاراً كبيراً، ورجلاً باسلاً، شديداً على نفسه وعلى الآخرين، ولكنه محبوب للغاية من جانب مرؤسيه. وقد كان متعباً نفسياً، مرهقاً، وكان ينوء منذ شهور عديدة من علتين بطيئتين من أمراض هذه البلاد الحارة وهما الزحار وداء الكبد، وجاء الموت ليختطفه فجأة وخلال بضع ساعات. ووضع جثمانه في النعش على متن سفينته. وفي ٢٣ حزيران أقلعت السفينة باتجاه فرنسا ودخلت خليج طولون في

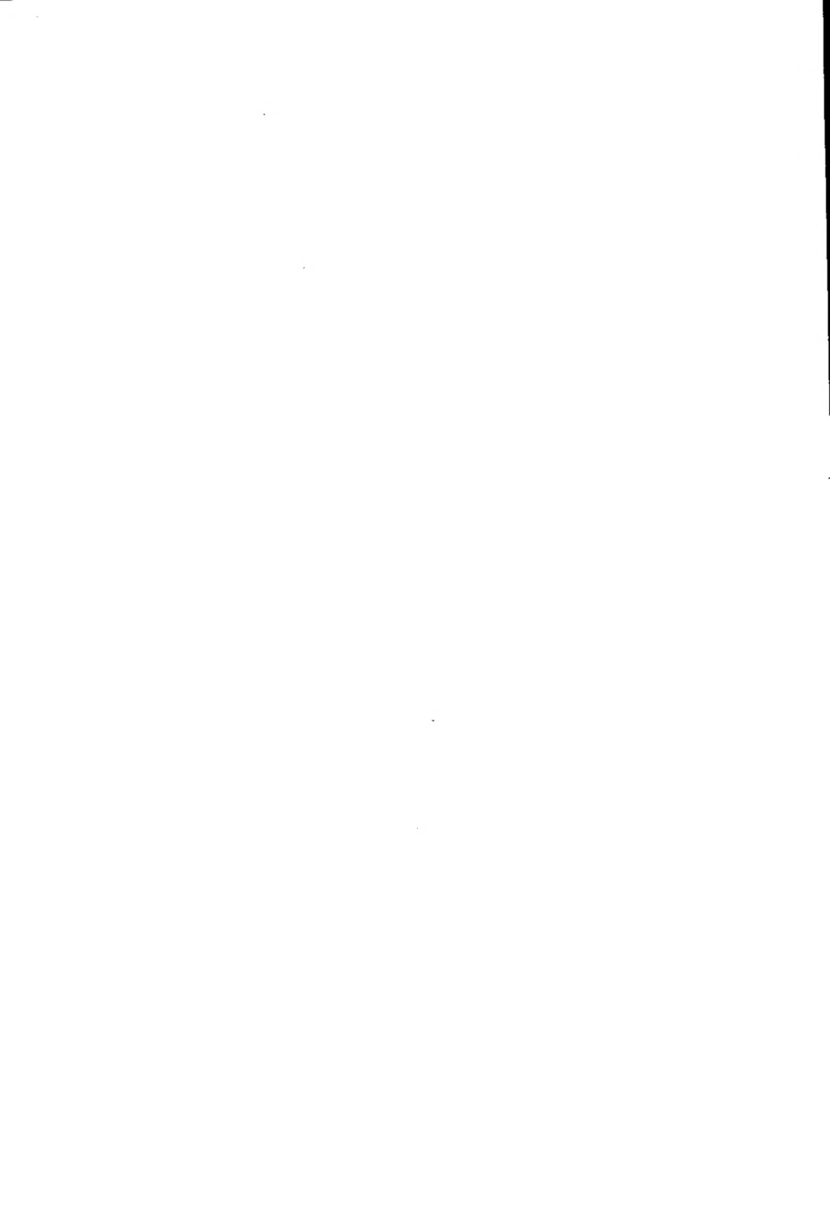
مساء ٢٤ آب . وتمت مراسم الجنازة في قصر الأنفاليد في ٢٧ آب ١٨٨٥ .

وفي صبيحة اليوم التالي تم نقل التابوت الى مدينة آبفيل مسقط رأس الأميرال حيث يستريح في المقبرة التي تحمل شعار المدينة فيديليس (Fidelis)، وهي كلمة تلخص سيرة حياة هذا البحار العظيم كلها .

تسوشيما

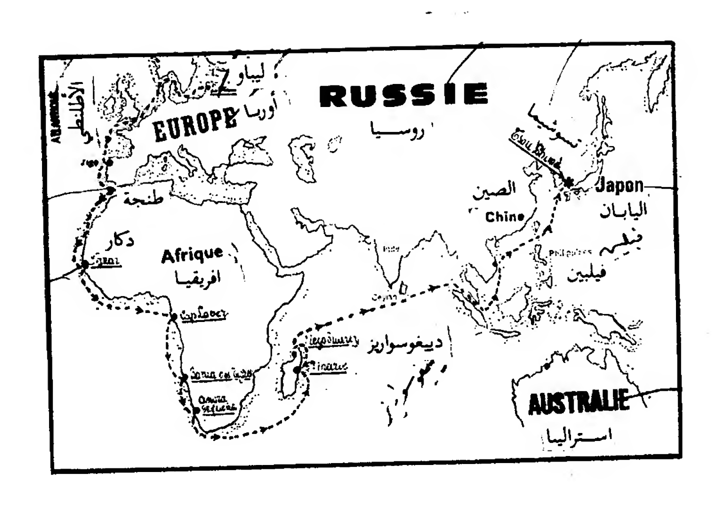
ـ ٢٧ أيار ١٩٠٥

مقبرة الأسطول الروسي في مضيق كوريا



ما أن فرغت روسيا من تسوية نزاعاتها القديمة مع جيرانها، من أتراك وسويديين، حتى وجدت نفسها في حالة حرب جاهزة في السادس من شهر شباط ١٩٠٤، ولكن مع اليابانيين هذه المرة. فقد استقر الروس في ميناء بور آرثر (بونجو حالياً) على البحر الأصفر، متذرعين بضرورة ذلك لإنجاز تمديد الخط الحديدي العابر لسيبيريا. وهكذا أصبحوا على اتصال مباشر مع ميناء فلاديفو ستوك وكانوا يسيطرون على مواقع مثالية للهيمنة على بحر اليابان. وكانت طوكيو تنظر الى هذا الحدث الطارىء بعين كلها ريبة وحذر.

وقام الأسطول الياباني دون أي اكتراث بالشكليات وباللياقة بالانقضاض على بور آرثر بقيادة اللواء البحري هيهاشيرو توغو حيث كان الأسطول الروسي يلقي مراسيه، دون مبالاة، في الميناء الخارجي،



الطريق التي سلكها اسطول الاميرال روجستفنسكي من ليباو في بحر البلطيك حتى تسوشيما. وقد استغرقت الرحلة سبعة شهور مع توقف متطاول في مدغستكر

وكان الهجوم على بيرل هاربور في عام ١٩٤١ التكرار الحديث لهذه العملية.

ضياع بور آرثر

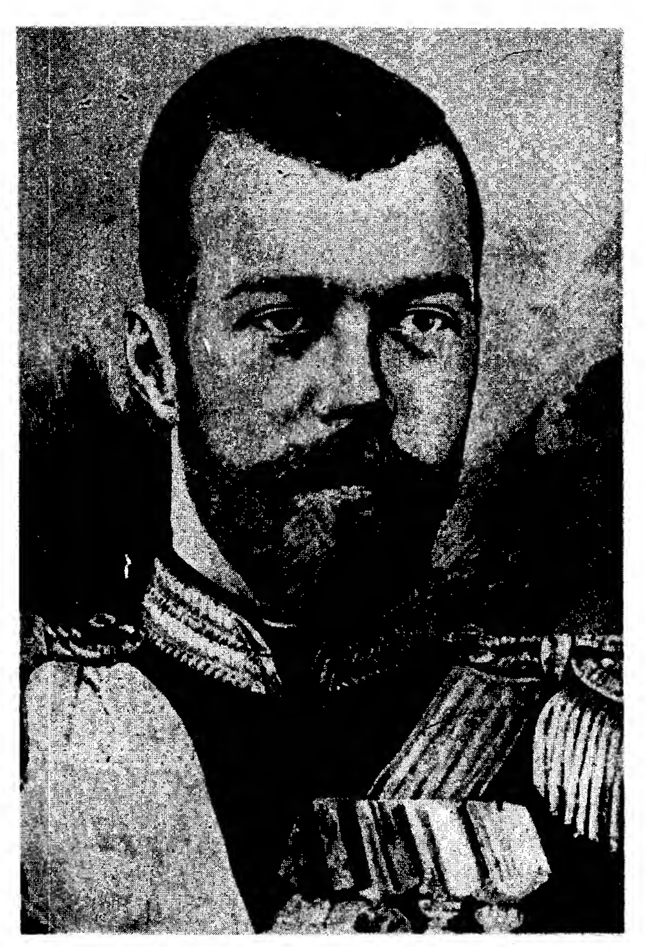
لقد كان اللواء البحري توغو (Togo) قائداً متميزاً بكفاءة

عالية، في حدود الثامنة والخمسين من العمر، وقد سبق له أن برهن عليها في الحرب مع الصين، وكان ينصب رايته فوق السفينة ميكازا، وهي مدرعة حديثة تزن ١٥٠٠٠ طن.

أما خصمه فقد كان اللواء البحري ستارك (Stark)، وهو بحار محبوب ولكنه يفتقر الى الحيوية. وقد كان الروس مقتنعين بتفوقهم على الأسطول الياباني، من حيث العدد، والنوعية، وفي التقنية. ولكنهم لم يلبثوا بعد قليل أن اكتشفوا أنهم ارتكبوا خطأً كبيراً في التقدير: والواقع لقد كانت بحرية امبراطورية القيصر متشنجة بسبب الفوضى والتسيب.

وقد اكتفى اليابانيون في بور آرثر بكيل ضربة قاصمة للأسطول الروسي وانسحبوا تحت جنح الظلام. وقد انصبت حزم طوربيداتهم على بارجتين وطرادة ثقيلة. ولكن توغو كان أقل نجاحاً بعد بضعة أيام في محاولته محاصرة الأسطول الروسي لأن السفن الضحية التي دفع بها الى مدخل الميناء تحولت عن مسارها بسبب الأنوار الكشافة التي بهرت قباطنتها أو جرى إغراقها قبل بلوغها الهدف.

وقد كلفت هذه الإهانة اليابانية القائد الروسي منصبه، وحل مكانه الأميرال ماكاروف، وهو ضابط نشيط وحاذق، وفضلاً عن ذلك كان تكتيكياً بكل ما في الكلمة من معنى ولم يتأخر عن الإمساك بزمام الأمور. ولم يلبث أن حاز على احترام بحارته وانطلق على رأس فرقة



نيقولا الثاني امبراطور روسيا

من النسافات لملاقاة الأسطول الياباني . وقد وجد اليابانيون أن شيئاً ما قد تغير وأخذوا يفكرون في المشكلة ، الى أن تكلفت نوبة نحس بتسوية القضية . فقد غرقت البارجة بتروبافلوفسك بفعل لغم ياباني وجرت معها نحو الأعماق ستمائة بحار من طاقمها واثنين وثلاثين ضابطاً و ... الأميرال ماكاروف . وهكذا انقطع رأس اسطول القيصر وجاء القائد الجديد الأميرال ويثفت (Witheft) ليعيد الأسطول الى دروب المواقف الدفاعية والتحصن . وفي اليوم الوحيد الذي حاول فيه الخروج الى عرض البحر انقضت قذيفة من عيار ٣٠٥ على عبارة سفينته وأصبح هذا الأميرال الأخير في ذمة التاريخ .

وتعاقبت الأحداث بتسارع عندما ضرب اليابانيون الحصار على ميناء بور آرثر الذي سقط بأيديهم في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٠٥ . أما السفن التي نجت من مدفعية الحصار فقد عمد بحارتها الى خرقها ولإغراقها . وكانت الكارثة كاملة . وهكذا زال من الوجود أسطول المحيط الباسفيكي الأول .

رحلة طولها ٣٠٠٠٠ كيلو متر

أما في اميرالية القيادة في العاصمة سان بتروسبورغ (لينينغراد حالياً) فقد استبعد كبار القادة الحل الرشيد الذي كان يقضي بأن يسترد الأسطول أنفاسه، والكف عن الإنفاق على رحلة دورانية رديئة



موتسو ــ هيتو امبراطور اليابان

التجهيز . وقرروا تكوين أسطول ، أطلق عليه اسم اسطول الباسفيك الثاني ، ليرد الاهانة لليابانيين . وبعد أن جرى تجميع هذا الأسطول في ميناء ليباو (Libau) في بحر البلطيك ، أسندت قيادته الى اللواء البحري



الأميرال شيروتوغو بطل معركة تسوشيما

سينوفي بتروفيتش روجستفنسكي (Rojestvensky)، وكان عليه أن يقطع مسافة ٣٠٠٠٠ كم كي يبلغ منطقة العمليات في البحر الأصفر. وكانت مقاييس البوارج تحول بينها وبين عبور قناة السويس.

وبعد أن شاع الخبر لم تكن هناك دولة ترحب رسمياً بأن تتم في

مياهها الاقليمية عمليات تموين السفن الروسية الحربية، وهي عمليات لا غنى عنها، على اعتبار أن هذه السفن محاربة، ولا تريد أية دولة التعرض لمصاعب مع انكلترا... التي كانت متعاطفة مع اليابان. أما فرنسا فلم تكن قادرة أن ترفض ذلك بصراحة وعلناً نظراً لمعاهدة التحالف مع القيصر نيقولا الثاني. ومع أن فرنسا كانت تعلن حيادها على رؤوس الأشهاد فقد تفاهمت وزارة الخارجية الفرنسية مع الروس وأفهمتهم بأنها لن تتركهم في ورطة بسبب التموين، وأنها قبل أن تصدر الأوامر للسفن الروسية بمغادرة الموانىء الخاضعة لها... ستسمح لهم بالتمون بالمياه العذبة وبالفحم وبالأقوات. وقد أثارت سلبية فرنسا الكثير من انفعالات الغضب، ولا سيما في لندن، ولكن الأمور خمدت... باسم الاتفاق الودي بين الدولتين.

وأقلعت الفرقة الأولى والثانية من اسطول الباسفيكي الثاني من ميناء ليباو في ١٢ تشرين الأول ١٩٠٤. وكانت تضم هذه العمارة سبع بوارج هي: كنياز ـــ سوفاروف، الامبراطور اسكندر الثالث، بورودينو، اوريل، اوسليابيا، سيسوافكيلي ونافارين، ومن طرادين مدرعين هما الأميرال ناخيموف وديمتري ـــ دونسكوا ومن أربعة طرادات خفيفة هي: اورورا، سفيتلانا، جمتشوغ، وآلماز، ومن سبع مدمرات وتسع نقالات أو سفن مساعدة. واتخذ اللواء البحري روجستفنسكي من السفينة كنياز سوخاروف مقراً لقيادته، وهي بارجة جديدة تزن



الأميرال كاميمورا، قائد العمارة الثانية من الأسطول الياباني

١٣٥١٠ طناً ومسلحة بأربعة مدافع من عيار ٣٠٥ وبستة مدافع من عيار ٧٥ مع طاقم بلغ تعداده ثمانمائة وثلاثون رجلا. ومع أن روجستفنسكي كان ضابط أركان حرب لامعاً، ذكياً، وشجاعاً، فهو لم يكن قائداً بحرياً مرموقاً، ويتصف بميله للدفاع أكثر من حبه لمباشرة الهجوم. ويجب أن نعترف بأنه أحسن قيادة مرؤسيه حتى نهاية هذه

الرحلة المذهلة التي تعادل ثلاثة أرباع محيط الكرة الأرضية، مع تموينات‌هم... والتي أعدت على عجل وارتجالا. ولم يترك أحداً من رجاله خلفه، وهي مفخرة يستحق عليها أفضل مكافأة وليس.. الكارثة الختامية. وكان هناك اسطول مؤلف من سبعين سفينة من ناقلات الفحم تخص شركة خطوط هامبورغ ـــ أمريكا الألمانية، يقوم بتأمين حاجة الأسطول الروسي من الوقود، كلما دعت الحاجة الى ذلك، بعد أن تم استئجاره وتوزيع سفنه على كل مسار طريق الأرمادا الروسية.

حوادث دبلوماسية... متسلسلة

لقد ابتدأت المشكلات والهموم بينما كانت العمارة البحرية لا تزال في بحر الشمال، في منطقة دوغر بانك. ففي ليلة ٢١ الى ٢٢ تشرين الأول اعتقدت قيادة الأسطول انها أبصرت من خلال الضباب شبح بضع نسافات يابانية (في بحر الشمال!...) وراحت ترمي من كل الجهات الى أن عرف الأميرال أنه يقذف وابلا من القنابل على اسطول مسالم مؤلف من سفن صيد انكليزية كانت الأنوار تسطع منها حسب الأصول! وعندما توقفت النيران استبان أن سفينة صيد انكليزية من ميناء هل (Hull) قد غرقت وان خمس سفن أخرى قد أصيبت بأضرار بالغة، وكان هناك مع الأسف قتيلان وستة جرحى. وفي خلال هذه البلبلة كان الروس يطلقون النار على بعض سفنهم.

وهكذا نالت الطرادة الخفيفة اورورا خمس اصابات ادت احداها الى مقتل كاهنها على أثر جرح قاتل. وقد أدى ذلك الى استنفار في انكلترا ضد «اسطول الكلب المسعور» لا سيما وأن العمارة استمرت في طريقها، خلافاً لكل القوانين البحرية، دون تقديم أي عون للصيادين ودون تقديم أي اعتذار. وهبت فرقة من البحرية الملكية لمطاردة الأسطول الروسي ولم تعد الى قاعدتها قبل الحصول على وعد من حكومة نيقولا الثاني بتسوية قضية الأضرار والتعويض على عائلات الضحايا، وقد ارتفعت الفاتورة الى ٦٥٠٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٢٦ تشرين الأول وصل الأميرال روجستفنسكي الى ميناء فيغو (Vigo) الاسباني حيث كانت بانتظاره خمس سفن من ناقلات الفحم الألمانية، وهي الأولى من سلسلة طويلة، والتي قامت بتموين سفنه دون أن يتلقى أية معارضة صريحة. وكان ميناء التوقف التالي هو طنجة في ٦ تشرين الثاني حيث انقسمت الأرمادا الى شطرين. فبينما هبطت معظم السفن الضخمة نحو المحيط الأطلنطي، بمحاذاة الساحل الافريقي، للالتفاف حول رأس الرجاء الصالح، اتجهت فرقة تضم بارجتين صغيرتين، وثلاث طرادات خفيفة، واثنتين من مطاردات النسافات، كي تعبر قناة السويس. وكانت بقيادة الأميرال فلكرسام وتحدد اللقاء في بداية عام ١٩٠٥ في مدغسكر.



الأميرال روجستفنسكي قائد الأسطول الثاني في الباسفيكي

وكاد الأميرال روجستفنسكي يفشل بتاريخ ١٦ تشرين الثاني ، في ميناء دكار ، في إملاء خزانات سفنه بالمؤن لأن نزاهة قائد البحرية الفرنسية هناك دفعته لأن يطلب منه مغادرة المرسى بعد انقضاء مدة الاقامة المسموح بها في كل ميناء حيادي لسفينة محاربة ، وهي أربع

وعشرين ساعة . وبينما كان التلغراف يفرقع بصورة محمومة مع اوروبا كان الأميرال الروسي لا يعبأ بشيء وعندما وصل تأكيد الأوامر من باريس كان لدى السفن الحربية ما يكفي من الوقت لتعبئة كل خزاناتها بما تريد ، وحتى أكثر من حاجتها ، اذ حملت كل بارجة ٢٠٠٠ طن من الفحم عوضا عن حاجتها العادية وهي ١١٠٠ طن .

أما في ليبرفيل ، عاصمة الغابون ، فلم تشكل قضية التموين في الأول من كانون الأول أية عقبة . وفي السابع من كانون الأول ، وأمام ميناء موساميدسي ، احتج البرتغاليون شكلياً ولكن الروس هزئوا بالزورق المسلح الذي تقدم ليدعوهم للخروج . وفي ١٦ كانون الأول وتجاه ميناء آنغرا بيكينا ، في ناميبيا الحالية ، تجاهل الحاكم الألماني وجود الروس زاعماً بأنه لا يرى الأسطول الروسي من مسكنه ، وانه لم يكن يملك الوسائل لاخراجهم من مياهه الاقليمية فيما ولو كانوا موجودين فعلاً !

وكانت المرحلة التالية ، وهي الأكثر طولاً ، هي التي قادت الأرمادا الى ميناء سانت ماري في مدغسكر ، في شمال الساحل الشرقي . وكان رأس الزوابع ، الواقع الى الشرق من رأس الرجاء الصالح ، يستحق سمعته . فقد كانت هناك أمواج ترتفع الى ١١ متراً تتلاعب بالسفن الروسية . وكانت رحلة عذاب لا يكاد ينتهي ، تخللتها حوادث من كل نوع ، وأعطال انتابت المواقد والمكائن . وفي السادس من كانون الثاني ١٩٠٥ بلغ الأسطول أخيراً ميناء سانت ماري حيث انطلق منها

قاصداً مرسى منعـزلاً ، هو مرسى باسانـداوا ، قرب نوسيبيـه ، على الساحل الغربي كي ينتظر هناك بكل حيطة وحذر الفرقة الخفيفة التي يقودها فلكرسام ، كي يمكن الاقلاع من هناك نحو بحار الصين .

ثلاثة شهور من الركود

وفي ميناء لوسيبيه تلقى الأميرال روجستفنسكي حفنة من الأنباء السيئة : سقوط بور آرثر وابادة الأسطول الأول ، ضرورة اصلاح سفن الأميرال فلكرسام ، خبر وصول عمارة تعزيز مؤلفة من أخلاط من سفن قديمة ، تم جمعها من الترسانات الروسية ، ووضعت تحت قيادة اللواء البحري بنوغاتوف ، فضلاً عن مصاعب متوقعة بالنسبة للامدادات المقبلة لأن سفن الفحم الألمانية أصبحت تخشى مهاجمة اليابانيين .

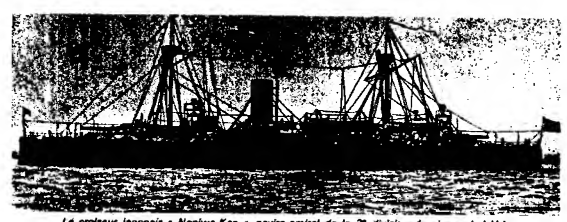
وهنا استلم برقية سرية تطلب منه بيان رأيه ، وكان يبدو أن رجستفنسكي على بينة من أمره ولم يكن لديه أي وهم وكان جوابه مؤيداً لذلك :

«ليس لدي أي حظ في السيطرة على البحر اعتماداً على القوات الموضوعة تحت إمرتي . أما إرسال امدادات مؤلفة من سفن لم يسبق لها أن خضعت لاختبارات ، والتي يتصف البعض منها ببناء مختل معيوب ،

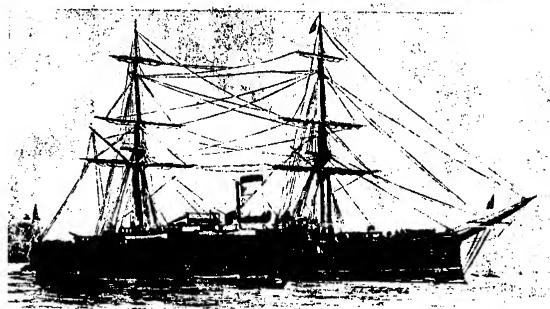
فلن يؤدي لأكثر من جعل اسطولي أشد عرضة للهجوم . وأعتقد أن السبيل الوحيد الممكن هو استخدام كل القوات المتوفرة لشق طريق نحو فلاديفو ستوك ، وتهديد مواصلات العدو من هذه القاعدة المذكورة » .

واضاف الأميرال الى ذلك بأنه يرغب في إعفائه من منصب القيادة ... لسبب صحي ، وهذا يعطي فكرة عن حالته النفسية . غير أن الحكومة الروسية تظاهرت بالصمم على طول الخط . وقد دعيت الأرمادا لاستئناف مسيرتها مع تكليفها بالمهمة المحددة : الاستحواذ على السيطرة البحرية وقطع مواصلات الجيوش اليابانية في منشوريا في أقصر فترة ممكنة . والواقع كانت الحكومة الروسية تفتقر للإلهام عندما رفضت ، لاعتبارات الكبرياء ، بإعطاء الأمر لأسطولها كي يعود أدراجه .

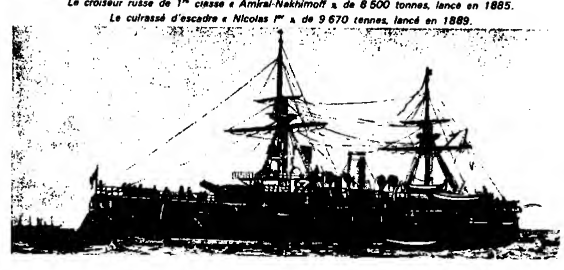
وتدخلت تعقيدات مختلفة لتمديد ركود الأرمادا في المياه الملغاشية لمدة ثلاثة شهور . ولم يقلع الأسطول الا في ١٦ آذار وفي حالة صحية تعيسة ونفسية قتالية منخفضة جداً بعد هذا الكسل والبطالة الطويلين . وكان كل واحد مستعداً للتضحية بالذات مع اليقين بأن ذلك عبثاً . وكان فالكرسام مريضاً وفي حالة خطرة ، ولفظ أنفاسه قبل نهاية الرحلة ولكن الخبر ظل في طي الكتمان كيلا تنهار معنويات البحارة أكثر مما هي عليه .



Le croiseur japonais « Naniwa-Ken » navire-amiral de la 3e division du vice-amiral Uriu.



Le croiseur russe de 1re classe « Amiral-Nakhimoff » de 8 500 tonnes, lancé en 1885.
Le cuirassé d'escadre « Nicolas Ier » de 9 670 tonnes, lancé en 1889.



الطرادة اليابانية «نانيوا ــ كان» سفينة قيادة الفرقة الثالثة بقيادة الأميرال اوريو

الطرادة الروسية من الدرجة الأولى «الأميرال ناخيموف» وزن ٨٥٠٠ طن انزلت الى البحر في ١٨٨٥

البارجة العمارة «نيقولا الأول» من وزن ٩٦٧٠ طناً وقد انزلت البحر في عام ١٨٨٩

«العدو في المربع ٢٠٣»

لقد تلقت ناقلات الفحم التابعة لخطوط هامبورغ ــ امريكا، خلال المسيرة الطويلة البالغة ٤٧٠٠ ميلاً عبر المحيط الهندي، أقول تلقت ضمانات فيما يتعلق بسلامتها، فكانت تنتظر دائماً في المواقع الجيدة لنقل الفحم الى سفن الأسطول الروسي. وفي ١٤ نيسان عبرت الأرمادا مضيق بورنيو. وفي ٩ أيار دخلت خليج فانفونغ (Van- Fong) وعلى مسافة ٥٠ ميلاً الى الشمال من كامرانه (Cam- Ranh) على الساحل الشرقي للهند الصينية، التقى الأسطول باللواء البحري نيبوغاتوف بالفرقة الثالثة المسحوبة من «المتحف الأثري البحري» المؤلفة من البارجة القديمة نيقولا الأول التي كانت مصدر فرح سكان ميناء تولون الفرنسي لدى زيارتها في عام ١٨٩٣، ومن الطرادة القديمة المدرعة فلاديمير موناماخ التي لا تساوي أكثر من قيمة حديد الخردة الذي تتألف منه، ومن سفن خفر السواحل الصغيرة مثل جنرال ــ أميرال آبراكسين، والأميرال اليسينيافين، والأميرال اوشاكوف ومن ست سفن مساعدة اضافية. وبعد أن انطلقت هذه الحملة من ميناء ليباو في ١٥ شباط عبرت قناة السويس وكانت تلهث دون جدوى لبلوغ ميناء التجمع في مدغسكر.

وفي الرابع عشر من أيار أقلع الأسطول الثاني الباسفيكي بكامله



جمهور الزوار المتجهين لصعود البارجة نيقولا الأول عند زيارتها لميناء طولون الفرنسي في ١٨٩٣

من ميناء فان فونغ في آخر مرحلة والذي يحدد آخر الخط فيها مصيره وخاتمته. واذا كانت قيادته على اعتقاد بأنها ستستغل مفعول المفاجأة فقد كانت مخدوعة واهمة. فلم يكن اليابانيون من الذين يقبلون بأن يظلوا غافلين عن تحركات مثل هذا الأسطول. فقد كانوا ينتظرونه فوق أقدام ثابتة غير وجلة، إذ كانت قواتهم مرابطة منذ ستة شهور في مضيق كوريا، لأن الأميرال العبقري توغو كان يدرك بثاقب بصيرته بأن العدو سيجرب حظه من هذا الممر بالذات.

وفي ليلة ٢٥ الى ٢٦ أيار تقاطعت الطرادة اليابانية المساعدة شيناتو مارو مع السفن الروسية التي لم تكترث حتى بإطفاء أنوارها. وسرعان ما حددت موضعها باللاسلكي «العدو موجود في المربع ٢٠٣». وقد عمد اليابانيون، بقصد التعجيل في فهم برقياتهم، الى تربيع خرائطهم، وهي الطريقة التي اقتبسها الألمان في عام ١٩١٤. وقد أشار قبطان الطرادة اليابانية شينا نومارو الى اعتقاده بأن الأسطول المعادي يتجه نحو المضيق الشرقي، أي في اتجاه شطر مضيق كوريا الواقع بين جزيرة تسوشيما وجزيرة كيوسيو، أي على مسافة ٦٠٠ ميل من فلاديفوستوك.

وكان ذلك هو الاستعداد الشامل للمعركة الفاصلة. فقد أعطى الأميرال توغو يوم ٢٧ أيار الساعة السادسة والنصف، من فوق سفينة القيادة ميكازا، اشارة الانطلاق بعد أن أرسل الى طوكيو البرقية التالية :

«لقد علمت للتو أن الأسطول المعادي أصبح تحت أبصارنا. وقد أقلع اسطولنا لمهاجمته والقضاء عليه».

وفي الساعة السادسة والدقيقة ٤٥ كان للطرادة ايدزومي أول تماس مع الأسطول الروسي الذي كان يبعد عنها مسافة ٩٠٠٠ م. وفي الساعة التاسعة أبصرت فرقة الأميرال كاتاكوا، بدورها العمارة الروسية ولكنها اكتفت بسلوك طريق موازية لطريقها مستغلة كثافة الضباب. وكان طلاء السفن الروسية رديء الاختيار. فقد كانت ذات هيكل أسود مع مداخن صفراء فاقعة شديدة البريق، مما يجعلها تتجلى بشكل باهر من خلال الضباب. أما استشفاف السفن اليابانية فقد كان أكثر صعوبة لأنها كانت مطلية باللون الرمادي.

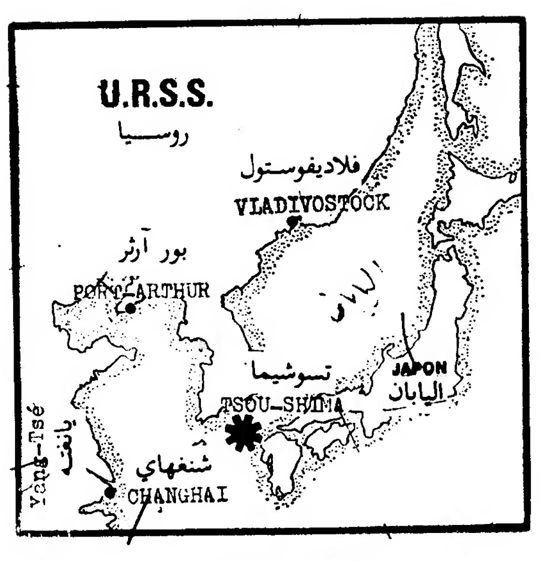
غير أن روجستفنسكي الذي لم تكن لديه، كما يبدو، أية فكرة واضحة عما ينوي أن يفعله فقد كان ينتظر برهة أكثر مواءمة لفتح النار. وقد خاب أمله عندما أطلقت البارجة أوريل قذيفة مدفع سهواً، ولكن المدافع اليابانية لم تحرك ساكناً اطلاقاً.

وعند الظهيرة كان الروس منهمكين في تبديل التشكيل وذلك بالارتصاف قبالة الرأس الجنوبي لجزيرة تسوشيما وذلك عندما ظهر الأسطول الياباني، الذي قدم من اليسار، وكأنه يعتزم قطع الطريق على الروس. وفي الساعة الثالثة عشرة والثلث تقدم الأسطول المذكور، من



نماذج من سفن الأسطول الروسي

الميمنة هذه المرة ، على شكل صف نظيم ، وكان يضم الأسطول المقاتل عمارة الأميرال توغو الأولى ، المؤلفة من ست بوارج ، تتبعها العمارة الثانية بقيادة الأميرال كاميمورا والمكونة هي أيضا ، من ست طرادات مدرعة من فئة ايدزومي ، ومن الفرقة الرابعة المعقودة الراية للأميرال اوريو ، وكانت تشتمل على اربعين نسافة . وكان مجال الرؤية يمتد حتى ۹۰۰۰ أو ۱۰۰۰۰ متر ، وكانت الريح تهب من غرب الجنوب الغربي ، بقوة ٤ الى ٥ (معتدلة وباردة) . وقد نصب توغو اشارة المعركة عالياً : « يتعلق مصير الامبراطورية بهذه المعركة ، وليقم كل واحد بواجبه » .



خريطة ميدان المعركة

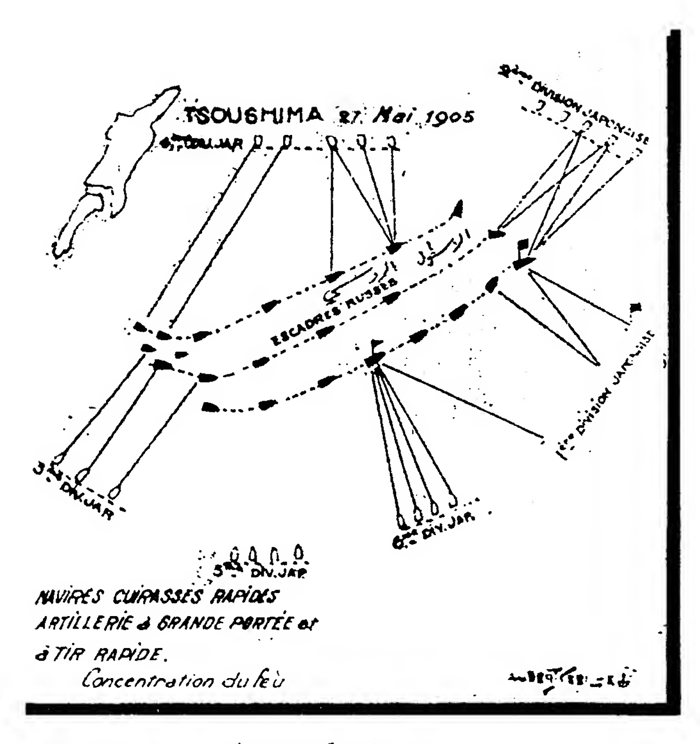
هزيمة نكراء مفزعة

في الساعة الرابعة عشرة وثماني دقائق فتحت البارجة سوفاروف النار على مسافة ٦٣٠٠ م ولحقت بها كل سفن الخط الروسي. وراحت «أشجار الحور الفضية» تزين البحر بأعمدة الزبد المتصاعدة من فوق سطح الماء. ودنا توغو أكثر فأكثر لإحكام الرمي قبل الاجابة والرد على الرمي الروسي. وانقض، على الخصوص، على البارجة سوفاروف

والبارجة اوسليابيا وهي سفينة الأميرال فلكرسام... المتوفي منذ أربعة أيام. وأصيبت اوسليابيا بثلاث قذائف متقاربة من عيار ٣٠٥ بقرتها تحت مستوى العوم، فغرقت مع خمسمائة وخمس عشرة رجل من مجموع ثمانمائة رجل كانوا يؤلفون طاقمها... ومعهم جثة الأميرال.

وبعد أن أخذ اليابانيون الخط الروسي بالرمي الضام راحوا يتابعون إطلاق نار جهنمية دون توقف. فكان رجال مدفعيتهم يرمون بسرعة وبصورة ممتازة وكانت القذائف المتفجرة أكثر قدرة. فكانت تنهال وكأنها المطر الهاطل دون انقطاع. وقد أصيبت البارجة سوفاروف ببضع مقذوفات ضخمة عملت على تمزق برجها وتعطل سكانها وغدا هيكلها مثقبا بالاصابات وفريسةالنيران، ومالت جانحة بزاوية مقدارها ٨ درجات. وأصيب الأميرال روجستفنسكي بأربعة جروح نقل على أثرها الى السفينة بويني في الساعة عشرة والنصف مع عدة ضباط. وبعد أن أصيبت سوفاروف بالعديد من القذائف وببضعة طوربيدات في الساعة ١٩ غرقت ورايتها في الأعلى، مع كل طاقمها.

ثم جاء دور البارجة الكسندر الثالث كي تغرق وتهبط نحو الأغوار البحرية. ولم تكتب النجاة لأكثر من أربعة من رجال طاقمها الذي كان يضم ثمانمائة وثلاثين رجلاً. واستمرت المجزرة على أثر انفجار البارجة بورودينو التي كانت ضحية قذيفة من السفينة اليابانية فوجي (Fuji) والتي سقطت بكل دقة في عنبر ذخيرتها. وقد نجا رجل واحد



خارطة معركة تسوشيما

من كل طاقمها البالغ ثمانمائة وأربعة وثلاثين محارباً ، وهو ضابط أمكن التقاطه بعد بضع ساعات بواسطة مركب صيد ياباني .

وقد أدت خسارة هذه البوارج الأربع إلى زعزعة الحالة المعنوية التي سبق أن كانت متدنية لدى البحارة، وأشارت إلى منعطف في المعركة وذلك في الفترة التي أرخى الليل فيها سدوله. ولما كانت القيادة الروسية تلعب لعبة خاسرة منذ البداية، فقد أصيبت بالذهول والهلع بعد أن أصبح الأميرال الأكبر طريح الفراش يتلوى من جراحه، وأصبحت فاقدة أي رد فعل هجومي. وكانت الأوامر المعطاة في البداية ترمي قبل كل شيء الى اسعاف ونجدة البواخر المتضررة واستنقاذ الضباط الكبار منها.

ولما حاول الأميرال نبوغاتوف لم شمل السفن المبعثرة نصب شارة «اتبعوني» وانسحب باتجاه الجنوب الغربي. ولكن النسافات اليابانية التي ظلت في وضع الاحتياط حتى ذلك الحين انطلقت من عقالها كيلا تنجو منها تلك الفريسة. وقد حققت هذه «الكلاب السلوقية» النصر في الخاتمة. فقد كانت أربعة طوربيدات جيدة التصويب كافية لتحطيم البارجة نافارين التي لم يسلم من طاقمها سوى ثلاثة من نوتيتها من مجموع رجالها البالغ ستمائة واثنين وعشرين رجلاً بين مقاتل وبحار. أما البارجة سيسوافيكلي، ووزنها ١٠١٤٠٠ طن، فقد تلقت اصابة قاتلة نتجت عن طوربيد أصابها في مؤخرتها، وظلت في حالة نزاع طيلة الليل قبل أن تغرق مع بزوغ الفجر. أما الطرادة الأميرال ناخيموف، ووزنها ٨٥٠ طناً، والطرادة فلاديمير مونوماخ، ووزنها ٥٥٩٠ طناً، فقد

تعرضتا لأعطال خطيرة فعمد بحارتها الى خرقهما واغراقهما كيلا تقعا في الأسر . وقد كان ذلك عبارة عن هزيمة منكرة للجيوش الروسية .

وعند الفجر ، وبينما كان توغو لا يزال منهمكاً في قطع طريق فلاديفو ستوك في وجه الهاربين ، رأى الأميرال الروسي العنيد نيبوغاتوف نفسه على رأس خمس سفن حربية وهي البارجة أوريل التي أصيبت بسبع وأربعين قذيفة ، والبارجة نيقولا الأول التي أصيبت عشر مرات وسفن خفر السواحل وهي الجنرال ــ الأميرال آبراكسين ، والأميرال سينيافين ، والطرادة الزمرد . وعندها طوقه توغو بقوات أكبر بكثير ولم يبق أمام نيبوغاتوف من مخرج سوى رفع الاشارة الدولية للاستسلام . وعندها صرح أمام ضباطه : «سأعدم رمياً بالرصاص دون ريب بسبب هذا المسلك ، ولكن ما أهمية ذلك ، فأنا رجل كهل ، وحياة ٢٤٠٠ رجل من الموجودين فوق هذه السفن هي أكثر أهمية من حياتي وسيخدمون بالمستقبل كي يردوا للبحرية الروسية شرفها ومجدها» .

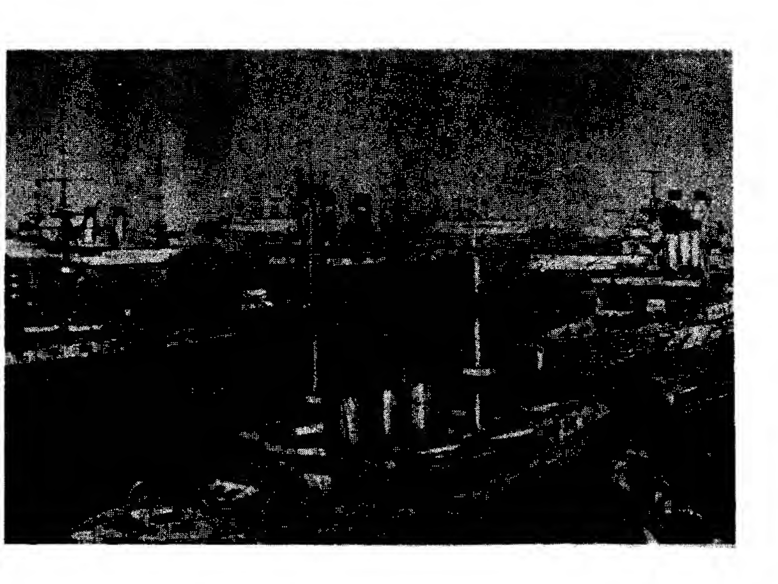
وقد تم أسر السفن جميعاً باستثناء واحدة هي الزمرد التي بحثت عن نجاتها في الهروب ولكنها لم تستطع أن تفلت من مصيرها المحتوم ، فقد استلقت على الساحل إلى الجنوب من فلاديفو ستوك وتلفت .



محاولة اليابانيين اغلاق مدخل ميناء بور آرثر

ومع أن الأميرال توغو كان مشغولاً بتزويد السفن المأسورة ببحارة يقودونها فقد تعرض لهجوم شجاع من قبل سفينة ناجية هي سفينة خفر السواحل الأميرال اوشاكوف . وهنا أرسل اليها السفينة ايوات وياكومو لدعوة قائدها للاستسلام . ولما رفض تمت تسوية حسابه ، فغرقت

السفينة حوالي الساعة العشرون . وقد استفحلت الكارثة الروسية أيضا بجنوح طرادتين وخسارة ست نسافات منها أربع غرقت واثنتان سقطتا بالأسر ، احـداهما السفينـــة بيـــدوفي التـــي نقـــل اليها الأميرال روجستفنسكي ، للمرة الثانية، والذي كان دائماً فاقداً للوعي .



نماذج من سفن الاسطول الياباني

الاستسلام لم يعد مألوفاً

لم يبق من البوارج الروسية الثمانية سوى اثنتين وكيف؟ ... في ايدي اليابانيين. وهكذا أرسل اسطول الامبراطور موتسوهيتو اثنتين وعشرين سفينة، من بين السبعة والثلاثين التي كانت تتشكل منها الأرمادا المعتوهة، في اتجاه قاع البحر وأسر منها ست. وقد التحقت ست سفن بالميناءين الحياديين شنغهاي ومانيلا حيث ألقي بطاقميهما في السجن. وقد استطاعت السفن الثلاث الأخيرة أن تتسلل من خلال شباك الحصار الياباني وتصل الى فلاديفو ستوك ونجحت واحدة منها في العودة فيما بعد الى روسيا. وهكذا كلف هذا الانكسار حياة ٤٨٣٠ رجلاً من جنود القيصر.

أما اليابانيين الذين كان لإقدامهم وحذقهم الدور الكبير في نجاح هذه المعركة فقد انحصرت خسارتهم في ثلاث نسافات غرقت احداها نتيجة تصادم عرضي. وقد تعرضت ثلاث من بوارجهم وهي آساما، كاساغي، نانيوا لأضرار من النوع الذي يمكن إصلاحه. أما خسارتهم من الأرواح البشرية فلم تتجاوز ١١٧ قتيلاً.

ولم تعد هناك رغبة إطلاقاً لدى الروسيا، التي أذهلتها هذه الكارثة، في استئناف الحرب. ففي ٢٩ آب ١٩٠٥ جرى الاحتفال

بتوقيع السلام في الولايات المتحدة، وقد لعب الرئيس تيودور روزفلت دور وسيط بين المعسكرين.

أما القادة الذين سلموا راياتهم في تسوشيما فقد تمت محاكمتهم إثر عودتهم. وقد صدر الحكم على بضعة منهم بالاعدام، منهم الأميرال نيبوغاتوف، ولكن لم يقض أحد منهم نحبه رمياً بالرصاص، لأن القيصر استبدل أحكام القصاص هذه ببضعة أعوام من السجن. ولكن مما يستحق الذكر والتسجيل أن هذه الأحكام بسبب الاستسلام كانت تؤلف منعطفاً تاريخياً. فبعد معركة تسوشيما، اللهم ما عدا بعض الاستثناءات، عزفت السفن الحربية عن عادة تسليم راياتها في سبيل انقاذ طواقمها، بينما كان المألوف في الحروب السابقة، ألا يجد أحد حرجاً أو عيباً في التسليم بعد مقاومة طويلة وشجاعة... وقد أدى هذا المفهوم الجديد بالضرورة الى مجازر كارثية وعديمة الجدوى، كتلك التي صحبت ضياع البارجة بسمارك وشقيقتها شارنهورست، هذا كيلا تتكلم عن غيرها من حوادث الإغراق خلال الحرب العالمية الثانية.

كورونل وفولكلاند

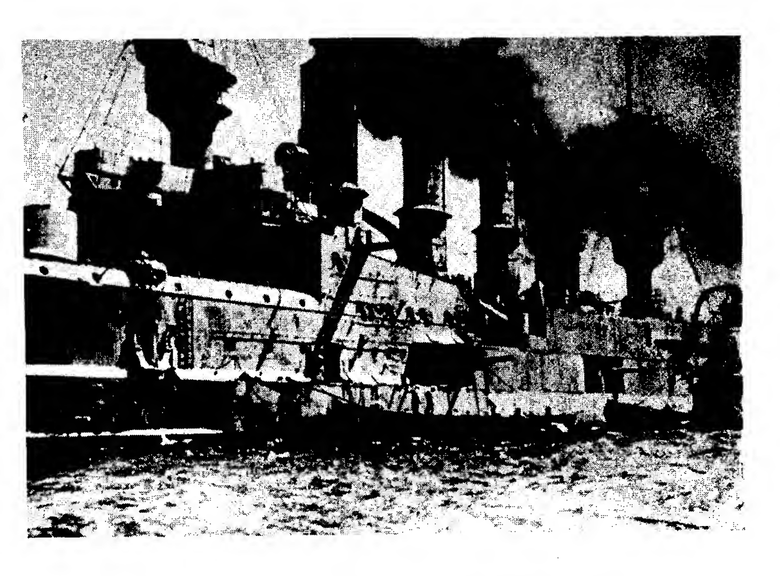
١ ــ تشرين الثاني ــ ٨ كانون الأول ١٩١٤
إهانة كان لها ثأر.



لقد اتخذت المعارك البحرية أبعاداً جديدة مع حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ لأن الطيران والغواصات قسرت القباطنة على الارتياب بما قد يوجد تحت البحر وفوقه.

هذا كما خضعت الأساطيل البحرية ذاتها لتحول جذري على أثر ظهور البارجة من طراز دريدنت (ومعناها حرفياً: التي لا تخشى شيئاً)، وهي نوع من طرادة مدرعة مجهزة بمدفعية ثقيلة: مثلاً عشرة مدافع من عيار ٣٠٥ موزعة على خمسة أبراج مزدوجة.

وتستطيع سفن دريدنت أن تقطع ٢١٫٥ عقدة على الرغم من كتلتها التي تزن ١٨٠٠٠ طن. ولكن الأساطيل الأوروبية الكبرى، التي أعجبت بهذا النوع الجديد من السفن الحربية، لم تلبث أن قامت بالسير على منوالها..



الطرادة المدرعة الألمانية شارنهورست أثناء تموينها بالفحم في ميناء فالباريزو بين معركة كورونل ومعركة فلكلاند التي غرقت خلالها

وفي بداية عام ١٩١٤ كانت المانيا تملك اثنتي عشرة سفينة دريدنت وثمانية طرادات حربية كبيرة، تبلغ سرعتها ٢٦ عقدة. وقد عمد الأميرال تيربيتز الى إرسال طرادتين مدرعتين حديثتين نحو المحيط الهادي، حيث كان لبلده مصالح تستدعي الدفاع، وهما شارنهورست وغنيسنو، وحمولة كل منهما ١١٤٢٠ طن. وكانت كلاً من هاتين الطرادتين تقطع ٢٢ عقدة في الساعة ويحميها تصفيح من فولاذ سماكته

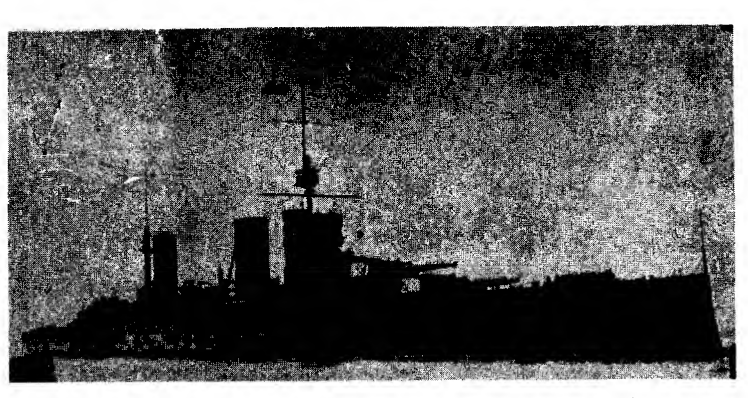
١٨ سنتيمتراً، مثلما كانت كل منهما مجهزة ببطارية مدفعية في أوسطها مؤلفة من ستة مدافع من عيار ٢٠٠ وثلاثة من عيار ١٥٠ ، وكانت تصحبهما ثلاث طرادات خفيفة هي : « ايمدن ، نورنبرغ وليبزيغ ، مجهزة كل منها بزمرة من مدافع جانبية مؤلفة من خمسة مدافع من عيار ١٠٠ . واتخذت قاعدة لها في أرخبيل جزر كارولين ، التي كانت خاضعة للانتداب الألماني » . وعندما أعلنت الحرب كان الأميرال تيربيتز يخشى أن تقوم القوات المتحالفة من انكليزية ونمساوية ويابانية بتحطيم فرقته البحرية .

ولما كان لألمانيا جالية كبيرة مستوطنة في أواسط الشيلي ، فقد أمرت اسطولها الذي كان يقوده اللواء البحري الكونت مكسيميليان فون سبي ، البالغ الثالثة والخمسين من العمر ، بالاتجاه نحو هذا الساحل المضياف من أمريكا الجنوبية .

واستغلت هذه الفرقة البحرية رحلتها بالقيام ببعض العمليات الهجومية ، فقصفت مدينة بابيت ، وهو ميناء فرنسي في تاهيتي ، فضلاً عن بعض القواعد التابعة للحلفاء . وحلت الطرادة « درسدن » مكان الطرادة « ايمدن » ، التي راحت تكسب شهرتها في الاعتراض لقوافل السفن التجارية المعادية في المحيط الهندي .

وقامت الأميرالية البريطانية ، من جانبها ، ودون تبصر ، بأن

أرسلت في أعقاب الأميرال سبي العمارة الرابعة التي يقودها العميد البحري كريستوفر كرادوك، البالغ من العمر اثنتين وخمسين سنة، والتي كانت تتألف من طرادات عتيقة جعلتها رحلة طويلة، في عباب المحيط الأطلنطي، تلهث من الاجهاد. ولما كان كرادوك يفتقر للاتصالات اللاسلكية السريعة، فقد أبحر دون انتظار دعم السفينة كانوبوس، وهي طرادة قديمة كانت تسير بأقصى سرعتها (١٢ عقدة!..) كي تلحق به، ولكنها كانت مع ذلك، على مسافة ٣٠٠ ميل خلفه بتاريخ الأول من تشرين الأول ١٩١٤، وذلك عندما كان الانكليز والألمان في وضع مواجهة أمام كورونل، وهو ميناء صغير على ساحل الشيلي، جنوب فالباريزو، في اقليم كونسبسيون.



الطرادة الانكليزية «برنسيس رويال» التي رابطت أمام قناة باناما لقطع الطريق على العمارة الألمانية

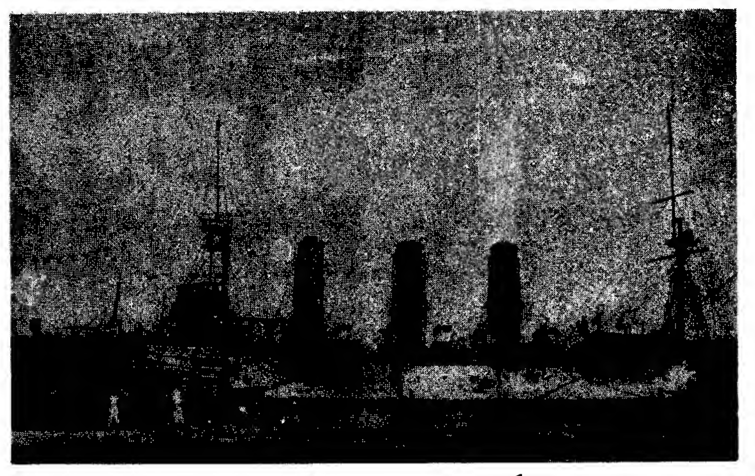
ولم يكن باستطاعة كرادوك ، الذي اتخذ من السفينة غودهوب مقر قيادته ، وكانت مسلحة بمدفعين من عيار ٢٨٠ وبثمانية مدافع من عيار ١٥٠ ، أن يتقدم بأكثر من سفن أقل وزناً ، وهي : الطرادة مانماوث (مدفعان من عيار ١٥٠) والطرادة غلاسكو (مدفعان من عيار ١٥٠ وخمسة مدافع من عيار ١٠٠) والسفينة التجارية المسلحة اوترانتو (ثلاثة مدافع من عيار ١٣٠) ولها جميعاً قيمة عسكرية تافهة . وظل الأميرال يلح على الأميرالية ، دون جدوى ، في طلب نجدة السفينة ديفانس ، وهي طرادة مدرعة مسلحة بتسعة مدافع من عيار ١١٠ و ١٩٠ والمجهزة بطاقم حسن التدريب ، والتي كان يرغب في إرسالها الى ميناء مونتيفيديو لقطع الطريق على العمارة الألمانية ، هذا إذا ما حاولت هذه الالتفاف من وراء رأس هورن .

وفي الساعة ١٦ و ٣٠ دقيقة من يوم عيد جميع القديسين ، أبصرت الطرادة ليبزيغ العدو واتجه كل من الأسطولين في اتجاه الآخر . وكانت الريح تهب من الجنوب بقوة مقدارها ٦ (أمواج هول كبيرة) . وعقد اللواء البحري فون سبي مؤتمراً أحكم فيه التكتيك مع قباطنته : معركة عن بعد ثم اقتراب بعد تسديد الرمي وإحكامه . ولا يبدو أن الانكليز قد تبنوا أوضاعاً قتالية مسبقة ، ولكنهم لم يقصروا عن خصومهم في لقاء العدو ببسالة .

نجاعة الرمي خمسة بالمئة

وفي الساعة ١٧ و ٤٥ دقيقة تقدم الانكليز على شكل خط رتل (في الترتيب : غود هوب ، مونماوث ، غلاسكو ، اوترانتو) وأقبل عليهم الألمان كذلك (بالترتيب : شارنهورست ، غنيسنو ، ليبزيغ ، درسدن) . وكان كل من الطرفين يبحر بسرعة ١٧ عقدة ، ولكن الألمان كانوا يتقدمون لميدان المعركة شيئا فشيئا ، في حين كانت مسيرة الطرادة المساعدة اوترانتو تكبح من سرعة تقدم الانكليز .

وفي الساعة ١٩ غابت الشمس في الأفق خلف السفن



الطرادة الانكليزية « مونماوث » التي غرقت في معركة كورونل

البريطانية التي كانت اشباحها ترتسم في السماء. وكان هذا ما توقعه الأميرال سبي الذي فتح في هذه البرهة رمياً غزيراً، سرعان ما انتظم وأصبح ناجعاً على مسافة تقريبية تبلغ نحو ١٠٠٠٠ متراً. وسلطت شارنهورست مدافعها على سفينة القيادة الانكليزية غود هوب في حين استهدفت غنيسنو الطرادة مونماوث. وظلت كل من الطرادة لايبزيغ ودرسدن في المؤخرة. أما الطرادة نورنبرغ فلم تفلح في الانتظام في الرتل.

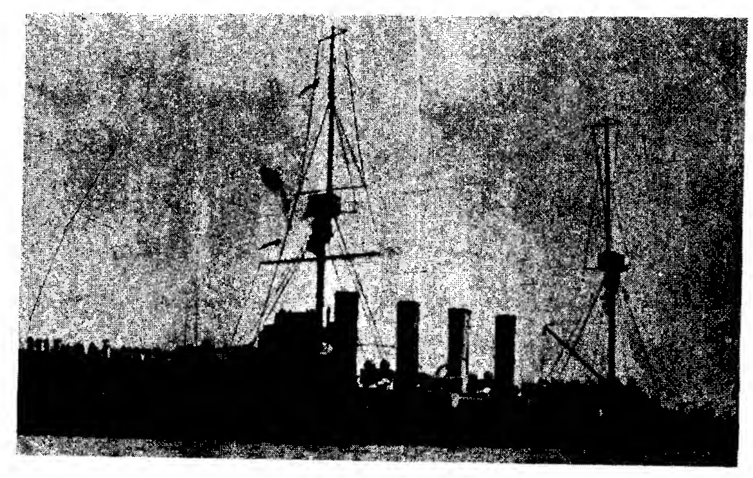
ولما كان المسددون الألمان على مستوى عال من التدريب فوق شارنهورست، فقد كانوا عبارة عن أبطال حقيقيين. فبعد الصلية الثالثة أفلحوا في تعطيل أجهزة ادارة الرمي في غود هوب. وكانوا يرمون بسرعة تفوق رمي الانكليز بثلاث مرات، أو رشقة واحدة كل خمس عشرة ثانية مقابل رشقة واحدة كل خمسين ثانية للبحرية البريطانية. ولما اقترب الأميرال سبي لمسافة ٩٠٠٠ متر قاد معركة ذات رمي رهيب على الهدف. وكانت قذائفه الضخمة، العادية أو الاختراقية، تهشم السفينة غود هوب التي أصبحت فريسة للنيران. وفي الساعة ١٩ و٥٦ دقيقة غاصت سفينة الأميرال البريطانية في الأعماق، وجرت معها نحو الهاوية ٩١٩ رجلاً بما فيهم العميد البحري كرادوك. وبعد أن ظل البحر مضيئاً، حتى ذلك الوقت، بحرائق سفينة غود هوب، عمد إلى اطفاء الجمر المتوهج وسرعان ما غمره الظلام.

أما مصير مونماوث فلم يكن أحسن حظاً إطلاقاً. فبعد أن انسحق برجها لدى أول صدمة، افترسها الحريق، وتمزقت بفعل أربع رشقات من السفينة الألمانية غنيسنو، فانسحبت من ميدان المعركة حوالي الساعة ٢٠ متجهة نحو الشمال، فأصبحت ــ لسوء حظها ــ تحت مرمى نورنبرغ التي لم تتكلف الكثير من العناء وسوت معها الحساب خلال ثماني دقائق، دون أن تقترب منها أكثر من ٦٠٠ متر. وانقلبت مونماوث لتغرق، ورايتها عالية، في الساعة ٢١ و٢٨ دقيقة. وحالت الأمواج العالية دون أية محاولة للانقاذ. وهكذا هلك معها مائة وخمسة وثلاثون رجلاً، وهو كل طاقمها.

وقد استطاعت السفينتان الانكليزيتان أن تلوذا بأذيال الهرب: إذ تنحت نحو الغرب بناء على أوامر صادرة من كرادوك، وسارت في إثرها السفينة غلاسكو في الساعة العشرين، بعد أن أصابتها خمس قذائف، وكانت على صواب، لأنها لو ظلت لوحدها لما أمكنها إطلاقاً الصمود في وجه الأسطول الألماني.

ومع الفجر أدرك الأميرال فون سبي أنه أصبح سيد ميدان المعركة. وأذاع على فرقته البيان التالي:

بمعونة الله استطعنا كسب معركة رائعة، أقدم على أثرها التهاني والشكر لكل الطواقم...



الطرادة المدرعة الانكليزية «ديفانس» التي كان غيابها أحد أسباب هزيمة كورونل

ولم تصب شارنهورست بأكثر من قذيفتين لم تلحق بأحد جروحاً. أما الطرادة غنيسنو فقد تلقت أربع قذائف وأصيب اثنان من رجالها بجراح. وهكذا أطلق الأسطول الألماني ١٧٢٣ قذيفة توزعت كما يلي: شارنهورست ٦٣٧، غنيسنو ٤٤٢، ليبزيغ ٤٠٧، درسدن ١٠٢، نورنبرغ ١٣٥. وكانت نسبة الطلقات على الهدف تعادل خمسة بالمئة، وهو رقم يعتبر مرضياً للغاية نظراً للحالة التي كان عليها البحر. والنتيجة كان هناك بعض الأعطاب وجريحان من جانب، وغرق

طرادين ومصرع ١٦٥٤ رجلاً بين قتيل وغريق في المعسكر الآخر، وكان النصر الألماني نصراً مؤزراً. ويعود الفضل فيه الى التفوق التقني، ولقدرة الرمي، ولأفضلية التهيئة، لأن ظهور الألمان كان في نطاق الظل. أما الطرادتين العتيقتين التابعتين للأسطول الملكي فقد كانتا، مع مدفعيتهما التي عفا عليها الزمن، وبطاقميها القليلي التدريب، اذ كان بينهم الكثير من الاحتياط، أقول كانتا تسعيان الى الانتحار بظلفهما، دون أن يكون لديهما أي حظ في اتخاذ القرار ضد الخصم. وقد كانت هزيمة عديمة الجدوى، بمعنى أن البحرية البريطانية لم تلحق أي ضرر يذكر بالألمان. وتذوق هؤلاء نشوة الظفر، واتجهوا نحو فالباريزو حيث كان مواطنوهم يختصونهم باستقبال انتصاري. واستمر الحبور العارم خمسة أسابيع لا غير.

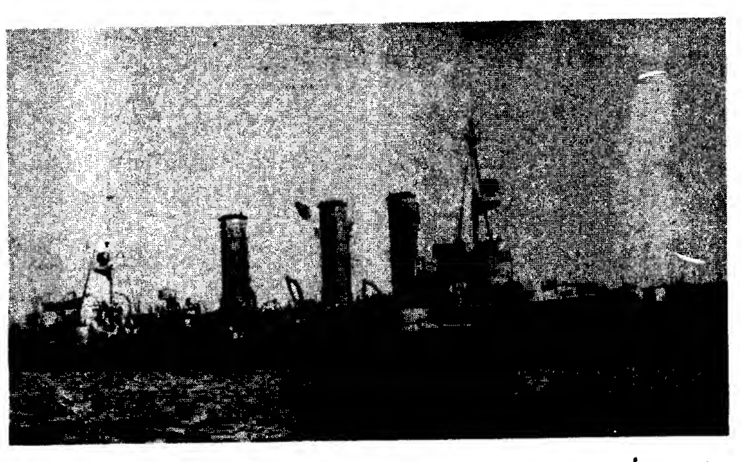
خصمان يتعرضان لمفاجأة متبادلة

لقد قررت انكلترا بعد أن تعرضت للخزي الأليم أن تمحو إهانة معركة كورونل في أقصر مهلة ممكنة. ولقد كانت أول مبادرة قام بها اللورد فيشر، بعد أن خلف الأمير لويس أوف باتنبرغ في ادارة الحرب البحرية، كانت أن منح اللواء البحري السير فريديريك تشارلز ستاردي، البالغ من العمر خمسة وخمسين عاماً، ورئيس عمليات الأميرالية، قيادة فرقة، كانت تضم سفينتين من طراز دريدنت حديثتين

وهما : آنفنسيبل وآنفنكسيبل من فئة حمولة ١٧٢٥٠ طن ، وسرعة ٢٥ عقدة ، والمسلحتين بثمانية مدافع من عيار ٣٠٥ واثني عشر مدفعا من عيار ١٠٠ . وبعثت طرادة قتال أخرى ، هي برنسيس رويال ، الى جوار قناة بناما ، تحسباً لما قد يخطر ببال قادة السفن الألمانية من مغامرة في هذه الأصقاع وقام ونستون تشرشل في الأركان العامة بمساندة هذا المخطط بحماسة وسهر على الأسراع فيها ، بقصد تسوية الحساب مع اللواء البحري فون سبي .

وأقلعت السفينة آنفنسيبل ورصيفتها آنفلكسيبل من ترسانة ميناء ديفونبور في أشد ما يمكن من السرية ، في الحادي عشر من تشرين الثاني وفرض عليهما اسكات اللاسلكي الاجباري ، وقامتا بالتمون بالفحم في جزر الرأس الأخضر بتاريخ ١٧ من الشهر المذكور ، وبلغتا ساحل البرازيل ، بين باهيا وريودو جانيرو في ٢٦ تشرين الثاني بعد « هرولة » بلغت ١٠٠٠٠ كم أو ما يعادل ربع محيط الكرة الأرضية . ولما تلقى اللواء البحري ستاردي الأمر باتجاه نحو جزر فلكلاند (أو جزر مالوين) وهو أرخبيل في المحيط الأطلنطي الجنوبي تجاه ساحل الارجنتين ، بحثاً عن العدو ، عمد الى تنفيذ الأوامر في ٢٦ تشرين الثاني .

وقد اكتملت قواته برفد الطرادات المدرعة كارنافون ، كورنول ، وكنت وبالطرادتين الخفيفتين غلاسكو (الناجية من معركة كورونل) وبريستول ، وبالسفينة التجارية المسلحة اوراما .



الطرادة الألمانية «نورنبرغ» التي غرقت في معركة فلكلاند بتاريخ ٨ كانون الأول ١٩١٤ وجرت معها الى الهوة ٢٩٠ رجلا من أصل ٢٩٧ الذين كان يضمهم طاقمها

وفي السابع من كانون الأول، ألقت العمارة مراسيها في قاعدة بورستانلي السرية، في جزر فلكلاند، كي تملىء عنابرها بالفحم. وهناك التقت بالسفينة كانوبوس، التي استقرت في الوحل كي تنجو من الغرق، وبذلك لعبت دور بطارية دفاع. وفي صبيحة اليوم التالي، في السابعة والنصف، أبصر أحد أبراج المراقبة دخان سفن غير معروفة الهوية في الجنوب. وكان هو الأميرال فون سبي. ولما كان هذا يجهل وجود سفن معادية انكليزية، فقد وصل لتدمير مركز اللاسلكي وترسانة المحطة، التي تعرف عليها في قائمة عثر عليها فوق متن سفينة تجارية مأسورة. وهكذا ألقى بنفسه في شدق الذئب ولكن لم يعرف

ذلك، فقد كان السر محفوظاً بأمانة. وقد كانت المفاجأة المتبادلة لدى الخصمين كاملة.

وقد كان تحت قيادة الأميرال فون سبي الطرادة المدرعة شارنهورست وغنيسنو، وطراداته الخفيفة، وسفينتي تموين وسفينة مستشفى، هي سيدليتز، ولما أصبحت غنيسنو في الساعة ٩ و٢٥ دقيقة في متناول مدى الرمي أخذت «أشجار الحور الفضية» تطيف بها في حين كانت الانفجارات القوية مسموعة، صادرة من الخليج. وفتحت كانوبوس نيرانها، وعوضاً عن أن يقوم فون سبي بالرد المناسب، أبعد سفينتي التموين والسفينة سيدليتز كي يكون مطلق اليدين. وحاول التعرف على قوات الخصم الذي جاء ليلحق به الهزيمة. وفي هذه الفترة كان الانكليز يغادرون الخليج لمطاردته. وكان الطقس صحواً واا حر رهواً، لا تكاد الريح الخفيفة الشمالية الغربية تسبب أكثر من موجات خفيفة للغاية.

وفي الساعة العاشرة والنصف رفع الأميرال ستاردي اشارة «المطاردة العامة» وأعطى لكل قبطان مطلق الصلاحية بالتصرف كما يشاء حسب الظروف. وأخذت السفن الانكليزية تزيد من سرعتها تدريجياً كي تبلغ السرعة القصوى.

ألف وخمسمائة بحار يلقون حتفهم مع بوارجهم

ولقد انطلقت أول قذيفة حوالي الساعة ١٦ من فوق السفينة آنفلكسيبل باتجاه لايبزيغ، التي كانت تبعد عنها مسافة ١٤٥٠٠ متراً.

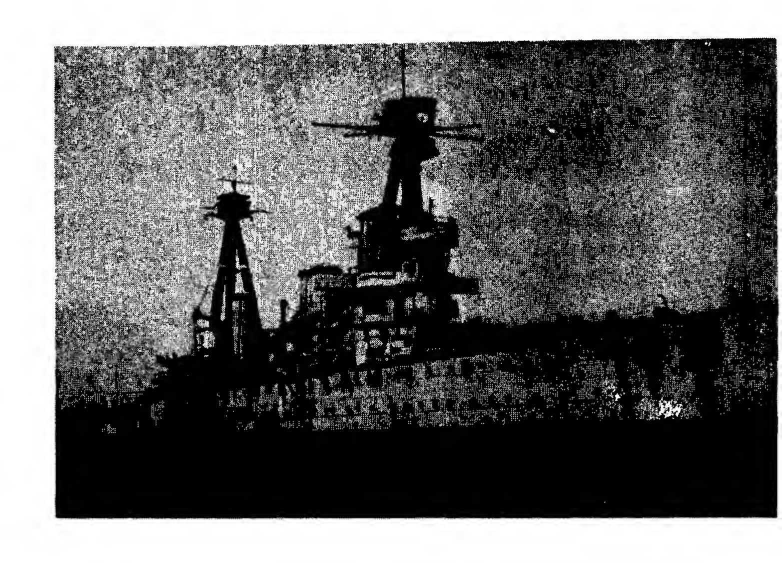
وفي الساعة ١٣ والنصف استشف الأميرال فون سبي التفوق الساحق لأسطول خصمه، فأصدر دون أي خجل الأمر لطراداته الخفيفة بالتبعثر والهرب، واندفعت كل من كنت وكورنويل وغلاسكو لمطاردتها.

ولما كان فو سبي عاجزاً عن الافلات مع بارجتيه من نوع «دريدنت» فقد اتخذ كل التدابير لخوض المعركة، وانحرف عن طريقه كيلا يتضايق رجال مدفعيته بدخان سفنهم نفسها، ونشبت المعركة في الساعة ١٣ والنصف. غير أن الأميرال ستاردي الذي كان يتحرز من مهارة الرماة الألمان، فقد ظل على مسافة ١٢٠٠٠ متراً على الرغم من التصفيح الأكثر سماكة في سفنه.

وفي الساعة ١٣ و٤٤ دقيقة، وبعد الصلية الثالثة أصيبت السفينة آنفنسيبل ولكن دون خطورة. وهبطت المسافة الى ١١٠٠٠ متر عندما فتحت المدافع الألمانية من عيار ١٥٠ نيرانها، فتقهقر

ستاردي لمسافة ١٤٥٠٠ متراً مما أدى لتوقف المعركة ما بين الساعة ١٤ و١٤ وخمسين دقيقة.

وتسخنت المعركة من جديد عندما عادت المسافة الى ١٠٨٠٠ متراً. واستفحلت تخريبات القذائف الانكليزية، وتكاثرت أعمدة الماء حول المدرعات الألمانية التي أصيبت مرة بعد مرة. واشتعلت الحرائق وانهمر الماء في الثغرات التي فتحتها المقذوفات.



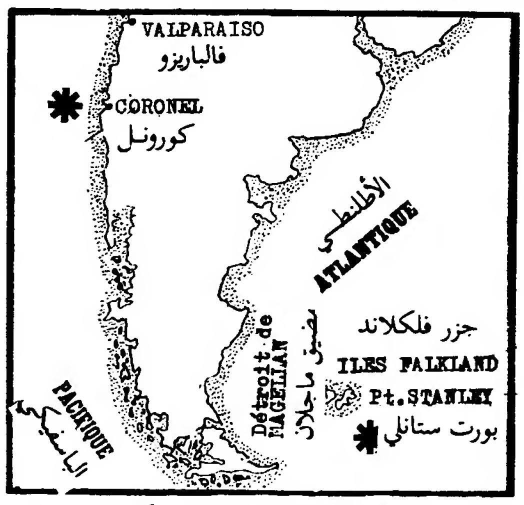
البارجة الانكليزية «آنفلكسيبل» من طراز دردنت المنتصرة في معركة فلكلاند

وفي الساعة ١٦ وأربع دقائق دخلت شارنهورست مرحلة النزع ، فقد أطيح بأربع مداخن من مجموع أربعة ، فغاصت من جانبها الأيسر ، وكانت ألسنة النيران تتصاعد من مؤخرتها ، وأطلقت آخر قذيفة من برجها قبل أن تنقلب مع رايتها الخفاقة في أعلاها . ومكثت لفترة من الوقت مستلقية على خاصرتها ، وكانت مروحتها تدور في الفراغ ، ثم اختفت في وسط جيشان ضخم ، وهي تجر معها الى الموت ثمانمائة وستين ضابطا وبحاراً ، ولم يقدر لأي من طاقمها النجاة ، كما لم تتقدم أية سفينة انكليزية للقيام بعملية الانقاذ .

أما نهاية غينسنو فقد كانت عبارة عن مجزرة أخرى . ففي الساعة ١٦ و٤٥ دقيقة توقف جهاز القيادة في أعقاب اصابته بقذيفة ، وراحت ترسم دوائر حول نفسها ، مع استمرارها في الرمي تحت وابل من المقذوفات من كل العيارات . وتحولت شيئا فشيئا الى كتلة من حطام بعد أن مالت على جانبها بمقدار سبع درجات . ولم يبق فيها سوى مدفع واحد صالح للرمي وهلك معظم أفراد طاقمها بعد مقاومة بطولية . وتجمع الناجون فوق السطح وحثهم القائد مايركر على الهتاف ثلاث مرات بحياة الامبراطور غليوم الثاني ، ثم أصدر أمره بإغراق السفينة بعد فتح مآخذ المياه . والتقط الانكليز مائة وسبعة وعشرين ناجياً مات عدد منهم بعد قليل متأثرين بجراحهم .

وفي هذه البرهة أخذ المطر بالتساقط . ولو كان قبل ذلك بثلاث

ساعات لسمح للسفن الألمانية بالاحتجاب بفضل تضاؤل الرؤية . وكان الأميرال فون سبي ، ذاته ، في عداد المفقودين مع أحد أولاده وقائدي البارجتين . وفي مقابل سفينتين كبيرتين غارقتين و ١٥٤٠ بحاراً بين قتيل وغريق في المعسكر الألماني ، لم يكن هناك سوى خمس عشرة اصابة في الهدف ، وقتيل واحد وثلاثة جرحى في المعسكر البريطاني . وقد سجل الانكليز تفوقهم بسرعة حركتهم ، وبتنقلاتهم ، وبمدى ووزن صليات مدافعهم . وهكذا كانت تحمل كل من آنفنسيل وآنفلكسيبل وكارنافون سوية مقدار ١٤٥٠٠ رطل من القذائف مقابل ٣٩٠٦ رطل بالنسبة للبارجتين شارنهورست وغنيسنو .



خريطة ساحة معركتي كورونل وفلكلاند

وينسب المؤرخون شرف النصر أيضاً الى اللورد فيشر والى ونستون تشرشل اللذين أعدا هذه المفاجأة الرهيبة التي قادت الى أحد الانتصارات الكاملة النادرة التي كسبتها البحرية الملكية.

إغراق السفن الهاربة الواحدة بعد الأخرى

غير أن الطرادات الألمانية الخفيفة، التي كانت في الجنوب من ساحة المعركة، والتي سبق أن أمرها الأميرال فون سبي بالتبعثر لم تكن أفضل حظاً. ولما كانت غلاسكو هي الأكثر سرعة فقد أخذت على عاتقها مطاردة درسدن التي انطلقت باتجاه جزيرة أرض النار كي تتمون بالفحم بسرعة ٢٢ عقدة، ولكنها عزفت عن المتابعة، ورجحت مهاجمة لايبزيغ التي كانت على مدى أفضل. وفي الساعة ١٤ و٥٣ دقيقة فتحت نيرانها وردت عليها لايبزيغ التحية بالمثل. وفي الساعة ١٥ و١٣ دقيقة بدأت السفينة الألمانية تتلقى الضربات الموجعات بعد أن تحولت الى طريدة واضطرت لتخفيض سرعتها. ووصلت السفينة كورنوال للاشتراك في الغنيمة، وضمت صوت مدافعها الى مدافع غلاسكو. وفي الساعة ١٩ لم تعد لايبزيغ أكثر من حطام ينطلق منها الدخان الكثيف مع هيكلها الممزق، وكانت كل مدافعها غير صالحة للعمل. في حين كانت الحرائق تلتهمها. وأمر قائدها بفتح مآخذ المياه. وبعد رمي متقطع استمر ست ساعات غرقت ليبزيغ في الساعة

٢١ و٢٣ دقيقة . وقد قتل مائتان وثمانون رجلا من طاقمها بما في ذلك قبطانها . ولم يعثر الانكليز على أكثر من ثمانية عشر رجلا ، بين ضابط وبحار ، متشبثين بالحطام في مياه مثلجة .

وقامت كنت ، من جهتها ، بالابحار بسرعة ٢٣ عقدة ولحقت بالسفينة نورنبرغ في الساعة ١٧ . وانعطفت السفينة الالمانية بكل جرأة لكي تقاتل الدارعة التي كان وزنها متفوقاً بثلاث مرات . وقامت كنت بالمرابطة على مسافة ٥٤٠٠ متراً وأصلت الطرادة الألمانية الخفيفة بكل صلياتها من مدافعها التسعة من عيار ١٥٠ . وبعد أن أصيبت نورنبرغ تحت مستوى العوم . غرقت في الساعة ١٩ و٢٧ دقيقة . ولم يسلم من طاقمها سوى سبعة ناجين من مجموع كان يضم مائتين وتسعين رجلاً .

ولحق الانكليز بالناقلتين الالمانيتين اللتين لاذتا بأذيال الفرار منذ البداية ، وهما بادن وسانتا ايزابل وأغرقوهما . ولكن ما فعلوه لم يكن هو الأفضل لأن هاتين السفينتين كانتا مشحونتين بالبترول وبالفحم وبالمؤن الثمينة اذ كان من الأكثر فائدة محاولة أسرهما .

ولم ينج من عمارة الأميرال فون سبي ، الى حين ، سوى السفينة المستشفى سيدليتز ودرسدن . فقد كانت الأولى معزولة تماماً ، وقصدت ميناء حيادياً وعرضت نفسها للاعتقال . أما درسدن فقد استدارت من

حول رأس هورن واختفت في الخلجان المنعزلة على ساحل الشيلي حتى ١٤ آذار من عام ١٩١٥ أي الى اليوم الذي تم فيه اكتشاف امرها في مرسى جوان فرناندز وقامت غلاسكو وكنت باغراقها، في المياه المحايدة، وذلك بتجاوز القوانين الدولية التي سبق لها ذاتها أن استخفت بها بالاساءة الى حياد ولا مبالاة حكومة جمهورية الشيلي.

وهكذا كان الثأر البريطاني لإهانة معركة كورونل بحد ذاته تظاهرياً أيضا قدر المستطاع.

جوتلاند

ـ ٣١ أيار ١٩١٦

الاسطول البريطاني الكبير يربح الحرب...

ولكن بصورة طفيفة



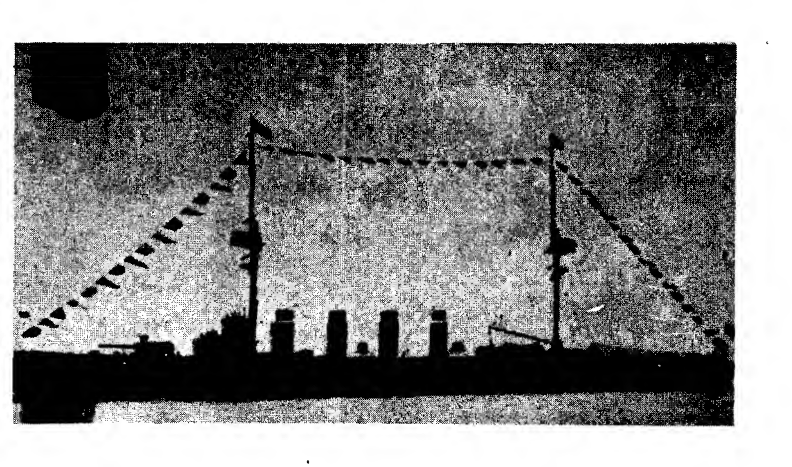
بتاريخ ٣١ أيار من عام ١٩١٦ ، وتحت سماء ملبدة بالضباب ، وقعت المجابهة بين أكبر أسطولين على وجه الأرض، خلال ساعات معدودات ، في بحر الشمال ، الى الغرب من شبه جزيرة جوتلند الدانمركية . وللمرة الأولى ، والمرة الوحيدة في تاريخها ، اصطدمت الآرمادا البريطانية المرهوبة « غراند فليت » بمنافستها الفتية الألمانية ، والتي لم يكن لها من العمر سوى عشرين عاما ، وهي اسطول « هوشسيفلوت » أي « أسطول أعالي البحار » الذين كانت تبدو تجهيزاته غاية في كمالها مثلما كانت طواقمه أعلى تدريباً ، مثلما كان رماة مدفعيته أكثر مراناً وخبرة . أما بالنسبة للانكليز فلم يسبق لهم أن خاضوا معركة من مثل هذا المستوى منذ أيام اشتباك الطرف الأغر ، ضد اسطول نابليون الأول ، ذلك أن بحرية صاحبة الجلالة كانت تحيا على تقاليدها القـديمة ، المعتمدة على العدد وعلى الشجاعة ، حتى التهور ، ولكن سيظهر عليها

أنها كانت عاجزة عن إبادة عدوها هذا مع إحاطتها به وتخريبه بالمدفع وبالطوربيد.

وكان الرأي العام العالمي ينتظر هذه المعركة البحرية منذ قرابة العامين. فكان يتساءل، حتى مع بعض الوقاحة، عن الموعد الذي سيقرر فيه هذان الخصمان النزول الى الساحة والى التلاحم بصورة جدية. ولكن الرأي العام المذكور لا يخفي إعجابه بإصرار البريطانيين، مع كل برودة أعصابهم، على البقاء قابعين في قواعدهم، بانتظار خروج الألمان، في حين كان يزدري حذر هؤلاء، ولكنه كان يتحرق شوقاً كي يصفق للضربات التي سيكيلها هؤلاء لأولئك، شأن النظارة في المسرح الذي يضربون الأرض بأقدامهم لدى كل ضربة طائشة. فمنذ شهر آب من عام ١٩١٤ كان الجو مشحوناً بالتوقعات، أي ابتداء من الوقت الذي أقبلت فيه البحرية البريطانية الى مضيق بادوكاليه لدعم الأسطول الفرنسي الصغير، الذي كان يستعد للتضحية بنفسه للحيلولة دون تقدم العدو لتدمير الموانىء الفرنسية على سواحل بحر المانش والمحيط الأطلنطي دون قصاص، لأن أربعة أخماس العمارات البحرية الفرنسية كانت مرابطة في البحر الأبيض المتوسط. ومنذ ذلك الوقت، كان الخصمان الرئيسان يترصدان بعضهما، ويؤجلان باستمرار نشوب هذه المعركة الكبرى التي كان لا محيد عنها، مع ذلك، فعلى نتيجتها كان يتوقف رهان النزاع العالمي.

إذن ماذا حدث حتى ذلك الوقت؟ ففي المقام الأول تمت إبادة العمارة الألمانية التي كان يقودها الأميرال فون سبي والتي سردنا قصتها في المقالة السابقة، ثم كانت هناك معركة مطاردة انتهت بتلاشي الطرادات الألمانية التي كانت تقوم بمصادرة كل السفن التجارية في كل المحيطات. ثم كان القصف المفاجىء الذي كانت تتعرض له السواحل الانكليزية والتي كانت ترتعد فرائص سكانها هلعاً، فكانوا يطالبون بأصوات عالية تدخلاً حاسماً ضد هؤلاء «القراصنة» الذين كانوا ينشرون الموت بين هؤلاء المدنيين الابرياء. بيد أنه لم يظهر على قائد الأسطول الكبير الأميرال جيلليكو أنه كان يتعجل الانتقال الى حل المعضلة.

ترى من هو اللورد جيلليكو؟ لقد كان طبعاً من كبار رجال البحر، ورجلاً هادئاً، فاتراً، يبلغ الخمسين من العمر. وكان يتمتع بكل ثقة قادة البحرية ـــ أو أمرائها ـــ إذ كانوا يقرون كل تصرفاته الحذرة، وكانت عبارة ونستون تشرشل على كل الألسنة، وهو أحدهم، وهي «أن جيلليكو هو القائد الوحيد الذي قد يخاطر بخسران الحرب، خلال ساعات معدودة». والتي لا تعني إطلاقاً أنه رجل غير كفوء، ولكنه إذا قامر بالأسطول، وهو حصن البلاد وحاميها، واذا ما تعرض الى فشل ذريع، فإنه لن يكون بمقدوره تعويض السفن المقاتلة أو طرادات الاشتباك، ذلك أنه اذا خسر فوج من المشاة نصف عناصره على البر فلا يعني ذلك هزيمة حربية، إذ بالامكان الاعتماد على



البارجة الانكليزية «بلاك برنس» من حمولة ١٣٣٥٠ طن التي احترقت في وسط الليل عند محاذاتها الأسطول الألماني فانفجرت وغرقت، وهلك معها ثمانمائة وستة وخمسون بحارا

الاحتياط... أما اذا غرقت ثلاث طرادات من الطراز الأول، فمعنى ذلك وجوب الانتظار مدة بضعة أعوام كي تقوم الترسانات البحرية ببناء مثيلاتها...

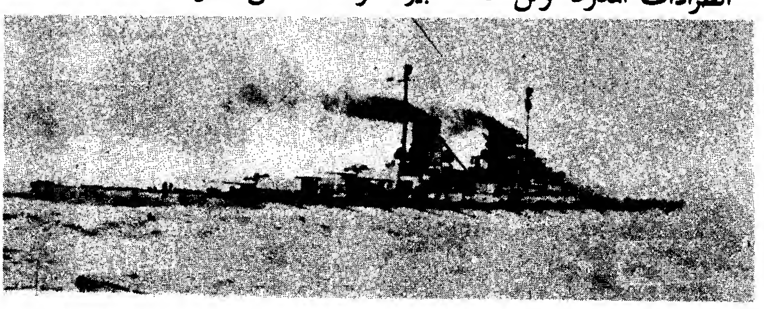
إذن كان الأميرال جيلليكو يتريث اذ كان ينتظر الفرصة السانحة. وكان «اسطوله الكبير» في ميناء سكابافلو Scapa Flow، وهو مقام فتان في جزر أوركاد في شمالي الجزر البريطانية، وكان عبارة عن عمارة منعزلة في خليج فيرث أوف موراي. أما طرادات الاشتباك التي يقودها الأميرال ديفيد بيتي، فقد كانت ترابط، الى جانب عمارة من البوارج، في خليج اوف فورث، بالشمال. واذا كان جيلليكو حذراً

فقد كان بيتي ، على خلافه ، يتصف بشهرة متينة على أنه « مقدام » وسيقدم البرهان على ذلك ، ولكن دون أن ينجو من الخسائر فعلاً ...

وفي المقابل كان هناك اللواء البحري شير الذي تولى قيادة أسطول « هوشسفلوت » في مطلع عام ١٩١٦ والذي لم يكن لديه أي وهم في أنه « لا يعادل في الوزن » ، ولكنه كان ، مع ذلك ، قادراً على تلقين خصومه درساً . وقد كان الرأي العام الألماني يلتهب حماسة من النجاحات الحقيقية التي أحرزتها جيوشهم على كل الجبهات الأرضية ، وقد دفع ثمناً غالياً في سبيل امتلاك بحرية عصرية ، ولكن ليس لكي يراها ماكثة في مرساها في ميناء ويلهلمسافن . وكان الأميرال شير معروفاً بأنه رجل متحمس ، وكان يتعرض بالحاح لمطالبة البرهنة على ذلك ، غير أن الحمولة والتسليح اللتين كانتا تحت تصرفه لم تكونا تسمحان له بالتقدم بحزم لمباشرة المعركة في ميدان مغلق . وقد كانت قواته مرابطة في ميناء كوكسهافن وفي ميناء ويلهلمسهافن ، وفي مرسى شيللينغ ، وهي موانىء كانت تتمتع بتغطية جزيرة هيليغولند الحصينة .

ولما كانت هذه القوات جيدة الانضمام فقد كان بمقدورها ، في أي وقت شاءت ، أن تغادر قواعدها كي تنطلق للقيام بعملياتها سواء في اتجاه النرويج أو في اتجاه انكلترا . ومن الأرجح أن أي قائد مقدام كان سيختار الحل الأول . وعلى خلاف ذلك فقد رأينا أن القوات البريطانية كانت مبعثرة ، لأن المهمات المناطة بها كانت حماية السواحل المعرضة

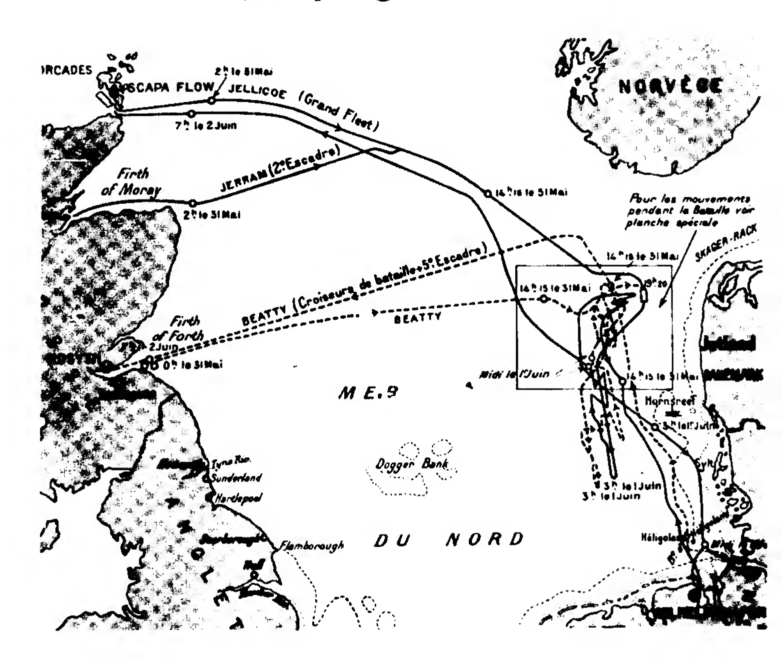
لتنكيد غارات الطرادات الخفيفة المعادية . واذا كان معظم العمارات ، المؤلفة من البوارج ، باقياً في جزر أوركاد ، فإن العمارة القتالية الثانية كانت في ميناء كرومارتي ، والخامسة من ميناء روزيث بقيادة بيتي . وقد احتفظ الأميرال جون جيلليكو تحت يديه بالعمارتين القتاليتين وبثلاثة طرادات مقاتلة تحت إمرة الأميرال هود ، فضلا عن عمارتين من الطرادات المدرعة ومن عدد كبير ، نوعاً ما ، من الطرادات الخفيفة .



طرادة القتال الألمانية «لوتزو» من حمولة ٢٨٠٠٠ طن وقد غرقت وسقط من رجالها ٢٩٦ قتيلا و١٠٠ جريحا

وكان الوقت يمضي ، وها قد أقبل الربيع ، غير أن الطقس كان لا يزال غائماً والسماء مشحونة بالضباب . وكان يبدو على الهجوم البري الكبير على الجبهة الغربية ، على فردون ، أنه يتطور بنجاح . أما على الجبهة الشرقية فقد غادر الروس ميدان المعركة إذ لم يعد لجيوشهم وجود بسبب الثورة البلشفية . وهنا قرر اللواء البحري شير أن يحسم الأمر في منتصف

شهر أيار . وكانت الخطة التي هيأها بسيطة ، ولكنها كانت تشتمل على احتمالات في الحصول على نتائج محسوسة : وهي التظاهر بالاتجاه نحو النرويج لاجتذاب العدو نحو مضيق سكاجراك ، بين النرويج والدانمارك . وما أن أنبئت الطرادات الانكليزية بذلك حتى اندفعت لمطاردة أعدائها الألمان الذين تحولوا جانبياً لمسايرة الريح ، كي تحثهم على الاقتراب من



ساحة معركة جوتلند

اسطول البوارج حيث لن يكون الأسطول الألماني أكثر من لقمة سائغة بالموازنة مع القوات الانكليزية. ومن ثم وبعد أن يقوم الأميرال الألماني بإغراق بعض هذه الوحدات الرائعة التي كانت المملكة المتحدة شديدة الاعتزاز بها، سينكفىء بنشاط وحيوية نحو قواعده دون انتظار تدخل سفن الأميرال جيلليكو العملاقة التي ستصل، بعد فوات الأوان، من ميناء سكابا. ولم يكن من المستبعد، في تصوره، استئناف الضربة مرتين أو ثلاثة وبذلك «يقضم» قوات خصمه الانكليزي على دفعات.

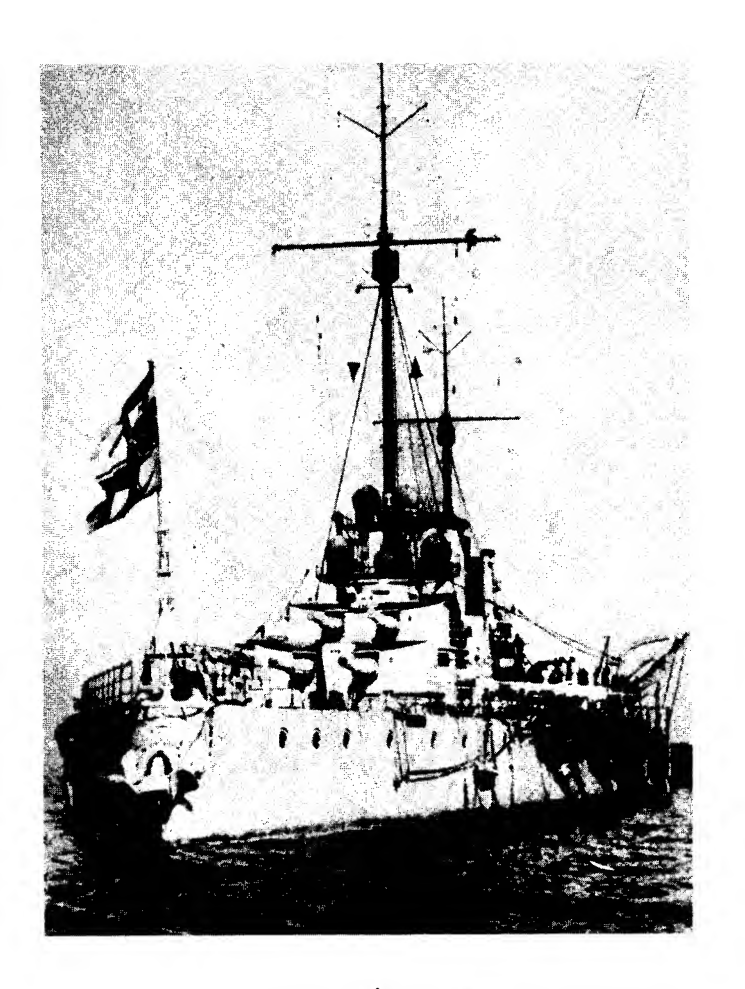


الطرادة الألمانية المقاتلة فون درتان

القوات البريطانية

لقد كان تحت تصرف الأميرال جيلليكو أربع عمارات قتالية، أي ٢٨ بارجة كان يتراوح وزنها بين ٢٧٥٠٠ و ١٩٠٠٠ طن. وقد

كانت هذه عبارة عن سفن صغرى بالمقارنة مع الوحدات القوية في المحيط الباسفيكي في عام ١٩٤٥ ... وكانت هذه الوحدات تقطع في الساعة سرعة تتراوح بين ٢٠ و٢٥ عقدة، كما كانت مسلحة بمدافع من عيار ٣٨٠، ٣٤٣، و٣٠٥ مم. وكانت تعود السفن الأكثر عمراً لعام ١٩٠٩ وأحدثها لعام ١٩١٤. وقد كانت العمارة الأولى بقيادة الأميرال بورني، وكان يقود الثانية الأميرال جرام، والرابعة تحت قيادة الأميرال ستوردي، والخامسة بقيادة الأميرال ايفان توماس. وكان يضم المجموع ٢٨ بارجة. وكان الأميرالان بورني وستوردي في ميناء سكابا مع البوارج الآتية: آيرون ديوك، رويال آواك، سوبرب، كندا، بينبو، بيللو روفون، تيميرير، فانكوارد، كولوسوس، كولليغوود، نبتون، سان فنسان، مارلبورو، روفنج، هركول وآجينكور. أما الأميرال جرام فقد كان في ميناء كرومارتي مع البارجة كينغ جورج الخامس، سنتوريون، ايرين، آجكس، اوريون، مونارك، كونكيرورو وثوندرور، هذا في حين كان الأميرال ايفان توماس يلقي مراسيه في ميناء روزيث مع البارجة برهام، فاليانت، ورسبيت، ومالايا. وكانت هذه البوارج الأربع من فئة حمولة ٢٧٥٠٠ طن وأنزلت للبحر في عام ١٩١٣. وكانت ترابط في ميناء روزيث أيضا العمارة الرائعة المؤلفة من طرادات قتالية يقودها الأميرال ديفيد بيتي، الذي كانت رايته منصوبة على الطراد ليون (٢٨٠٠٠ طن). وكانت هناك قوات الأميرالات دوبروك، باكنهام، وهود،



الطرادة القتالية الألمانية « مولتكه »

وكانت تتألف من: البرنسيس رويال، كوين ماري، تايغر، نيوزيلندا، آنديفا تيغيبل، آنفنسيبل، آندومبتابل، آنفليكسيبل التي تقطع ما بين ٢٥ إلى ٢٨ عقدة في الساعة والمسلحة بمدافع من عيار ٣٤٣ و ٣٠٥ ولكنها كانت ضعيفة التصفيح. وأخيراً كانت هناك البوارج المدرعة: ديفنس، واريور، بلاك برنس، كوكرين، شانون. ويجب أن نضيف الى جانب هذا التعداد الجسيم ١٩ طرادة خفيفة، و٧٢ مدمرة ووحدات أخرى أقل أهمية.

الألمان

أما العدو الألماني فقد كان يحشد ثلاث عمارات قتالية مؤلفة من ٢٢ بارجة، أقل حمولة وتسليحاً بقليل، تحمل مدافع من عيار ٣٠٥ و٢٠٨ مم. وكان الأميرال هيبر يضم تحت إمرته خمسة طرادات مقاتلة، من حمولة ٦٠٠٠ طن إلى ١٩٠٠٠ طن مع تسليح مدافع من عيار ٣٠٥ و ٣٠٨ قادرة على مواجهة سفن الأميرال بيتي، هذا بالإضافة إلى ٦٢ نسافة.

مقدمات المعركة

انطلقت الطرادات الألمانية من قاعدة شيللينغ في الساعة الواحدة صباحاً بتاريخ ٣١ أيار، وفي الساعة الثالثة أقلعت عمارتان

مدرعتـان بدورهما. وخـرجت عمـارة من نهر الإلب كي تلتحـق بالأسطول على مقربة من ساحل هليغولند بحيث يبلغ المجموع ١٠٠ سفينة حربية متنوعة.

وسرعان ما علمت الأميرالية في لندن بالأمر، ذلك أن محطات الاعتراض اللاسلكية وحاسبات الزوايا استطاعت أن تلتقط وأن تفك رموز الاشارات المعادية التي كان يبثها اللاسلكي الألماني، لأن الانكليز كانوا قد استحوذوا على رموز الاشارات الرقمية الألمانية، والتي عثر عليها



الأميرال جون جيلليكو القائد الأعلى للأسطول الأول الانكليزي

الروس على متن الطراد ماغدبورغ الذي جنح على سواحل بحر البلطيك ونقلوها الى حليفتهم. إذن سيحدث «أمر ما» لأن الأسطول الألماني قد غادر قواعده، ولكن ما هو هذا الأمر على وجه الدقة؟ وقد علم الأميرال جيلليكو بهذا التحرك في ليلة ٣٠ أيار، أي حتى قبل أن يخرج الألمان الى عرض البحر. وهنا أصدر أمره بالاقلاع والتمركز في القسم الشرقي من بحر الشمال. وفي الساعة ٢١ ونصف أقلعت عمارتا البوارج اللتان يقودهما الأميرال بورني والأميرال ستوردي، بالاضافة الى طرادات مقاتلة من ميناء سكابا. وفي الساعة ٢١ ونصف أقلعت عمارتا البوارج اللتان بينما كان الأميرالان بيتي وايفان توماس يخرجان من ميناء روزيث. وفي الاجمال كان هناك ١٢١ سفينة توجه دفتها نحو مضيق سكاجراك. وبينما اتجه الأميرالان نحو غرب بانك جوتلند، كان على العمارات الثلاث المؤلفة من بوارج يقودها الأميرالات بورني، ستوردي، وجرام أن تتجه سوية انطلاقاً من نقطة واقعة على مسافة ١٠٠ ميل— ومن قبيل التذكير يعادل الميل البحري ١٨٥٢ متراً— الى الغرب من ليندسنس، وهي النهاية الجنوبية لبلاد مملكة النرويج. وأخيراً انضم جرام للقائد العام جيلليكو في يوم ٣١ أيار حوالي الساعة ١١ وربع. وهكذا اتخذ الأسطول الكبير ترتيب السير، تحفه النسافات، وتتقدمه الطرادات الخفيفة والبوارج المدرعة، بسرعة ١٩ عقدة. وكان الطقس صحواً والبحر رهواً مع نسيم خفيف من الغرب، ولكن كان الضباب

يحجب الأفق والرؤية ضعيفة.

وفي خلال هذه الوقت كان أسطول «هوشسيفلوت» يمر إلى الغرب من هيليغولند متجهاً نحو الشمال بسرعة ١٦ عقدة. وعلى مسافة ٥٠ ميلاً، في المقدمة، كانت الطرادات القتالية والطرادات الخفيفة. وهكذا كان الجميع، من إنكليز وألمان يتجهون نحو مدخل مضيق سكاجراك. وكانت هناك مفاجأة، ذلك أن بارجة الأميرالية فريدريش در غروس تبادلت عند إقلاعها رمز النداء مع محطة ويلهلمسهافن مما جعل الإنكليز يحددون موقعها في القاعدة المذكورة.

ترتيب القطعات في أسطول جوتلند

آ ــ البريطانيون:

أولاً: الأسطول الكبير: الأمير سير جون جيلليكو

١ ــ العمارة القتالية الأولى: ويقودها اللواء البحري السير سيسيل موري.

الفرقة السادسة: مالبورو، ريفنج، هركول، آزينكور.

الفرقة الخامسة: كولوسوس، كوللينغوود، نبتون، سان فنسان، والطرادة الخفيفة بيللونا.

٢ ــ العمارة القتالية الثانية: ويقودها الأميرال سير جرام.

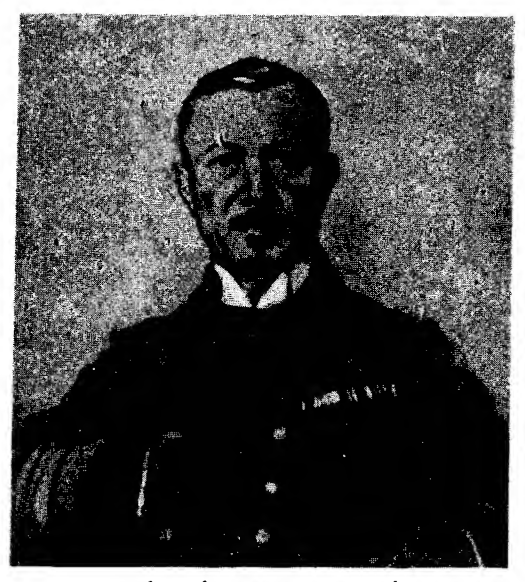
الفرقة الأولى: كينغ جورج الخامس، آجاكس، سنتوريون، ايرين.

الفرقة الثانية : اوريون ، مونارك ، كونكيرور ، ثنديرر ، والطـراد الخفيـف بواديسيو .

٣ ـــ العمارة القتالية الرابعة ويقودها اللواء البحري سير ستوردي .

الفرقة الرابعة : بينبو ، بيلليرفون ، تيميرير ، فانغوارد .

الفرقة الثالثة : آيرون ديوك (السفينة الحاملة لراية جيلليكو) ، رويال آواك ، سوبرب ، كندا ، والطرادات الخفيفة بلانش ، آكتيف ، والمدمرة آواك .



الأميرال فون شير القائد الأعلى الألماني

٤ ـــ عمارة الطرادات القتالية وقائدها اللواء البحري سيرهود .

وتضم آنفنسيبل، آنفلكسيبل، آندومبابل، والطرادين الخفيفين شستر وكانتربري.

٥ ـ عمارة الطرادات بقيادة اللواء البحري السير آربوثنوت.
وتتألف من ديفانس، واريور، دوق اوف اديمبورغ، بلاك برنس.

٦ ـ عمارة الطرادات الثانية ويقودها اللواء البحري هيث.
وتتشكل من: مينوتور، كوكرين، شانون، همشاير.

٧ ـ عمارة الطرادات الخفيفة ويقودها الكومودور لوميزورييه.
وتحوي: كالليوب، كونستانس، كوموس، كارولين، روياليست.

٨ ـ اسطول النسافات الصغيرة: ويقودها الكومودر هاوكسلي:
وتتشكل من طرادة كاستور الخفيفة، والأساطيل الصغرى: الرابع والحادي عشر والثاني عشر (٥٠ سفينة).

ثانياً: قوة الطرادات القتالية: بقيادة الأميرال سير ديفيد بيتي

العمارة الأولى: ليون، برنسيس رويال، كوين ماري، تايغر.
العمارة الثانية: نيوزيلند (اللواء البحري باكنهام)، آنديفاتيغيبل.
العمارة الخامسة: بقيادة اللواء البحري ايفان توماس: فاليانت، وارسبيت، مالايا.
عمارة الطرادات الخفيفة الأولى: غالاتيئا، فائيتون، آنكوستان، كورديليا.
عمارة الطرادات الخفيفة الثانية: ساوثامبتون، برمنغهام، نوتنغهام، دبلن.

عمارة الطرادات الخفيفة الثالثة : فالماوث ، يارماث ، بركنهيد ، غلوسستر .
سفينة نقل طائرات آنغادين .
اسطول النسافات الصغير : الأسطول الأول والتاسع والعاشر والثالث عشر (٢٧ سفينة) .

ثالثاً : الألمان

اسطول أعالي البحار بقيادة الأميرال فون شير .
العمارة الثالثة : اللواء البحري بهنكه : غروسر كورفورست ، ماركغراف ، كرونبرينز .

اللواء البحري نوردمان : برنز لويتبولد ، كيرزين ، فريدريش درغروس .
العمارة الأولى : اللواء البحري شميدت : ثورنجن ، هيلغولند ، اولندنبورغ ، اوستفريسلند .

اللواء البحري انجلهاردت : بوزن ، زايلند ، ناسو ، وستفالن . العمارة الثانية (طراز بريد ريدنت) .

اللواء البحري موف : دوتشلند ، بوميرن ، شليزيان ، شيلزويغ ، هولشتاين .
اللواء البحري ليختفليد : هانوفر ، هسن .
مجموعة الكشافات الأولى (طرادات قتال) :

اللواء البحري هيبر : لاتزو ، درفلينجر ، سيدليتز ، مونتكه ، فون دس شان .

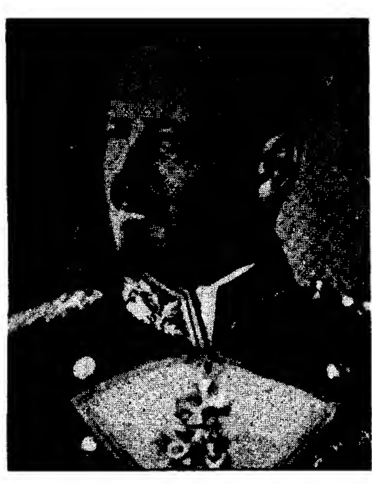
اللواء البحري بوديكر : فرانكفورت ، بيللو ، يلبينغ ، ويسبادن .

مجموعة الكشافات الثانية .

مجموعة الكشافات الثالثة .

ستين . مونيخ ، فراونلوب ، ستوتغارت ، هامبورغ .
اسطول النسافات الصغير : الطراد الخفيف روستوك ، ريجنسبورغ ، ٦١ سفينة .

الخسائر الانكليزية : كوين ماري ، آنديفاتيغيبل ، آنفنسيبل ، ديفانس ،





الأميرال هيبر قائد اسطول الطرادات الألمانية ... وخصمه المباشر الأميرال بيتي (الى اليمين)

واريور ، بلاك برنس ، آردانت ، فورتون ، نستور ، نوماد ، شارك ، سباراوهاوك ، تيبيراري ، توربولنت .

الخسائر الألمانية : لوتزو ، بوميرن ، البينغ ، فرادنلوب ، ويسبادن وخمس نسافات .

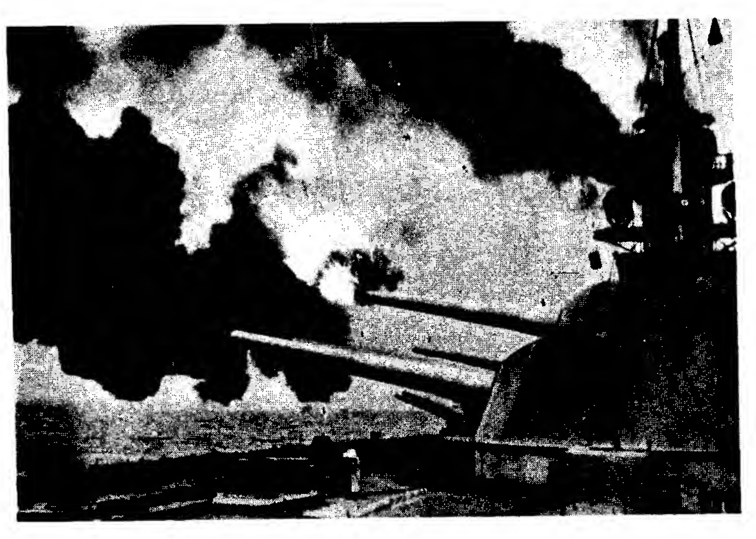
(عن تاريخ الأساطيل الحربية البريطانية من تأليف الدكتور اوسكارباركز لندن ١٩٥٦).

الصدام

نحن في بداية ما بعد الظهيرة. فبعد الساعة ١٤ بقليل أبصرت الطرادتان الأنكليزيتان الصغيرتان غالاتيا وفائيتون، الموجودتان على الجناح الأيمن من مجموعة الكشافات، أبصرتا في الشرق سفينة شحن متوقفة... فاتجهتا نحوها فوجدتا نسافة ألمانية كانت لديها الفكرة ذاتها، وهي ايلبينغ. وفي الساعة ١٤ ونصف أرسلت اشارة مفادها أن العدو على مرأى منها وفتحت النار عليه. وهنا أطلقت الطرادات الانكليزية لسرعتها العنان وكانت السفن الألمانية هنا ثلاث هي: ايلبينغ، فرانكفورت، بيلو. أما السفينة ليون، التي كانت عليها راية الأميرال بيتي، فقد اشارت باللاسلكي للسفن التابعة للأميرال بالانطلاق بسرعة ٢٢ عقدة في اتجاه جنوب الجنوب الشرقي. أما الأميرال ايفان توماس الذي لم يلتقط الاشارة فقد أضاع ثماني دقائق ثمينة وألفى نفسه على مسافة عشرة أميال خلف بيتي.

ومنذ ذلك الحين أخذت الأخبار تتوارد بسرعة. فقد أبصرت السفينة غالاتيا حوالي الساعة ١٤ ونصف سحبا من الدخان الكثيف، وهي أدخنة أسطول بلا ريب، وقد كانت بالواقع طرادات الأميرال هيبر المقاتلة. وراح بيتي يحاول قطع الأسطول المعادي عن

قواعده . وحوالي الساعة ١٥ و ٢٠ دقيقة شاهد الأميرال هيبر القوات الانكليزية من فوق جسير سفينته لونزو ، في حين لم يبصر الأميرال بيتي الألمان إلا بعد اثنتي عشرة دقيقة بسبب رداءة الرؤية لديه .



الألمان يهاجمون ...

وعاد الأميرال هيبر أدراجه كي يلتحق بالأميرال شير وتعقبه الانكليز . وفي الساعة ١٤ و٤٨ دقيقة على الضبط ، فتح الأميرال هيبر النار على مسافة تنحصر بين ١٤٠٠٠ و١٥٠٠٠ م ورد عليه الانكليز بالشيء ذاته على الفور تقريباً .

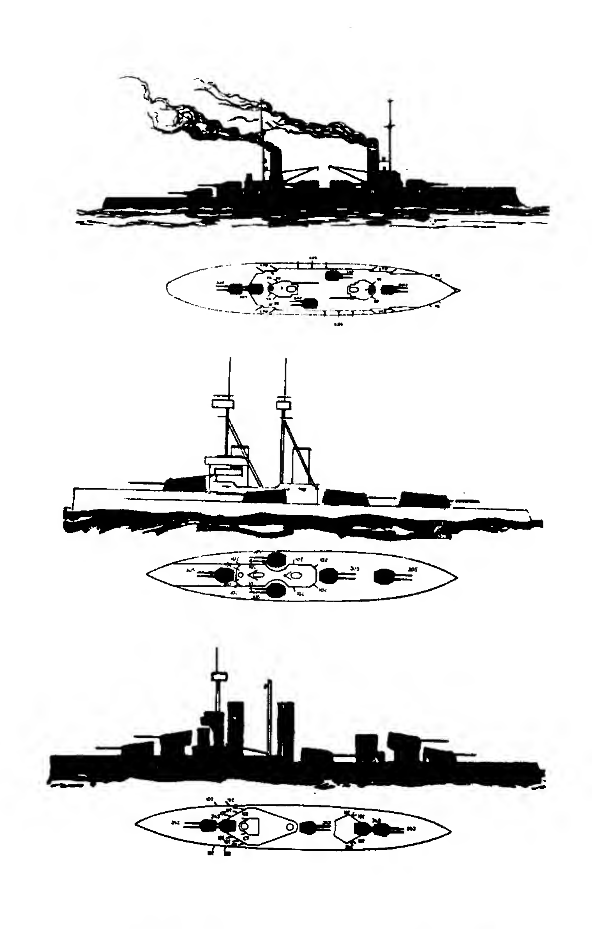
وهكذا أنشبت المعركة أظفارها.

وقد كان الرمي الألماني في غاية الدقة. وبعد الساعة ١٦ بقليل انفجرت السفينة الانكليزية آنديفاتيغيبل بعد أن أنهمرت صلية على برجها بعد برهة وأشعلت النيران في عنابر ذخيرتها، ولكن المسافة الفاصلة تتجاوز ١٢٠٠٠ م. هذا كما تلفت محطة اللاسلكي فوق السفينة ليون. وتلقى اسطول النسافات الالمانية أمراً بالهجوم وأعقب ذلك تلاحم جنوني بين هذه السفن الصغرى المنطلقة بسرعة ٣٠ عقدة والتي كانت تتبادل قذائفها على مسافة ١٠٠٠ م. ووقعت خسائر لدى كلا الجانبين. وراح الالمان يركزون نيرانهم من السفينة درفلينجر ومن فوق سيدليتز على السفينة كوين ماري التي انفجرت وغرقت في الساعة ١٦ و٢٦ دقيقة. وبعد عدة دقائق أبصرت الطرادات الخفيفة الانكليزية، التي كانت تتقدم على السفينة ليون بمسافة ميلين، أقول أبصرت فجأة الرتل الطويل المؤلف من البوارج الألمانيـة. وفوجـيء الأميرال بيتي بالأمر بعد أن عرف ذلك. ولكنه وجد نفسه مضطراً للتقيد بالنظام. وهنا وعلى مسافة ١٢ ميلاً وجد اسطول أعالي البحار الألماني الذي كان يعتقد أنه لا يزال في ميناء ولهلمسهافن. وتقهقر ليطلع الأميرال جيلليكو على الوضع. بيد أن عمارة الأميرال ايفان توماس خاضت المعركة لأنها لم تشاهد اشارات تغيير الطريق. وهكذا ضاعت دقائق ثمينة. وفي الساعة ١٦ و٥٠ دقيقة فقط أخذ يتبع

ملتحقاً بالطرادات القتالية التي لاذت بالفرار بأقصى سرعتها. وفي الساعة ١٧ أدركهم الأميرال شير وصب نيران مدافعه على بوارج ايفان توماس التي غرقت. كما أصيبت السفينتان وارسبيت ومالايا بأضرار ولكن دون أن يمنعهما ذلك من متابعة المعركة، مثلما نال العطب من السفينتين الالمانيتين لوتزو وسيدليتز. وتوقفت النيران مع تزايد المسافة. وفي الساعة ١٧ و٥٦ دقيقة تمكنت السفينة ليون أخيراً من الالتحاق بالأسطول الكبير.

الأساطيل المدرعة

لقد وصل جيلليكو لساحة المعركة قادماً من الشمال الغربي. وفي الساعة ١٤ وثلث بلغت مسامعه أنباء الصدام الأول. ولكن لم يخطر بباله أنه يواجه الأسطول الألماني برمته فاتجه نحو الجنوب الشرقي بسرعة ٢٠ عقدة. وقبل الساعة ١٦ بقليل أخطر بالاشتباك الذي خاض غماره الأميرال بيتي، فأصدر أوامره للأميرال هود بأن يهرع لنجدة الطرادات المقاتلة، فانطلق هود بسرعة ٢٥ عقدة. وفي الساعة ١٦ و٣٥ دقيقة فقط عرف جيلليكو بأن أسطول أعالي البحار الألماني في الميدان. وبعد عشرين دقيقة بادر الى اطلاع الاميرالية في لندن بأنه مشرف على خوض المعركة. وفي الساعة ١٧ عملت الاميرالية، التي حصلت للتو على معلومات أكيدة، على اطلاعه على الموضع الصحيح



السفن « كايزر » و« بلليروفون » و« كينغ جورج الخامس »

للأسطول المعادي الذي كان على مسافة بضعة أميال لا غير تقريباً... ولكن عن طريق أية معجزة؟ ذاك هو سر المخابرات العامة... وقد استغل جيلليكو طبعاً هذا الإخطار أطيب استغلال.

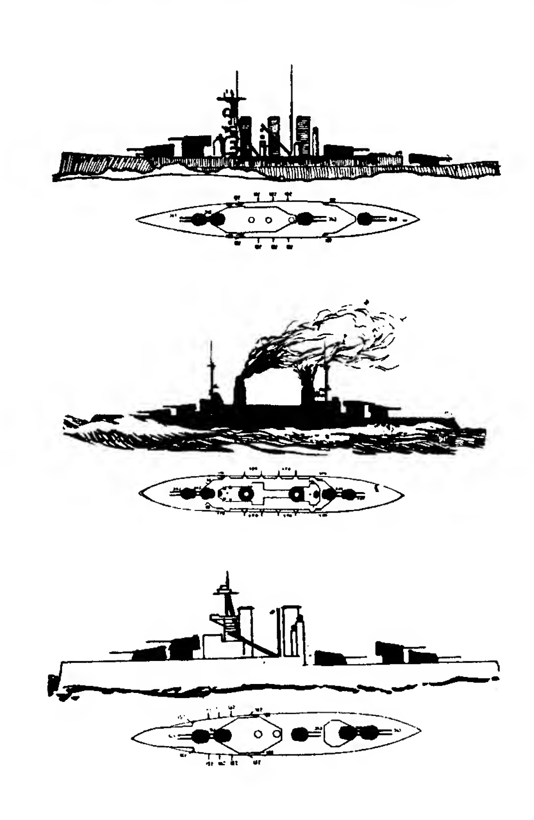
واحتدم سعير المعركة من جديد لان الأميرال هود كان مستمراً في طريقه فأتلف ثلاث سفن ألمانية هي: ويسبادن، فرانكفورت وبيلو. وخلال ذلك رأى هيبر اسطول جيلليكو فلجأ الى التقهقر بسرعة... وفي الساعة ١٨ اتجه ما تبقى من اسطول الطرادات القتالية التي يقودها بيتي ــ وهي أربع وحدات ــ نحو الشرق لتسير أمام جبهة البوارج. وسأل جيلليكو بالاشارات بيتي: «أين هو اسطول القتال المعادي؟»، وكانت الساعة ١٨. وبعد ست دقائق فقط أرسل بيتي اشارة ناقصة وغير مفهومة، وهكذا ظل جيلليكو باستمرار دون علم بالتفاصيل، ولو كان من طينة قائد كبير لعرف ذلك بالحدس، وعلى كل حال فقد كان عليه أن ينشر اسطوله، ولكن على رتله الأيمن أم على رتله الأيسر؟ وظل يكرر سؤاله على بيتي في الساعة ١٨ و ١٠ دقائق. وقد أجاب الأخير: «رأيت الأسطول القتالي الألماني من جهة الجنوب الغربي». وعندئذ أرسل جيلليكو الاشارات الى الأسطول، دون تردد، بالانتشار على الجناح الأيسر. وكانت الساعة ١٨ وربع. وأنجز الأسطول الكبير دورته مما استغرق خمساً وعشرين دقيقة، وكان طول الخط يبلغ ١٢ كم.

وهكذا عادت الطرادات المدرعة للتجمع . وفي أثناء هذا الوقت أفلحت البوارج الألمانية في إغراق ديفانس وألحقت العطب بالسفينة واريور . أما السفينة وارسبيت التابعة لعمارة ايفان توماس فقد أصيبت بأضرار جسيمة واضطرت للعودة الى ميناء روزيث لأنها أصبحت عاجزة عن متابعة القتال . كما أبصرت السفينتان الألمانيتان درفلينجر ولوتزو الطرادة البريطانية آنفنسيبل فأصلتاها ناراً حامية اشعلت النيران في أنبارها مما أدى لانفجار هذه الطرادة البديعة . وكانت هي السفينة الرابعة التي يغرقها الألمان ، وكان ذلك في الساعة ١٨ و٢٣ دقيقة .

وفي أثناء ذلك تم انتشار الأسطول البريطاني الكبير وكانت تشكيلة جيلليكو غاية في الإحكام . ولما كانت هذه على شكل زاوية قائمة فقد كان خطها يتوج رأس الأسطول الألماني وراح يقطع عليه T . ماذا تعني هذه العبارة؟ لما كانت مدفعية السفن موزعة في المقدمة وفي المؤخرة فإن قدرة الرمي تكون أكبر اذا كانت من جانب السفينة . ولكي يستغل هذه القدرة على الوجه الأكمل ، فإن من اللازم تشكيل عمارة على هيئة رتل خطي والتصدي للعدو من الجانب ، فإذا كانت هذه العمارة في المقدمة ومتعامدة مع خط الرتل المعادي الذي كانت تحجب سفن بعضها البعض ، فإنها ، أي العمارة ، ستتمتع بتفوق ناري ساحق ، وهكذا « حجز T » .

ولما كان الأميرال شير متجهاً نحو الشمال الشرقي فقد سقط

أمام البوارج الانكليزية التي كان يجهل وجودها بسبب رداءة الرؤية . وفي الساعة ١٨ ونصف فتحت عمارة الأميرال جرام النار على طليعة



السفن « تايغر » و« درفلونجر » و« ايرم ديوك »

البوارج الألمانية، وبالخصوص على كونيغ، وهي سفينة الارشاد في اسطول أعالي البحار الألماني. وسرعان ما أصبح في وضع لا يمكن الدفاع عنه . وهنا أصدر شير أوامره بتشكيل « رأس على ذنب » من على يمينه وتمت الاستدارة بصورة تدعو للاعجاب، وبذلك اختفى الأسطول الألماني عن الأنظار. ولم يعرف جيلليكو الاتجاه الذي انسحب نحوه الخصم، والذي لم تلحق به أية خسارة، في الوقت ذاته...

وحسب الأميرال شير أنه لا يزال أمامه قرابة ساعتين من النهار المنير، فقرر العودة في اتجاه الشرق كي يكيل ضربة جديدة للانكليز. ولكن كيف ستتاح له فرصة العودة الى قواعده؟ لا أهمية لذلك، ففي الساعة ١٨ و٥٥ دقيقة حقق عملية « رأس على ذنب » للمرة الثانية، وفي الساعة ١٩ و١٠ دقائق وجد نفسه، مرة أخرى، تحت نيران البوارج الانكليزية. وهكذا ألقى نفسه في عش زنابير جهنمي. ولكي يفلت منه أصدر أمراً لطرادته القتالية بالاندفاع قدماً للنهاية. وهكذا أصيبت السفينة لوتزو بأضرار خطيرة وأخذت الطرادة درفلينجر على عاتقها خوض المعركة وأفلحت في الانسحاب من تحت النيران المعادية، وكانت معجزة أخرى. ومن ثم أخذت النسافات الألمانية دورها في الهجوم. وحققت بوارج الأميرال شير عملية « رأس على ذنب » ثالثة مع انضباط رائع. وفي الساعة ١٩ ونصف اتجه الانكليز نحو الجنوب

الشرقي في حين سار الألمان غرباً . وهكذا اختفى الخصمان عن أبصار بعضهما البعض ضمن سحب الضباب والدخان . وقد نجح الأميرال شير في التملص بفضل هجوم نسافاته مما قسر جيلليكو على التواري .

وأرخى الليل سدوله . وانتهت المعركة باستثناء بعض الاشتباكات المبعثرة تحت جنح الظلام . وبعد منتصف الليل بقليل ، ودون أن يساور أي انسان ريب ، سواء في هذا المعسكر أو في ذاك ، تقاطع الأسطول الألماني مع مسار الأسطول الانكليزي مع فارق زمني لا يتجاوز العشر دقائق . وفي الساعة الثانية صباحا ، من اليوم الأول من شهر حزيران ، اتجه الأميرال جيلليكو شمالاً في حين كان الأميرال شير يرتد الى قواعده .

وأصدر الألمان بلاغات النصر التي أسهبت في سرد الخسائر البريطانية الثقيلة في حين أغفلوا ذكر ما نالهم من خسائر وقعت في صفوفهم . ولم يكن في مقدور الأميرال البريطاني ، حتى الأول من حزيران ، أن يرسل أكثر من أخبار شديدة الاقتضاب . أما الاميرالية البريطانية فقد اعتصمت بالصمت كي تصدر فيما بعد بضع نشرات تفتقر للفطنة . وقد أصاب العالم نوع من ذهول : هل نجا الأسطول الألماني من الدمار ؟ وهل نجح في إغراق بضع وحدات انكليزية بديعة ؟ وراحت صحافة لندن تهاجم جيلليكو وكالت المديح لبسالة بيتي الجنونية .

وكان من الواجب التريث والانتظار حتى نهاية الشهر كي يمكن معرفة الواقع بصورة تقريبية من هذا الجانب أو من الآخر . وفي النهاية قرر الألمان الاعتراف بخسائرهم. ودبّـج الاميرالات البريطانيون تقاريرهم والتي كان طافحة بعبارات الثناء على الأسطول الكبير الذي كانت رمايته أدنى بكثير من مستوى رمي خصومه . وأخيراً جاء ذكر تهورات الأميرال بيتي الذي فوت فعلاً على اسطول بريطانيـا فرصة الـنصر الساحق. ولكن لم يلحق أي أذى بمكانته إذ حل مكان الأميرال جيلليكو على رأس الأسطول البريطاني ، فقد كان الأميرال بيتي يتمتع برعاية كبيرة من جانب وزير البحرية ونستون تشرشل الذي رأى فيه نلسون جديداً . ومن المعروف أن أخطاء ونستون تشرشل لم يرد عنها تعداد حتى نهاية أيام حياته .



مأساة المرسى الكبير

ـ٣ تموز ١٩٤٠
معركة بحرية وحيدة الجانب



في الثالث من تموز ١٩٤٠ ، وبعد مضي أحد عشر يوماً على استسلام فرنسا وعقدها الهدنة مع المانيا النازية ، ظهر اسطول بريطاني ، يقوده السير جيمس سومرفيل ، أمام قاعدة المرسى الكبير البحرية ، قرب وهران في الغرب الجزائري . وكان اسطول المحيط الأطلنطي ، الفرنسي ، الذي يقوده الأميرال مارسيل جنسول ، راسياً في الميناء ، بعد أن جرى تجريده جزئياً من السلاح . وقد وجه اليه سومرفيل إنذاراً ، حمله الكومودر هولند الذي يعتبر صديقاً لفرنسا ، وربما وقع اختياره لهذا السبب ، انذاراً جرى تدبيجه في لندن بأمر من رئيس الوزراء ونستون تشرشل ينص على ما يلي : أمام الأسطول الفرنسي الخيار بين الاقلاع الى ميناء بريطاني والاشتراك في الحرب الى جانب البريطانيين ، أو الابحار باتجاه جزر المارتينيك في أمريكا الوسطى تحت حراسة انكليزية كي ينتزع سلاحه . وقد رفض الأميرال جنسول هذا الانذار المهين ولكنه لجأ إلى إطالة أمد المفاوضات .

من هو المسؤول؟

لقد شرع سومرفيل يطلق نيرانه فجنحت البارجة بريتانيا، وأصبحت البارجة بروفانس تالفة، ومالت طرادة المعركة دنكرك على حافة الساحل، هذا في حين أفلحت الطرادة ستراسبورغ الشقيقة الصغرى لدنكرك، أن تقلع وأن تصل الى ميناء طولون الحربي. وقد هلك في هذه العملية ألف وثلاثمائة من رجال البحرية الفرنسية. وقد أثار هذا الهجوم على البريطانيين شطراً عظيماً من الرأي العام في فرنسا، ذلك البلد الذي كان لا يزال يعاني من صدمة الهزيمة، وفي بقية عناصر البحرية الفرنسية التي كانت، بصورة تقليدية، العدوة المنافسة للبحرية الملكية البريطانية. وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٢ أغرق الأسطول الفرنسي نفسه كيلا يسقط بأيدي الألمان...

وقد أسدل ستار النسيان أذياله على كل ذلك، سواء بين الفرنسيين أو الانكليز. فقد تناسى الفرنسيون هذه المأساة لأن الانكليز قد عادوا أصدقاء وحلفاء، وكان من الأيسر أن تلصق على هذه القضية عبارة دارلان أو عبارة فيشي، كما تناسى الانكليز ذلك لأنهم لا يستطيعون إدعاء شرف هذه المأساة التي أطلقت عليها جزيرة التايمس في الخامس من تموز ١٩٤٠ عبارة «النصر السوداوي الحزين».

وقد قام الكاتب العسكري جول روا في كتابه المعنون «قضية

شرف، المرسى الكبير، ٣ تموز ١٩٤٠» الذي صدر عام ١٩٨٣ بنبش هذه القضية العتيقة بكل ضراوة وعصبية جنونية، فهو لم يعمد الى معرفة واستجلاء فحسب بل الى التعرف على المسؤول؟ هل هو الأميرال جنسول؟ الأميرال دارلان؟ ونستون تشرشل؟ سومرفيل؟. وقد قابل عدداً من الناجين من هذه الملحمة الوحيدة الجانب، في حين رفض آخرون استقباله. فقد كان هناك تداخل لكثير من العواطف، ومن المبادىء، ومن نوبات وخز الضمير، فاختلق قضية «دعوى» أمام المحكمة العليا. فاستدعى رئيس قضاة، ومحلفين، محامين وشهود محاولاً اشتشفاف معالم هذه القضية. وكان المتهم غائبا، وهو الأميرال مارسيل جنسول، الذي توفى بسلام في ١٩٧٣، عن عمر ناهز ثلاثاً وثمانين عاماً، والذي وضعت عمرته ذات النجوم، بشكل رمزي، فوق أريكة المتهم.

وقد سجل وقائع الجلسة، ومرافعات الخطباء، الذين أنحوا باللائمة على الدفاع، والانفعالات الصامتة، والمداخلات الحامية من جانب الخوري أوتريك الذي كان ضابطا سابقاً على متن الطرادة دنكرك، والذي يعمل مديراً لملجأ متسولين في مدينة طولون. ترى ما هو السبب الذي منع جنسول من نقل نص الانذار الى الأميرال دارلان القائد العام للأسطول ووزير البحرية ولا سيما اقتراح الابحار الى جزر المارتينيك الفرنسية؟ فقد كان دارلان الشخصية الأولى: فهو الذي

أوجد الأسطول الحربي الفرنسي وكان يعتبر نفسه المالك لهذا الأسطول. فهو لم ينكسر حربياً، وكان ذلك ورقة رابحة لفرنسا وله ذاته. فبعد حادثة مرسى الكبير انتقل دارلان من وضع «المقاومة» الى شبه متعاون وكخليفة للماريشال بيتان.

ولكن لم يكن قائد البحرية الفرنسية في نهاية خط الهاتف في صبيحة الثالث من تموز. فقد كان شريط الهاتف واهياً للغاية: ذلك أن الأميرالية الفرنسية اتخذت لنفسها مقراً في بلدة نيراك (محافظة لوت وغارون) والى جانبها سيارة متوسطة الحجم تضم أجهزة الأتصال اللاسلكي، وكان دارلان متجهاً في طريقه نحو العاصمة المؤقتة كليرمون فيران. وقد تدخل، بعد فوات الأوان، وكان على غير اطلاع تام بتفاصيل الحادث، ولم يكن تدخله في محله.

ولماذا كانت السفن الفرنسية مربوطة بالساحل بصورة جعلت مدافعها عاجزة عن الاطلاق فعلاً إلا باتجاه البر؟ ويكرر الخوري اوتريك، بلا ملل، قوله: لماذا لم يحسن قائد الطرادة دنكرك تجهيز وسائل الاقلاع وحبال المراكب (كابلات)؟

ولماذا كان سومرفيل، الذي عاد الى بلاده جذلان فرحاً بصحبة عصفوره، من نوع كناري، وصورة زوجته، وقد غمره الكرب والبؤس بعد عودته؟ لأنه اعتقد أن الفرنسيين سيخضعون لمشيئته على خلاف

ما كان يعتقد الأميرال نورث الذي فقد مكانته وجرى عزله بعد قليل.

هيجان الضمير الوطني

لقد عالجت المحكمة التي اتخذت لها مقراً في مخيلة جول روا كل تفاصيل هذه المشكلات، ولكن ربما دون الإلحاح بما يكفي على الوضع المأساوي لبريطانيا العظمى، تلك الجزيرة المحاصرة والذي قد يصبح مصيرها في كفة القدر اذا انحاز رابع اسطول عالمي الى المعسكر الالماني. وقد أقسم دارلان على ألا يترك الأسطول ليسقط في يد هتلر. ولكن دارلان قد يتلاشى، وقد يستعاض عنه بآخر ... كما سبق لجده أن اشترك في معركة الطرف الأغر.

ولكن كل ذلك لم يكن شيئاً مذكوراً الى جانب المشكلة الكبرى: أين كان الشرف؟ هل في هذا الأميرال جنسول الذي كان كقطعة رخام، والذي استسلم للنوم في مساء المأساة، والذي لم يعتقد أن الانكليز سيطلقون النار على سفنه، والذي كان يماطل، ويحاول تحاشي أي عمل مثير، وبذلك حرم نفسه من القدرة على الاقلاع، وعلى المقاومة، وربما أنقذ بعدم مباشرته المعركة حياة آخرين؟ لقد كان جنسول سيىء الحظ، فقد وضعه درالان في هذا المنصب لأنه كان من أخلص رجاله، ولم يستقبله إطلاقا بعد حادثة المرسى الكبير، ووضعه جانباً..

هل كان الشرف في منازلة حلفاء الأمس واكتساحهم، دون الاهتمام بالنتائج، والعودة الى قاعدة طولون؟ ألا يكون للشرف في مثل هذه الحالة علاقة بالسياسة ومع الاستمرار في الحرب؟ ولكن الشرف لم يكن في نظر جول روا يعني انحيازاً الى جانب الجنرال ديغول.

ولما كان جول روا هو الشخصية الرئيسية، فقد رتب أمر هذه «القضية» كي يستجلي الأمر واضحا من خلالها. ولم يتمكن من أن يخلص الى هذا «الهيجان في الضمير الوطني» كما يدعوه، في اسلوبه، الدفاع، وهو الطالب الكهنوتي الذي أصبح عميداً في السلاح الجوي والذي اعتزل «جيش النابالم والتعذيب» في الهند الصينية. ويقيم جول روا في فينيي (Figny)، غير بعيد عن باريس. وقد كتب تحت عنوان «الالتزام والعظمة العسكرية»: «الشرف هو الضمير، ولكنه الضمير المتحمس، والذي يحمل الرجل تارة على ألا يعيش بعد الاهانة، وتارة يدعمه ببريق وعظمة يصلحانه ويمسحا عنه الدنس».

وقد برأت الحملة ساحة عمرة مرسيل جنسول، ما العمل سوى ذلك؟ هل نلقي عليه اللوم لأنه كان على سوية تقل قليلاً عن سوية أبطال الأسطورة؟

وفي ٢٦ نيسان ١٩٦٤ نقلت سفينة حراسة في الأسطول الفرنسي تابوت فرانسوا دارلان من مدينة الجزائر الى المرسى الكبير، اذ

سبق أن سقط قتيلاً، مع أكداس أسراره، بتاريخ ٢٤ كانون الأول ١٩٤٢، في العاصمة الجزائرية•بعد اطلاق عدة رصاصات عليه من شاب عادي، ولكنه شاب كان يؤمن بالشرف.

جان بلانشيه



ماتابان

ـــ٢٨ آذار ١٩٤١

اخراج الأسطول الايطالي من الساحة نهائياً



لم تكن البحرية الايطالية، في مطلع عام ١٩٤١، تدلل أو تتكشف عن نفسية قتالية كبيرة بعد أن تلقت ضربة قاصمة في ميناء تارنت بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٤٠ حيث تعرضت لهجوم الطائرات القاذفة والنسافة من فوق حاملة الطائرات ايللو ستريوس. وقد تعرضت البوارج الثلاث ليتوريو، كافور، ودويلو لضربات قاصمات. أما البوارج الثلاث الأخرى فقد قذفتها في ميناء نابولي طائرات قادمة من جزيرة مالطة. إذن كانت كل السفن الحربية في موانىء البحر الأبيض المتوسط. غير أنه لما كانت العمليات البرية منتشرة في كل مكان تقريباً في الحوض الشرقي، سواء في اليونان أو في ليبيا، ولما كانت الامدادات الموجهة للجيوش البريطانية تجتاز البحر على شكل قوافل، فقد طالبت أركان الحرب الايطالية البحرية الايطالية بالتدخل. وقد كان الاسطول الايطالي تحت قيادة الأميرال ياشينو الذي تم استدعاؤه الى

روما بتاريخ ١٥ آذار حيث أعلمه رئيس أركان حرب البحرية ورئيسها المعاون ــ وهما الأميرالان ريكاردي وكامبيوني ــ بأنه نظراً للضغط الذي يمارسه الألمان على الحكومة الايطالية ، فإن من اللائق المبادرة للقيام بعملية ما ، وعلى الأقل تنفيذ غارة ترمي لشل حركة النقل الانكليزية نحو مصر واليونان ، والتي ستترجم على شكل سهمين هجوميين في شمال جزيرة كريت وفي جنوبها .

ولم تكن البحرية الايطالية تملك حاملات طائرات .

وتم تمركز القوات البحرية في ميناء مسيّنا ، في شمال جزيرة صقلية ، بتاريخ ٢٧ آذار . ونصب الأميرال ياشينو رايته على السفينة فيتوريو فينيتو ، وهي أقدر البوارج الايطالية . وكانت تحت تصرفه القطعات التالية :

ــ فرقة النسافات الثالثة عشرة التي كانت سفنها تتمتع بمدى عمل مرتفع .

ــ فرقة الطرادات الثالثة بقيادة اللواء البحري سانسونتي وتضم : تريستا ، تزانتو ، بولزانو .

ــ فرقة الطرادات الأولى ويقودها اللواء البحري كاتانيئو وتشتمل على : زارا ، بولا ، فيوم .



البارجة بارهام في معمعان المعركة

ـــ فرقة الطرادات الثامنة تحت إمرة اللواء البحري لغنـاني : ابروزي ، غاريبالدي .

وانطلق الأسطول وهو يمخر عباب بحر هائج ، تحت طقس غائم

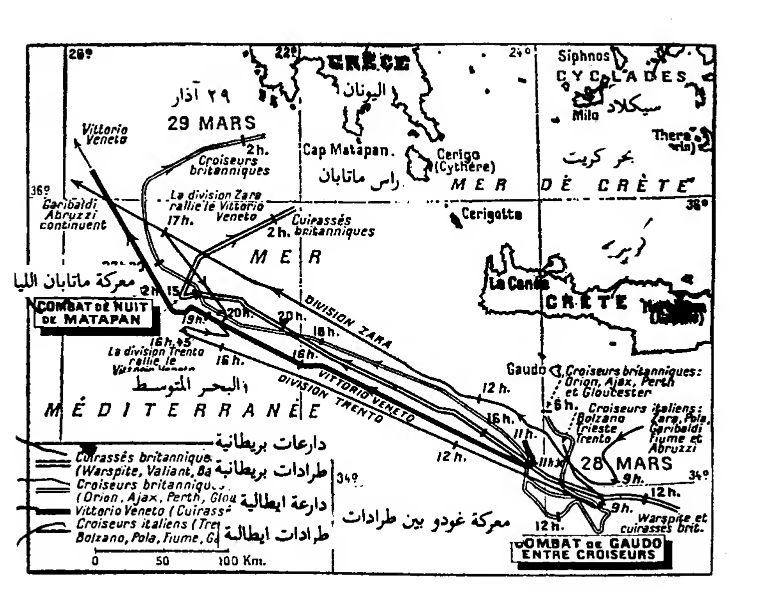
ورؤية ضعيفة. ولم تكن هناك أية طائرة ايطالية أو ألمانية في السماء. وفي الوقت نفسه شاهدت طائرة استطلاع مائية انكليزية فرقة الأميرال سانسونتي، وكانت هذه الطائرة منطلقة من مالطة. وراح ياشينو يقود اسطوله في اتجاه بنغازي في محاولة منه لخداع الخصم. وكان يعرف أن العمارة البريطانية لم تغادر بعد قاعدتها. وفي ساعة متأخرة من الليل تلقى أمراً باللاسلكي من رئاسة الأركان البحرية الايطالية يقضي بصرف النظر عن العملية في شمال كريت، ولكن عليه القيام بالثانية مهما كلف الثمن.

وكان على رأس العمارة البريطانية في البحر المتوسط الشرقي الأميرال آندور براون كوننغهام، المعروف بين رجاله اختصاراً بالحروف الثلاثة آ. ب. ث، والذي كانت تناط به مهمات متعددة: منها إمداد ميناء طبرق الليبي بالقوات المحاربة في برقة، ونقل الفرق المهيأة لدعم الجيش اليوناني، وتقييد حركة الأسطول الايطالي. ومن المعروف أنه كان في الاسكندرية اسطول فرنسي مشلول الحركة منذ حادثة المرسى الكبير في الجزائر. وكان الأميرال الانكليزي يتوقع قيام العدو بانطلاقة محتملة: وابتداء من ٢٥ آذار أصدر أوامره باتخاذ زمرة من التدابير الاحترازية أولاً والاستطلاعية ثانياً، وضرب موعد لقاء مع الأميرال بريدهام ويبل، الذي كان اسطوله راسياً في ميناء بيريه اليوناني مع أربعة

طرادات وأربع مدمرات، وذلك بتاريخ ٢٨ من الشهر المذكور تحت ضوء النهار في جنوب شرق غفادو.

وفي ساعة متأخرة من ليل ٢٧ آذار أقلع الأميرال كننغهام مع البارجة وارسبيت التي تحمل رايته، وفاليانت وبارهام، ويتولى قيادتها اللواء البحري راولينغس، وحاملة الطائرات فورميدابل التي كانت تحت إمرة اللواء البحري بويد، والتي حلت مكان حاملة الطائرات ايللو ستريوس التي أعطبت نتيجة غارة ألمانية بتاريخ ١٠ كانون الثاني من العام ذاته، وكانت تخفر هذه القوات فرقتان من المدمرات. وهكذا غادر الأميرال بريدهام ويبل ميناء بيريه مع الطرادات الأربعة: اوريون، آجاكس، برث، وغلوسستر.

غير أنه لم يخطر ببال قادة هذه العمارة الصغيرة إطلاقاً أنها تسير على مقربة من الأسطول الايطالي، مع أن طائرة مائية ايطالية، قاذفة عاملة مع السفينة فينتوريو فينيتو استطاعت أن تتعرف على العمارة الانكليزية في الساعة ٦ و٤٥ دقيقة من يوم ٢٨ آذار، في حين لم يكتشف البريطانيون خصومهم إلا بعد ربع ساعة من الوقت. ومرت اثنتي عشرة دقيقة قبل أن يفتح الايطاليون نيرانهم من مسافة ٢٢٠٠٠ متراً. فقد كانت سفنهم مسلحة بمدافع من عيار ٢٠٣ م بينما لم يكن الانكليز يملكون سوى مدافع من عيار ١٥٢ م. بيد أن المسافة كانت



معركة رأس ماتابان البحرية

على قدر من البعد مما جعل رماية الطليان دون نتائج محسوسة. وهنا ارتأى بريدهام ويبل أن أفضل حل هو جر خصومه نحو الأسطول القتالي الذي كان على موعد مضروب معه كما رأينا. وهنا استشعر

ياشينو بالمكيدة والفخ المنصوب له فتحول جانباً، ولكنه لم يكن على علم بأن بوارج الاسكندرية قد أقلعت مبحرة، ولكن لما عرف أن الطرادات التي كان يتبادل معها طلقات المدفعية كانت تلاحقه قرر مهاجمتها، من موقع القوة، وصبت سفينة الاميرال نيرانها من مدافع ذات عيار ٣٨١ مم، ولكن دون نتائج فعلية لان الطرادات المعادية توارت عن الأنظار للمرة الثانية.

وعندئذ انبعثت من ناحية الشرق ست طائرات نسافة انكليزية أقلعت من فوق حاملة الطائرات فورميدابل في الساعة ٩ و ٤٠ دقيقة. وانقضت في الساعة ١١ و ١٥ دقيقة ولكن دون نتائج أيضاً. غير أن الأميرال ياشينو أصبح الآن مكشوفاً فاتخذ قراره بالإنكفاء نحو قواعده.

وخلال النهار تعرضت القوة البحرية الايطالية لهجمات جوية عديدة شنتها طائرات بريطانية أقلعت من جزيرة كريت ومن اليونان وتعرضت البارجة فيتوريو فينيتو لغارات من طائرات من طراز آلباكور المزودة بطوربيدات، هذا فضلاً عن طائرات من طراز بلنهيم. وأصيبت البارجة على مستوى المروحة الخارجية من الجانب الأيسر على عمق خمس أمتار تحت سطح العوم. وتوقف ساعد السكان عن العمل وتعطلت فيها المكائن، وكانت تحمل ٤٠٠٠ طن من الماء العذب، ومع ذلك نجت من هذه المحنة.

وبعد الظهر أصبح الأميرال كوننغهام على مسافة ٦٠ ميلاً من الطليان الذين كانوا يعتقدون أنهم على مسافة أكبر. وأستأنفت الطرادات تلاحمها مع العدو الايطالي. وأطلقت حاملة الطائرات فورميدابل سرباً من قاذفاتها للمهاجمة عند الغسق. وهنا أمر ياشينو أسطوله بتشكيلة «القنفذ». وقد اكتشفته طائرة قاذفة محمولة على البارجة وارسبيت حوالي الساعة ١٨ على مسافة ٤٥ ميلا من أمام البارجة، وكان يسير بسرعة ١٥ عقدة. وفي الساعة ١٩ ونصف قامت السفينتان آلباتروس وسووردفيش بعبء الهجوم خلال عشرين دقيقة. ولم تلبث الطرادة بولا أن أصيبت فتوقفت مكائنها عن الحركة، وانطلق الطرادان زارا وفيوم وأربع نسافات للبحث عنها. وقد حاول الأميرال كوننغهام، هو أيضا، أن يستطلع الأمر فهرع لإرسال ثماني نسافات بقيادة العقيد البحري ماك بقصد مهاجمة العدو.

وتعرضت فرقة الطرادات الأولى، المنكودة الحظ، ونقصد بها فرقة الأميرال كاتانيئو التي كانت تبحث دوما عن الطراد بولا، أقول تعرضت للاصطدام مع الأسطول الانكليزي في وسط الليل. وفي الساعة ٢٤ ونصف حققت السفينة فاليانت تماساً بالرادار المنصوب على مقدمتها اليسرى فأمر كننغهام بالاقتراب من العدو. وأبصر رئيس أركان حربه من خلال منظار الرصد الليلي شبح طرادين ايطاليين، وأشعلت المدمرة منوارها فاكتشفت الطرادة فيوم، فلم يتأخر الانكليز عن

اطلاق نيرانهم ولا سيما من البارجة وارسبيت المجهزة بمدافع من عيار ۳۸۱ على مسافة ۳۰۰ متر أي رمي عن كثب. وأوقدت السفينة فاليانت وبارهام منواراتها وراحت تطلق نيرانها، بدورها، وفي خلال بضع ثوان أصبحت السفينتان زارا وفيوم طعمة للنيران، مثلما أصيبت مدمرتان وهما آلفييري وكاردوكشي واستغرق الرمي سبع دقائق وتلاشت فيوم في الساعة ۲۲ ونصف، أما الطراد زارا فقد لقي مصرعه بفعل طوربيد بعد ذلك بقليل. وغرق الطراد بولا في الساعة الرابعة صباحاً بعد أن أخلى طاقمه.

وفي اليوم التالي، أي ۲۹ آذار، أصبحت السفن الحربية الانكليزية على مسافة ۳۰ ميلاً جنوب رأس ماتابان في أقصى جنوب اليونان دون العثور على أي أثر للعدو. فقد اختفى العدو الايطالي، واستنقذت المدمرات ۹۰۰ رجلاً من فوق الماء مثلما عثرت النسافات اليونانية على ۱۱۰ من البحارة في حين التقطت سفينة المستشفى الايطالية غراديسكا ١٦٠ رجلاً. وفي الساعة ۱۷ ونصف عاد الانكليز أدراجهم الى قاعدتهم في الاسكندرية.

وبلغت خسارة الطليان ثلاثة طرادات ونسافتين و ٢٤٠٠ قتيلاً، واقتصرت الخسائر البريطانية على طائرة واحدة.

وابتداء من نهاية آذار ١٩٤١ هذه لم تعد القوات البحرية الايطالية تجرؤ على المخاطرة بنفسها في البحر الأبيض المتوسط الشرقي .

في الأطلنطي

أيار ١٩٤١

المطاردة المأساوية للبارجة بسمارك



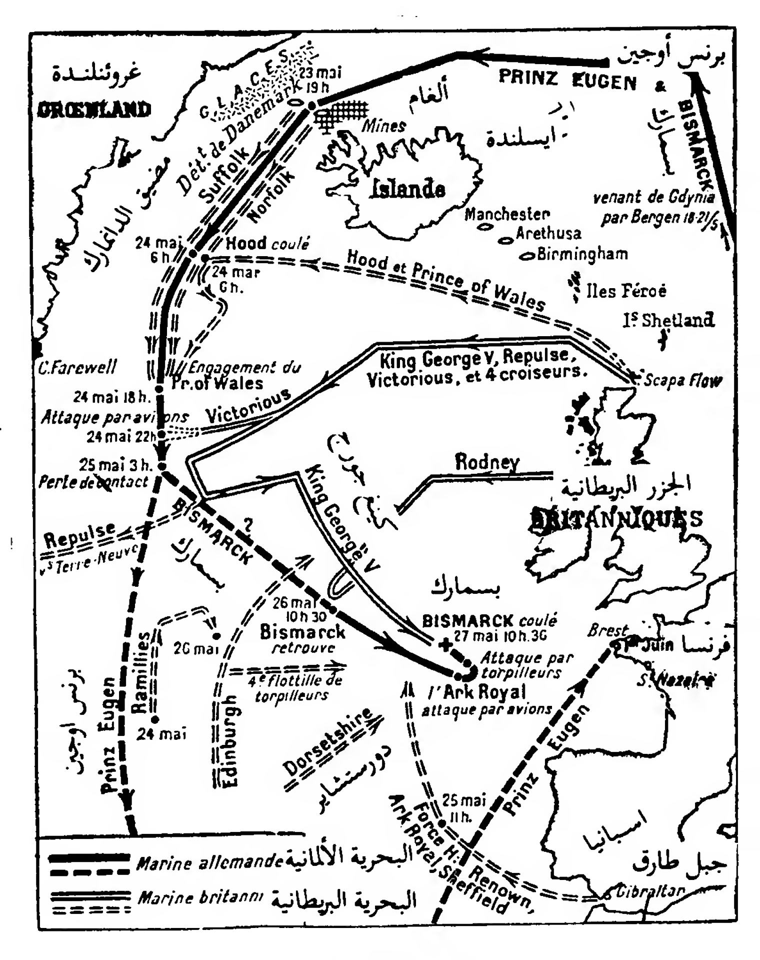
لقد وقعت مأساة بحرية لا نظير لها ، في المحيط الأطلنطي ، حوالي نهاية شهر أيار من عام ١٩٤١ ، أي بعد سنة من انهيار الجبهة الحليفة في الغرب ، وقبل شهر من غزو الجيش الألماني للاتحاد السوفياتي . وكان الطقس صحواً تماماً في المنطقة غير المحتلة من فرنسا . وكان الرأي العام ، الذي لم يبرأ بعد من انفعالاته ، يتابع مع بعض الاهتمام تطور الأحداث ، فقد بهره ، منذ بعض الوقت ، هجوم الماريشال رومل « ثعلب الصحراء » في افريقيا الشمالية ، والاستيلاء على اليونان والهجوم الألماني على جزيرة كريت بواسطة المظليين ، وقصف لندن من الجو ، ومعركة ماتابان البحرية ، وكان يسجل كل ذلك في حالة من البلبلة المعنوية .

وقد علم فجأة من بعض عناوين الصحف الفرنسية « الموجهة » ولا سيما من الصحافة السويسرية التي كانت تتسلل الى مناطق

الجنوب الشرقي من فرنسا، بأن معركة تنشب في المحيط، تشتبك فيها أجمل الوحدات السطحية المتحاربة: من انكليزية وألمانية.

فقد غادرت عمارة قتالية، مؤلفة من البارجة بسمارك ومن الطراد الثقيل برنز اوجين، بصورة مباغتة ميناء غوتنهافن ــ وهو ميناء جدينيا البولوني سابقا ــ بتاريخ العشرين من أيار صباحاً. وقد كانت هذه العمارة تحت إمرة اللواء البحري لوتجنس. أما البارجة بسمارك التي يقودها ليندرمان، فقد كانت عبارة عن سفينة حربية رائعة، تزن ٤٦٠٠٠ طن، وتستطيع أن تقطع ٣١ عقدة، أو ٥٧ كيلو متراً في الساعة. وكان يبلغ طولها ٢٤٦ متراً مع عرض مقداره ٣٦ متراً، وتحمل طاقما يبلغ تعداده ٢٤٠٠ رجلاً، وتديرها محركات تبلغ قوة عنفاتها ١٧٥٠٠٠ حصاناً، وقادرة أن ترمي قذائفها لمسافة ٣٠ كيلو متراً، من وزن ٩٠٠ كيلو غرام، من مدافعها الثمانية من عيار ٣٨٠ مم، ويحميها تصفيح من الفولاذ الممزوج بالكروم والنيكل، وبعبارة موجزة كانت أقدر سفينة عاملة في المياه الغربية. أما السفينة برنزاوجين فكانت تزن ١٩٠٠٠ طن وتحمل على متنها طاقما تعداده ١٤٠٠ رجلا.

وكانت هذه المرة الأولى التي كانت تقوم فيها هاتان السفينتان بعمليات حربية في أعالي البحار. وكانت مهمتهما على التحديد: ايقاع البلبلة في الحركة التجارية البريطانية. وقد أذاع الأميرال غنترلوتجنز ذلك على أركان حربه بتاريخ العشرين من أيار، وأن الاقلاع نحو عرض البحر



ميدان معركة الأطلنطي

سيكون في خلال ساعتين ، والاتجاه بسرعة ٢٨ عقدة ، نحو البلت الكبير ومضيق سكاجراك ، الفاصل بين السويد والدانمارك ، وذلك ضمن الكتمان المطلق . وكان على البارجة المماثلة تيربيتز ، التي تم بناؤها للتو ، أن تحل مكان البارجة بسمارك في مرسى غوثنهافن كي تقدم ـــ بصورة مؤقتة ـــ البديل في وجه الاستطلاعات الجوية الانكليزية . وفي ظهيرة الحادي والعشرين من أيار دخلت بسمارك ميناء برجن للتمون بالمازوت : وعلينا أن نعرف أن هذه السفينة الجبارة تستهلك من هذه المادة خمسين طن في الساعة . وقد تم إرسال ناقلات نفط موسوقة بهذا الوقود الثمين ، ومنذ بعض الوقت ، وبصورة سرية شديدة ، الى المحيط الأطلنطي ..

وفي الساعة ١٧ كانت عمارة اللواء البحري لوتجنس تقلع نهائياً ، منطلقة في اتجاه الشمال ، بسرعة ٢٨ عقدة .

ولم يكن من المستطاع الانتقال من بحر النرويج الى المحيط الأطلنطي ، بالطبع ، سلوك أكثر الطرق قصرا ، أي طريق جزر أوركاد وشتلاند ، وجزر فيرويه والتي تخضع لرقابة صارمة ، إذن يجب المرور من شمال أو من جنوب جزيرة آيسلندة . وكان على لوتجنس أن يختار ، فرجح ، وهو في مضيق الدانمارك ، الطريق الذي يمر بين جزيرتي آيسلندة وغروئنلندة . وربما كان من الأفضل أن يمر بمحاذاة جزر فيرويه ، ولكنها ستكون عملية بالغة الخطورة ، تتضمن مخاطر جسيمة ، من دون

خفارة مضادة للغواصات ، ودون مظلة جوية ، في بحار تهيمن عليها قوات بحرية جوية بريطانية رهيبة .

واجتازت العمارة الألمانية الدائرة القطبية في يوم ٢٢ أيار . ترى هل ستمضي مدة طويلة قبل أن يكتشف أمرها ؟ كلا . ففي يوم ٢٣ من الشهر المذكور اعترضت طرادة انكليزية الألمان في مضيق الدانمارك بعد أن أرشدتها اليها شقيقتها الطرادة سوفولك ، بواسطة الرادار . فأطلقت البارجة بسمارك بعض الصليات من عيار ٣٨٠ مم اختفى على أثرها الطراد البريطاني بحذر ضمن الضباب الذي كان يغطي المضيق . غير أن الطراداتين الانكليزيتين استمرتا في ملاحقة السفينتين المعاديتين ، على مسافة ما ، وكانتا ترسلان التحذيرات في الوقت ذاته الى الاميرالية البريطانية . إذن نحن في انتظار معركة لن تتأخر كثيراً .

وفي الرابع والعشرين من أيار ، وفي الساعة الخامسة صباحا ، هرعت أكثر سفن البحرية الملكية جسامة ، قادمتان من الشرق وهما الطرادة المقاتلة هود ، من وزن ٥٥٠٠٠ طن ، التي لا تقل تسليحاً عن البارجة بسمارك ، والبارجة برنس أوف ويلز ، التي تحمل عشرة مدافع من عيار ٣٥٦ مم . وكانت هود تحمل راية الأميرال هولند . وهنا فتح لوتجنس النار عليه من مسافة ٢٢٠٠٠ م . وكان هولند يركز رمي مدفعية عمارته على السفينة الألمانية الطليعية ، وهو يفكر بأنها هي البارجة بسمارك .

وقد كان ذلك خطأ قاتلاً لأنها كانت هي برنز أوجين . وبالفعل لقد حدث ما وقع تماماً في معركة جوتلند ، ذلك أن الأنكليز كانوا يرمون بصورة رديئة على خلاف رجال المدفعية الألمان الذي كان رميهم غاية في الاحكام . ولم يطل أمد المعركة اذ انفجرت الطرادة هود لتختفي في أعماق المحيط مع ٢٤٠٠ رجل من طاقمها ، الذي لم تقدر النجاة لأكثر من ثلاثة منهم . ولا يزال التساؤل مطروحاً عن نوعية تلك المعجزة . أما البارجة برنس أوف ويلز فقد نالت إصابات قاسية وانسحبت من الميدان . وكانت قيادتها تعتقد أنها ستتحول الى هشيم ، بدورها ، لأن السفن الألمانية كانت أكثر سرعة .

ولكن كانت هناك مفاجأة : ذاك أن الأميرال لوتجنس رفض إنجاز عمله التدميري وتابع طريقه نحو الجنوب ... أي نحو موت محتوم . وأبرق للاميرالية الألمانية بتقرير لاسلكي يفيد بأنه ينوي الوصول الى ميناء سان نازير الفرنسي وسيحاول فك التماس والالتحام بدفع ملاحقيه ــ وهما السفينتان نورفولك وسوفولك ــ وأمر قائد السفينة برنز اوجين بمتابعة مسيرته نحو الجنوب ، أي نحو قواعد التموين . ثم انعطف نحو الغرب بعد أن أرسل بضع صليات نحو سوفولك التي لم تلح كثيراً على رد الصفعة ، ثم انكفأ مرة أخرى نحو الجنوب . وكل ما يريده الآن هو بلوغ خليج غاسقونيا في جنوب غرب فرنسا . ولكن شاهدته طائرة استكشاف انكليزية في هذا الوقت . وعندئذ أعطى



البوارج الانكليزية «فانغوارد» «هود» و «رينوون»

القائد العام البريطاني ، السير جون توفي ، الأمر لحاملة الطائرات ايللوستريوس ، التي وصلت قادمة من جزر أوركاد بصحبة البارجة « الملك جورج الخامس » بإرسال طائراتها للانقضاض قبل هبوط جنح الظلام . وقد تم هذا الهجوم في الوقت المرغوب ، ولكن دون نجاح . وقد أصاب طوربيد ، بدقة ، فوقعة بسمارك ولكن التصفيح الفولاذي المخلوط بالكروم والنيكل قاوم بشكل طيب .

ولاحظ الانكليز في الخامس والعشرين من أيار ، وعند الفجر ، أنهم فقدوا التماس مع العدو . وراح اللواء البحري لوتجنس يبحر في اتجاه الجنوب الشرقي ، وكان بمقدوره تحاشي تمركز العدو لو كان لديه ما يلزم من عبقرية وحذق ، وذلك لو حاول الابحار من شمال شرق آيسلندة وجزر فيرويه والعودة سليماً الى قاعدته . ولكن مصيره كان قدراً مقدوراً . ولما كان يتوهم دائماً أنه مكشوف بالرادار فلم يتردد ، هذا البائس ، من إبراق رسالة لاسلكية الى الأميرال الألماني « الغربي » الذي كانت قاعدته في فرنسا المحتلة . وقد التقط الانكليز هذ البث ، بيد أن العاملين في أجهزة القياس بالمنقل الراداري « راديو غوينمتري » والذين يبثون الرفوعات على المصورات البحرية ، ارتكبوا خطأً كارتوغرافياً يبعث على الهزء ، ذلك أن تدريج الخرائط المستعملة كان مغلوطاً ... وبذلك حددوا موقع بسمارك ... الى الشمال من آخر موضع معروف عنها . إذن هل عادت أدراجها ؟ واندفع المطاردون الانكليز في هذا الاتجاه .

وظلت البارجة الألمانية طيلة النهار تمخر عباب بحر خاوٍ ، مقفر . وفي فجر ٢٧ أيار لم يكن هناك ، أيضاً ، من شيء يلوح في الأفق ، ولما كان البحر هائجاً فقد هبطت السرعة الى عشرين عقدة . وفي الساعة العاشرة والنصف ظهرت في الأفق طائرة من طراز « كاتالينا » أشارت الى موضع « سفينة حربية كبرى » . وقد فوجئت أركان الحرب البريطانية بذلك وهي التي تبحث عن عدو في الشمال الشرقي ، بينما كان العدو في الجنوب الشرقي .

وأقبلت من قاعدة جبل طارق قوة بحرية ، مؤلفة من طرادة قتالية تدعى « رنوون » ومن حاملة الطائرات « آرك رويال » ومن الطرادة « شيفيلد » والتي سرعان ما وجدت نفسها في وضع غاية في جودته للتدخل . وكانت طائرات « سووردفيش » تقلع من فوق حاملة الطائرات ، بالرغم من رداءة الطقس ، التي خفضت سرعة بسمارك الى حدها الأدنى . ولم يكن يدخل في روع الطيارين وجود أي مجال للخطأ اذ أكدت القيادة لهم أن ليس هناك أية سفينة حربية في الميدان . ولكن كانت هناك شيفيلد التي كانت تحاول البحث عن العدو الألماني بالرادار أو بالنظر ... ولما رأى قائدها الطائرات أدرك أن هذه تتخذ من طرادته هدفاً لها ، وهكذا نجا من طوربيداتها بأعجوبة حقيقية .

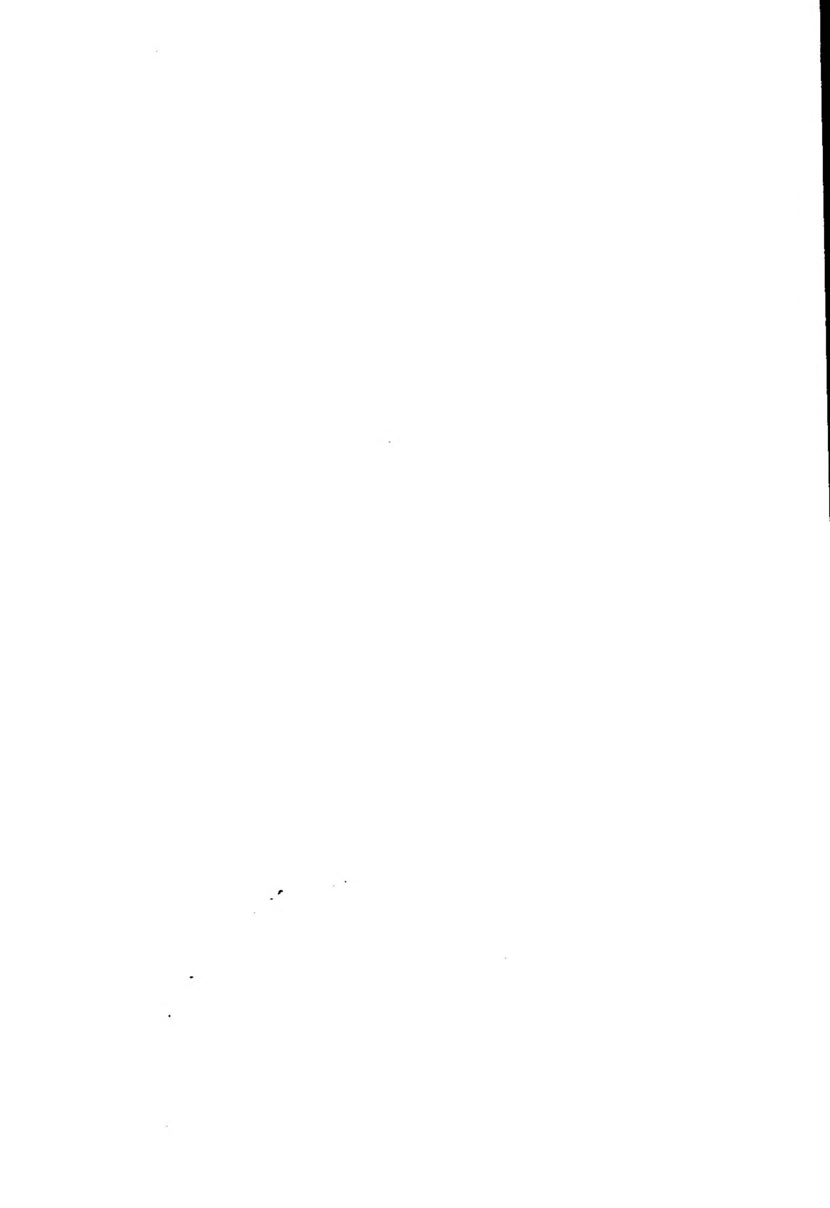
وظلت البارجة بسمارك تبحر في اتجاه الجنوب الشرقي . وها قد مر عليها يومان دون أن تطلق قذيفة مدفع واحدة ، وها قد أقبلت ليلة

أخرى. ولكن ها هي الطائرات المعادية تظهر في الجو، وهي طائرات سووردفيش ذاتها، التي تعرضت لنيران كل قطع الدفاع الجوي. وقد انفجر طوربيد قبل أن يدرك قوقعة البارجة بسمارك وهكذا تحاشت هذه البارجة أربعة طوربيدات على الأقل. وفجأة أقبلت عليها طائرة من خلفها وقدحت القذيفة جسم السفينة من فوق. فتوقف السكان (الدفة) عن الحركة وثبتت على مقدار ٢٠ درجة من اليسار: وعلى الرغم من سلامة المكائن فقد قضى على هذه السفينة الضخمة بأن تدور على نفسها، وتراوح في مكانها. فقد أصاب الانكليز المنطقة الحيوية الوحيدة غير المحمية بالفولاذ الممزوج بالكروم والنيكل، ولم تعد البارجة بسمارك تتحكم في مناورتها، ولا أمل يرجى من وراء أية محاولة لاصلاحها، وهرع نحوها كل الأسطول البريطاني. وأرسل الاميرال لوتجنس آخر رسالة: «سنحارب حتى النهاية. لنا ثقة راسخة بكم، يا سيدي الفوهرر، وفي انتصار ألمانيا».

وتحت جنح الظلام بدأت المدمرات بالظهور وراحت تهاجم بالطوربيد ولكن دون نتائج تستحق التقدير. وفي فجر اليوم التالي، أي ٢٧ أيار، وصلت سفينة الأميرالية «الملك جورج الخامس» مع «رودني» الى مكان العمليات، وباشرت رودني فتح نيران مدافعها من عيار ٤٠٦ مم ولحقت بها مدافع سفينة الأميرال. وتصدت بسمارك للهجوم ولكن مع رمي بطيء. وعملت أوائل الصليات البريطانية على

تهشيم الجسير الذي كان يقف عليه الأميرال لوتجنس. وكان في ذلك بداية المجزرة التي ستستمر بضع ساعات. وأقبلت الطرادة الثقيلة « دوستشاير » لتأخذ مكانها في المعركة، ولكن البارجة الألمانية لم تغرق على الرغم من هذا الطوفان الفولاذي المتساقط عليها، وظلت رايتها خفاقة في أعلاها. وقد كان هناك على الأقل ثلاث إصابات في الصميم. وقذفت دور ستشاير طوربيدين على مسافة ٢٠٠٠ م ثم انبقرت، عن قصد، في قعرها بواسطة حشوات الاغراق الذاتي. وأخيراً غاصت بسمارك. ورفض قائدها القفز الى الماء فغرق مع سفينته العزيزة عليه. وقد أطلق أسمه بعد قليل على البطارية الكبيرة التي كانت تطلق من مضيق بادوكاليه على الأراضي البريطانية. وقد بلغ عدد الناجين المائة من طاقمها التقطتهم السفن الظافرة.

وبعد أن امتارت السفينة الالمانية الناجية برنز اوجين بالمازوت من نقالة نفط، أفلحت في بلوغ ميناء برست دون عناء أو عائق.



في الباسفيكي

أيار ١٩٤١

أمريكا واليابان تأخذان بتلابيب بعضهما بعضا



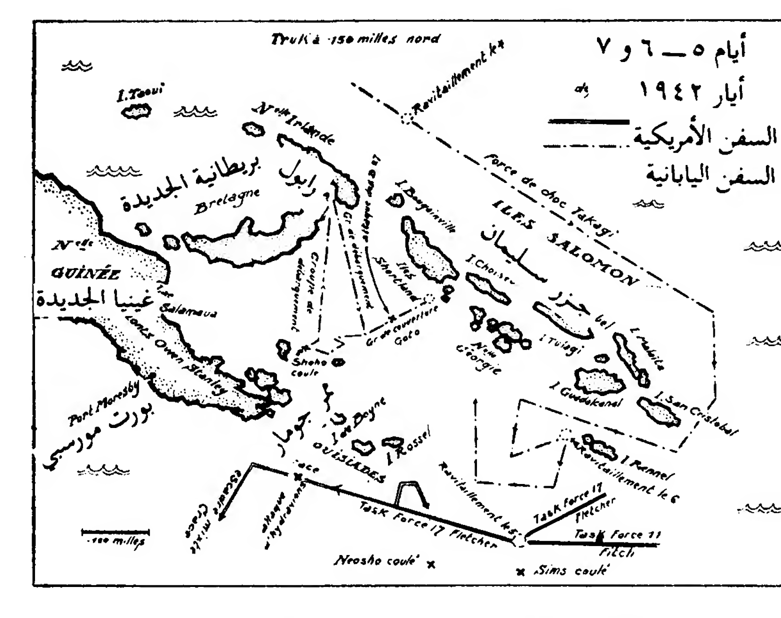
خلال الفترة الواقعة بين الهجوم المباغت على بيرل هاربور ، وبين انفجاري القنبلتين الذريتين فوق مدينتي هيروشيما وناغازاكي ، وقعت عمليات بحرية لا مثيل لها إطلاقاً ، حتى هذا التاريخ ، فوق صفحة مياه المحيط الهادي اللامتناهية بين اسطولين جبارين : هما اسطول الولايات المتحدة والاسطول الياباني . فقد حصل اليابانيون في البداية على بعض الانتصارات التظاهرية ، ولكنهم لم يفلحوا في التوصل الى مكاسب نهائية . والواقع لم تكن قضية بيرل هاربور ، بحد ذاتها ، تؤلف الضربة القاضية التي كانت الدوائر البحرية اليابانية تتوقعها منها . غير أنه سيكون من نافلة القول في ان الانتصارات الصاعقة التي حققها اليابانيون في الارخبيل الاندونيسي تسمح لنا بالاقتناع بأن القوات المسلحة لدى حكومة طوكيو كانت هي المتفوقة من حيث التنظيم . فقد احتدمت المعارك البحرية منذ شهر كانون الثاني ١٩٤١ وتمخضت

عن احتلال رابول (Rabaul) في جزر بريطانيا الجديدة. وفي شهر أيار احتل اليابانيون مواقع لهم على الساحل الشمالي لجزيرة غينية الجديدة وعزموا على احتلال مدينتي تولاجي وبور مورسبي، كي تكون لهم حرية المناورة المطلقة في بحر المرجان، وكي يجتاحوا، في مرحلة تالية، جزر ميداوي (Midway) وجزر آلوشيان كي يقسروا العمارات البحرية الامريكية ــ أي ما تبقى منها ــ على قبول خوض اشتباك يمكن من خلاله تصفية الحساب نهائياً بين أساطيل الدولتين. وسنعرض بالتتالي هاتين المعركتين البحريتين الكبيرتين: أي معركة بحر المرجان ومعركة ميداوي.

معركة بحر المرجان

يقع بحر المرجان بين استراليا وأرخبيل سليمان، أي في معزل عن مسار التيفونات، تطيف به جزر مخضوضرة شبه خاوية من السكان بسبب وخامة مناخها. والى الشمال منه تقع جزيرة بريطانيا الجديدة وغينيا الجديدة الشرقية، التي تدعى أيضاً بابوازيا.

وكانت الخطة اليابانية ــ خطة MO ــ ترمي الى احتلال جزيرة تولاجي في بحر سليمان والتي تملك ميناءاً ممتازاً، والى الاستيلاء على بور مورسبي على الساحل الجنوبي من جزيرة غينية الجديدة، والذي يحوي على مطار يمكن استخدامه كقاعدة لغارات قد توجه الى استراليا. أما



مسار المعركة في يوم الخامس والسادس والسابع من أيار ١٩٤٢

القوات البحرية الامريكية فقد كانت قليلة العدد في هذه المنطقة البحرية ، ولكن من جهة أخرى ، لم يكن بمقدور اليابانيين تقديم أكثر من جزء محدود نوعاً ما من اسطولهم ، لأن تجهيز عملية الهجوم على ميداوي بقيادة الأميرال ياماموتو (Yamamoto) استحوذ على أفضل الوحدات البحرية . أما التحرك في بحر المرجان فقد عهدت القيادة اليابانية به للأميرال اينويه (Inouye) قائد الأسطول الرابع ، وكانت رايته

فوق الطرادة العتيقة كاشيما في ميناء رابول ، في أرخبيل بسمارك ، الواقع شمال جزيرة غينية الجديدة. وكان يتصرف الأميرال المذكور بالقطعات التالية :

ــ أول مجموعة انزال تضم احدى عشرة من ناقلات الجند تخفرها ست مدمرات : القصد نحو بور مورسبي .

ــ مجموعة انزال ثانية بقيادة العميد البحري شيما ، وهي أقل أهمية ، وهدفها جزيرة تولاجي .

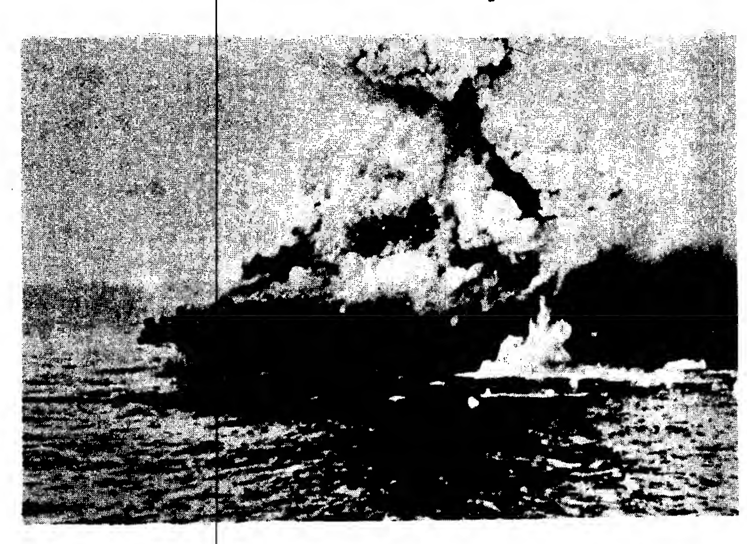
ــ مجموعة دعم يقودها العميد البحري ماروشيجه، وتضم ناقلة طائرات مائية وطرادتين ، ومقصدها جزر لويزياد ، في جنوب شرق جزيرة غينية الجديدة .

ــ مجموعة تغطية تحت قيادة العميد البحري غوتو (Goto) مع حاملة خفيفة للطائرات ، شوهو (Shoho) ، وأربع طرادات ومدمرة .

ــ مجموعة تدخل بقيادة العميد البحري تاكاجي ، كانت تتخذ قاعدتها ، بالأصل ، في تروك (Truk) (١٥٠ ميلاً الى الشمال من رابول) وتضم حاملتي الطائرات الكبيرتين زويكاكو وشوكاكو وطرادتين وست مدمرات . أما قائد حاملتي الطائرات فقد كان العميد البحري هارا .

ـــ قوة تحتمائية (ست غواصات) ووحدتا الطيران البحري المتمركز على البر في رابول.

وكان مسار مخطط العملية على الشكل التالي: احتلال جزيرة تولاجي في ٣ أيار، وبور مورسبي في السابع منه. أما قوة التدخل القادمة من تروك، فقد كان عليها، بعد أن تمر من شمال شرق جزر سليمان، أن تندفع في بحر المرجان (Corail) من الجنوب، كي تقضي على القوات المعادية التي قد تكون متواجدة فيه.



معركة بحر المرجان. حاملة الطائرات الأمريكية «لكسنغتون» بعد هجوم الطيران الياباني

أما الأميرال الأمريكي نيميتز (Nimitz)، القائد الأعلى في المحيط الهادي فقد بلغت مسامعه منذ السابع عشر من نيسان بأن عملية معادية كانت قيد التجهيز في بحر المرجان، وأنها كانت تستهدف أساساً بور مورسبي وانها ستقلع منطلقة، على الأكثر، في بداية أيار.

وكان يتخذ مقر قيادته في بيرل هاربور، وكانت تحت تصرفه، في جنوب غرب المحيط الهادي، القطع التالية:

ـ قوة العمل ١٧ (Task force)، بقيادة اللواء البحري فلتشر (Fletcher) وحاملة الطائرات يوركتاون وثلاث طرادات وست مدمرات.

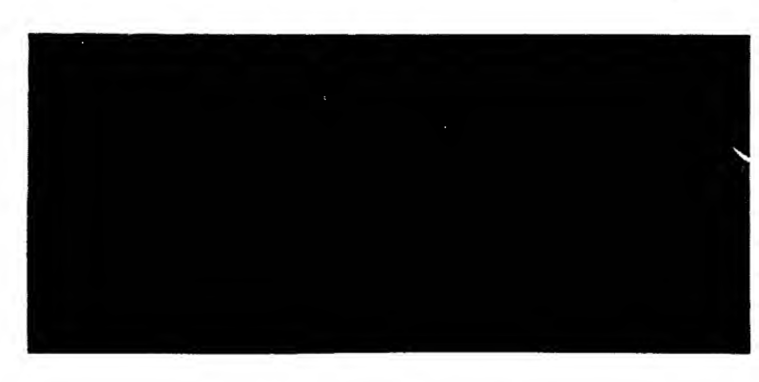
ـ قوة العمل ١١ ـ وعهد بقيادتها للعميد البحري فيتش (Fitch)، وتضم حاملة الطائرات لكسنغتون وطرادتين وخمس مدمرات.

ـ طيران محمول ويتألف من ١٥٠ طائرة (نسافات، قاذفات، مطاردات).

ـ عمارة مختلطة داعمة، ويقودها العميد البحري البريطاني في غريس (Grace) وتشتمل على طرادتين استراليتين وطرادة أمريكية.

وفي الأول من أيار تولى اللواء البحري فلتشر قوتي العمل ١٧

و ١٤ في المنطقة الواقعة إلى الغرب من جزر هبريد الجديدة. وكانت تعليمات الأميرال نبميتز تحتم عليه ما يلي: «اتخاذ بحر المرجان ميداناً للعمليات واغتنام كل الفرص الموائمة لتدمير سفن العدو الحربية والتجارية وطيرانه».



طاقم حاملة الطائرات «لكسنغتون» وهم يغادرون سفينتهم، وقد تم التقاطهم جميعا بحيث لم يفقد واحد منهم

وفي الثالث من أيار نزلت مجموعة العميد شيما في جزيرة تولاجي التي سبق للاستراليين أن جلوا عنها. وما أن علم اللواء فلتشر بالأمر حتى سار بقوة العمل ١٧ باتجاه جزيرة وادي القنال (**Guadalcanal**)، وفي الرابع من أيار أطلق طائراته من على متن حاملة الطائرات يوركتاون على جزيرة تولاجي: وكانت نتيجة هذه «المعركة» لا شيء تقريباً. وفي

أثناء هذا الوقت كان العميد الياباني تاكاجي مع حاملتي الطائرات يحاذي جزيرة سليمان ، هذا في حين كانت قوة الانزال اليابانية الموجهة الى بور مورسبي تقلع في الرابع من أيار ، في المساء ، انطلاقاً من رابول .

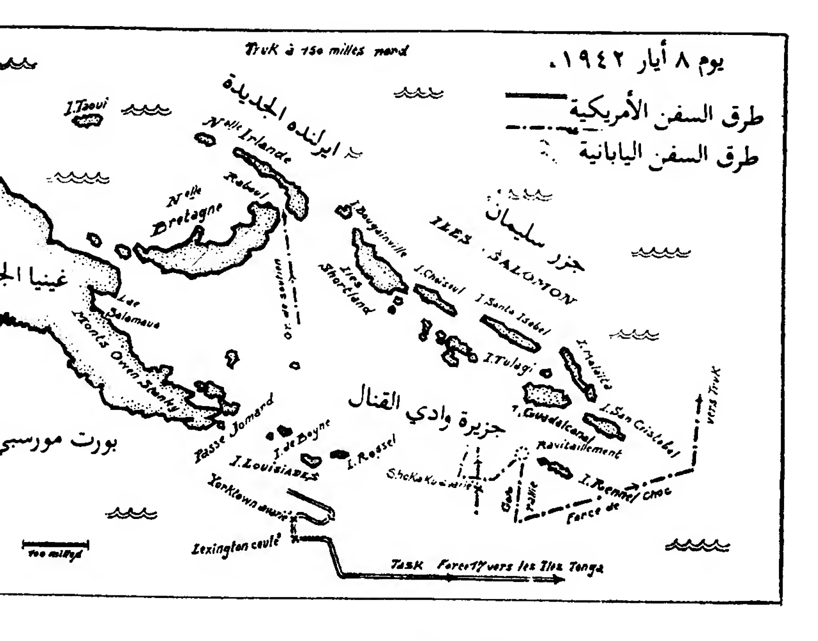
وكان الخامس من أيار أول يوم في معركة بحر المرجان . وبعد أن انضمت قوتا العمل ١٧ و ١١ الامريكيتان لبعضهما ، وشحنتا بالمؤن ، اتجهتا نحو الشمال الغربي ، هذا بينما أخذ العميد توكاجي يتوغل في بحر المرجان بين جزيرتي سان كريستوبال وجزيرة رينل (Rennel) .

وفي السادس من أيار انضمت العمارة الصغيرة المختلطة التي يقودها غريس الانكليزي الى جملة القوات الامريكية . ونصب اللواء البحري فلتشر رايته على الطرادة مينابوليس ، واستأنف طريقه نحو الشمال الغربي . أما تاكاجي فاتجه نحو الجنوب وتقاطع ، دون أن يعرف ، مع الطريق التي سلكها الامريكان . وكان الطقس رديئاً والسماء ملبدة بغيوم منخفضة ، بحيث كان الاستطلاع الجوي عديم الجدوى . ولكن في الساعة العاشرة والنصف أقلعت أربع طائرات من طراز « القلاع الطائرة » وتابعة للطيران البري المتمركز في مورسبي ، وانقضت على « حاملة الطائرات » الصغيرة شوهو التي كانت على مسافة ٦٠ ميلاً من جزر شورتلند : ولكن دون نجاح يذكر .

وفي الساعة السادسة من صباح السادس من أيار أبصرت

طائرات العميد الياباني تاكاجي حاملة النفط نيوشو والمدمرة سيمس (Sims) وحسبتها حاملة طائـــرات وطـــرادة، ووصلت الطائـــرات القاذفة، في الساعة التاسعة، وما لبثت السفينتان الامريكيتان أن غاصتا في الأعماق . ولكن استطاعت الطرادة الامريكية أن تسقط ست طائرات يابانية، وأثناء عودة الطيارين اليابانيين لقواعدهم فوق حاملتي الطائرات اليابانيتين اكتشفوا حاملتي الطائرات الامريكيتين ولكن ذلك بعد ان استنفذوا حمولتهم من القنابل. وفي صباح السابع من الشهر كان فلتشر وعمارته في جنوب جزيرة روسل (Rossel)، فاتجه شمالاً، في حين أصدر أوامره للعميد البريطاني غريس بالتوجه نحو مخرج ممر جومار لاعتراض مجموعة الانزال التي تستهدف بور مورسبي. أما الطرادتان الاستراليتان فقد كانتا عرضة لقنابل الطائرات اليابانية القادمة من رابول ولكنهما نجتا من المجزرة وعادت مجموعة الانزال اليابانية أدراجها. وانكفأ العميد غريس نحو اوستراليا، ظناً منه بأن الخطر قد استبعد.

وعندئذ اتجهت قوة الاميرال فلتشر شمالاً وأطلقت طائـراتها ــ ٩٣ طائرة ــ على حاملة الطائرات اليابانية شوهو التي تم اكتشافها، وقد أصيبت هذه بثلاث عشرة قنبلة وسبعة طوربيدات كي تغرق حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف. وقد استغرق الهجوم عشرين دقيقة وعادت مجموعة التغطية اليابانية التي يقودها العميد البحري الياباني عوتو هاربة في اتجاه الشمال.



ميدان معركة الباسفيكي في يوم ٨ أيار ١٩٤٢

أما الأميرال تاكاجي فقد أطلق ، من جانبه ، طائراته التي أقلعت على التو للبحث عن العمارة الأمريكية . وسرعان ما وجدت نفسها ، بالصدفة ، فوق حاملتي الطائرات الأمريكيتين لكسنغتون ويوركتان ، فتعرضت للمدفعية المضادة للطائرات . وهكذا خسر اليابانيون عشر طائرات ، وعادت بقية الطائرات اليابانية إلى قواعدها

فوق الحاملتين ليلا في وضع من الفوضى بحيث فقدت احدى عشرة طائرة أثناء عملية الهبوط .

وهنا أصبح الصدام بين الجانبين أمراً محتوماً .

وفي صبيحة الثامن من أيار انطلقت طائرات الاستكشاف الجوي من كلا الجانبين . وكان كل من الأميرال تاكاجي والأميرال فلتشر يجهل تماماً موقع خصمه . وفي الساعة الثامنة والربع استشف الطيارون الامريكان السفن اليابانية على مسافة ١٧٥ ميلاً الى الشمال الشرقي من قوة العمل التي اكتشف اليابانيون ، بدورهم ، أمرها وقد كان لدى اليابانيين حينئذ ١٢١ طائرة مقابل ١٢٢ طائرة لدى الامريكيين .. ووقع الهجوم على حاملة الطائرات اليابانية شوكالو التي قامت به ٣٩ طائرة منطلقة من سطح حاملة الطائرات الامريكية يوركتاون . ولكن كانت النتيجة تافهة تقريباً . ولكن ظهرت في الأفق طائرات الحاملة لكسنغتون على شكل موجة جديدة ، وألقت قنبلة ثقيلة واحدة على الحاملة اليابانية شوكاكو التي أصيبت بعطب خطير واضطرت للعودة الى اليابان في حالة بائسة للغاية . وتعرضت حاملتا الطائرات الامريكيتان لهجوم قوامه ٦٩ طائرة يابانية عجزت المطاردات الاميركية عن اعتراضها . وفي حوالي الساعة الحادية عشرة أصيبت لكسنغتون بطوربيدين وقنبلتين مثلما تلقت يوركتان قنبلة . وتصاعدت النيران في حاملتي الطائرات الامريكيتين واعتقد اليابانيون أن التلف قد

أعطبهما تماماً. وحدث انفجاران فوق الحاملة لكسنغتون في الساعة ١٣ وفي الساعة ١٤ و٤٥ دقيقة. وقد تم إخلاء طاقمها في الساعة ١٧ وأقبلت مدمرة امريكية لتسدد اليها طلقة الخلاص بواسطة طوربيد أرسلها نحو قعر المحيط.

وفي مساء الثامن من أيار غادرت قوة العمل (Task force) مياه بحر المرجان وراحت تبحث عن المؤن في نوميئا وفي تونغاتابو، وانسحب الأسطول الياباني نحو تروك بعد أن تقرر تأجيل الهجوم على بور مورسبي الى شهر تموز.

وقد توزعت خسائر المعركة على الشكل التالي:

الأمريكيون: خسارة حاملة طائرات قتالية، غرق ناقلة نفط ومدمرة، ٦٦ طائرة أسقطها اليابانيون، ٥٤٣ قتيلاً، حاملة طائرات معطوبة.

ـــ اليابانيون: غرق «حاملة طائرات» خفيفة، غرق مدمرة، اسقاط ٨٠ طائرة يابانية، ٩٠٠ قتيل، عطب «حاملة طائرات» قتالية، ومدمرة.

واذا كان الظفر من نصيب أبناء الشمس المشرقة «اليابانيين» على الصعيد التكتيكي، فقد كان نجاحاً استراتيجياً للامريكان.. ذلك أن اليابانيين لم يحققوا هدفهم وهو الاستيلاء على بور مورسبي الذي لم

يستطيعوا احتلاله ــ ولم يحتلوه إطلاقاً ــ كما ان « حاملتي الطائرات » الكبيرتين شوكاكو وزويكاكو لم تتمكنا من الاشتراك في معركة ميداوي .



نهاية حاملة الطائرات « لكسنغتون »

وقد كانت معركة بحر المرجان أول معركة تجري « فيما وراء الأفق » بين عمارتين لم تكونا في مدى رؤية بعضهما البعض ، بل كانتا تقتتلان بالاستعانة بطيرانهما المحمول لا غير . فقد أصبحت حاملة الطائرات أكثر سفن القوات البحرية أهمية .

وقد أدركت القيادة العليا الأمريكية ذلك بشكل صحيح وكانت تعليماتها تحتم ترجيح مهاجمة « حاملات الطائرات » المعادية قبل سواها من السفن الحربية . وقد وجهت صناعتها نحو بناء « جسور سفن

مسطحة » التي وفرت لها النصر على القوات اليابانية . وقد استطاعت أن تبني ١٣٦ حاملة طائرات خلال الحرب بينما لم تنتج الترسانات اليابانية سوى ١٩ حاملة طائرات .

ميدواي

٣ حزيران ١٩٤١

المعركة التي أنقذت البحرية الامريكية



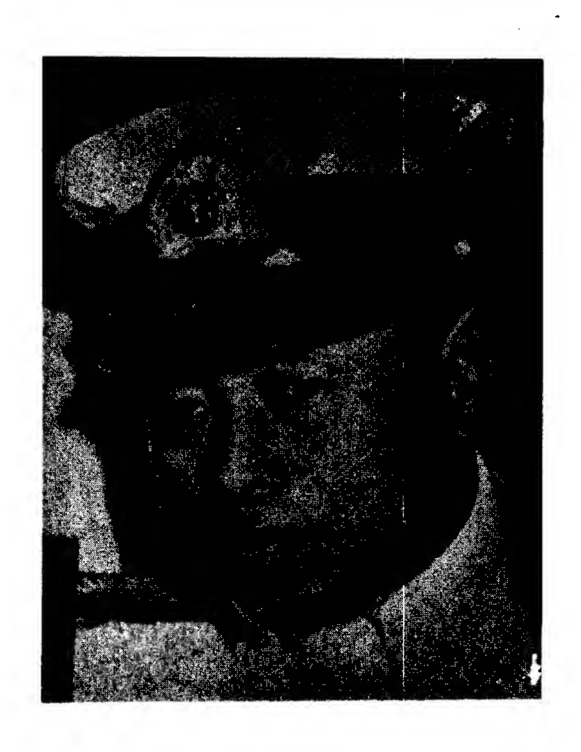
يقع آتول[1] ميدواي المرجاني ، في المحيط الهادي ، مباشرة الى الشمال من مدار السرطان ، وجنوب خط العرض ٣٠ والى الغرب من خط الطول ١٧٠ وعلى مقربة من خط الطول ١٨٠ . وتعتبر ميدواي ، التي تمثل أكثر الحلقات بعداً عن جزر هاواي ، وذلك اذا استثنينا آتول كوريه (Kuré) ، غير المأهول ، تعتبر أصغر أبعاداً من جزيرة وايك (Wake) ، ولا تتصف بأية خاصة من خصائص جزيرات بحار الجنوب : كالنبات والأزهار ، والسكان الأصليين ذوي الجاذبية الخاصة . ولهذا الآتول قطر يمتد على تسعة كيلو مترات ولا تشكل الأرض اليابسة أكثر من جزء ضئيل من مساحته . وتتألف ميدواي من جزيرتين ، هما ساند وايسترن ، ويقل طول الأولى عن خمسة كيلومترات في حين لا يتجاوز

(١) آتول (Atoll) جزر دائروية الشكل ، مرجانية ، في المحيطات المدارية .

طول الثانية كيلو مترين. إذن ما هي ميدواي على الضبط؟ انها حبة رمل ضئيلة في متاهات المحيط الأعظم.

وفي عام ١٩٣٥ أنشأت شركة خطوط بان آميريكان للطيران فيها مطاراً، ومساكن، وفندقاً صغيراً. وفي شهر آذار ١٩٤٠ قامت فيها قاعدة لاستقبال الطائرات الحربية من طراز كاتالينا. ودخلت هذه المنشأت حيز العمل في ١٨ آب من سنة ١٩٤١، أي قبل ستة شهور من اندلاع الحرب بين الولايات المتحدة واليابان. وقد تحولت جزيرة ساند الى مدينة يقطنها اخلاط من الناس، مع بضع مئات من الشغيلة، وعدة كتائب من جنود البحرية (المارينز) الى جانب حظيرة كبيرة وميناء اصطناعي لايواء الطائرات المائية ومستودعات للبنزين. وانشيء في جزيرة ايسترن مدرج للطيران طوله ١٨٠٠ م. ويبدو كل ما ذكر في أيامنا كشيء عفا عليه الزمن بصورة صارخة، ولكن كان في تلك الأيام عملاً رائعاً.

وقد قذفت ميدواي لأول مرة بالقنابل خلال ليلة ٧ الى ٨ كانون الأول ١٩٤١. وبعد خمسة عشر يوما جيء بامدادات الى الآتول، وبعد سقوط جزيرة وايك بأيدي اليابانيين، أصبحت ميدواي أكثر القواعد الامريكية بعداً نحو الغرب في المحيط الباسفيكي. وكان من المحتم على اليابانيين أن يهتموا بها، لأنهم لا يستطيعون مراقبة ما يجري فيها، نظراً الى أن الآتول يقع خارج مدى نطاق عمل طائراتهم المتمركزة في وايك.



الأميرال ياماموتو : القائد الأعلى للأسطول الياباني

اذن كان عليهم أن يتقدموا في اتجاهها ليروا ما يحدث عن كثب ، أكثر .

ولما عجز اليابانيون عن اجتياح بور مورسبي ، فقد التفتوا نحو الشمال ، لأن الوقت كان يعمل في غير مصلحتهم كما كان الأسطول

الامريكي يسترد أنفاسه، ومن الواجب تدميره في أقصى سرعة ممكنة وبأشد ما يمكن من القسوة. وقد قال الاميرال ياما موتو، القائد الأعلى، وكرر ذلك، بأن اليابان إذا عجزت عن أن تربح الحرب في عام واحد، فمعنى ذلك انها فقدت كل قدراتها. اذن كان الهدف الأول قسر الامريكيين على الاشتباك في معركة محتدمة فوق البحر والقضاء عليهم دفعة واحدة. وعلى اليابانيين الانطلاق نحو عقر دار الامريكيين على مقربة من جزر هاوائي، والتقدم بخطوة اضافية لما وراء المحيط الدفاعي الذي كان لا يزال غير بعيد كثيراً عن القواعد المعادية، ودفع النطاق المذكور حتى محوره الأقصى الممتد من جزيرة كيسكا (جزر آلوشيان)، ميدواي، جزر جيلبرت، جزيرة وادي القنال، ومورسبي.

الخطة اليابانية

ولتحقيق ذلك عمد الأميرال الياباني ياماموتو (Yamamoto) الى تعبئة كل القوات البحرية العاملة تحت إمرته. ولسوء الحظ كانت اثنتان من «حاملات طائراته» الكبرى، من أصل ثمان، معطلتين وفي ورشات التصليح في اليابان. غير أن الأميرال ياما موتو أصر، بعد معركة بحر المرجان، على الاندفاع شرقاً ونظم حركته على الشكل التالي:

— قوة ترسل الى جزر آلوشيان مع حاملتي طائرات، تعمل مع كل الاستقلال في حركيتها.

ـــ ووجه نحو ميدواي ثلاث مجموعات من غواصات مهمتها مراقبة تحركات الأسطول الامريكي واقامة قواعد تموين لطائرات الاستطلاع الضخمة.

قوة صدام يقودها الأميرال ناغومو، تشتمل على أربع حاملات طائرات، ومجموعة دعم، ومجموعة مرافقة للحراسة.

ـــ مجموعة لاحتلال ميدواي يقودها الأميرال كوندو.

ـــ وظل القسم الأعظم من القوات تحت أوامر ياما موتو شخصياً، ويضم بوارج هي أضخم مثيلاتها في العالم (٦٠٠٠٠ طن) وطرادات ثقيلة وخفيفة، و«حاملة طائرات» خفيفة.

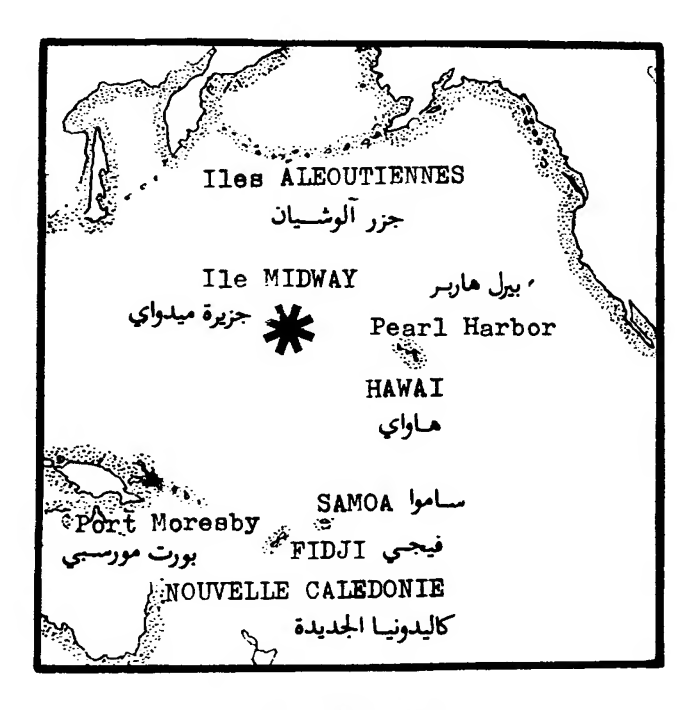
وبعبارة مقتضبة كانت تضم هذه الحملة خمسين وحدة بحرية، تمثل زهرة الأسطول الموجود في جيش بحرية الميكادو..

ولكن كان هناك ظل يخيم على هذه اللوحة: وهو أن الأميرال الياباني كان يجهل الوسائل المتوفرة لدى خصمه، لأن مصادر استخباراته كانت شبه معدومة، إذ سبق أن تم القضاء على كل شبكة التجسس اليابانية في جزر هاواي. والواقع لقد كان الأميرال ياما موتو «أعمى» بسبب افتقاره الى وسائل طيران بعيدة المدى. فحاول تكوين فكرة عن نوايا الامريكيين، الذين كان لا يقدر قواتهم حق قدرها، كما كانت نظرته اليهم لا تخلو من شيء من الازدراء. أما القادة الذين كانوا



الأميرال شستر نيميتز ، القائد الأعلى للأسطول الباسفيكي

يعملون تحت أوامره فقد كانوا ثملين بنشوة زمرة الانتصارات التي حققوها ، فقد كانت لديهم الثقة المطلقة برؤسائهم ولم يكن لديهم سوى فكرة وحيدة: القضاء بأسرع وقت ممكن على ما تبقى من الأسطول الامريكي بعد غارتهم المباغتة على بيرل هاربور ، وبعد معركة بحر المرجان غير الحاسمة.



ميدان معركة ميدواي

وقد ارتكب الأميرال ياما موتو أول غلطة ببعثرة قواته عندما أرسل قسماً من «آرماداته» نحو جزر آلوشيان النائية شمالاً، وبتجزئة المجموعات الأخرى، وبتقدمه، هو ذاته، مع معظم بوارجه على مسافة يومين من قوة الصدام المرافقة. وأخيراً كان يعتقد أنه تجاه حاملة طائرات واحدة، في حين كان عليه أن يواجه ثلاث.

من الجانب الامريكي

وكان من حسن طالع الأمريكيين أن كان لديهم قادة من ذوي الكفاءة العالية جداً: مثل الأميرال نيميتز (nimitz)، قائد اسطول الباسفيكي، وهو بحار كله حيوية يتميز بدقة الحس والذكاء، ويتصف بطاقة جبارة على العمل ولديه عبقرية إصدار القرارات السريعة. وكان يعمل تحت أوامره اللواء البحري فلتشر (Fletcher) والأميرال سبروانس، وهما قائدا قوتي العمل (Task Force). وقد تلقى نيميتز الأوامر بالحفاظ، بالغا ما بلغ الثمن، على خط يربط ميدواي بجزيرة ساموا وجزر فيجي وميناء بريسبان الاسترالي، وبالدفاع عن مثلث ميدواي ــ جونستون ــ هاواي، وبحماية خطوط المواصلات بين الولايات المتحدة ونيوزيلندة واستراليا.

واذا كان اليابانيون مفتقرين للمعلومات الجوهرية عن اعدائهم، فقد كان الامريكيون، على خلافهم، مطلعين على كل ما هم بحاجة إليه، وكانوا يقرأون تفاصيل مخططات خصومهم بعد أن أفلحوا في فك رموز الشيفرة البحرية المعادية. ولم يكن الأميرال نيميتز يجهل، منذ شهر نيسان، بأن هجوماً يتحضر ضد ميدواي. وبينما كانت معركة بحر المرجان على أشدها، كان يعرف أن خصومه يركزون القسم الأعظم من أسطولهم في بحر اليابان الداخلي. وما أن خمد وطيس المعركة حتى لم شمل «حاملة طائراته» الوحيدة في أقصى سرعة ممكنة، والتي كان



اللواء البحري فلتشر

التقنيون يرون بأن إصلاحها يستغرق شهراً كاملاً، بيد أن «حاملة الطائرات» يوكتاون (Yorktown) عادت لحالتها الطبيعية، سليمة،

خلال ثمان واربعين ساعة! وكانت كل سفنه مجهزة بالرادار. وأخيراً كان لدى الأميرال نيميتز مركز استخبارات ممتاز في ميدواي ذاتها. هذا كما حصل على معلومات إضافية من جزر آلوشيان. وهكذا تكونت لديه، في قاعدة قيادته، في بيرل هاربور، فكرة واضحة تماماً عن الموقف، ولكن لحسن حظه، كان هو بدوره، يبخس قيمة قوة خصمه، مما سمح له بالانطلاق نحو المعركة دون مخاوف وهمية كبيرة.

وعليه اكتفى نيميتز بأن أرسل نحو الشمال قوة صغيرة، ولكنها كافية للتصدي لأي طارىء، موضوعة تحت قيادة الأميرال ثيوبالد. واحتفظ لنفسه بما تبقى، أي بقوتي العمل (Task)، واتخذ وضع الانتظار إلى الشمال من ميدواي. وكان من حسن حظه أيضاً أن نصب حاجز الغواصات اليابانية قد جرى بعد يوم من مرور اسطوله من جزر هاواي نحو ميدواي. وبذلك لم تكتشف الغواصات المعادية شيئا من أمره.

دور ميدواي

وهكذا كان الأميرال نيميتز يتصرف بثلاث «حاملات طائرات» كبيرة هي: يوركتاون التي أمكن تضميد جراحها، وهورنت (Hornet) وآنتربرايز (Enterprise) وهي الحاملات التي قامت بالغارة على طوكيو بفضل طائرات من طراز دوليتل. وفي الحقيقة كان يملك

« حاملة طائرات » رابعة ، هي جزيرة ميدواي ذاتها ، والتي استقبلت تعزيزات عظيمة منذ شهرين.

وعندما قصد الأميرال نيميتز ذاته جزيرة ميدواي للتفتيش ، في مطلع شهر أيار ، كانت الجزيرتان الصغيرتان محاطتين بحزام من بطاريات عديدة من مدفعية الموقع الثابتة ، ومن المدفعية المضادة للطائرات . وقد تم تعزيز دفاعاتها بصورة محمومة ، هذا فضلاً عن بناء ملاجىء تقاوم قنابل الطائرات ، كما تم انزال كتيبة جديدة من رجال البحرية مع دبابات خفيفة . وقد جرى نشر سلاسل من ألغام أرضية وألغام بحرية . وقد أمكن تخزين ملايين الغالونات من البنزين في مستودعات تحت الأرض وتمركزت فوق الجزيرة مائة وعشرون طائرة قتالية . ورابطت في القناة عشرة زوارق سريعة من قاذفات الطوربيد . وارتفع عدد القوات المقاتلة الى ١٤١ ضابطاً و٢٨٨٦ جندياً . وأخيراً وقبل اسبوع من نشوب المعارك جرى تمرين الانذار ، الذي كاد أن يتحول الى كارثة ، ذلك أن جندياً حرك رافعة بشكل معكوس ، فاشتعلت النيران وأحرقت ٤٠٠٠٠٠ غالون من البنزين ، وقد أمكنت السيطرة على الحريق ولكن... كان الحر لا يطاق .

ياماموتو ينطلق

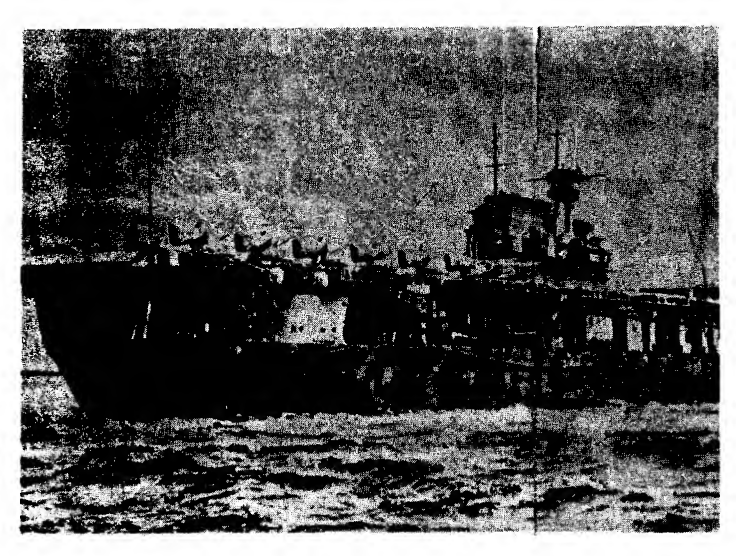
لما كان الأميرال ياما موتو يعتمد ، دون أدنى ريب ، على مفعول

المباغتة ، ولما كان يحسب أن عملية ميدواي ستتم دون إطلاق قذيفة واحدة ، وكان موقناً أن اسطول الولايات المتحدة لا يملك بوارج سريعة ، ولم يكن يقدر عدد « حاملات الطائرات » المعادية حق قدره ، وكان يجهل أن الأميرال نيميتز لديه كل المعلومات الضرورية ، ولم يكن يتصور أن يراه في مياه منطقة ميدواي قبل السابع أو الثامن من حزيران ، فقد أصدر أوامره بالاقلاع .

وقد انطلقت « مجموعة الحملة المتقدمة » التي يقودها الأميرال كوماتسو ، والتي تضم ثلاث مجموعات من الغواصات ، في الطليعة ، وكانت في وضع متقدم جداً بالنسبة لبقية اسطول الحملة . واندفعت غواصتان حتى منطقة « رصيف الفرقاطة الفرنسية » كي تشكل محطة قادرة على تموين القاذفات الكبرى ذات المحركات الأربع ، وبلغت المكان المقصود في ٢٦ أيار ووجدت فيه ... سفينتي تموين امريكيتين ، ولكن الغواصتين لم تصرا على مباشرة القتال . وانتشرت المجموعة الرئيسية من الغواصات على شكل حاجز موجه من شمال الشمال الشرقي نحو جنوب الجنوب الغربي ، بين درجتي العرض ٢٦ و٣٢ شمالاً وخطي الطول ١٦٥ و١٧٠ غرباً . وقد وصلت متأخرة ، بعد فوات الفرصة ، فلم تعترض سبيل الأسطول الامريكي ، وعجزت عن تقديم شيء من المعلومات .

واندفعت بعدئذ قوة المنطقة الشمالية ــ جزر آلوشيان ــ

بقيادة الأميرال هوزوغايا، مع «حاملتي الطائرات» ريوجو وجونيو، وثلاث طرادات ثقيلة، وناقلات الجند التي كان قصدها جزيرة كيسكا وجزيرة آفاك آتو، وكان قوامها ١٥٠٠ رجل. وغادرت قوة الصدام (Choc) التي عقدت رايتها للأميرال ناغومو بحر اليابان الداخلي بتاريخ

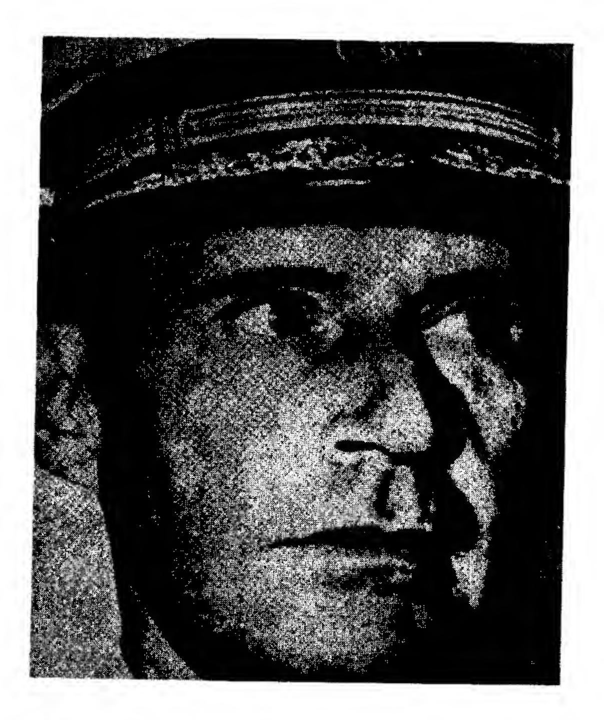


حاملة الطائرات «يوركتاون» قبل قليل من نشوب معركة ميدواي حيث جرى اغراقها بفعل الطيران الياباني

٢٦ أيار، مع حاملات الطائرات آكاجي، كاني، هيريو، سيريو وتحمل (٨٤ مطاردة، و٨٤ قاذفة قنابل، و٩٣ طائرة من حاملات

الطوربيد)، هذا وكانت مجموعة الدعم مؤلفة من بارجتين، ومن طرادتين ثقيلتين، ومن مجموعة حراسة مؤلفة من احدى عشرة مدمرة مع طرادة خفيفة. وقد خرج القسم الأعظم من هذه العمارة من البحر الداخلي الياباني بقيادة الأميرال كوندو، مع بارجتين، و«حاملة طائرات» خفيفة وأربع طرادات ثقيلة وثماني مدمرات. وكانت القوة المذكورة مصحوبة بمجموعة دعم منضمة مؤلفة من أربع طرادات ثقيلة ومن مدمرتين وسفن نقل تحمل ٥٠٠٠ رجل. وغادرت هذه المجموعة جزيرة غوام في السابع والعشرين من أيار، وأخيراً خرج مع عمارة الأميرال ياماموتو آخر مجموعة من البوارج يقودها الأميرال تاكاسو الذي كان عليه أن ينحرف باتجاه جزر آلوشيان، في الشمال الأقصى من الباسفيكي.

وقد كانت هذه «الآرمادا» إحدى أقدر التمركزات في المحيط الهادىء، هذا إن لم نقل أقواها إطلاقاً. غير أنها لم تكن مع ذلك، خالية من نقاط الضعف. فقد كان الأميرال ياما موتو، المريض، يعاني من آلام في معدته، كما لم يكن لدى حاملات الطائرات الوقت الكافي للقيام بالاصلاحات التي لا غنى عنها قبل عملية بحرية جديدة. ولكن كانت الثقة عارمة لدرجة أنه تم اختيار الأسماء اليابانية التي ستطلق على الجزر الجديدة الصغرى المفتوحة...



الأميرال سبروانس الذي كان يقود عمليات الأسطول الاميركي الخامس في المحيط الهادي

وكانت النية متجهة لقذف ميناء دوتش هاربور بالقنابل في الثالث من حزيران ، والنزول في جزيرة ميدواي في مساء الخامس منه وجر القوة البحرية الامريكية الى المعركة واستئصال شأفتها تماماً من المحيط الأعظم .

ولكن الأمر الباعث على القلق في كل ذلك، هو أن الأميرال نيميتز لم يلعب لعبة خصمه... بل لعبته الخاصة، مع الكثير من الذكاء، فكان هو الذي سجل الأهداف الرابحة على عدوه.

نيميتز ينهض بأعباء مسؤلياته

لقد لجأ الأميرال الامريكي الى تشعيب قواته على الصورة التالية:

ـ مجموعة حاملات الطائرات تحت أوامر الأميرال فلتشر وتضم قوة العمل ١٧ Task (حاملة الطائرات يوركتاون، مع طرادتين وست مدمرات).

ـ قوة العمل ١٦ بقيادة الأميرال ريموند سبروانس مع حاملة الطائرات آنتر برايز، وحاملة الطائرات هورنت، وعلى متن كل منهما ٧٩ طائرة، مع ست طرادات واحدى عشرة مدمرة.

وفضلا عن ذلك كان هناك اسطول صغير مؤلف من تسع عشرة غواصة.

أما الطيران المتمركز في ميدواي فقد كان يشتمل على التحديد على ما يلي: ٣٢ طائرة من طراز كاتالينا، ست طائرات من طراز آفانجر، عشرين طائرة من نمط بوفالو، سبع طائرات ف ٤ ـ ف ٣،

احدى عشر طائرة فانديكاتور، ست عشرة طائرة س ب، وأربع طائرات ب ٢٦ ماrodور، وثلاث عشرة طائرة من القلاع الطائرة، وست طائرات ب ١٧.

نعم هذا كل ما هنالك، وهو ليس بالكثير.

ولكن لنتأمل هذه الجملة التي كتبها أحد مؤرخي هذه المعركة «لقد كان بمقدوره أن ينظم تصرفاته بكل نجاح استناداً الى المعلومات الدقيقة جداً عن مخططات واستعدادات اليابانيين، التي كان يتلقاها منذ العاشر من أيار، والتي كانت تمثل تركيباً للمعلومات المستقاة من أكثر المصادر تنويعاً»، ويتصف الرؤساء العسكريون عادة بشدة التكتم حول هذه النقطة، ويرجحون ألا ينظر اليهم عامة الناس على أنهم عباقرة.

وقد كانت حالة الاستنفار سائدة منذ الرابع عشر من أيار في كل قاطع جزر هاواي. وكان على كل قطعات الأسطول الالتحاق والتواجد في بيرل هاربور، واتخذ الأميرال نيميتز قراره الرئيسي بالنسبة للمعركة، وذلك بعد تسليمه بمصداقية المؤشرات الواردة من رئيس مصلحة استخباراته، والتي كا نت تؤكد أن ميدواي وجزر آلوشيان تؤلفان الأهداف الرئيسية لعدوه. وكان ضباط المخابرات يتدارسون في كل يوم تقريباً خارطة تحركات الأسطول الياباني، ولكنهم وجدوا، في

وقت متأخر ، أن تقديراتهم كانت صحيحة ، ولكن مع خطأ طفيف ، وهو أن قوة عدوهم كانت تتجاوز تقديراتهم بنسبة الخمس .

وقد تم نشر مخطط العمليات مساء السابع والعشرين من شهر أيار ، ولم يكن مشجعاً إطلاقاً . وكانت الأوامر المعطاة لقادة قوتي العمل (Task Force) تنص على ما يلي : «إنزال أكبر قدر ممكن من الاضرار والاصابات بالعدو وذلك باللجوء الى تكتيك استنزاف مكثف» ، وهو



رمي السد الدفاعي خلال معركة ميدواي للحيلولة دون اقتراب الطائرات اليابانية

ما يعني بالكلام الواضح : تنفيذ الهجمات الجوية . وأمر نيميتز باتخاذ مواضع مبدئية في شمال شرق جزيرة ميدواي ، أي فيما وراء مدى فاعلية طائرات الاستطلاع اليابانية . أما الاستكشافات الجوية الأمريكية

فيجب أن تندفع حتى مسافة سبعمائة ميل في مقدمة الجزيرة ، أي غرباً ، ومن المنطقي أن تتمكن من اعتلام مكان حاملات الطائرات المعادية قبل أن يكون وجود الأسطول الامريكي معروفاً من طرف العدو .

وظل الأميرال نيميتز في مقر قيادته في بيرل هاربور ، ولما كان الأميرال فلتشر متقدماً على الأميرال سبروانس فقد أسندت اليه مهمة القيادة العليا لقوتي العمل بمجرد انضمامهما لبعضهما البعض . ولكن علينا أن نتذكر ان جملة قوتي العمل والاميرال ثيوبالد ، وقاعدة ميدواي ، والغواصات ، ظلت جميعاً تحت هيمنة القائد الأعلى .

وقد كانت الأسابيع الثلاثة السابقة للمعركة أشد توتراً وعصبية من سائر الأوقات التي شهدتها هيئة أركان حرب الأميرال نيميتز خلال الحرب ، ولم يكن القلق مبرراً على الأطلاق أكثر من مثل هذه الحالة . وقد كان نيميتز شديد الثقة بنفسه وبمعلومات استخباراته . واذا تركنا ذلك جانباً فهو لم يكف عن ارسال السفن الناقلة للتعزيزات بين الساحل الغربي للولايات المتحدة وبين ميناء نوميئا (عاصمة جزيرة كاليدونيا الجديدة) ، واستراليا ونيوزيلندة ، اذ كان يحسب ، وهو على صواب ، ان المعركة بعد أن تنشب شمال خط الاستواء، ستندلع على الفور في جنوبه .

وقد وصلت قوة العمل ١٦ بقيـادة الأميرال سبروانس ، مع

حاملتي الطائرات آنتر برايز وهورنت ، الى بيرل هاربور ، في السادس والعشرين من أيار ، كي تغادره في الثامن والعشرين منه ، هذا في حين وصلت قوة العمل ١٧ بقيادة فلتشر مع حاملة الطائرات يوركتاون الى بيرل هاربور في السابع والعشرين من أيار كي تنطلق خارجة منه في صباح الثلاثين من الشهر المذكور . وفي الثاني من حزيران انضمت قوتا العمل الى بعضهما على مسافة ٣٢٥ ميلاً شمال شرق ميدواي . وكانت هناك اثنتا عشرة غواصة تحوم متجولة في غرب آتول ميدواي ، وكانت ست غواصات تعمل في منطقة جزر آلوشيان ، وأربع غواصات على مسافة ثلاثمائة ميل شمال واهـو (Oahu) وثـلاث غواصات في وضع الاحتياط .

هاهم اليابانيون

لقد لعبت الأوضاع النوئيـة دوراً كبيراً في سير مقدمـات المعركة . فقد كانت هناك عواصف وزخات مطر شديدة وسحب ثقال تهدد باستمرار غرب وشمال غرب ميدواي ، في الموقع الذي تتلاقى فيه رياح الآليزيه (الرياح التجارية) مع تيار اليابان . أما في الجنوب الغربي فتكون السماء صاحية عادة ، على العكس .

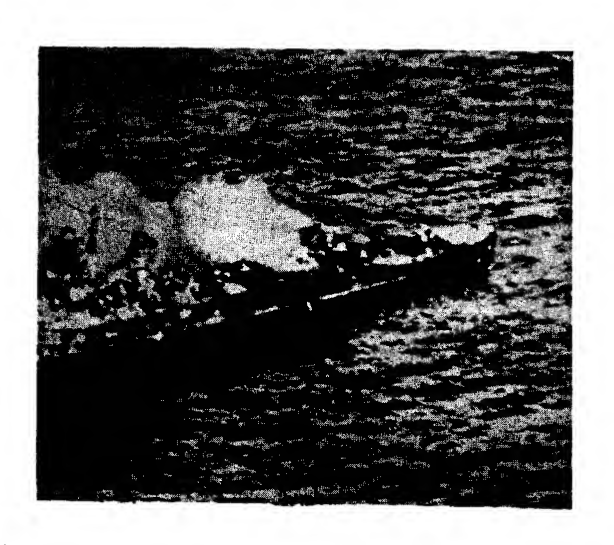
وعلى مسافة ثلاثمائة ميل في شمال غرب ميدواي كانت هناك منطقة انخفاض جوي تقدم غطاءاً مثالياً لحاملات طائرات الأميرال

الياباني ناغومو ، وكان الضباب على قدر من الكثافة بلغ درجة جعلت هذا الأميرال ، في الثاني من حزيران ، يفقد التماس ، بواسطة الرؤية ، مع سفنه . وقد كانت هذه هي البرهة التي كان عليه أن يبدل اتجاهه كي ينقض على آتول ميدواي الامريكي . ولكنـه كان يسمـع من فوق الضباب هدير محركات طائرات الاستطلاع الامريكية . وظل يتردد لفترة طويلة ، ولكنه اضطر أخيراً لاتخاذ قرار يتخلص فيه من صمته وأصدر أمره باللاسلكي بالاتجاه نحو ميدواي . ولكن الغريب هو أن الامريكيين الذين كانوا ينصتون لكل بث لم يلتقطوا هذه الاشارة ...

وقد كانت طائرات الجزيرة هي التي أبصرت اليابانيين ، في البداية ، وذلك على مسافة سبعمائة ميل ، في سمت ٢٧٠ من ميدواي ، وذلك في الثالث من حزيران ١٩٤١ حوالي الساعة التاسعة . وقد كان الملازم البحري جاك ريد ، الذي كان يقود طائرة من نوع كاتالينا هو الذي رآهم ، على مسافة ثلاثين ميلا أمامه « إنهم أشبه بمراكب اطفال صغيرة في حوض كبير » وأشار لوجود احدى عشرة سفينة . وبالفعل كانت هي ناقلات جند الانزال .

اكبر مشهد في العالم

لقد اوعزت قيادة الجزيرة لتسع طائرات من طراز ب ٢٧ بالاقلاع فاكتشفت القافلة المعادية في الساعة ١٦ و٢٤ دقيقـة ،



عمود كثيف من الدخان يصعد من الطرادة «موغامي» بعد هجوم الطائرات الامريكية

وقصفتها على ثلاث دفعات، ولكن لم تستطع أية قنبلة أن تعطي نتيجة حاسمة. وفي الساعة الواحدة و٤٥ دقيقة ليلاً انطلقت أربع طائرات كاتالينا مجهزة بطوربيدات وهاجمت القافلة اليابانية في ضوء القمر الساطع، فأصاب أحد الطوربيدات ناقلة نفط ولكن دون أن يحدث أضراراً كبيرة.

وهكذا نشبت المعركة. أما في بيرل هاربور فقد كانت هيئة أركان الحرب في القيادة العليا تتلقى أنباءها. وقد كتب محرر سجل

الوقائع ما يلي : « ربما تعلقت مجريات حرب الباسفيكي قاطبة بأحداث اليومين أو الثلاثة القادمة » .

وفي الثالث من حزيران ، في الساعة ١٨ (توقيت نصف الكرة الغربي وتوقيت الحزمة الساعية + ١٢) كانت حاملات الطائرات الامريكية موجودة على مسافة ثلاثمائة ميل الى شرق الشمال الشرقي من ميدواي ، أو حوالي مسافة ٤٠٠ ميل الى الشرق من النقطة التي كانت تتقدم منها حاملات الطائرات اليابانية بسرعة ٢٥ عقدة في اتجاه قاعدة انطلاق حاملات الطائرات الامريكية .

وقد تلقى فلتشر تقرير الاكتشاف من ميدواي ، ولكنه اعتقد بأن الأمر لا يتعدى استطلاع مجموعة من ناقلات الجند مصحوبة بحراستها .

هذا كما كان فلتشر يعرف مسبقا أن « حاملات الطائرات » المعادية تقترب من ميدواي من طرف الشمال الشرقي وأنها ستقصف الآتول في الرابع من حزيران عند الفجر .

وهكذا أبحر فلتشر منطلقاً نحو الجنوب الغربي في الثالث من حزيران ، في الساعة ١٩ و ٥٠ دقيقة على أمل أن يبلغ عند فجر الرابع منه نقطة تبعد بمقدار ٢٠٠ ميل شمال ميدواي ، وحيث سيصب نيرانه على اليابانيين ، هذا فيما اذا تم الاستهداء الى مجموعة الصدام اليابانية .

وكان فلتشر يفكر، وهو على حق، أن وجوده لا زال سراً، وأنه هو الذي سيستغل مفعول المباغتة.

وهكذا سنرى، اذن، ان مجموعتي «حاملات الطائرات» المتخاصمتين تقتربان من بعضهما بعضاً في ليل ٣ الى ٤ حزيران. وأخذ فجر يوم الرابع من حزيران ينبلج بعد الساعة الرابعة بقليل. وكانت الرؤية تمتد لمسافة تتراوح بين ٣٥ الى ٤٠ ميلا وكانت الحرارة منعشة وتتأرجح بين ٢٠ و٢١ درجة مئوية.

وانطلقت من حاملة الطائرات «يوركتاون» عشر طائرات من طراز س ب د في الساعة الرابعة والنصف صباحاً كي ترتاد نصف الدائرة الشمالي في نصف قطر مداه ١٠٠ ميل. وفي هذه الفترة بالذات لم تكن قوة الصدام اليابانية بقيادة الأميرال ناغومو، والواقعة على مسافة ٢١٥ ميلاً، قد خرجت بعد من منطقة المنخفض الجوية، وانهم سيطلقون أول موجة من طيرانهم على الآتول.

غير أنه في الساعة الخامسة و٣٤ دقيقة تلقت محطة اللاسلكي فوق حاملة الطائرات آنتربرايز برقية تقول: ان حاملات الطائرات المعادية تحت النظر . وقد صدرت هذه البرقية من طائرة ب ب ي (B. B. Y) الى قاعدتها في آتول ميدواي. وقد أرسلها العقيدان البحريان هوارد آدي ويليام شيز وقد صرح آدي: «أن المنظر كان كما لو أن

الحجاب قد انحسر عن أكبر مشهد في العالم» فقد أخذ الضباب بالتلاشي.

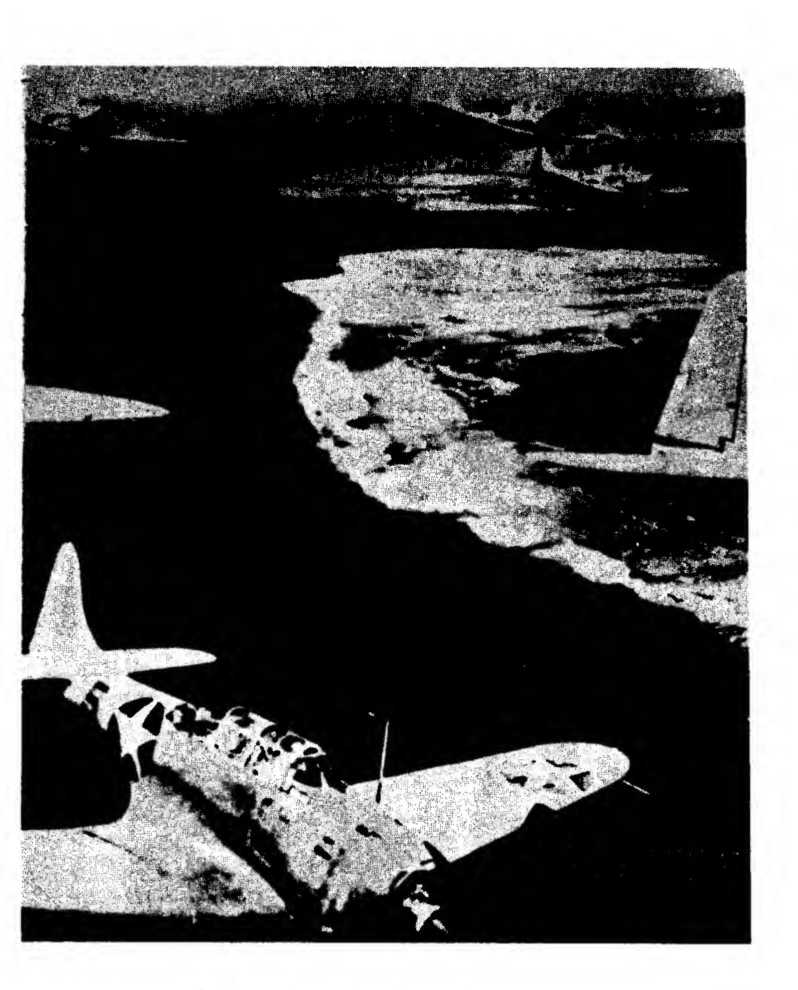
وجاءت برقية أخرى في الساعة الخامسة و٤٥ دقيقة تقول: «هناك بضع طائرات تتجه نحو ميدواي، سمتها ٣٢٠، والمسافة ١٥٠».

وتلتها برقية ثالثة في الساعة السادسة و٣ دقائق: «تتجه حاملتا طائرات معادية نحو ميدواي، سمتها ٣٢٠، والطريق على ١٣٥، والسرعة ٢٥».

ويقع هذا الموضع على مسافة ٢٠٠ ميل الى غرب الجنوب الغربي من قوة العمل ١٦. وهذه هي المرة الأولى التي يتلقى فيها قائد وحدة أمريكية معلومات عن مكان وجود «الجسور المنبسطة» أي «حاملات الطائرات» اليابانية. وهكذا أصبح فلتشر من الآن فصاعداً على علم بكل مجريات الأمور، وأعطى أوامره المناسبة. وكانت الساعة السادسة و٧ دقائق عندما أصدر أوامره الى الأميرال سبروانس بالاتجاه نحو الجنوب الغربي ومباشرة الهجوم.

فوق ميدواي

واليكم كيفية مسار المعركة دون تزويق أدبي عديم الجدوى:



المطاردات القاذفة في البحرية الامريكية خلال مهمة ضد الأسطول الياباني

الساعة الرابعة والنصف: الطائرات اليابانية تقلع من فوق حاملاتها الأربع. وقد كان هناك ٣٦ طائرة من طراز كات، و٣٦ طائرة من طراز فال تحرسها ٣٦ طائرة من طراز زيكه.

الساعة الخامسة و٣٣ دقيقة: رادار جزيرة ميدواي يكتشفها على مسافة ٩٣ ميلا في الشمال الغربي. استنفار.

الساعة ٦ أقلعت كل طائرة صالحة للطيران من قاعدة ميدواي.

الساعة ٦ و١٦ دقيقة: التقاء سرب المطاردة التابع لجيش البحرية الامريكي، على ارتفاع ٤٠٠٠ م، أوائل الطائرات اليابانية وهي قاذفات القنابل. وقد صعدت الطائرات الأمريكية الى ٥٦٠٠ م وانقضت ولكن طائرات زيكه اليابانية غمرتها...

الساعة السادسة والنصف: سقوط أول قنبلة فوق ميدواي، وكانت القاذفات اليابانية تخترق رمي السد الدفاعي فدمرت مركز القيادة، وأصابت مركز توليد الكهرباء بأضرار خطيرة، وخزانات بترول جزيرة ساند، وحصدت سقيفة الطائرات المائية وأحرقت المستشفى الخ... وكان عدد القتلى قليلا. وانتهى الهجوم في الساعة السادسة والنصف. وكانت خسائر اليابانيين مرتفعة بلغت تقريباً ثلث القوات المشتركة بالمعركة.

الساعة السابعة وربع : حاولت قيادة قاعدة ميدواي تجميع طائراتها المشتتة . وقد كانت الخسائر ثقيلة للغاية فقد خسر الامريكيون ١٧ طائرة بوفالو من أصل ٢٠ إذن كان التفوق من نصيب اليابانيين في الجولة الأولى .

هجوم ميدواي المعاكس

أصدر الأميرال نيميتز أوامره الى قيادة الجزيرة بالزج بكل قواتها ضد حاملات الطائرات والعهدة الى مدفعية الجزيرة بالذود عنها ، وكان من جراء ذلك حدوث زمرة من الهجمات المعاكسة .

ـــ في الساعة السادسة والربع : انطلقت ست طائرات نسافة من طراز آفنجر (ت ب ف) وأربع طائرات من طراز مارودور (ب ٢٦) في الجو قبل بدء الهجوم المذكور ذاته .

ـــ الساعة السابعة و ١٠ دقائق : التقت هذه الطائرات بحاملات الطائرات « المعادية » واشتبكت مع المطارات العدوة . ومرت كل الطوربيدات بعيداً نوعاً ما من أهدافها . وكانت الخسائر كبيرة في جانب الامريكيين .

ـــ الساعة السابعة والربع : تردد الأميرال الياباني ناغومو ، الذي ترك ٩٣ طائرة بحالة الاحتياط بعد انطلاق أول موجة من طائراته ، أقول

تردد في اطلاقها لافتقاره للمعلومات، وأخيراً قرر العدول عن ذلك نهائيا، وأمر طائراته بالهبوط بقصد توفير المكان لاستقبال أول موجة من طائراته العائدة من ميدواي واستعداداً لقصف ثان ضد الجزيرة. واستغرق العمل الضروري لانجاز ذلك ساعة كاملة: وكان قراراً مميتا...

ـ في الساعة السابعة و٢٨ دقيقة: وصلت برقية الى الأميرال ناغومو من احدى طائراته الاستطلاعية. وشاهد قوتي العمل الامريكيتين. وهكذا علم الأميرال الياباني بأن الأسطول المعادي أصبح منه على قاب قوسين أو أدنى. وفي الحقيقة كان لا يزال يجهل تركيب القوة العدوة. ولهذا لم يبدل أوامره.

الساعة الثامنة و٩ دقائق: يشير المراقب الياباني الى أن الأسطول المعادي يحوي خمس طرادات وخمس مدمرات.

الساعة الثامنة والثلث: يؤكد المراقب الياباني، ذاته، اعتقاده برؤية حاملة طائرات. وقد كانت دون ريب هي «حاملة الطائرات» يوركتاون. وهنا أخذ الأميرال ناغومو يتعرف على تفاصيل الموقف، ولكن بعد فوات الأوان، ذلك أن طائراته الاحتياطية كانت عاجزة عن الاقلاع، اذ كانت مدارج «حاملات طائراته» مكشوفة بانتظار عودة الطائرات المغيرة على ميدواي. اذن أصبح عليه أن يتعرض لنتائج الهجمات المعادية.

ــ الساعة ٧ و٥٥ دقيقة: ست عشرة قاذفة، تابعة لمارينز ميدواي، تظهر في الجو بحالة انقضاض. فتعرضت لوثبات من طائرات زيكة اليابانية. ولم تصب أي من قنابلها حاملة الطائرات هيريو، ولم يعد من هذه القاذفات الامريكية سوى ثمانية، أي النصف.

الساعة الثامنة وعشر دقائق: قامت أربع قلاع طائرة لتقذف كل منها ٨٥٠٠ رطلاً من القنابل فوق اليابانيين من ارتفاع ٦٥٠٠ م، وعادت كلها سالمة، ولكن دون أن تصيب واحدة من قنابلها هدفها.

الساعة الثامنة والثلث: وصول احدى عشرة طائرة فانديكاتور، من اسطول البحرية، لتنقض على حاملات الطائرات اليابانية فتعرضت بدورها لوثبات طائرات زيكه. ولم تمسس أية قنبلة امريكية قطع الأسطول الياباني. وعادت تسع طائرات منها الى قواعدها.

الساعة الثامنة والثلث: الغواصة الامريكية نوتيلوس تتعرض لهجوم بقنابل الأعماق بعد أن هرعت للمعركة على أثر اعتراضها لبرقيات معادية. فقذفت طوربيدا باتجاه بارجة يابانية على مسافة ٤١٠٠ م، ولكنها أخطأتها.

وهكذا كانت الجولة الثانية لمصلحة اليابانيين.

فقد خسروا اربعين طائرة لكنهم دمروا نصف عدد طائرات قاعدة ميدواي، وكبدوا منشئات الجزيرة أضرارا بالغة. ولو وقع قصف

ثان للجزيرة من جانب اليابانيين لكان ذلك كافيا لسقوط الجزيرة في أعقاب اقتحام فوري . ولكن سبق السيف العذل .

معركة حاملات الطائرات

لقد اتجهت قوتا العمل الامريكيتين نحو العدو في وضع هجومي .

في الساعة السادسة و٧ دقائق : نسيم خفيف كان يهب من جنوب الجنوب الشرقي ، وكان البحر رهواً ، والرؤية ممتازة . نداء الى قيادات المعركة . وهبطت قوة العمل التي يقودها سبروانس حتى السمت ٢٤٠ . وبعد أن كانت نية هذا الأميرال تأجيل غارة طائراته حتى الساعة التاسعة بلغته أنباء تفيد أن جزيرتي ميدواي تعرضتا للهجوم ، فقرر أن يطلق لها العنان قبل ساعة من الموعد المحدد ، على أمل أن يباغت اليابانيين ، الذين كانوا منهمكين في املاء خزانات طائراتهم بالبنزين فوق مدارج حاملاتها . وقد كانت تلك مخاطرة كلها تعقل .

الساعة السابعة ودقيقتان : الطائرات تقلع من فوق الحاملة آنتربرايز ومن على الحاملة هورنت .

الساعة السابعة و٨ دقائق : ما كاد يقلع نصف عدد الطائرات

الامريكية من فوق حاملاتها حتى كان الأميرال سبروانس مكشوفا من قبل طائرة يابانية مائية. وهنا قرر سبروانس اطلاق كل ما لديه من طائرات. وكانت هذه الموجة تضم عشرين طائرة مطاردة من طراز ويلدكات، وست وعشرين قاذفة انقضاضية من نمط دونتلس، وتسع وعشرين قاذفة نسافة من طراز ديفاستوتور ومكث فوق مهابط الحاملات الامريكية ١٨ طائرة ويلد كات، و١٦ طائرة تقوم بدورية المطاردة، وعدد مكافىء من الطائرات كبديل لها.

الساعة الثامنة و٣٨ دقيقة: بالنظر الى أن فلتشر لم يتلق أي نبأ اضافي فقد قرر اطلاق نصف قاذفاته من فوق الحاملة يوركتاون وسائر نسافاته (١٧ س ب د، ١٢ ت د ب، ٦ ف ٤ ـــ ف ٣).

وكان الطيارون يشرفون من ارتفاع ٦٠٠٠ م على أفق يمتد نصف قطره على ٦٠ ميلاً، وذلك بفضل شدة صفاء الطقس.

الساعة ٨ و٧ دقائق: أخذت الطائرات اليابانية العائدة من ميدواي في الهبوط على سطح حاملات الطائرات.

الساعة ٨ و١٠ دقائق: بدأ تواتر برقيات من طائرات الاشتكشاف تنذر باقتراب مجموعات جوية منطلقة من «حاملات طائرات» أمريكية.

الساعة التاسعة و٥ دقائق: الأميرال ناغومو يحرف طريقه كي «يشتبك مع القوة المعادية ويدمرها».

الساعة التاسعة و١٧ دقيقة : تمت عملية هبوط الطائرات فوق مدارج حاملات الطائرات وتمت عملية التحول عن الطريق . وقد كان اليابانيون ، على وجه التحديد ، في المكان الذي يتمناه لهم الأميرال سبروانس : فقد كانت كل قاذفاتهم قابعة منهمكة في إملاء خزاناتها بالوقود وتنطلق مشحونة بالمقذوفات .



جسر أو سطح اقلاع الطائرات في الحاملة « آنتر برايز »

بداية سيئة

الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة : لقد أدى تبديل طريق الأميرال ناغومو الى نجاته من القاذفات المنقضة من مجموعة حاملة الطائرات هورنت : فقد فشلت ٣٥ طائرة من طراز س ب د في مهمتها . وهكذا جرى استبعاد هذه الكتيبة كليا من المعركة .

الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة : أقبلت كتيبة من « حاملة الطائرات » كورنت (وهي طائرات نسافة) للاشتراك في المعركة ، دون حماية من المطاردات ، فتعرضت لهجوم طائرات زيرو الرهيبة التي أفلحت في اسقاط القاذفات الامريكية الواحدة تلو الأخرى . وهكذا تلاشت خمس عشرة طائرة ولم تكتب النجاة الا لرجل واحد من أصل ثلاثين .

الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة : اكتشف سرب من نسافات تابعة للحاملة هورنت العدو أيضا . غير أن الطائرات من طراز ديفاستاتور وعددها ١٤ والبطيئة للغاية تركت عشرة منها فريسة للمطارادت اليابانية : وانحرفت كل طوربيداتها عن أهدافها .

الساعة العاشرة : وصل بغتة سرب نسافات الحاملة « يوركتاون » . ولكن كانت سبعة طائرات من طراز ديفاستوتور فريسة النيران في حين

كانت خمس منها تقذف طرابيدها، وتم اسقاط ثلاث منها.. ولم تمس أي من القذائف هدفها.

وهكذا لم يعد من الطائرات النسافة، وعددها ٤١، والمنطلقة من فوق «حاملات الطائرات» الثلاث، سوى خمس طائرات، ولم يصب العدو ولو مرة واحدة. ولكن جعلت هذه التضحية النصر في متناول اليد، لأنها قسرت «حاملات الطائرات» المعادية على المناورة وحالت بينها وبين اسقاط المزيد من الطائرات الامريكية.

أمحوا من الوجود ثلاثة «سطوح منبسطة»[٢]

وانبرت طائرات دونتلس، بدورها، من فوق حاملتي الطائرات آنتر برايز ويوركتاون.

الساعة العاشرة و ١٠ دقائق: قام سربان من طائرات دونتلس (بقيادة ماك كلوسكي ومعه ٣٧ طائرة) بمهاجمة الحاملتين كاغا وآكاجي بواسطة انقضاضات بزاوية قدرها ٧٠ درجة وبسرعة ٢٨٠ عقدة. غير أن أسراب المطاردات اليابانية، التي كانت تنقض بضراوة على الطائرات النسافة الامريكية، لم يكن لديها ما يكفي من الوقت للعودة.

---

(٢) المقصود بها حاملات الطائرات.

الساعة العاشرة و٢٦ دقيقة : اصابة حاملة الطائرات آكاجي بثلاث قنابل . وقد انتهى هجوم النسافات منذ دقيقتين . وقد انفجرت القنبلة الثانية في وسط اربعين طائرة أثناء تموينها فوق المدرج ، وتسببت الثالثة في نسف مخزن الطربيدات ، وأعقب ذلك حريق رهيب . وقد استطاع الأميرال ناغامو تنفيذ عملية الاخلاء بصعوبة في الساعة العاشرة و٤٧ دقيقة وانتقل مع الناجين الى الطرادة ناغارا ، وظلت « حاملة الطائرات » آكاجي تحترق طيلة النهار وغاصت بتأثير طربيد في اليوم التالي ، أي في فجر الخامس من حزيران .

وفي الوقت ذاته : تلقت « حاملة الطائرات » كاغا أربع قنابل مما أدى لانفجار خزان الوقود والاطاحة بالبرج ، هذا كما أصيبت بطوربيد غواصة . وبعد أن انفجرت الحاملة المذكورة غاصت في لجة البحر في الساعة ١٩ و٢٥ دقيقة .

وفي الوقت ذاته أيضا : قامت سبع عشرة طائرة من فوق الحاملة الامريكية يوركتاون (قائد السرب ليسلي) لتضرب « حاملة الطائرات » اليابانية سوريو . وقد انطلقت الطائرات المذكورة في الساعة التاسعة و٦ دقائق ، أي بعد طائرات السفن الأخرى بأكثر من ساعة وربع ولكن القائد عرف طريقه بسرعة أكبر . وكانت طائرات الحاملة اليابانية سوريو فوق مدرجها وجاهزة للاقلاع ، ولكن الحاملة المذكورة أصيبت ثلاث مرات بين الساعة العاشرة و٢٥ دقيقة والساعة العاشرة و٢٨ دقيقة

فاندلعت فيها الحرائق. وبعد عشرين دقيقة تم اخلاؤها من بحارتها، وعندئذ تدخلت الغواصة نوتيلوس التي كانت ترتاد هذه المناطق، والتي اجتذبتها أخبار المعركة في الساعة الحادية عشرة و ٤٥ دقيقة، وخلال ساعة من الزمن أدركت سوريو التي تمكنت من السيطرة على حرائقها. وعندئذ قذفت الغواصة نوتيلوس باتجاهها ثلاثة طوربيدات، بين الساعة الثالثة عشرة و ٥٩ دقيقة والساعة الرابعة عشرة و ٥ دقائق، من على مسافة ٢٥٠٠ م انفجرت على أثرها خزانات الوقود وشطرت السفينة الى قسمين.

الحصيلة: ثلاث حاملات طائرات يابانية في حالة الغوص والغرق. وخسرت حاملة الطائرات الامريكية آنتربرايز خمس وعشرين طائرة مثلما خسرت الحاملة هورنت ٢٦ بينما بلغت خسائر يوركتاون ١٧ طائرة.

والرابعة:

ــ في الساعة العاشرة و ٥٠ دقيقة أبرق العميد البحري آبه (Abé)، الذي أنيطت به مهمة القيادة بدلاً عن الأميرال ناغومو، أقول أبرق للأميرال ياما موتو بأنه سينبري لملاقاة عدو يملك حاملة طائرات. وكانت هي يوركتاون. فأصدر أوامره لحاملة الطائرات الرابعة هيريو، وهي الناجية الوحيدة، بأن تهرع للهجوم.

ـــ الساعة الحادية عشرة ودقيقة واحدة: أطلقت هيريو أول موجة من طائراتها، مؤلفة من ١٨ قاذفة انقضاضية وست مطاردات.

ـــ الساعة الثانية عشرة: الأميرال كوندو، قائد الأسطول الثاني، والذي يؤمن التغطية لمجموعة الانزال في الجنوب الغربي، يخبر بأنه يندفع في اتجاه الشمال مع عمارته الجبارة.

ـــ الساعة الثانية عشرة و ٢٠ دقيقة: الأميرال ياماموتو يصدر الأوامر لحاملتي الطائرات ريوجو وجونيو التابعتين للقوات التي تهاجم دوتش هاربور، بالالتحاق «بحاملة الطائرات» هيريو في الجنوب.

ـــ الساعة الثانية عشرة و ١٠ دقائق: الهجوم على يوركتاون، ولكن المطاردات الامريكية قسرت اثنتي عشرة قاذفة على العودة من حيث أتت، بيد أن ستا منها استطاعت أن تتسلل وسددت ثلاث ضربات في الهدف، كانت اثنتان منها موجعتين للغاية. فاحترق برج الحاملة الامريكية وتم تدمير رادارها... الخ. فلتشر يأمر بإخلائها.

ـــ الساعة الثالثة عشرة وربع: الطرادة بورتلند تقوم بقطر يوركتاون.

ـــ الساعة الثالثة عشرة و ٤٠ دقيقة: عاد الضغط إلى أربعة راجل في يوركتاون وأصبحت تسير بوسائلها الخاصة.

ـــ الساعة الرابعة عشرة و ٤٠ دقيقة: قدوم الموجة الثانية من

فوق هيريو ، والمنطلقة في الساعة ١٣ و ٣١ دقيقة . وقد حاولت حاملة الطائرات والطرادات الامريكية التي تخفرها المناورة ، ولكن يوركتاون أصيبت بطوربيدين ومن ثم جنحت على خاصرتها .

ــ الساعة الرابعة عشرة و٢٦ دقيقة : قامت قاذفات استطلاع من فوق « حاملة الطائرات » المصابة وأبصرت حاملة الطائرات هيريو وأعطت موضعها على الضبط .

ــ الساعة الخامسة عشرة والنصف : الحاملة آنتربرايز تطلق ٢٤ طائرة من طراز س ب د .

ــ الساعة السابعة عشرة : الهجوم على هيريو التي أصيبت بأربعة قنابل وغرقت مع أميرالها وكل طائراتها .

ــ تلك هي نهاية المعركة . وبعد أن راودت خيال الأميرال ياماموتو ، في احدى اللحظات ، فكرة متابعة المعركة ، ولكنه في المساء ، اضطر للانحناء والاذعان أمام الحقيقة . وأخيراً أعطى في الساعة الثانية و ٥٥ دقيقة من صبيحة الخامس من حزيران أمراً بالانسحاب بعد أن خسر أربع حاملات طائرات و ٢٥٠ طائرة وأفضل طياريه .

بعد المعركة

لقد عمل عدد من الطيارين الامريكيين يقل عن المائة على

تلاشي أمل اليابانيين الذين كانوا يحلمون بكسب معركة بحرية كبرى تحقق لهم الهيمنة على البحار لحساب امبراطورية الشمس المشرقة. وبعد هذا العراك أخذ يناقش كل جانب حساباته في وسط معلومات مغلوطة، وبرهن كل منهما عن أكبر قدر من الحذر وتراجع عن أية معركة ليلية. وفي السادس من حزيران فقط أذاع القائد الأعلى في بيرل هاربور: «أن نصراً كبيراً تلوح بوارقه...».

ولكن كان هناك ظل واحد في اللوحة: وهي خسارة يوركتاون التي تم إخلاء ٢٢٧٠ رجلاً من الناجين منها، ثم جرى سحبها، وأخيراً تركت وشأنها قبل الأوان بسبب حرمانها من أي فريق إنقاذ كان، وبعد أن أصيبت بأربع طوربيدات سددتها اليها غواصة يابانية من طراز ١٦٨ ــ ١ التي ظلت تبحث عنها مدة تزيد عن ٢٤ ساعة، الى أن عثرت عليها في الخامس من حزيران في الساعة الثالثة عشرة والنصف. وفي السابع من حزيران، وفي الساعة السادسة صباحاً، غرقت «حاملة الطائرات» الكبيرة المعطوبة.

أما حاملة الطائرات ساراتوغا المنطلقة من ساحل الولايات المتحدة الغربي فقد وصلت الى بيرل هاربور في السادس من أيار ثم التحقت بقوات الأميرال سبروانس وفي الحادي عشر من حزيران أصدر الأميرال نيميتز أوامره لكل قوات المحيط الهادىء بالتجمع في هاواي.

وقد كانت ميدواي ثاني المعارك الكبرى الخمس في المحيط الهادي التي كان العمل خلالها واقعاً، حصراً، على عاتق الطيران مع دعم من بعض الغواصات. ولقد اضطر ياماموتو لأن ينسحب من المعركة لأن الامريكيين دمروا الأسطول الجوي الياباني على الرغم من تمتعه بتفوق ساحق في بطاريات المدفعية التي لم تتح لها الفرصة لاطلاع قذيفة واحدة من مدافعها.

وكان هناك عزاء وحيد للأميرال الياباني: وهو أن مجموعة عمليات الشمال تمكنت من احتلال جزيرتي كيسكا وآتو في أرخبيل آلوشيان.

وقد كانت معركة ميدواي أول هزيمة ساحقة حقيقية أصابت الأسطول الياباني في الأزمنة الحديثة.



لايت
LEYTE

٢٣ ــ ٢٥ تشرين الأول ١٩٤٤

أكبر التحام فوق البحر في الأزمنة الحديثة والأخيرة

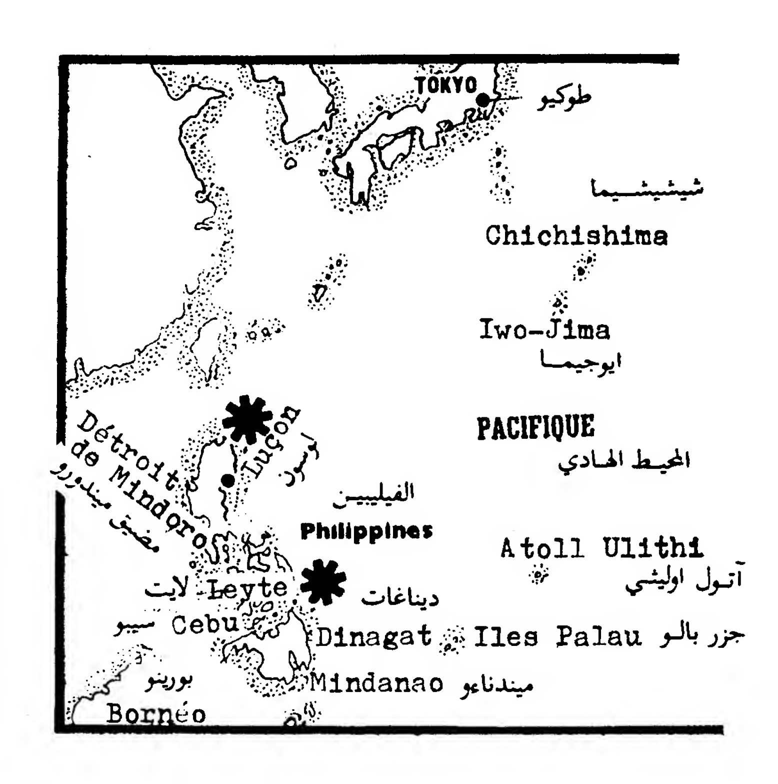
لقد أصبح وضع اليابان في صيف عام ١٩٤٤ حرجاً للغاية. فقد أصبحت الهجمات تتقدم في كل مكان، بينما كان هجوم الجنوب الغربي يقترب من الفيليبين.

ولم يكن القادة اليابانيون قطعاً هم البادئين في هذه المعركة. فقد سبق أن قتل الأميرال ياماموتو، رجل البحر العبقري، بفعل المطاردات الامريكية خلال رحلة جوية. كما قتل خلفه الأميرال كوغا في بحر الفيليبين في حادث طيران، هذا في حين انتحر الأميرال ناغومو، البطل المنتصر في بيرل هاربور، على أثر كارثة سايبان (Saïpan) في جزر الماريان، حيث جرى تدمير القوة الجوية البحرية اليابانية. أما ناغونو رئيس أركان حرب البحرية فقد عزل من منصبه.

وهكذا آلت القيادة الى الأميرال تويادا الذي تسلم زمام قيادة الأسطول، ولم يكن يأمل اطلاقاً في احراز نصر ولكنه كان يرغب،

بكل بساطة، في أن يوقف زحف الخصم الامريكي وأن يوقع به خسائر تكون من الجسامة بحيث تجعله يعدل عن محاولة اجتياح اليابان. وقد رأى تويودا بثاقب بصيرته أن القفزة الامريكية القادمة، الى الأمام، إنما تستهدف جزر الفيليبين. وهكذا تبنى مختاراً خطة شو (Sho)، التي كانت تقوم، من خلال مشاغلة ماهرة، على اجتذاب القوات المعادية من الجانب الذي لن يحدث فيه الهجوم الرئيسي. ولما كان المخطط الامريكي يرمي الى النزول على الساحل الشرقي لجزر الفيليبين، فقد استدعى الأميرال تويودا عمارة من الشمال كان الغرض منها اجتذاب العناصر الرئيسية في القوات الأمريكية اليها، أي عليها أن تلعب دور «الطُعم»، وفي هذه الأثناء تجتاز عمارتان يابانيتان أخريان الارخبيل في المضائق وتنطلق لتدمير ناقلات الجند الامريكية، وقد كانت الخطة جريئة ولكنها مليئة بالمخاطر. وقد ارتضى تويودا بالمجازفة، وكانت الخطة على قاب قوسين من النجاح.

وفي السابع عشر من تشرين الأول ١٩٤٤ ابتدأت عملية الانزال الامريكية في جزيرة سولوان عند خليج لايت. وفي العشرين منه كانت عملية الانزال في أوجها، إذ هبط الجيش السادس الامريكي مندفعاً بكل قوة في صدر الخليج. وأصدر تويادا أمره بتنفيذ خطة شو وحدد يوم الهجوم بالخامس والعشرين من تشرين الأول، فهرعت القوات البحرية من سائر أنحاء الامبراطورية نحو أرخبيل الفيليبين باتجاه



موقع معركة لايت

لايت لخوض أكبر معركة في التاريخ ، هي معركة اليأس ، التي ستخوض غمارها مئات السفن وآلاف الطائرات ، والتي ستنتشر على حلبة تزيد مساحتها عن فرنسا بكاملها .

وكان الجهاز الحربي الياباني على الشكل التالي :

ـــ عمارة الأميرال اوزاوا القادمة من بحر اليابان الداخلي ، في اتجاه لايت ، والتي ستمر من شرق الفيليبين : وكانت تتألف من « حاملة طائرات » ثقيلة ، وثلاث « حاملات طائرات » خفيفة ، ومن بارجتين « خنثيين Hermaphrodites » أي هما بارجتان وحاملتي طائرات في الوقت ذاته ، ومن طرادات ونسافات . وكان عليها أن تجتذب نحوها الحد الأقصى من السفن والطائرات الامريكية ، ومهمتها تقتصر على دور الضحية . ولما كانت هذه القوة هي الوحيدة من الجانب الياباني التي تضم حاملات طائرات فإن الامريكيين سيحسبونها ، بلا ريب ، هي الأكثر خطراً وسيعملون على تدميرها في البداية .

ـــ عمارة ثانية بقيادة الأميرال تاكيئو كوريتا ، قادمة من الجنوب الغربي ، والتي عليها أن تجتاز مضيق سان برناردينو ، وأن تلتف من خلف جزيرة سامار ، وتهاجم من الشمال ناقلات الجند الامريكية الراسية في لايت . وكانت تشتمل على خمس بوارج ، واثنتي عشرة طرادة ونسافات (سفن طوربيد). وكان في عداد البوارج السفينتان

العملاقتـــــان (Mastodontes) من وزن ٦٠٠٠٠ طن وهما موزيشي وياماتو، وهما أكبر مثيلاتها في العالم واللتان لا يمكن اغراقهما اطلاقاً حسب اعتقاد اليابانيين. وكان يقع على عاتـق اسراب المطـاردات المتمركزة في جزر الفيليبين توفير الحماية الجوية.

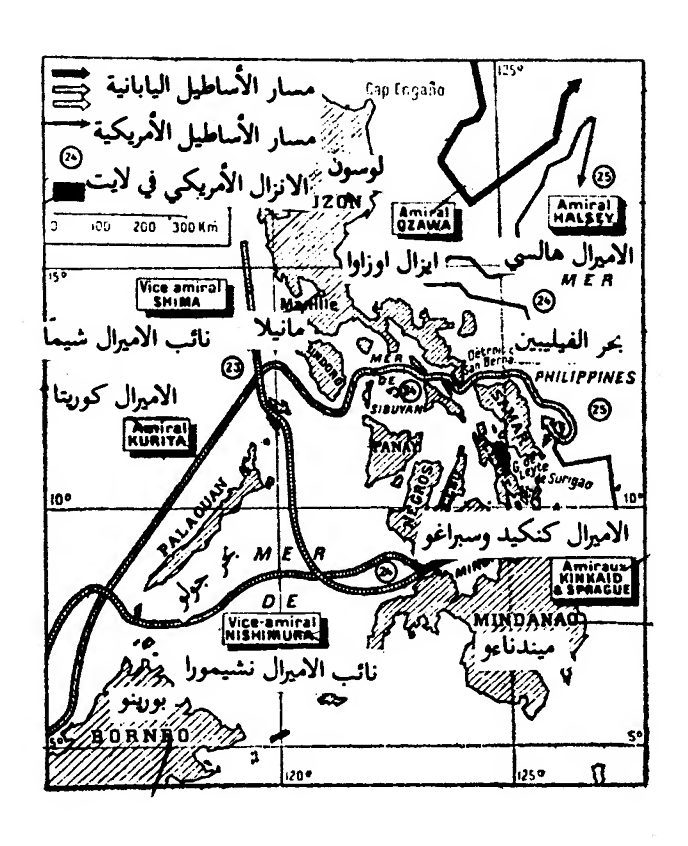
ـــعمارة ثالثة قادمة من الاتجاه ذاته، كان عليها أن تمر من مضيق سوريغاءو وتنقض على الناقـلات الامريكيـة، في لايت، من الجنوب. وكان عليها أن تتحرك على شكل نسقين (Echelons) بقيادة الأميرالين شوجي نيشمورا وكيوهيداشيما. ولم تكن تضم سوى بارجتين عتيقتين.

وسيأخذ اليابانيون على عاتقهم المبادهة في العمليات الحربية. وستكون هناك ثلاثة عمليات بحرية:

١ ـــ في شمال شرق الفيليبين تجاه رأس أنغانيو.
٢ ـــ في سان برناردينو، ثم تجاه ساحل جزرة سامار.
٣ ـــ في مضيق سوريغاءو.

وستكـون معركـة مجزأة، بلا ترابـط نوعـاً ما، أطلـق عليها الامريكيون اجمالا اسم معركة لايت.

أما القوات الامريكية فقـد كانت، من جانبها، مؤلفـة من العناصر التالية:

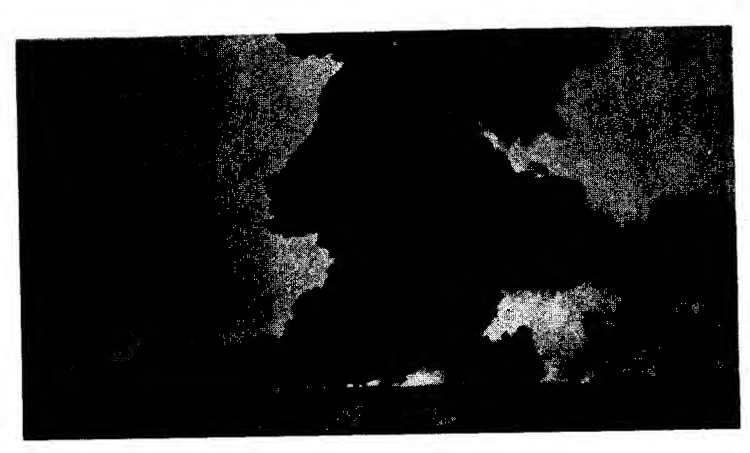


خريطة معارك لايت البحرية

ـــ في خليج لايت : سفن نقل ، سفن برمائية والتي ستقذف على الساحل بالمئات من الأشخاص ومن العتاد الحربي .

ـــ الأسطول السابع، يقوده الأميرال كينكيد (Kinkeid)، والذي يوفر الحماية الوثيقة لعملية الانزال هذه ، ويضم ست بوارج قديمة ، وست عشرة من حاملات الطائرات ومدمرات ... الخ .

الأسطول الثالث بقيادة الأميرال هالسي (Halsey) ، وهو أفضل أساطيل الولايات المتحدة ، مهمته المهاجمة التدخلية (Offensive d'ontervention) ضد أي عدو طارىء. كما كان يضم، هو أيضاً، ست بوارج وست عشرة من أحدث حاملات الطائرات .



« حاملة الطائرات » الحارسة سان لو بعد أن أصابها الطيران الياباني

لقد كان كل شيء محكماً في هذا الأسطول ما عدا التنسيق في القيادة. فقد كان قاطع المحيط الباسفيكي الأوسط خاضعاً لقيادة الأميرال نيميتز (Nimitz)، الذي يعمل الأميرال هالسي تحت إمرته. أما قاطع الباسفيكي الجنوبي الغربي فكان تابعاً لقيادة الجنرال ماك آرثر الذي كان الأميرال كينكيد يخضع لأوامره. وعندما التأم شمل الجميع على مسرح العمليات الوحيد كان من اللازم قيام قيادة وحيدة. ولكن كيف العمل لتحاشي حسابات الكرامة الذاتية؟ وقد تركت حكومة واشنطن لهاتين القيادتين حرية التصرف. وهكذا كان الأميرال كينكيد مستقلاً تماماً عن أوامر هالسي ونيميتز مما أدى الى نقص في التنسيق الذي قد يقود الامريكيين نحو الكارثة.

وفي مقابل ذلك كان الأميرال أوزاوا (Ozawa) يندفع من الشمال، وفي الوسط كان كوريتا، ومن اليمين كان الأميرالان نيشيمورا وشيما. ولقد اتجه كوريتا نحو مضيق سان برناردينو ماراً من شمال جزيرة بالدوان. وابتداء من ٢٣ تشرين الأول استطاعت الغواصة الامريكية دارتر أن تكتشف قواته، فهاجمته دون تردد، فأغرقت الطرادة الثقيلة آتاغو وهي سفينة الاميرالية، وأعطبت الطرادة تاكاعو. وهرعت غواصة أمريكية ثانية فأغرقت الطرادة مايا في حين أرسلت غواصة ثالثة الطراد آؤبا باتجاه القاع.

وبينما كان الأميرال كينكيد يراقب مضيق سوريغاءو أخذ الأميرال

هالسي على عاتقه مهمة التصدي للقوة اليابانية الوسطى. وفي الرابع والعشرين من الشهر راحت الطائرات الامريكية تهاجم اليابانيين على شكل موجات قوية، فأصيبت البارجة الكبيرة موزيشي، التي نصب عليها الأميرال كوريتا رايته، بعشرة طوربيـدات فضلاً عن عدد من القنابل. وحاولت الوصول الى الساحل ولكنها غرقت قبل أن تدركه. وأصيبت سفن أخرى بأعطاب خطيرة. وهنا ناشد كوريتا مساعدة الطيران البري. ولكن كانت نداءاته بلا جدوى. فأعطى أمراً بالتراجع وانكفأ في اتجاه الغرب. وهنا تصور الأميرال هالسي أن القوة اليابانية الوسطى قد تمت تصفيتها.

فاتخذ تدابير أخرى، ولكنه هوجم في بداية ما بعد الظهيرة من قبل طائرات يابانية قادمة من الشمال واعتقد أنها طائرات منطلقة من فوق حاملات طائرات، فتعرض لخسائر، اذ انفجرت حاملة الطائرات برنستون. هذا كما حسب الأميرال هالسي أن عمارة معادية أخرى وصلت من الشمال، فترك عمارة كوريتا وشأنها وراح يستعد لمواجهة الأخرى.

وفي خلال هذا الوقت كان الأميرال نيشيمورا يتجه نحو مضيق سوريغاءو. ولكن تم اكتشاف أمره، هو أيضا من جانب الامريكيين، فاصطدم بقوات الأميرال كينكيد. وهنا نظم الأميرال اولندورف، وهو القائد التكتيكي لهذه العمارة، أقول نظم كمينا في الخليج لا بد وان

يسقط فيه الأميرال الياباني لا محالة . وعندما دخل نيشيمورا في ليلة ٢٤ الى ٢٥ تشرين الأول في الخليج ، أصبح هدفاً لهجوم أطبق عليه من سائر الجهات شنته المدمرات والزوارق السريعة . فأصيبت البارجة ياماشيتو مثلما غرق عدد من النسافات . وظل نيشيمورا ، الشديد العزم ، يتابع طريقه دون أية بارقة من أمل . فذهبت سفينته نحو قاع البحر . وعندها استلم زمام القيادة العقيد البحري بو (Bau) من فوق بارجته فوزو (Fuso) . ولكن بوارج الأميرال اولندورف الرابضة عند مخرج الخليج تلقته بنيرانها ، وهنا وقعت الكارثة فاشتعلت النيران الكثيفة في بارجة القيادة فوزو ، وغرقت الطرادة ناشي ، في حين أصيبت الطرادة موغامي بالتلف الخطير . ولم تقدر النجاة ، في كل هذه العمارة ، إلا للمدمرة شيغورا التي ولت هاربة لا تلوي على شيء .

وقد حاول الأميرال شيما الذي كان يسير خلف نيشيمورا أن يقتحم المضيق بدوره ، ولكنه أدرك بأنه سيتعرض للتدمير الكامل فانعطف هارباً . وهكذا أمكن تصفية القوة الجنوبية . أما الامريكيون فقد اقتصرت خسائرهم على نسافة وعلى زورق سريع .

وعلينا الآن أن نحاول معرفة ما يحدث في الشمال . ففي يوم ٢٤ تشرين الأول انبرت عمارة الأميرال أوزاوا وأطلقت طائراتها في الجو . وفي ليلة ٢٤ الى ٢٥ منه حدد طيارو الأميرال الامريكي هالسي موقع القوة اليابانية وأحصوها بشكل صحيح . وهكذا أنشبت معركة رأس أنغانو

أظفارها: ففي فجر يوم ٢٥ تشرين الأول انطلقت مئات الطائرات لمهاجمة قوات الأميرال أوزاوا الذي لم يكن تحت تصرفه سوى القليل من الطائرات ومن الطواقم الخبيرة لأن خسائر معركة سايبان (Sîpan) (في جزر ماريان) لم يمكن بعد تعويضها. وابتداء من الساعة الثامنة والنصف كانت حاملة طائرات يابانية تتجه نحو الأعماق، ونال العطب الشديد حاملتين أخريين، وغرقت طرادة. وأخيراً جاء دور «حاملة طائرات» الأميرال التي لم تلبث أن زالت من الوجود. وقد تمكن الأميرال أوزاوا من مغادرتها وصعد متن الطرادة أويادو (Oyado)، وانسحب نحو الشمال، في اتجاه اليابان. هذا كما تمكنت السفن المعطوبة من الالتحاق بقواعدها لأن الأميرال هالسي أرخى بعض الشيء من شدة حصاره، ذلك لأن حركة مسرحية غير منتظرة ستحدث في الجنوب.

وقد بلغت مسامع الأميرال تويادا، في مقر قيادته في اليابان، نبأ حركة انسحاب الأميرال كوريتا، فأصدر اليه أمرا يحتم عليه الهجوم من جديد، وفي الواقع كان كوريتا يستأنف مسيرته نحو الشرق منذ الساعة ٢٧ من يوم ٢٤ تشرين الأول، فعبأ قوات لا تزال تعتبر رهيبة، تتألف من البارجة الكبيرة ياماتو ومن ستة طرادات ثقيلة. وعند هبوط جنح الظلام اندس في مضيق سان برنار دينو، وسط بحر هادىء، وطقس صحو، ولم يصادف في طريقه أحداً. واندفعت العمارة اليابانية في أوائل

ساعات يوم ٢٥ من الشهر المذكور تمخر عباب بحر الفيليبين الحر دون أن يكتشف أمرها : فقد اعتمد الأميرال هالسي في القيام بالمهمة ذاتها. وفي المساء انزلق اليابانيون خلسة نحو الجنوب بعد الالتفاف حول جزيرة سامار، متجهين الى ميناء لايت.

وفي فجر الخامس والعشرين فقط استطاعت الطائرات المحمولة التابعة للأسطول السابع أن تكتشف أمر العمارة اليابانية التي كان كل الامريكيين يعتقدون أنها بعيدة جداً. ولكن على مسافة قصيرة كهذه لا تستطيع حاملات الطائرات فعل شيء تجاه البوارج المعادية. وهنا لاذ الأميرال سبراغو (Sprague) الذي يقود حاملات الطائرات بأذيال الفرار على الفور. غير أن كوريتا لاحقه بأقصى سرعة وأغرق، بالمدافع، حاملة الطائرات غامبييه باي (Gambier- Bay) وأعطبت ثلاثا من حاملات الطائرات الأخرى فضلاً عن عدد من المدمرات. وفي خلال هذا الوقت كان الطيران الياباني الأرضي ينقض بشكل كثيف على مرسى لايت، فاستنجد الأميرال كينكيد بزميله هالسي. وتعاقبت برقياته المستغيثة. غير أن هالسي كان بعيداً للغاية في الشمال وعاجزاً عن تقديم عون سريع، متى سيصل يا ترى؟ ربما بعد فوات الأوان؟

وعندئذ جرى آخر فصل من المعركة، والذي لا يقل غرابة. فبينما كان الأميرال كوريتا يمسك بأسباب النصر في يديه عمد الى الانسحاب. فقد كان يجهل أن بوارج الأميرال كينكيد كانت تفتقر

الى الذخائر . مثلما ظن أن الناقلات الامريكية قد غادرت أمكنتها ، مثلما كان يخشى من أن يتعرض لهجوم من قبل قوات جوية أمريكية عظيمة لا قبل له بها ، وأن ينقطع اتصاله باليابان في مضيق سان برناردينو ، وهكذا عاد أدراجه . وهكذا نجت الناقلات الامريكية التي كانت لا تزال راسية في ميناء لايت وتحقق فشل مخطط شو بصورة نهائية . وهكذا اجتاز الأميرال كوريتا مضيق سان برناردينو في اتجاه الغرب ، وعندها اندفع الطيران الامريكي على شكل هجمات متتالية خلال يوم ٢٦ من الشهر وأغرق طرادتين يابانيتين .

تلك هي خاتمة المعركة التي أطلق عليها اسم معركة لايت : فقد تم اخراج العمارات اليابانية الثلاث من سجل الحساب ، ولن تستطيع البحرية الامبراطورية إطلاقاً بعد اليوم أن تتدخل في الحرب بعد ذلك اليوم المشهود ، فقد أبيدت .

وهي في الوقت ذاته ، وعلى الخصوص ، آخر معركة كبيرة في التاريخ ، حتى كتابة هذه السطور .

المـراجـع

SOURCES. REFERENCES

Sur un plan d'ensemble, nous avons consulté avec fruit plusieurs ouvrages sur l'Histoire générale de la Marine, notamment celui de Claude Farrère et celui de Ch. de La Roncière et G. Clerc-Rampal, ainsi que les deux volumes classiques de Jacques Mordal : *Vingt-cinq siècles de guerre sur mer*, publiés en 1959.

Sur certaines batailles, nous avons puisé d'intéressants détails dans :

— Salamine : Godlsmith, *Abrégé de l'histoire grecque* (1817) : Victor Duruy, *Histoire des Grecs* (1888).

— Lépante : Charles Diehl, *Une république patricienne, Venise* (1915).

— Invincible Armada : Jean Merrien, *Les drames de la mer* (1961) ; H. Forneron, *Histoire de Philippe II* (1882).

— Les Dunes et les Quatre jours : Hennequin, *Biographie maritime* (1837) ; Jean Le Clerc, *Histoire des Provinces Unies des Pays-Bas* (1778).

— Agosta et Beveziers : Eugène Sue, *Jean Bart et Louis XIV, drames maritimes du XVII*e *siècle* ; Olivier Godlsmith, *Histoire d'Angleterre* (1840)

— La Chesapeake : Thomas Balch, *Les Français en Amérique pendant la Guerre de l'Indépendance* (1872).

— 13 Prairial : Pierre Blanchard, *Histoire des batailles, sièges, combats des Français depuis 1792 jusqu'en 1815* (1818) ; Paul Lécène, *Les marins de la République et de l'Empire* (1884).

— Horatio Nelson : Rear Admiral Lord Charles Beresford and H.W. Wilson, *Nelson and his time.*

— Fou Tché Ou : Un article de L. Garros dans *Historama* 1968.

— Tsou Shima : H.W. Wilson, *Les flottes de guerre au combat* (1929).

— Coronel et les Falkland, Le Jutland : Adolphe Laurens, *Précis d'histoire de la Guerre navale 1914-1918.*

— Atlantique, Pacifique, Midway, Leyte : La documentation est tellement abondante que nous ne saurions la citer en entier.

الفهــرس

المعارك البحرية الكبرى في التاريخ/تأليف روبير شوسوا، ترجمة عبد الرحمن حميده.
ـ ط١. ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨. ـ ٥٥٢ص: صور، خرائط؛ ١٨سم.

١ ـ ٩٠٤ ش و س م ٢ ـ ٣٥٩٫٤ ش و س م ٣ ـ العنوان ٤ ـ شوسوا
٥ ـ حميدة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٤٧/٣/١٩٨٨

رقم الإصدار ٣٢٣